الابداع الفكري

الأندلس

التاريخ المصور

د. طارق السويدان

تـأليـف : د. طارق محمد السويدان

مـديـر المشـروع : أحـمـد علي شـربجي

إعـداد وتنفـيـذ : أ. مـحـمـد حـسين

شـارك في الإعـداد : أنس عـبـدالله سـالم

مـراجعة وتدقيق لغوي : راتـب المصـري

تصـميم وإخـراج : أسـامـة أسـعـد الفـارس

طبـاعـة : مطابع المجموعة الدولية- الكويت

الرقم المعياري الدولي (ردمـك) : 9960-9584-2-6

رقم الإيداع : 1425 / 7361

متوفر لدينا بأشرطة صوتية

قرطبة للإنتاج الفني

هاتف: ٤٧٩١٣٢٣ - فاكس: ٤٧٣٠٠٥٥ - الرياض

الطبعة الأولى

ربيع أول ١٤٢٦هـ - ابريل (نيسان) ٢٠٠٥م



هاتف: ٢٤٠٤٨٥٤ - ٢٤٠٤٨٨٣ - فاكس: ٢٤٠٤٨٥٢ - ص.ب ٢٨٥٨٩ الصفاة 13146 الكويت

e-mail: info@ebdaa.ws - www.suwaidan.com

هذا الكتاب إهداء إلى...

إهداء

لكل قطرة دمع ذرفت حزناً على الأندلس الضائعة..

لكل جرح أصاب المسلمين على تراب الأندلس الحزينة..

لكل ذكرياتنا وتاريخنا المشرق في الأندلس المجيدة..

لكل بارقة أمل تشرق في قلوب المشتاقين لأندلسنا الحبيبة..

ولكل المتلهفين لإعادة أمجادنا والعاملين على نهضة أمتنا..

وإلى الأندلس الرائعة حقاً.. ولكم جميعاً أهدي هذا الكتاب..

د. طارق محمد السويدان

شكر خاص



إلى وجيه مكة المكرمة، المحسن الكبير..

الشيخ عبدالرحمن بن فقيه

وعائلته الكريمة، لمساهمتهم الطيبة في دعم طباعة هذا الكتاب، حباً منهم في تخليد تاريخ المسلمين العظيم في الأندلس حياً في القلوب، وليبقى شاهداً دائماً على الأمجاد الرائعة، ونسأله تعالى التوفيق والقبول لهم في الدنيا والآخرة ، وبارك لهم في أهلهم وأولادهم.

د. طارق محمد السويدان

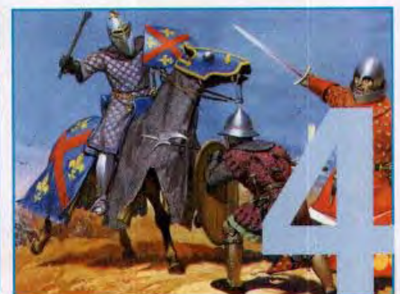
الفهرس العام











الفهرس التفصيلي

الفهرس التفصيلي



مــدخل وتقــديم

إن المتأمل في حاضر المسلمين اليوم، وما جعلهم يصلون إلى ما هم عليه من ضعف وفرقة يجده مشابهاً ومقارباً لحالهم يوم أن كانوا يتربعون على عرش الأندلس، فيرى نفس أسباب الهزيمة ونقاط الضعف وإهمال فرص الريادة والقوة والوحدة، مع اختلاف الجغرافيا والمسميات.

لهذا نضع هذه الدراسة الشاملة لتاريخ الأندلس بين يدي القراء علّها تنبه الغافل وتذكر العاقل وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت.

عملنا في الكتاب:

تسهيلاً على القارئ الكريم وحتى يستوعب الحقب والتطورات التي مرت بها الأندلس فقد قسمنا الكتاب إلى أربعة أبواب:

الباب الأول (الفتح الإسلامي): تكلمنا فيه عن أهداف وأسباب الفتوحات الإسلامية ثم بداية فتح بلاد المغرب بشكل عام والأندلس بشكل خاص ومن تولى إمارة الأندلس من قبل حكام دولة بني أمية.

الباب الثاني (الدولة الأموية في الأندلس): وسردنا فيه القصة العجيبة لعبد الرحمن الداخل كيف فر من ملاحقة العباسيين ثم دخل الأندلس وتولى إمارتها ثم من تولى بعده من سلالته الأموية، ثم ختمنا الباب بالحديث عن عهد الحاجب المنصور.

البابا الثالث (دويلات الطوائف وملوك المغرب): تحدثنا فيه عن تشتت الأندلس إلى دويلات وطوائف وتكلمنا عن أحداث ذلك العهد وملوكه، ثم انتقلنا إلى الحديث عن عهد المرابطين الذي وحد الأندلس بعد فرقته، ثم ختمنا الباب بالحديث عن عهد الموحدين وأمرائهم وتداخله مع تاريخ الأندلس حيث كان أمراء المغرب هم من يحكم الأندلس بعد عهد الطوائف.

الباب الرابع (نهاية الأندلس): أوردنا فيه النهاية المؤلمة لتلك الدولة التي جعل منها المسلمون حاضرة العالم ولؤلؤة الغرب، وتحدثنا عن الخيانات التي أدت إلى هذه النتيجة مع نهاية المسلمين فيها وما لحقهم من العار والمهانة والظلم بعد تغلب أعدائهم عليهم.

وقد وضعنا في نهاية كل فصل بعض الحقائق والعبر لأخذ الموعظة من مجريات الأحداث وكذلك وضعنا في نهاية كل باب تسلسلاً تاريخياً للأحداث تسهيلاً على القارىء، مع وضع خارطة مبين عليها أهم المعارك والأحداث.

كل هذا ضمن تسلسل تاريخي كامل وشامل وقراءة واعية للأحداث، وأظنه أول كتاب يتحدث عن تاريخ الأندلس بهذا الشمول وهذا الترتيب، لعل الله يجعل فيه النفع والخير وما توفيقي إلا بالله، والحمد لله أولاً وآخراً.

التاريخ دروس وعبر

تعيش الأندلس ومثلها كل أرض المسلمين في شعور كل مسلم حقاً، يتحرق شوقاً إليها، وينتظر يوما يأتي ليجمع شمل المسلمين، ويوحد أرضهم، ويحرر ديارهم التي ما زال بعضها تناديهم: أين المسلمون؟!

مر أحدهم بالأندلس، وسماها الفردوس المفقود فقال متحرقاً مشتاقاً:

نَزلتُ شطَّك بعدَ البين ولهاناً ... فذقتُ فيك من التَّبريح ألوانا

وسرتُ فيك غريباً ضلَّ سامرُهُ ... داراً وشوقاً وأحباباً وإخوانا

فلا اللسانُ لسانُ العربِ نعرفُهُ ... ولا الزمانُ كما كنا وما كانا

ولا الخمائلُ تشجينا بلابلُها ... ولا النخيلُ سَقَاه الطلُّ يلقانا

ولا المساجدُ يسعى في مآذنها ... مع العشيّاتِ صوتُ الله ريّانا

وقال أحد العلماء المسلمين في العصر الحديث: سل التاريخ: هل أفل نجم حضارتنا إلا يوم بزغت نجوم المغنّين والمغنّيات.

أظنه قال هذه الحكمة حين رأى تاريخ الأندلس شريطاً من الذكريات مصوراً أيام عز وسؤدد وحضارة، ومن ثمّ أيام سكون وارتكاس إلى زينة الحياة الدنيا وانغماس أمراء الأندلس في الألقاب والرتب، يعتبرونها مغنماً تشاركهم العصبية العمياء، قال ابن خفاجة الأندلسي يصف هذا الوضع:

مما يزهدني في حبِّ أندلسٍ ... ألقابُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها ... كالهرِّ يحكي انتفاخاً صَولَةَ الأسدِ

ثم جاءت الخلافات بينهم فأوصلت إلى الحضيض، ثم إلى التردي في مكان سحيق، كما صور شاعر الأندلس:

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمَدٍ ... إن كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

والتاريخ - تاريخ أي أمة - سجل أحداثٍ، منه تتبين الأمة عوامل النجاح، وفيه تلتمس أسباب الهزائم. وأمةٌ بلا تاريخ أمةٌ بلا مستقبل، ومن لم يتّعظْ بالتاريخ صفعه التاريخ. ولئن كان الوضع الحالي للمسلمين لا يسر فقد ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلوا لأعدائهم، ولا يزالون يذوقون الويل منهم، ففي تاريخ كل أمة هناتٌ وهزائم، ولكن توجد هناك حركات أصيلة أيضاً، حفنة قليلة من المؤمنين قد تحقق نتائجَ ضخمة، فتعيد الأمة إلى سابق عهدها إلى العزّ والأمجاد.

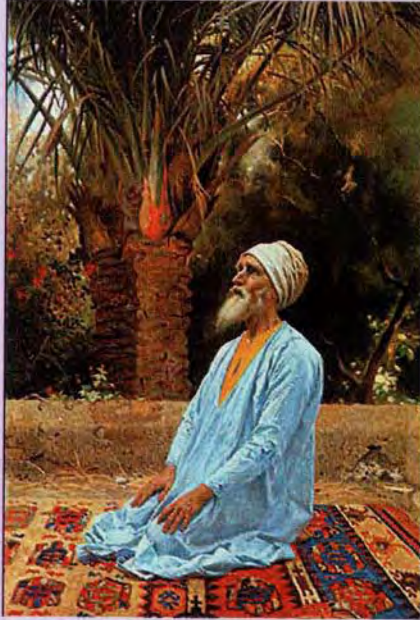




لا تقل إني وحيدٌ مفردٌ رُبَّ فردٍ عزَّ قوماً أو أذلّ

وفي التاريخ شواهد كثيرة جداً. يقول تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ (الأنبياء ١٠٥).

والنية الكامنة لا تكفي، بل لا بد من التجربة العملية والاستعداد الدائم، وإن في الحياة لسنناً وأسباباً، على الفرد والأمة أن تأخذ بها وتستعد استعداداً صادقاً لبلوغ الغايات والأهداف، ﴿ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله﴾ (هود ١٢٣).



حديث القرآن الكريم عن التاريخ

ولا تكاد تخلو سورة من سور القرآن الكريم إلا و تعرض قصة تاريخية؛ تتصارع فيها القوى، وتتنافس الطاقات في تيار الحياة، وتموج بالناس، ثم تركز فيها على الاعتبار منها، وهل يعتبر منها إلا أولو الأبصار؟

هم الذين يتزودون بتجارب البشرية، يأخذون من التجارب العالية، ويتركون الدانية،﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران ١٣٩).

وهذا مثل واحد من كتابه العزيز: يقول تعالى: ﴿آلم، غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ (الروم ١-٥).

وتاريخ الحروب فرع من فروع علم التاريخ، وكل مؤرخ أو كاتب يفسره من وجهة نظره، فرب قوم هيؤوا من سبل الحياة أكملَها، وبنوا الترسانات الضخمة من الأعتدة والعتاد، ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾ (فصلت ١٥).

ورب قوم قال حاكمهم لهم: ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ (غافر ٢٩)

ورب قوم عتوا: ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ (الحشر ٢)، تلك أمم نسيت قدرة الله تعالى.

الأمة المسلمة تتعلم من التاريخ

ولكن الأمة المسلمة - وهي في مجرى التاريخ -لا تنسى قط:

١-استعداداتها عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ (الأنفال٦٠).

٢-قوةَ الله التي تتجلى بمظاهر طبيعية أو كونية من سيول وأعاصير وأوبئة وقحط، ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر﴾ (القمر ١٩) - ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات﴾ (الأعراف١٣٣).

٣-قوة الله الغيبية بإلقاء الرعب و الوهن في القلوب بحب الدنيا وكراهية الموت: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله﴾ (آل عمران ١٥١).

٤-إرادة الله المطلقة بقوله سبحانه: كُن، ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ (الأنبياء ٢٣)، وعند ذلك لا تربط النتائج بالأسباب، فتعمل متكلة على الله حق التوكل.

الحديث عن الأندلس

وعلى هذه الصفحات القادمة سنكتب شيئاً عن الأندلس، وصفها بعضهم بالمفقود، ونعتها آخرون بالسقوط، والآخرون بغروب الأندلس، صفحات من التاريخ الأندلسي بما فيه من عزة وأمجاد، وبما يتضمن من مرارات وضياع، لعلنا أن نعيد الذكرى، ونعرف ماضينا فنتعظ، فنحن أولى الناس بالأندلس.

ويكاد في عصرنا معظم الناس وبخاصة المثقفون منهم يجهلون تاريخ الإسلام و المسلمين، فيجهلون سيرة المصطفىﷺ، ويجهلون سيرة الأفذاذ من مشاهير المسلمين، ولا يكادون يسمعون عنهم إلا أسماء، فلو سألت أكثرهم عن النعمان بن مقرن المزني لجهلوه، ولو سألتهم عن معركة نهاوند التي تضاهي القادسية لوّوا رؤوسهم عجباً! أو سألت عن عقبة بن نافع الفهري، أو الحاجب المنصور لعجبت من الجهل والصمت وقلة المعرفة أيضاً.

وبالعكس يكاد يحفظ عن ظهر قلب عن نابليون وحروبه، وكازانوفا ومغامراته، وعن الأميرال نلسن وأساطيله... بل يحفظ نجوم كرة القدم، ونجوم الرقص والغناء.





فقدنا عزنا لما رأينا　　　يسود بلادنا الرقصُ الغناء

ولعل كلمة خيانة المثقفين أن تكون أبلغ تعبير عن حالتنا التي تهب عليها رياح العولمة العاتية التي تريد أن تدمر كل شيء يخص أمتنا، كما قال الشاعر:

أنا من أمة أفاقت على العزّ　　　وأغفت مغموسة بالهوان

و وبإعادة هذه الذكرى فإننا نرجو أن توقظ الهمم، وتثير العواطف، علّ أن تدبّ في النفوس شعور الآباء والأجداد، وليعود للأمة مثلُ ماضيها المجيد، وعسى أن يظهر جيل مُؤسَّس على ما أسس الآباء، كما قال الشاعر:

فمنا الوليد ومنا الرشيد　　　فلم لا نسود ولم لا نشيد

وليست دراسة التاريخ للهو و التخدير، وإنما تُؤخذ الدنيا غِلابا، ونأخذ نحن منها العبر والأحكام.

هذي الحياة وفي التاريخ موعظة　　　إن ينسها غافل يُوجعْه بالضرب

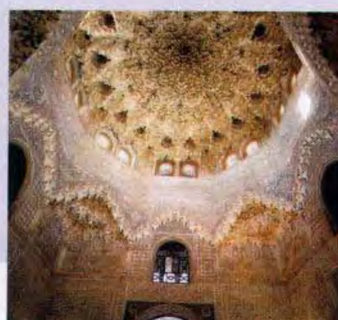
وإن هذه تذكرة ﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا﴾ (الدهر٢٩)، والعاقبة دائماً للشعور المستكن في قلب المسلم ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون ٨).

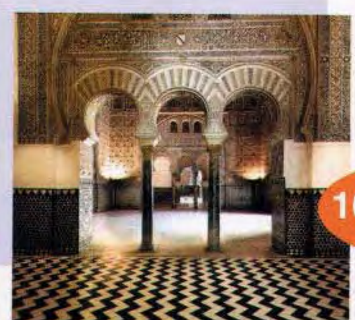
نعم، تتعاظم الحاجة للتعلم من صفحات التاريخ، وفي كل مرة تتعاظم الأخطار المحيطة بالأمة. حيث تجد في تشابه الظروف ما يعينها على الخروج من المآزق التي تجابهها، والانتصار على ذاتها وعلى غيرها، وقد أحيط بنا.

ماذا أعدد والأقوام لو أممٌ　　　شتّى غوتْ فعلينا الكلُّ في حزب









الباب الأول

الفتح الإسلامي



الفصل الأول

مقدمات الفتح

الفصل الثاني

موسى وطارق يفتحان الأندلس

الفصل الثالث

عهد الولاة



الباب الأول

الفتح الإسلامي



الفصل الأول

مقدمات الفتح

أولاً مدخل إلى الفتوحات الإسلامية:

دراسة التاريخ العسكري والحروب بشكل خاص ضرورة لكل قائد سياسي أو عسكري فلا بد أن يعرفها واعياً مستفيداً فالتاريخ يعيد نفسه وإنما تختلف الألوان والمظاهر، فالأرض هي الأرض، والإنسان هو الإنسان، وحقيقة مجريات الحوادث في كل زمان واحدة، ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ (البقرة ٢٥١).

لقد كادت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، ولولا أنّ في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة لتنطلق الطاقات كلها، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذخورة، وتظل أبداً يقظة عاملة مستنبطة لذخائر الأرض مستخدمة قواها، وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجردة، تعرف الحق الذي بينه الله لها.

خصمانِ في ربهم شأنُ الصراعِ هنا ... تلك الحقيقةُ ليس الماءُ والخبزُ
منذُ الخليقةِ قادَ الناسَ دينُهمُ ... وخابَ مَن ربُّه الطاغوتُ والكنزُ

وكم في التاريخ موجات من الحروب لم تكن تحمل الحق، وإنما أشعلتها الفتن والأهواء، حملت الخراب إلى العالم، وما الحربان العالميتان ببعيدتين عن ذاكرة الناس، وكذلك الرومان قد حملوا الفساد إلى الأراضي التي دخلوها، ولا تخفى حملات الصليبيين والمغول وآثارها على العالم الإسلامي، وما الاستعمار الحديث ثم العولمة إلا امتداد للفساد والاستكبار في الأرض بغير الحق.



ظلم الصليبين واستعبادهم للناس وفرض الأتاوات عليهم بغير وجه حق قبل وصول الإسلام إلى الأندلس

نشر النور

وما كان المسلمون في جميع الجبهات متفوقين على الأعداء بالعتاد والرجال، ولا كانوا ذوي حروب ضخمة متوارثة، إنما كانوا أصحاب عقيدة، ورجال مبادئ وعقيدة، ثم ما كانت مقومات الانتصار هي المعتمد ولا كان الانتصار هو الغاية، بل كانت غايتهم فتح القلوب وإزالة الحجب الكثيفة عنها ليصل إلى شغافها هدى الله سبحانه. وأن لا يقفوا بفتحهم إلا حيث تعوقهم صحراء أو بحر أو مانع طبيعي لفترة من الزمن.



أما الفتوحات الإسلامية فتختصر بجملة واحدة: هي إزالة الحواجز التي تحول دون وصول النور الرباني إلى عامة الناس، ولتكون كلمة الله هي العليا، ولتكون العبودية لله خالق الناس، ولتخرج الناس من عبودية البشر للبشر، ولعمارة الأرض بعد الخضوع لله الذي استخلف الناس عليها. ﴿هو الذي أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (هود ٦١) من أجل استخدام القوانين والنواميس الأرضية لتطوير الحياة على الأرض، ومواصلة العمران وتحقيق الرفاهية والعدل دون النظر إلى لون أو عرق أو نسب.

لذلك نشر الفتح الإسلامي النور للعالمين، وبين لهم الغاية الأساسية لوجودهم ومهمتهم في الكون، فكانت الفتوحات التي فتحت الحدود أمام نور الله ليأخذ طريقه إلى القلوب فكانت في حقيقتها فتحاً للنفوس والقلوب قبل فتح البلدان.

هذا رسول الله ﷺ يفرح قلبه الكبير بسورة الفتح، بالفتح المبين، وبالمغفرة الشاملة، وبالنعمة التامة، وبالهداية إلى صراط الله المستقيم، وبالنصر العزيز الكريم، وفرح برضى الله عن المؤمنين، فقال عليه الصلاة والسلام: "أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس" (أخرجه البخاري ومسلم والترمذي) .

وكان هذا الفتح فتحاً في الدعوة، فأمن الناس بعضهم بعضاً، وسمع من لم يسمع بالإسلام من قبل، وكان فتحاً في الأرض بعد ذلك إذ فتحت حصون خيبر، وكان فتحاً بين المسلمين والمشركين في قريش وسائر المشركين من حولها، وعمّ الإسلام الجزيرة بعده.

وتوفي رسول الله ﷺ في الثاني عشر من شهر ربيع الأول ١١ للهجرة، وولي أبو بكر الخلافة رضي الله عنه، فارتدت معظم القبائل في شبه الجزيرة العربية، وكانت حروب الردة التي عمت الجزيرة العربية التي انتهت في كل الجبهات بترسيخ الإسلام، وأظهرت قيادات جديدة، ودلت على طاقات كامنة، ولعلها كانت تمهيداً للفتوحات. واستمر الفتح على جبهتي فارس والروم، وانتهت دولة فارس، ومزق الله ملك آل ساسان، وفتحت أجزاء كبيرة من الإمبراطورية الرومانية، وعم الفتح حتى وصل الصين وعبر حدود ما وراء النهر، واجتاز جبال طوروس برجال يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة في كل الجبهات. في الشرق والشمال. وفتحت مصر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم استمرت الفتوحات زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه ومن بعده. ومن ثم زمن التابعين الذين هم خير القرون بعد قرن الصحابة.

ثانياً فـــتح المغــــرب العــــربي

عقبة بن نافع الفهري

خضع المغرب العربي للإسلام لكنه لم يستقر فيه، وظل أهله ينقضون عليه مرات ثم يعودون إذا جاءتهم الجنود الإسلامية. ومن أشهر القواد الذين كان لهم دور كبير في فتحه: عقبة بن نافع الفهري، وهو تابعي جليل يروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ويحتل موقعاً أثيراً في قلوب المسلمين، فهو المؤمن المجاهد في سبيل الله ونشر رسالته، ما وهن ولا ضعف في مواجهة الشدائد والصعاب، نذر حياته وباع نفسه في سبيل الله. وقد توغل توغلاً شديداً في المغرب حتى وصل شاطئ المحيط الأطلسي الذي كان يسمى بحر الظلمات، وخاضه بفرسه حتى بلغ نحره فقال: اللهم اشهد... أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت أقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد أحد من دونك.

ولما أراد العودة إلى عاصمة إفريقية "القيروان" اختار طريق الأطلس الصحراوي، وقسّم جنوده حين وصل إلى "طبنة"، ولم يكن قد بقي بينه وبين القيروان أكثر من ثمانية أيام وأمرهم أن يسيروا فوجاً فوجاً، فانتقض عليه البربر والرومان فكمنوا له في منطقة "تهوذة" وهي مدينة في جنوب جبال الأوراس، إذ كان في ثلاثمائة فارس فقط، فقتلوا جميعاً بعد قتالهم قتال الأبطال، وظل البربر بعد ذلك بين الخضوع للإسلام والثورة عليه كلما سنحت لهم بادرة، إلى أن ولي عليها رجل عظيم وقائد محنك هو:

استغرق فتح جميع بلاد المغرب ما يقارب ٧٠ عاماً من ٢٣هـ إلى ٨٩هـ



موسى بن نصير

كان والده نصير من بين أربعين غلاماً سباهم خالد بن الوليد رضي الله عنه في كنيسة عين التمر على شاطئ الفرات عام ١٢ للهجرة بعد أن ضرب أعناق أهل الحصن أجمعين. وكان على هؤلاء الغلمان باب مغلق فكسره عنهم، وأجابوه بأنهم رهائن لدى أهل عين التمر، فاعتبرهم خالد رضي الله عنه من السبي وقسمهم على أهل البلاء من جنده. وكان منهم أيضاً سيرين والد محمد بن سيرين، ويسار جد محمد بن إسحاق كاتب السيرة (المغازي).

أسرته

أعتق بنو أمية نصيراً، فعمل في شرطة معاوية رضي الله عنه، وكان صاحب همة وعطاء حتى صار من قواد جيش معاوية رضي الله عنه وحرسه.

ولما حصلت الفتنة بين علي ومعاوية رضي الله عنهما رفض أن يقاتل علياً ابن عم النبي ﷺ ، ولما استتبّ الأمر لمعاوية رضي الله عنه عام الجماعة قال له يعاتبه لعدم مشاركته في قتال علي رضي الله عنه: ما منعك من الخروج معي ولي عندك يد لم تكافئني عليها؟، فقال كلمة عظيمة معبّرة تدل على وعيه ورسوخ الإيمان في قلبه: لم يمكن أن أشكرك بكفري من هو أولى بشكري منك. فقال له معاوية رضي الله عنه: من هذا الذي هو أولى بالشكر مني؟ وهو يرى أنه صاحب الفضل عليه، فأجابه نصير: الله سبحانه وتعالى، فأطرق معاوية رضي الله عنه رأسه، وقال: أستغفر الله، وعفا عنه وسامحه ورضي عنه.





نشأة موسى بن نصير

ولد موسى بن نصير في الشام عام ١٩ للهجرة في خلافة عمر رضي الله عنه، وعاش مع أولاد الخلفاء، شارك بعد أن تعلم فنون القتال واستخدام السلاح في فتح "قبرص"، وكان أحد قواد الأسطول الإسلامي، وعندما حصل الصراع بين الأمويين أنفسهم، وبينهم وبين ابن الزبير بعد موت معاوية رضي الله عنه، بايع الناس في أقطار الإسلام ابن الزبير، وكذلك الشام، فلم ير أي حرج في مبايعة ابن الزبير مع الضحاك بن قيس الفهري، وزفر بن الحارث القيسي، وكذلك النعمان بن بشير الأنصاري، وكلهم كانوا من أمراء الأمويين سابقاً، واستطاع الأمويون ومن ساندهم من القبائل وبخاصة قبيلة كلب اليمانية أن يجمعوا أمرهم على مروان بن الحكم، وأن يسيروا إلى الجابية ثم إلى مرج راهط لكي يقنعوا الضحاك وجماعته على مبايعة الأمويين إلا أنه أبى ذلك، فوقع القتال بين الطرفين، ودارت الدائرة على أنصار ابن الزبير وفرّ موسى كما فرّ الضحاك وغيره، ولجأ إلى عبد العزيز بن مروان والي مصر الذي عفا عنه إذ اعتبره مجتهداً في أمره وفي هذه المسألة لمبايعة ابن الزبير، وقرّبه منه، فشكر له موسى هذا الأمر وكان عاملاً كريماً شجاعاً ورعاً تقياً لله تعالى، وكان من رجال العلم حزماً ورأياً وهمة ونبلاً وشجاعة وإقداماً كما ذكر عنه من ترجم له.



عام ٨٦ هـ
٧٠٥ م

موسى بن نصير والي أفريقية

ولاه عبد العزيز بن مروان (والي مصر) إفريقية - ويطلق هذا الاسم على الشمال الإفريقي ليبية وتونس والجزائر والمغرب - عدا مصر، وكانت منطقة تغلي بالقلاقل، وتثور الاضطرابات فيها من فترة لأخرى، فوجد أن ذلك يعود لسببين رئيسيين:

١- كانت الفتوحات في هذه المنطقة تمتد بسرعة ولا يكفي عدد المسلمين لضبط المناطق المفتوحة لقلة عددهم، فقال موسى كلمة معبرة عن سابقه عقبة بن نافع: رحمه الله، كيف ينطلق ولم يحم ظهره؟ أما كان معه رجل بصير؟.

٢- أما السبب الثاني: رأى أن الإسلام لم يكن قد تمكن في قلوب الناس هناك، وما زال البربر ينتقضون عليه كلما سنحت لهم فرصة. فاتبع سياسة جديدة؛ ذلك أنه لا يتابع الفتح من منطقة إلى أخرى قبل أن تستقر النفوس للخضوع لهذا الدين الجديد، وعمل على أن يمتلك الإسلام قلوب "البربر"، فبث بينهم العلماء والدعاة بدءاً من سنة ٨٦ للهجرة، وهنا ملاحظة جديرة بالاهتمام لدى الدارسين وهي أن الانتشار الواسع للإسلام في العالم على هذه الرقعة الكبيرة منه لم يكن إلا في فترة وجيزة جداً بعد موت الرسول ﷺ بستة وسبعين عاماً فقط.

ولما دخلوا في دين الله أفواجاً، وصارت غالبيتهم جنداً للإسلام حقاً، قاتل بهم وبغيرهم الفئة التي لا تريد أن تخضع وتطغى على الناس، فلاحقهم موسى في الجبال وكاد أن يفنيهم - كما قيل - ولما وصل بخيوله إلى منطقة القبائل التي غدرت بعقبة بن نافع، قاتلهم قتالاً شديداً وانهزم البربر من أهل "سجومة"، ففتح موسى المدينة وقتل ملوكها، وأمر أولاد عقبة الثلاثة "عياضاً وعثمان وأبا عبيدة" أن يأخذوا حقهم ممن قتلوا أباهم، فقتلوا من أهل "سجومة" من البربر ستمائة رجل من كبارهم، ثم قال لهم موسى كفّوا، فكفوا. وقال عياض بن عقبة: أما والله لو تركني ما أسكت عنهم وفيهم عين تطرف، وبزوالها سقط الحاجز المعنوي والمادي الذي يصد الناس عن دين الله، ودخلت الآلاف إلى الإسلام وكان من بين الذين اعتنقوه قائد عظيم - سيكون له شأن في المستقبل القريب - من قادة البربر هو طارق بن زياد رحمه الله.

موسى بن نصير

١٩هـ	ولد في الشام وهو من التابعين.
-	ولاه معاوية البحر.
-	بايع ابن الزبير بعد موت معاوية لكن ما لبث أن فرق الأمويين جمعهم فالتجأ إلى عبدالعزيز بن مروان.
-	صار وزيراً لعبد العزيز بن مروان والي مصر.
٨٦هـ	تولى شمال غرب إفريقية.
٩٢هـ	يعد المخطط الأول لفتح لأندلس.
٩٢هـ	أرسل أول سرية إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد ففتح جنوبها.
٩٣هـ	أعاد إخضاع جنوب الأندلس بعد تمردها وفتح عدة مدن أخرى.
-	اشتهر بصلاحه وحبه للجهاد.
٩٧هـ	توفي بالمدينة المنورة.



جبل طارق: نقطة استراتيجية وأساسية بالنسبة للساحل الإسباني الذي يراقب العبور من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي.



إخضاع شمال أفريقيا

وأخـضع مـوسى الشـمـال الإفـريقي كله وخـضـعت له بذلك قبائل البربر. تلك التي أعلنت تمردها بعد أن عـاهدت المسلمين. ولم تبق إلا مدينتان هما طنجة وسبتة في القسم الشمـالي الغربي من المغرب، تقـابلان إسـبـانيـة، ويفـصل بينهما وبينها المضيق فقط.

أرسل موسى قوة ذاتية أصيلة من الفـئـة المؤمنة الجـديدة "البربر" عددها"٩ آلاف" بقيادة طارق بن زياد لفتح طنجة، وتم فتحها في مدة وجيزة.

وقـاد هو بنفسـه جنداً لفـتح سبتة التي كان يحكمها حاكم من قـبل "غَـيْطَشَـة" ملك إسـبـانيـة يدعى "يوليـان" أو "جـوليـان"، وكـانت مـدينة محصنة بأسوارها الضخمة، واستـمـات أهلوها في الدفـاع عنها، لذلك امتنعت من الفتح، ففك مـوسى الحـصار عنهـا وولّى طارق بن زياد أمـيـراً على تلك المنطقـة "طنجـة" ومـا حـولهـا، وعـاد إلى عـاصـمـة إفريقية "القيروان".

المسلمون يفتحون مدينة طنجة

ثالثاً مقدمات فتح الأندلس

١ التمكن في البحر

أخذ موسى بن نصير - رحمه الله - يفكر في فتح الأندلس، فرأى أنه يمكن للرومان والأسبان "أهل الأندلس حينذاك القوط وغيرهم" أن يهاجموا الشمال الإفريقي في كل وقت يريدون، لأنهم يملكون الأساطيل البحرية، وأن لهم قوى بحرية كبيرة ليس للمسلمين ما يدفعها أو يواجهها. ففكر بتخطيط "استراتيجي" بعيد النظر فلم يستعجل، وقرر إنشاء قوة بحرية للمسلمين لتستطيع صد غارات الروم والأندلسيين، فأسس قاعدة بحرية في تونس، وجهز في مدة قليلة ما يقارب المائة سفينة حربية.

موسى بن نصير على مشارف الأندلس



عام ٨٥هـ
٧٠٤م

غزوة الأشراف

وأراد بعد ذلك أن يكون هو سيد البحر بلا منازع في منطقة الشمال الإفريقي، فأعلن أنه يريد غزو البحر، وتجمع حوله الناس من كل صوب وعلى رأسهم الأشراف الذين وفدوا إليه في هذا النوع الجديد من جند المسلمين الذين يحملون العلم والمعرفة الإسلامية إلى العالمين، ولكثرة عدد الأشراف سميت الغزوة باسمهم: "غزوة الأشراف"، لكنه رأى أن لا يخرج بنفسه فأرسل ابنه "عبد الله". واستطاعت هذه الحملة إخضاع "صقلية" لحكم الإسلام.



المسلمين ينزلون من البحر لفتح سردينية

فتح سردينية

وأرسل حملة أخرى بعد ذلك بقيادة "عطاء بن أبي نافع الهذلي" لفتح "سردينية" وهي جزيرة كبيرة في البحر المتوسط، تقع شمال "صقلية" فافتتحها، ولما أراد العودة إلى الشمال الإفريقي نصحه موسى ألا يرجع في ذلك الوقت إذ كان موسم هبوب الرياح العاتية، ونشوء العواصف، لكنه لم يتبع النصيحة - وهذه من بعض الأخطاء التي يقع فيها القواد والناس - فغرق في البحر وصحبه رحمهم الله.

جزر البليار



وأرسل بعد فترة ابنه عبد الله لفتح سردينية مرة ثانية، وليبسط سيطرة المسلمين على جزر البليار في غربها، وهي ثلاث جزر كبيرة تقع شرق الأندلس وتدعى جزر البليار الشرقية، وتم بهذا الفتح استقرار المنطقة، وخضع البحر بجزره وشواطئه لسلطان المسلمين.

٢ جغرافية الأندلس



منظر عام من أرض الأندلس

يشبه شكل الأندلس إلى حد ما من الناحية الطبيعية والموقع شكل المربع، وتقع زاوية تنحدر نحو الجنوب الغربي تسمى منطقة جبل طارق. وفيها أنهار كثيرة وعديدة وتتميز بوجود خمسة أنهار كبيرة منها نهر "دويرة" ونهر "شُقر"، ونهر "الوادي الكبير".

وتعلو سطح الأندلس سلاسل جبلية عديدة أشهرها جبال الثلج في الجنوب، ومتوسط ارتفاعها ٣,٥ كم.

كما تعلو في الشمال جبال البيرينيه ويسميها العرب جبال "البرانس" ويبلغ متوسط ارتفاعها ٣,٥كم أيضاً إلا أنها منيعة جداً، وليس فيها ممرات تذكر فلا تسمح بمرور قوات عسكرية كمجموعات كبيرة إلا ممر واحد، ولذلك كانت هذه السلسلة سداً منيعاً لفرنسة في الجنوب من جهة إسبانية.

ويفصل بحر الزقاق "مضيق جبل طارق" الأندلس عن الشمال الإفريقي، وهو بحر صغير وضيق عرضه ١٣كم، ويستطيع أن يرى الناظر الشط الأوربي من المغرب بالعين المجردة.

من أقوال العرب في وصف الأندلس: الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جباياتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها.



موسى بن نصير

طارق

كتاب أخبار مجمعة ويبدو من الكتابة الواضحة قصة الفتوحات لموسى وطارق وعبد الرحمن الداخل

٣ سكان الأندلس

سكنها الروم منذ عام ٢٠١ ق.م، وكان لقب الروم يطلقه العرب على كل الأجناس التي كانت تسكن أوربة.

وقد هاجمت أوربة بدءاً من القرن الخامس الميلادي قبائل من الشمال تعرف باسم قبائل الفاندال، فأشاعت الذعر والرعب في أوربة كلها، وكانت همجية دمرت كل ما كان من حضارة الروم، فأطبق على أوربة ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً، يظلم الكبير فيه الصغير، ويأكل القوي فيه الضعيف، ويتسابق الناس في اللهو والفجور، ويتنافسون في الجاه والأموال وأسباب الترف والنعيم، حتى وصلت هذه القبائل إلى الأندلس واستقرت فيها.

أطلق عليها اسم "فاندلوسيا" لأن قبائل الفاندال قد بلغتها، ومن هذا الاسم اختصر العرب كلمة "الأندلس".



بعض الآثار الرومانية الباقية في مالقة وخلفها قلعة مالقة التي بناها المسلمون

القوط

ثم استطاعت قبيلة أخرى تدعى "القوط" وهي قبيلة همجية كسابقتها جاءت من ألمانية، وسيطرت على الأندلس، وأقامت حضارة استمدت من حضارة الرومان، وحكمت الأندلس ثلاثة قرون حتى أوائل القرن السادس الميلادي، وبقيت تتمتع بقوة عسكرية مدربة وقوية، تقارع الأحداث، وتقف للمواجهات، وتوالى على الحكم ست وثلاثون ملكاً منهم.



أحد المدرجات الرومانية القديمة في إشبيلية

حياة بائسة

وكانت حالة الأندلس وهي تعيش حياة بائسة، زيادة على تسلط الكنيسة و سطوتها، كما كانت حالة الشعوب الأوربية، تستخدم النعرات بين الناس وإثارة الفتن بين مختلف فرق النصارى مصداق قوله تعالى: ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ (المائدة ١٤)، وتؤجج الشعور الديني الكامن في فطرة الإنسان للقيام بالحروب كالصليبية مثلاً.

كانت الأندلس تشكو الفساد الاجتماعي وعدم الاستقرار، وقد قسم الشعب إلى طبقات عديدة، كطبقة الحكام المترفين والأسرة المالكة، تملك كل شيء، ولها كل شيء، بينما على طبقة سواد الشعب كل الواجبات، ويطلب منها تنفيذ كل أهواء أهل القوة والبطش الذين يستغلون الشعب الذي هو في الشقاء أصلاً لسوء الأحوال المعيشية، فيثيرون الصراع المستمر بين الطبقات ذاتها، وهي حال أوربة بشكل عام.



إحدى القناطر الرومانية على أحد الأنهار الأندلسية



قنطرة رومانية مرممة في عهد فيليب الخامس

٤ أشهر المدن الأندلسية

في منطقـــة الجـــزيـرة الخـضـراء وهي منطقـة الجنوب التي تقع شـمـال جـــبـل طارق مدينة "إشبيلية"، وإلى الشـــمـــال الشـرقي منهـا تقـع مـــدينـة "قــرطبــة"، وإلى الشرق منها تقع "غرناطة".

أمـا العـاصـمـة "طليطلة" فـتقع فـــي وســـط الأندلس، وهنـاك مدن كثيرة أيضاً منهـا "سرقسطة" في شـمـال شـرق الأندلس قـريبـة من حدود فرنسة، وتقـع "لـيـــون" عاصمة منطقـة الشـمـال الغـربي، أمـا "جـيليـقـيـة" فـتقع في أقصى شمال الأندلس.



أشهر المدن الأندلسية

الباب الأول

الفتح الإسلامي



الفصل الثاني

موسى وطارق يفتحان الأندلس

أولاً - مراسلات موسى بن نصير

ثانياً - بدء الفتح وأعمال طارق بن زياد

ثالثاً - توجه موسى بن نصير للأندلس

رابعاً - التحرك نحو فتح الشمال

خامساً - عودة موسى وطارق إلى دمشق

أولاً مراسلات موسى بن نصير

مراسلات الوالي موسى بن نصير مع الخليفة الوليد

بعد أن أرسى موسى بن نصير ومن معه الإسلام في شمال إفريقية، تطلع إلى ما وراء المضيق "بحر الزقاق"، فأرسل إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق يستأذنه في اقتحام الأندلس، فكتب إليه الوليد - رحمه الله - أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، لم يكن المسلمون قد أصبحوا أمة بحرية بعد، ولم يكونوا قد مارسوا عملياً غزو البحار إلى أمد طويل، لأنهم أبطال البر والصحارى، لذلك لم يأذن الخليفة له خوفاً عليهم.

لكن موسى بن نصير أقنع الخليفة بأنه ليس ببحر زخّار، فأرسل إليه قائلاً: وإن كان كذلك فلا بد من تجربته بالسرايا.



مراسلات المسلمين

أدى طريف مهمته بنجاح، وجمع المعلومات عن أوضاع الأندلس، وقدم تقريراً عملياً بأن الأوان قد حان للفتح الكبير.



طريف بن مالك أول من يطأ الأندلس

وبعد اطمئنان الخليفة وموسى بن نصير بنتيجة المراسلات التي تمت بينهما، أرسل سرية استطلاعية بقيادة طريف بن مالك رحمه الله بأربعمائة مجاهد تقلهم أربعة مراكب فقط، في رمضان عام ٩١للهجرة، والتف حول الجبال ونزل بجزيرة - قرب الجزيرة الخضراء - تحمل اسمه، فهو أول مسلم من الشمال الإفريقي تطأ قدماه أرض الأندلس.

ماذا كان في الأندلس؟

مات "أخيكا" ملك إسبانية حوالي ٧٠٠م، وتولى الملك بعده ابنه "غَيْطَشَة"، وقبل الفتح بسنة تقريباً قام أحد قواد الجيش ويدعى لذريق - واسمه في لغتهم "رودريكو" - بالاستيلاء على السلطة، وقتل غيطشة في الصراع لاستعادة الحكم، وفرّ أبناؤه ليجمعوا أنصارهم إلى شمال الأندلس وبدؤوا يثورون ضد الحكم المستبد الجديد، ولكن أحد أبناء الملك السابق التجأ إلى "يوليان" حاكم سبتة في الشمال الإفريقي الذي كان من أنصار والده. ولما تحرك "لذريق " نحو الشمال للقضاء على أعوان الملك وأبنائه، وجد الابن الذي في سبتة مع حاكمها "يوليان" الفرصة المواتية للانتقام من المغتصب إذ رأيا أنهما لا يستطيعان عمل أي شيء بمفردهما فلا بد من دعم جيش قوي لهما.



يوليان" يعرض على موسى بن نصير أن يسلمه مدينة سبتة!...

رأى موسى بن نصير هذا العرض بخساً فليدفع المزارع لهم، لينال هو شرف الفتح - فتح الأندلس - بالإضافة إلى تسليم مدينة "سبتة" التي لم يستطع فتحها من قبل، أليس هذا عرضاً مغرياً؟!

الاتصال بموسى بن نصير

كان "يوليان" هو البادئ إذ عرض على موسى بن نصير أن يسلمه مدينة سبتة ويترك له أن يفتح من الأندلس ما يشاء، ولما استفهم موسى منه ماذا يريد مقابل ذلك منه؟ أجابه ابن "غيطشة": نحن لا نطمع في ملك، وإنما نطمع إن تمّ لك الأمر أن تعيد لنا مزارع والدنا الملك فقد كانت له ألف مزرعة ضخمة موزعة على أنحاء الأندلس. فهذه هي نفوسهم، همهم المال وهم أحرص الناس على حياةٍ وإن كانت ذليلة،

وكما قال الشاعر:

من يَهُن يسهل الهوانُ عليه
ما لجرحٍ بميّتٍ إيلامُ

ثانياً بدء الفتح وأعمال طارق بن زياد



الجيش الأول بقيادة طارق بن زياد

هيأ موسى بن نصير جيشاً قوامه سبعة آلاف مجاهد جلّهم من البربر المسلمين وأمّر عليهم طارق بن زياد سنة ٩٢ للهجرة.

وطلع موكب النور، ولا يحتاج النور إلى قوة قاهرة، ولا إلى جيوش جرارة، ولا أعتدة مدمّرة، ولا إلى ذهب يلمع، وإنما يحتاج -إن صح التعبير- إلى نوعية فرد يحب الموت لإعلاء كلمة الله، بل يرى أن الحياة تبدأ عندما يسقط أحدهم شهيداً فيقول: فزتُ وربِّ الكعبة.

وفردٌ إلى فردٍ إلى فردٍ يؤسسون جنداً يمثلون قدر الله في الأرض، ومن يقف أمام قدر الله؟! ومن يصده؟!

وهكذا كان المسلمون في فتوحاتهم على جميع الجبهات في مواجهة مختلف الأمم والنحل، فامتازوا بالعقيدة التي تفتدى بالنفس، وبالقيم الإنسانية التي يحملها الفاتحون إلى البلاد، ويعبرون عنها بسلوكهم على مختلف المسؤوليات والأوصاف.

و﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ (البقرة ٢٤٩).


جيش المسلمين يستعد للفتح



العبور إلى الأندلس

عبر طارق بن زياد وجيشه المضيق منطلقاً من "سبتة" تحملهم السفن، وتجمعوا على جبل صخري عرف فيما بعد باسم "جبل طارق"، وكما عرف المضيق باسمه أيضاً، وهذه مكافأة دنيوية له بكل اللغات. ﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ (النساء ١٣٤).

ولما علم أن القوط قد تجمعوا قريباً منه لصده بقيادة «تُدمير» التفَّ حول الجبل المسمى باسمه، ونزل السهل الذي خلفه المسمى بسهول الجزيرة الخضراء.

وحين علم "تدمير" بنزول طارق هناك أرسل رسالة مستعجلة إلى "لذريق" الذي كان في عمليات بالشمال لقمع ثورة أبناء الملك السابق، يقول فيها: أدركنا فإن قوماً نزلوا هنا لا يُدرى أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا بلادنا؟ وقد لقيتهم فلتنهض إليّ بنفسك.

جاءه هذا الخبر فجمع جيشاً كثير العدد بلغ في بعض الروايات مائة ألف، وترك حامية هناك لمدافعة الثوار، وتوجه لدحر جيش طارق نحو الجنوب.

لكن طارقاً أنشب القتال مباشرةً والذي دام ثلاثة أيام انتصر بعده على "تدمير" في أول لقاء مع القوط على الجزيرة الخضراء. وسيطر على جنوب الأندلس، ولما علم بتقدم "لذريق" بجيشه الكثيف أرسل خبراً عبر المضيق إلى موسى بن نصير يطلب المدد، فأمده بخمسة آلاف مجاهد، وليبلغ عدد جنده اثني عشر ألفاً.

معركة برباط الحاسمة

استكشف طارق المنطقة ليختار مكاناً يحدده هو للقاء العدو الزاحف ملائماً لقلة عدد جنده وكثرة الأعداء، فاختار قرب الوادي "بَرباط"، ونهره، فخيم على ضفافه وانتظر حتى أتى القوط.

وحدثت المعركة الفاصلة التي تعد من أهم معارك الأندلس.

جيش الإسلام اثنا عشر ألفاً أكثرهم مشاة، وقليل منهم خيالة، وقائدهم طارق بن زياد، وجيش القوط مائة ألف أكثرهم خيالة، يقودهم حاكم الأندلس نفسه "لذريق"، إذ كان على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات، ولباسه الملكي محلى بالذهب.

فخطب طارق جنده يحمسهم ويعدهم إما الشهادة أو النصر، ويرغبهم في إعلاء كلمة الله، والتعالي على زخارف الدنيا ومشتهياتها، ويذكرهم بالآية الكريمة: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ (التوبة ١١١).

وعمّا يذكر له من خطبة مطولة في بعض الكتب فإن حولها مقالاً، أضف إلى ذلك أنه من البربر والخطبة من بلاغتها تكاد تكون لقس بن ساعدة أو امريء القيس وكذلك ما يذكر من إحراق السفن، فكلا الأمرين غير ثابت تاريخياً.

ويظهر أن الجيش القوطي كان مغتراً جداً بقوته، ومتأكداً إلى درجة حتمية النصر عنده،حتى أنهم أعدوا ما يحملون عليه أسرى المسلمين، فقد جاء مع الجيش دواب لا تحمل غير الحبال لربط الأسرى، وكأن نهاية المعركة ستكون لصالحهم، وكانوا يفوقون المسلمين في العدد والعُدد، ويحاربون في بلد يعرفونه، وأرض يعرفون جغرافيتها ومداخلها ودروبها، إلا أن المسلمين كانوا متفوقين بالروح المعنوية، متعالين على منافع الحياة الزائلة ورغبات الدنيا، وما يقال: إن طارقاً وعد الجند بالنساء والأموال والذهب يكذّبه التاريخ، وواقع المسلمين.



معركة طارق بن زياد مع جيش القوط



فرنســـا
أردونة
قرقشونة
جبال البرانس
طرف جليقية
شنتياجو
نهر مينه
خيخون
صخرة بلاي
ليون
جبال قنتبريه
أشترقة
رنسسفال
نافار
أرغون
قطالونية
جليقية
ليون
قشتالة
جيرونه
كوره
بلد الوليد
نهر دويره
سرقسطة
سرقسطة
برشلونة
نهر ابره
وادي رامه
طركونه
جبال الشارات
وادي الحجارة
مدريد
نهر تاجة
بلنسية
جزائر البليار
قطلونة
طلبيرة
طليطلة
طليطلة
نهر شقورة
الغرب
لشبونة
ماردة
بطليوس
بلنسية
ميورقة
نهر الوادي الكبير
باجة
لفنت
شاطبة
دانية
يابسة
جبال قرطبة
نهر سرقسطة
دانية
اردونة
قرطبة
أشبيلية
لبله
قرمونه
نهر الوادي
مرسية
البحر الأبيض المتوسط
أشبيلية
غرناطة
جبال الثلج
مرسية
استجه
غرناطة
ولبه
قرطجنة
شدونه
المرية
قادس
مالقة
معركة وادي برباط (أو وادي لكه)
معركة
وادي برباط
(أو وادي لكه)
طريف
جبل طارق
نهر
مدينة
جبال
سبتة
0
100 km
المغرب
معركة وادي برباط
(أو وادي لكه)



بدأت المعركة يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر رمضان المبارك، ودارت واتصلت ثمانية أيام، ومرّ عيد الفطر والمسلمون في قتال إلى يوم الأحد الخامس من شوال، وكانت تزداد عنفاً، وصبر الفريقان صبراً عظيماً، وسقط القتلى من الطرفين، إذ استشهد من المسلمين ربع الجيش أي ثلاثة آلاف شهيد كما ذكر الرواة.

ولولا العقيدة وسمو الهدف في هذه المعركة لكانت الغلبة للقوط الذين قاتلوا قتالاً شديداً في مكان يعرفون أدق تفاصيله.

لكن تفوق المسلمين بالعقيدة اكتسح مصاعب المعركة، وكان اللقاء حاسماً، ونصر الله المسلمين نصراً مؤزراً وشتتوا الجيش القوطي الذي ولى الأدبار، ونثروه على أطراف وادي "برباط".

وتبعهم المسلمون وأوقعوا فيهم القتل والأسر، ومنهم من ألقى نفسه في النهر وفيهم قائدهم "لذريق" الذي مات غرقاً.

وغنم المسلمون غنائم كثيرة، وأعظمها كانت الخيول الكثيرة، فلم يبق راجل في الجيش بعد هذه المعركة.

قضت هذه المعركة الفاصلة "بَرباط" على معظم القوى العسكرية للقوط، ولم يلتق المسلمون بعدها بتجمع كبير لهم، وانتشر المسلمون انتشاراً واسعاً، فما أراد طارق بن زياد أن يضيع الوقت بل تقدم بسرعة، وسار يفتح البلدان بلدة فبلدة، وقد أصيب القوط بهلع وخوف شديدين.



اكتساح جنوب الأندلس

فتح طارق "شذونة" ثم مرّ بمدينة "مورور" وهي قريبة من قرطبة عاصمة الأندلس وبعد ذلك بمدينة "قَرَمونة" واستولى على "لقة" و"إلبيرة" بعد حصار طويل، وأخضع "أريولة"، كل هذا النصر تم في شوال ٩٢للهجرة وذلك لسرعة الجيش المسلم الذي تحرك على الخيول وعدم استطاعة العدو أن يجمع الجموع.

وصل إلى "إشبيلية" عاصمة الجنوب، ورأى أهلها أنهم لا يستطيعون صدّ المسلمين أو قتالهم فطلبوا من طارق الصلح فصالحهم على دفع الجزية.

الفرق بين الفتح والصلح

أن المنطقة أو المدينة التي تفتح تصبح الأموال المنقولة وغير المنقولة غنيمة والناس سبياً بعد الفتح.

أما الصلح فيكون حسب اتفاق الطرفين على بنوده، وأهم بند في الصلح أن يقر العدو بدفع الجزية، وهي مقدار دينار من الذهب على كل فرد في العام مرة.

والتفصيل في كتب الفقه.

فتح أستجة

تجـمـع القـوط في منطقـة حـصـينة جـداً تـدعى "أسـتـجـة"، واستطاع طارق أن يباغت قائدها خارج الحصن وأن يأسره وهو لا يعلمه، فقرر أن يصالحه فأطلق سراحه ووفى له هذا، وبفتح أستجة خضع الجنوب كله للفتح الإسلامي.

اتجه طارق بن زياد بعد صلح مدينة "أستجة" نحو الشمال ففتح "جيّان" على الطريق الرئيسي نحو العاصمة "طليطلة" التي فتحها طارق دون مقاومة تذكر.

تسعة آلاف من المسلمين يفتحون الأندلس (إسبانية والبرتغال) في أشهر قليلة عام ٩٢ للهجرة...

المعاملة العادلة

عامل المسلمون أهل الأندلس كما عاملوا كل البلاد المفتوحة بما تتطلبه الحقوق الإنسانية (حق الحياة، حق العبادة، حرية المال والنفس والعرض) لأنهم لا تشغلهم الكنوز، ولا يتوجهون للعدوان على الأطفال والنساء والشيوخ، فهذه طبيعة القوات الإسلامية في كل عصر وكل زمان، مما يجعل الناس في البلاد المفتوحة يندهشون بما يرون، فيدخلون الدين بإيمان صادق ويقين تام، إذ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾ (البقرة ٢٥٦).

استقر طارق في طليطلة بعد أن تحرك شيئاً في شمالها بأمر من موسى بن نصير، ولينظم جيشه، ويستقر الوضع العام قبل أن يدخل المناطق الإسبانية الأخرى.

العدل الإسلامي في الأندلس

ثالثاً توجه موسى بن نصير للأندلس

لما وصلت أنباء هذا الفتح المبارك موسى بن نصير الذي كان يراقب أحداثه، ويهيئ متطلباته، فقالوا عنه: إنه كان ينكب على الدعاء والتضرع لله سبحانه، والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين، قرر أن يدخل الأندلس على رأس جيش قوامه (١٨) ألفاً يقوده بنفسه في رمضان عام ٩٣للهجرة.



المسلمون يقومون بالدعاء والابتهال لنصر جيش المسلمين في الأندلس

موسى بن نصير... المجاهد العابد

لم يكن موسى بن نصير مجرد قائد عسكري يقود الجيش بحنكته ، بل كان نوعاً فريداً من القادة يعمل لحساب أمته ودينه لا لحساب جيبه ومصالحه، ولذلك كثرت في زمنه الفتوحات وانتشر الإسلام، كان تقياً دائم التضرع إلى الله، اتصل رجاؤه بقوة خالق السماء والأرض، وكان يخرج أهله معه في كل معركة ويرى أن ذلك أقرب للنصر، ومما يذكر عنه في إحدى غزواته أنه صلى بهم صلاة الاستسقاء واشتد تضرعه لله فقال له أحد قواده: ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ فأجابه موسى إجابة المؤمن الموحد لا القائد المتزلف المداهن : هذا موقف ما ينبغي أن يذكر فيه إلا الله عزوجل.

وكان يكثر التضرع إلى الله قبل كل غزوة وقد ذكر له الرواة بعض الكرامات لا نستغربها على تابعي تقي مثله.





عبور موسى

جاز موسى من "سبتة" المضيق، ومعه جمع كبير من التابعين، وصحابي واحد هو المنيذر الإفريقي رضي الله عنه، وولى ابنه عبد الله على "القيروان" عاصمة الشمال الإفريقي آنذاك.

واجتمع إليه المسلمون والقادة في الجنوب الأندلسي حيث نزل في جبل يدعى جبل موسى أيضاً، وحينما استكمل ترتيباته بنى مسجداً في المكان نفسه، ضبط قبلته تابعي يدعى "حنش بن عبد الله الصنعاني" رضي الله عنه.

وقد سمي هذا المسجد "مسجد الرايات"، وقد دمّره القوط فيما بعد فيما يسمى بحرب الاسترداد، ولا تزال آثاره موجودة شاهدة على عظمة من أنشأه.

فهو قائد يعرف هدفه وغايته كما يقول أحد الشعراء في وصف قادة المسلمين:

أينما حلّ فالمآذنُ ترجيعٌ ... أذان المهيمنِ الديّانِ

رسم في كتاب أندلسي نادر يشير إلى عبور المسلمين نحو الأندلس

خط سير
طارق بن زياد

سير طارق
سرايا طارق
نهر
مدينة
جبال

0 100 km

فرنسا
البحر الأبيض المتوسط
طرف جليقية
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
المغرب
سبتة
جبل طارق
طريف

جليقية
ليون
قشتالة
نافار
أرغون
قطالونية
سرقسطة
بلنسية
طليطلة
الغرب
قرطبة
أشبيلية
غرناطة
مرسية
دانية

شنتياجو
خيخون
صخرة بلاي
ليون
أشترقة
كوره
بلد الوليد
رنسسغال
أردونة
قرقشونة
جيرونه
سرقسطة
برشلونة
طركرنه
قطلونة
بلنسية
دانية
شاطبة
اردونة
مرسية
قرطجنة
المرية
غرناطة
مالقة
استجه
قرمونه
أشبيلية
لبله
ليلة
ولبه
قادس
شدونه
مدريد
طليطلة
طلبيرة
مادرة
بطليوس
باجة
لفنت
لشبونة

جبال قنتبريه
جبال البرانس
جبال الشارات
جبال قرطبة
جبال الثلج
وادي رامه
وادي الحجارة
نهر مينه
نهر دويره
نهر تاجة
نهر الوادي الكبير
نهر الوادي
نهر سرقسطة
نهر شقورة
نهر البره





موسى يعيد إخضاع الجنوب

وكان طارق بن زياد يفتح المدن في وسط الأندلس، وكانت المدن التي افتتحها في الجنوب تنقض على المسلمين واحدة تلو أخرى، إذ ما كان باستطاعته - رحمه الله - أن يترك حامية كبيرة، فتحرك موسى ابن نصير ليعيد إخضاع الجنوب بعده، فأخضع "شذونة" ثم قصد "قَرمونة" وكانت مدينة صعبة ليس في الأندلس أحصن منها، فحاصرها ثم عمل حيلة لاقتحامها حين اتفق مع جماعة من أصحاب "يوليان" على أن يفروا من أمامهم، ويتوجهوا للاحتماء بالحصن، فأدخلهم أهل المدينة ولما جاء موسى بخيله فتح هؤلاء لهم الأبواب.

هؤلاء في العرف العام "الطابور الخامس"، همّ هذا الطابور أن يلعبوا كيف كانت الأحوال وغايتهم أن يحفظوا مصالحهم.



النصارى في الأندلس يرتدون على المسلمين



فتح ماردة

وانتقضت "إشبيلية" فحاصرها موسى أشهراً ثم أخضعها، وأخضع "باجة" وهي بلدة قريبة منها، هرب إليها حامية "إشبيلية" وجنودها، وقصد بعد ذلك مدينة "ماردة"، وقد كانت حصينة لها سور لم يبن الناس مثله كما وصفها الرواة.

حاصر موسى المدينة، وما استطاع المسلمون أن يعتلوا الأسوار أو يخرقوها، فأمر بصنع دبابة، وكانت آلة مصنوعة من الخشب مغطاة بالجلود، وبالأقمشة المبللة، لا تخترقها النبال، وتُطفأ النيران إن صبت عليها.

هاجم جماعة من المسلمين بالدبابة يحتمون بها، فعملوا لإيجاد ثغرة في السور حتى اعترضتهم صخرة صماء أتعبتهم، وامتنعت عن التفتيت أو الخرق، فاغتاظ القوط منها وصبوا عليها النيران وأرسلوا الأحجار فوقها وهاجموها من كل جهة حتى استشهدت تلك الجماعة المسلمة تحت برج لا يزال يدعى برج "الشهداء" إلى اليوم.

ومن هذه التجربة علينا أن نربي أجيالنا على الولاء المطلق الصادق لله ولرسوله وللمؤمنين حتى لا يُستغلَوا من قبل الأعداء الذين يشترون الذمم بالمال والجاه والنساء، ولا يقبل ذلك إلا ضعاف النفوس ومن يقاتل من غير هدف ولا مبدأ.



رأى أهل "ماردة" إصرار موسى على الفتح، فأرسلوا يطلبون إليه الصلح، فأجابهم وصادف ذلك عيد الفطر: ١شوال عام ٩٤ للهجرة، فصار للمسلمين عيدان: عيد الفطر ويوم الفتح.

وثارت "إشبيلية" للمرة الثالثة، فأرسل موسى بن نصير جيشاً صغيراً (سرية) بقيادة ابنه عبد العزيز - وسيكون له شأن في الأندلس- فدخلها وحطم قوتها، وكسر قوة أخرى تجمعت قربها في مدينة تدعى"لَبْلة"، وأرسل إلى طارق بن زياد حين تحرك تجاه "طَلَبيرة" وهي منطقة غرب "طليطلة" يدعوه إلى لقائه، فالتقى القائدان الجليلان في "طَلَبيرة" في ذي القعدة عام ٩٤ للهجرة.

إبلاغ الخليفة في دمشق

كتب موسى بن نصير إلى الخليفة في دمشق يخبره بأخبار الفتح وتفصيلاته ومعلوماته، واختار التابعي علي بن رباح رسولاً إلى الوليد، فلما دخل عليه قال: تركت موسى بن نصير بالأندلس وقد أظهره الله ونصره، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه بفتح من فتوحه. ثم رفع إليه الكتاب من عند موسى، فقرأه الوليد فلما أتى على آخره خرّ ساجداً لله سبحانه.



رسول موسى بن نصير يصل إلى الخليفة في دمشق



استقرار الفتح

ولما حلّ فصل الشتاء - والقتال في الشتاء صعب - مكث في طليطلة للراحة وللاستعداد لما بعد الشتاء، ولتنظيم قوته، وللعمل على استقرار المنطقة، ونشر العقيدة الجديدة فيها، فقام بصك العملة (الدراهم والدنانير الإسلامية) وذلك في عام ٩٥ للهجرة بعد ثلاث سنوات من ابتداء الفتح.

أيقن القوط أن هؤلاء الفاتحين ليسوا كغيرهم من الغزاة، إذ ما جاؤوا لمغنم أو سلب، وما قدموا للعلوّ في الأرض ولا استكباراً، إنما حلّوا للتمكن والاستقرار والاستخلاف في الأرض على منهج النور، كما قال تعالى: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ (الحج ٤١)، وجاء أبناء الملك السابق "غيطشة" يطلبون المزارع وفاءً بالعهد الذي قطعه على نفسه موسى بن نصير، فكان خير وفيّ رحمه الله، وكذلك يكون كل مسلم حقاً ! فأزال مجتمع الطبقات في الأندلس، وألغى عبودية البشر للبشر واستقر عملياً قول الرسولﷺ: «كلكم لآدم وآدم من تراب».

وما حدث في اللقاء بين القائدين العظيمين موسى بن نصير وطارق بن زياد لم يعدُ مناقشةً أو استفهاماً، إذ قال له موسى: ما دعاك إلى الإيغال والتقحم في البلاد بغير أمري؟، فاعتذر طارق إليه بخطته العسكرية تجاه الظروف المستجدة، فقبل موسى عذره وسارا من بعد سوية إخوة مجاهدين.

(وكل ما قيل غير ذلك عن هذين المجاهدين هي أوهام يتقولها بعض الدارسين، أو أقوال ضعيفة واهية على لقاء هذين القائدين، لا تستحق المناقشة والرد عليها).

خط سير موسى بن نصير

سير موسى
سرايا موسى
نهر
مدينة
جبال

0 100 km

فرنسا
البحر الأبيض المتوسط
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
المغرب
سبتة
طرف جليقية
شنتياجو
نهر مينه
جليقية
خيخون
صخرة بلاي
ليون
جبال قنتبريه
أشترقة
ليون
كوره
بلد الوليد
نهر دويره
وادي رامه
رنسسغال
نافار
أرغون
جبال البرانس
قرقشونة
أردونة
قطالونية
جيرونه
برشلونة
طركرنه
قشتالة
سرقسطة
سرقسطة
نهر ابره
جبال الشارات
وادي الحجارة
مدريد
نهر تاجة
طلبيرة
طليطلة
طليطلة
نهر شقورة
بلنسية
قطلونة
بلنسية
دانية
شاطبة
دانية
اردونة
نهر سرقسطة
مرسية
مرسية
جبال الثلج
قرطجنة
المرية
غرناطة
غرناطة
مالقة
لشبونة
الغرب
بطليوس
ماردة
نهر الوادي الكبير
باجة
لفنت
جبال قرطبة
قرطبة
نهر الوادي
ليلة
لبله
أشبيلية
قرمونه
أشبيلية
استجه
ولبه
شدونه
قادس
طريف
جبل طارق



فرنسا
أردونة
قرقشونة
جبال البرانس
رنسسفال
نافار
أرغون
قطالونية
جيرونه
برشلونة
طركونة
سرقسطة
سرقسطة
نهر ابره
قشتالة
طرف جليقية
شنتياجو
خيخون
صخرة بلاي
ليون
جبال قنتبريه
أشترقة
ليون
جليقية
نهر مينه
كوره
بلد الوليد
نهر دويره
وادي رامه
جبال الشارات
وادي الحجارة
مدريد
نهر تاجة
طلبيرة
طليطلة
طليطلة
نهر شقورة
بلنسية
قطلونة
بلنسية
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
دانية
شاطبة
دانية
أريولة
نهر سرقسطة
مرسية
مرسية
جبال الثلج
غرناطة
غرناطة
قرطجنة
المرية
مالقة
البحر الأبيض المتوسط
الغرب
لشبونة
بطليوس
ماردة
نهر الوادي الكبير
باجة
لقنت
جبال قرطبة
قرطبة
ليلة
لبله
قرمونه
نهر الوادي
أشبيلية
اشبيلية
استجه
ولبه
شدونه
قادس
طريف
جبل طارق
سبتة
المغرب
سرية عبدالعزيز بن موسى
نهر
مدينة
جبال
0 100 km
سرية عبدالعزيز
بن موسى



رابعاً التحرك نحو فتح الشمال



اتجه جيش المسلمين بعد انتهاء الشتاء وحلول الربيع نحو "سرقسطة" عاصمة الشمال، وجعل موسى طارقاً في مقدمة الجيش الذي اتجه نحو الشمال الشرقي وافتتح مدينة"سرقسطة" بسهولة ويسر ودون مقاومة تذكر.

بناء مسجد سرقسطة

وبعد وصول الجيش كاملاً أسس حنش بن عبد الله الصنعاني بأمر من موسى بن نصير "مسجد سرقسطة"، وهو إن صح التعبير مهندس المساجد في الأندلس.(أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها)، هو بيت الأتقياء ومكان اجتماع المسلمين يومياً، ومركز مؤتمراتهم، ومحل تشاورهم وتناصحهم، منه خرجت جيوشهم ففتحت مشارق الأرض ومغاربها.

يعزي المسلم أخاه إن أصابته مصيبة في المسجد، ويهنئه إن ناله فرح أو سرور، مدرسة يتخرج منها العلماء والفقهاء، فكما قال أحد العلماء:

المسجد هو المعبد في الإسلام، وهو البرلمان، وهو المدرسة، وهو النادي، وهو المحكمة، وهو ملتقى الأمة في أحوالها كلها، لذلك ما كان المسلمون يطأون أرضاً جديدة، إلا ويؤسسون المساجد أسوة بالرسول الكريم ﷺ الذي اهتم بإنشاء مسجده حين قدم المدينة المنورة، فشأن المسجد شأن الإسلام نفسه متكاملاً في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع.



ساراقوس الجعفرية، الجانب الشرقي للقصر معبر إلى داخل مسجد سرقسطة.

اتساع الفتح ومهاجمة فرنسا

ثم فتحت المناطق التابعة لسرقسطة وما حولها من المدن التالية: "وشقة"، "لاردة"، "طرَكونة" و"برشلونة" دون جهد أو قتال يذكر، وبعد إقامته مدة في "سرقسطة" غزا كما في بعض المصادر التاريخية جنوب فرنسا حين أرسل طارقاً نحو الغرب، وأرسل غيره إلى بعض الأطراف والحصون، فتحرك هو متجهاً نحو جنوب فرنسا ينوي فتح القسطنطينية والوصول إلى دمشق، أي أنه كان ينوي فتح فرنسا، وشمال إيطاليا، ثم يوغوسلافيا وبلغاريا، فيصل إلى الدولة البيزنطية، فتركية إلى دمشق!، كان صاحب طموح عالٍ، عمره أربع وسبعون سنة وليس معه من الجند إلا ثلاثون ألفاً يقول في نفسه: إذا استعصت القسطنطينية على الفتح من جهة الشرق؛ فليأتها هو من الغرب لعله يفتحها. عبر جبال البيرينيه وفتح مدينة "قرقشونة"، وحصن "لوذون"، وصخرة"أبنيون" ومدينة"أرغون" وكاد أن يسيطر على جنوب فرنسا، إلا أن تابعياً جليلاً أوقفه ناصحاً، فتقدم أمامه وأمسك بزمام فرسه وقال له: أتذكر ما قلت أنت عن عقبة بن نافع؟ قلت: لقد تقدم رحمه الله ولم يحم ظهره، أما كان معه رجل بصير؟ أنا بصيرك اليوم! تتقدم ولم تحم ظهرك؟، فقال له مبتسماً: أرشدك الله، وعاد بجيشه إلى الأندلس. ومات حبان بن أبي جبلة ذلك التابعي الجليل الناصح في "قرقشونة" ودفن هناك.



لوحة من الضفائر في سرقسطة، زخرفة ونقش على الجص

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار



فتح غرب الأندلس

رجع موسى بن نصير إلى الأندلس واتجه لفتح شمال غرب الأندلس، واقترب من "خيخون" عاصمة منطقة "ليون"، ولما كان في "أشترقة" أدركه "مغيث الرومي" رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك، فأوقفه قائلاً: إن أمير المؤمنين يأمرك بالخروج عن الأندلس، والإضراب عن التوغل فيها، والعودة إليه في دمشق.ساء موسى هذا الأمر ولاطف رسول الخليفة، وسأله أن يتابع معه لفتح عاصمة المنطقة، فاستجاب له رسول الخليفة، وفتحا معاً "خيخون" ومناطق أخرى إلا منطقة الصخرة، ومن ثم توجه إلى "جيليقية" حيث افتتح فيها أماكن أخرى منها: حصن "لُك"، وبث السرايا حتى بلغوا صخرة "بلاي" في أقصى الشمال. فجاءه رسول آخر هو "أبو نصر" من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك، فقبض على عنان فرسه وأرجعه معه.



قتال المسلمين لفتح الأندلس



صخرة بلاي

سقطت الأندلس كلها سوى صخرة بلاي والتي سميت باسم القائد النصراني الذي التجأ مع ثلاثين مقاتلاً من القوط إلى مغارة حصينة في تلك المنطقة المسماة "كوفادونجا" والتي استعصت على السرايا الإسلامية لأنها سلسلة من الجبال الوعرة والجافة، مع أن باقي التجمعات الأخرى أو الجيوب المبعثرة هنا وهناك في تلك المنطقة قد قضي عليها.

تركت منطقة الصخرة والثلاثون مقاتلاً! فهل كان هذا تهاوناً من موسى وطارق رحمهما الله أم أنهما أجبرا على العودة إلى دمشق؟ أم كان هذا تهاوناً من المسلمين الذين جاؤوا من بعدهما؟ وبقوا هناك دون أن يتقدموا لإنهاء هذا الجيب الذي كان (القشة التي قصمت ظهر البعير) كما يقال. وما يظن أن القائدين العظيمين كانا سيتركان ذاك الجيب دون فتح لو بقيا هناك، وصارت صخرة بلاي هذه مصدر إزعاج للمسلمين ومركز تحرك للنصارى في تاريخ الأندلس قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (آل عمران ١٤٠)، وهذا من قدر الله سبحانه.

ظلت صخرة بلاي شوكة في خاصرة نفوذ المسلمين في الأندلس

حملات في الأندلس
حملة موسى وطارق وسرايا موسى

حملة موسى
حملة طارق
سرايا موسى
نهر
مدينة
جبال

0 —— 100 km

فرنســـا
أردونة
قرقشونة
نافار
رنسسغال
صخرة بلاي
خيخون
ليون
جبال قنتبريه
أشترقة
طرف جليقية
شنتياجو
جليقية
ليـون
قشتالة
أرغون
قطالونية
جيرونه
سرقسطة
برشلونة
طركرنه
بلد الوليد
سمورة
نهر دويرة
وادي الحجارة
جبال الشارات
مدريد
نهر تاجة
طليطلة
بلنسية
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
لشبونة
بطليوس
الغرب
باجة
نهر الوادي الكبير
نهر شقورة
بلنسية
شاطبة
دانية
دانية
جبال قرطبة
قرطبة
نهر سرقسطة
نهر الوادي
لبله
أشبيلية
ولبه
جبال الثلج
مرسية
غرناطة
المرية
البحر الأبيض المتوسط
طريف
جبل طارق
سبتة
المغرب

خامساً عـودة مـوسى وطارق إلى دمـشق



الحشروليس الفتح

تمَّ فتح الأندلس (ما عدا الصخرة) في ثلاث سنوات، بالإيمان والعزيمة، وأُخضع شبه الجزيرة الإيبيرية في هذه المدة اليسيرة، وكان مما أخبر موسى بن نصير الخليفة: إنها ليست الفتوح ، ولكنها الحشر. فأوقف الخليفة الفتح تخوفاً على المسلمين من الإيغال السريع في تلك المناطق النائية، ومع هذا فقد دخل أهل الأندلس أفواجاً في دين الله، بدأ الفتح سنة ٩٢ للهجرة واستمر إلى أواخر ٩٥ للهجرة.



دينار أموي (٧١٥-٧١٧، ٩٦-٩٩ هـ).



ترتيب أمور الأندلس وعودة موسى

وترك موسى عمليات الفتح في الشمال وعاد ومعه طارق بن زياد إلى إشبيلية، فأقام بها مدة يرتب أمور الأندلس، وعين ابنه عبد العزيز والياً عليها، وجعل العاصمة هناك لموقعها في وسط الأندلس، وعبر هو ومن معه المضيق في نهاية ذي الحجة عام ٩٥ للهجرة، قاصداً دمشق.

فدخل طنجة وولى ابنه الثاني عبد الملك عليها والمناطق التابعة لها، ثم وصل إلى القيروان "عاصمة إفريقية" فولى أكبر أبنائه عبد الله على إفريقية، ثم دخل مصر وعاصمتها "الفسطاط" (في ربيع الأول عام ٩٦ هـ) فأكرم هناك أبناء عبد العزيز بن مروان إكراماً يليق بأفضال أبيهم عليه سابقاً.

ودخل بلاد الشام مجداً حتى وصل إلى دمشق في أوائل جمادى الأولى سنة ٩٦ للهجرة، والخليفة الوليد بن عبد الملك مريض، وتوفي الخليفة رحمه الله بعد وصول موسى بأربعين يوماً.



دمشق والمسجد الأموي الشهير فيها والذي بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي.





وفاة القائد العظيم

وبويع بالخلافة سليمان بن عبد الملك، ولما أراد هذا أن يحج أكرم موسى ودعاه للحج معه، وكان موسى بن نصير رحمه الله يدعو خلال سني الجهاد ٤٠ عاماً: اللهم إني أسألك الشهادة في سبيلك أو الموت في مدينة نبيك، وهو كما قال عن نفسه: ما هزمت لي راية قط، ولا فض لي جمع، ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين، فاستجاب الله له، وتوفي بالمدينة المنورة وعمره ثمانٍ وسبعون سنة في عام ٩٧ للهجرة ودفن في المدينة المنورة.

مات القائد المسلم موسى بن نصير بعد أن نشر الإسلام على أودية المغرب العربي، والأندلس، وأسمع الناس هناك نداء العقيدة الصافية أن اخرجوا من الظلمات إلى النور، ولم يكن طامعاً في مغنم أو جاه أو أي شيء آخر من متاع الحياة الدنيا ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (آل عمران ١٨٥)، أما عن القائد طارق بن زياد فليس بين أيدينا ما يسعفنا لمعرفة أخباره بعد وصوله إلى دمشق، وكيف كانت نهايته، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وما عند الله خير وأبقى.

ملخص أحداث بداية الفتح الإسلامي في الأندلس

٢٣ هـ	عقبة بن نافع يفتح المغرب.
٨٥ هـ	إخضاع صقلية (غزوة الأشراف).
٨٩ هـ	فتح سردينية وجزر البليار.
٩٥ هـ	فتح الأندلس على يد طارق بن زياد إلى دمشق.
٩٣ هـ	عبور موسى للأندلس.
٩٤ هـ	فتح ماردة.
٩٥ هـ	عودة موسى بطارق بن زياد إلى دمشق
٩٦ هـ	خلافة سليمان بن عبد الملك.
٩٧ هـ	وفاة القائد العظيم موسى بن نصير.



فتح الأندلس ... حقائق وعبر

ما بين فتح الأندلس وحتى سقوطها تاريخ طويل، فيه البطولات وفيه الأمجاد وفيه أيضاً بعض الخيانات، تاريخ تحكيه الفرحة والبسمة وترويه الحسرة والدمعة، لكن يكفينا أن المسلمين ما دخلوها إلا للهداية والنور، والتاريخ شاهد على ذلك، إن قوماً حولوا الأرض الجدباء إلى جنة نضرة ، وبدلوا الجهل بحضارة ، ورفعوا الظلم ونشروا العدل لا يمكن أبداً أن يكونوا غزاة أو مستعمرين

وفي البرتغال وإسبانية ازدهرت ... آثارنا وسمت دهراً مبانينا

كم من قصور وجنات مزخرفة ... فيها الفنون جمعناها أفانينا

وكم مساجد أعلينا مآذنها ... فأطلعت أنجماً منها معالينا

ولن نستبق الأحداث فتاريخ الأندلس كله بين يديك - أيها الأخ القارئ - إنما نتوقف مع نقاط نراها مهمة فيما مر:

- المراسلات التي تمت بين موسى بن نصير والخليفة الوليد بن عبد الملك رحمهما الله تعالى قبل خوض البحر لفتح الأندلس يظهر منها جلياً خوف الخليفة على جند الإسلام حيث قال الوليد لموسى (خضها حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال).

فهو لا يريد أن يزج بهم في مغامرة أو مخاطرة ولو كان من ورائها فتح أو غنيمة، وهذا حدث يحسب للوليد بن عبد الملك حيث وقف من المسلمين موقف الأب العطوف الذي يخشى على أولاده الضياع والأذية متحققاً بوصية النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه» رواه مسلم.



عملة الفاتح الأموي - الأندلس. ٧١٤(٩٥هـ).

مستذكراً مسؤوليته أمام الله عن شعبه ، وله في عمر بن الخطاب أسوة حسنة حين قال: (لو أن شاة في العراق عثرت لرأيتني مسؤولاً عنها أمام الله ، لِمَ لَم تمهد لها الطريق يا عمر؟).

ولو أن حكامنا اليوم تحققوا بهذه الرحمة وتحملوا المسؤولية على أنها أمانة يحاسبون عليها أمام الله تعالى لصلحت أمور كثيرة، ولما قدموا مصالحهم الضيقة على مصلحة الأمة، ولما قادوا أمتهم وشعوبهم إلى الدمار والذل والهوان ليحافظوا على كرسي أو منصب، ولما قدموا الخيانة تلو الأخرى ليرضوا أعداء الله ، حتى هانت عليهم شعوبهم - مع أنهم أبناء جلدتهم وعقيدتهم - فيرون المسلمين يذبحون ويلاحقون وتنتهك حرماتهم وحقوقهم ويؤخذون أسرى إلى بلاد المشركين بتهم كثيرة وهم ينظرون لا يحركون ساكناً ولا يهتز لهم طرف، بل ربما سلموا مواطنيهم إلى أعدائهم ليرضوا عنهم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين

هانت شعوبهمُ عليهم فغدت ... مذلولة في أسر من لا يرحم

أوَهكذا أُمروا؟ فكيف بمسلم ... يرميه للأعدا الأمير المسلم

- قصة حصار (قَرمونة) حينما امتنعت على المسلمين فاتفق موسى بن نصير مع بعض أصحاب يوليان على حيلة ذكية وهي أن يفروا من أمام جيش المسلمين ويتوجهوا للاحتماء بالحصن فأدخلهم أهل الحصن ولما جاء موسى بخيله فتح هؤلاء لهم الأبواب.



بدأ انتشار العلوم الدينية والعلمية

وليس في ذلك ما يضير المسلمين فالحرب خدعة وتخطيط ودهاء ولكن ما يستوقفنا هو رضا أولئك النفر أن يكونوا عملاء ضد قومهم وثغرات يؤتى أهلهم من قِبلها، وهذا لا نستغربه على مشرك لا يدين دين الحق ولا أدبته تعاليم الإسلام .

إنما الغريب المؤلم أن تنتقل هذه الصورة إلينا - نحن أهل الإسلام - فيكون منا عملاء ومخبرون على جميع المستويات حتى من أهل الفكر ومدعي الإصلاح يعملون جاهدين على إيجاد ثغرات بيننا وتسهيل مهمة أعدائنا.

وما كانت إسرائيل - أخزاها الله - لتتمكن من اغتيال العديد من قادة المقاومة إلا بمساعدة عملاء الداخل الذين تبرأت منهم ضمائرهم وخانوا دينهم وقضيتهم.

وما كان الغرب ليستطيع نشر ثقافة الاستسلام والانحلال والرذيلة ويميت عزيمة الأمة في الجهاد والدعوة لولا أن قام معه رجال من بني جلدتنا باعوه ضمائرهم بثمن بخس، فأخذوا دور الأعداء في نشر الفساد لكن بصورة المفكرين والمجددين والمستنيرين.

إن التحقق بمبدأ الولاء لله والمؤمنين والبراءة ممن يجاهرهم العداء مبدأ سام ومرتبة عظيمة لا تتحقق من غير إعداد وتأهيل بدءاً بتربية الأبناء وامتداداً إلى علاقة المسلمين ببعضهم وعلاقة الحاكم بشعبه.

- ما يذكره بعض الرواة من نهاية مؤلمة لموسى بن نصير وأن الخليفة سليمان بن عبد الملك سجنه وصادر جميع أمواله ثم رؤي يتسول آخر حياته ما هذا إلا تشويه لتاريخ مجيد وسرد لا صحة له ولا سند خصوصاً أن تاريخ الأندلس دخله تحريف كبير من بعض كتاب الغرب الذين لم يلتزموا الأمانة العلمية، ورواية جرجي زيدان عن الأندلس مليئة بتلك الأغاليط، ولعل حرص الخليفة سليمان أن يكون موسى بن نصير مرافقاً له في حجه يفند كل تلك المزاعم، لكن العجب من بعض الكُتاب العرب الذين يروجون للأوهام والأكاذيب المغرضة.

إن يسمعوا ريبة طاروا لها فرحاً عنه، وما سمعوا من صالح دفنوا !!!

وهنا نأتي لنهاية صفحات من الفتح الإسلامي للأندلس، لنتلوها صفحاتٌ أخرى عن عصر الولاة.



حملات في الأندلس
حملة موسى وحملة عبدالعزيز بن موسى

الباب الأول

الفتح الإسلامي



الفصل الثالث

عهد الولاة

أولاً عبد العزيز بن موسى بن نصير



قـاد الأندلس بعـد الفـتح عـبـد العـزيز بن موسى، إذ بدأ بفـتح من نوع جـديد هو الأصل في الفـتوحات الإسـلامية كما سبق، ألا وهو فتح النفوس، إذ رأى الناس هنا حياة المسلمين في جـمـيع أحـوالهم، ضـحكهم وحـزنهم، أفـراحـهم وأتراحـهم، جِـدّهم وهزلهم، ومـعـامـلاتهم وعباداتهم.

رأوا نمطاً من البـشـر مـا سـمـعـوا عنه، فـدخلوا في دين الله أفـواجـاً ببـركـة إخـلاص هؤلاء الفـاتحين، وهم خـيـر القـرون بعـد قـرن الصحـابة رضي الله عنهم، وفي مـقـدمـتـهم مـوسى بن نصير إذ ذكرت الروايات: أنه حين كـان يأتي نبأ فتح أو نصر من طارق كان يقال عنه للرسول القادم إنه يصلي ويدعو !.

هـؤلاء جـنـد العـــقــيـــدة، وهـم الجـنـود الحـقـيـقـيون لحمل الإسـلام إلى الآخـرين، يصـفـهم أحـد مـؤرخي الإسـبـان في هذا الفتح: كأنهم كانوا في نزهة.

كان الفـتح مـعـجـزة، ثلاثون ألفـاً فقط في ثلاث سنوات يفـتحـون إسبانيـة والبـرتغال وجنوب فـرنســة، ذللت الصـعــاب لهم وهانت الأهوال في نفـوسـهم لأنهم كـانوا لا يرجـون إلا إحـدى الحـسنيين: النصـر أو الشهادة.

عبد العزيز بن موسى بن نصير يقود الفتح في الأندلس

عدل الإسلام وأثره في الأندلس

وكان أعظم ما رآه القوط منهم: إزالة الفوارق الطبقية في الأندلس إذ كانوا يقسمون إلى طبقات: طبقة النبلاء والملوك، فطبقة رجال الدين والجيش، فطبقة كبار المزارعين، فصغارهم، وتأتي طبقة المزارعين في أسفل الدرجات. أصبح ذاك المزارع خلال ثلاث سنوات - وقد أزيل عنه ذاك النظام الجائر الذي قهر الناس من قرون - يمتلك الحق في أن يملك أرضاً أو أي شيء آخر، وله أن يقاضي حاكم البلد إن شعر بظلم أو حَيْف، ومن حقه أن يتاجر فيبيع ويشتري ما يحب ويشاء.

وبدأ الناس معظمهم يتعلمون اللغة العربية، ويقلدون المسلمين في الملابس والتحيات والعادات، وهذا من شأن الأمم المغلوبة بتقليد الغالبين، أما نلاحظ هذا لدى الأمم المسلمة بتقليد الأعداء من قوى الغرب الطاغية؟. وما أخذ المسلمون كنيسة من كنائس النصارى هناك إلا شراء أو كانت مهجورة، قارن هذا العدل بما فعله النصارى من الإسبان بعد ثمانية قرون لما أخرجوا المسلمين من الأندلس؟ فما أبقوا مسجداً ولا مسلماً ولا أي رمز من شعائر الإسلام، ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾(الإسراء٨٤).



الوالي الأول عبد العزيز بن موسى بن نصير

بدأ هذا العهد بالوالي عبد العزيز بن موسى الذي عينه أبوه قبل أن يعود إلى دمشق وكان رجلاً تقياً قوياً كما كان إدارياً وعسكرياً، نظم أحوال الأندلس، وأتم فتح ما بقي من الجيوب في الشمال الغربي وأخضع كثيراً منها.

وتزوج أرملة (لذريق) التي أسلمت وتكنت "بأم عاصم"، ومات مقتولاً وهو يصلي في مسجد بإشبيلية في رجب سنة ٩٧ هـ بعد أن دامت ولايته سنة وسبعة أشهر.

ومن العجيب في كتابة التاريخ وجود من يشوه تاريخ المسلمين قصداً كجرجي زيدان وغيره، إذ يتصيَّدون الحوادث ويفسرونها على أهوائهم وأحلامهم، وفي هذا الصدد قالوا: إن أرملة لذريق لم تدخل الإسلام، بل إنها أثَّرت على زوجها عبد العزيز فتنصر من أجلها! وما زالت به حتى ألبسته تاجاً كتاج النصارى، فرآه أحد المسلمين فقتله! وجعلته يسكن في كنيسة وما إلى ذلك من الترهات والأحلام.

ما أحوجنا إلى التوثيق والتدقيق من نقول المستشرقين وتلامذتهم الذين لا يدعون فرصة تفوتهم في تشويه التاريخ الإسلامي وقادته غير آبهين بالأمانة العلمية والتاريخية.

عهد الولاة : ٢٢ والياً

استمر عصر الولاة حوالي اثنتين وأربعين سنة، وكان تتمة لعصر الفتوحات من عام ٩٥-١٣٨ للهجرة، وتوالى على الولاية اثنان عشرون والياً، ويتسم هذا العصر بعدم الاستقرار إلى حدٍّ ما، إلا أنه اتسم بانتشار الإسلام، وبتحسين الحالة الاجتماعية والاقتصادية، وقد سكن الأندلس من أحب من العرب والبربر حسب اختيارهم، وكان معظم الذين بقوا من الجيش الإسلامي في الأندلس غير متزوجين، فتزوج العديد منهم بنساء القوط، فنشأ جيل من هذا الزواج يسميه بعض المؤرخين بالمولَّدين، أو المستعرَبين، ومن هؤلاء كان بعض العلماء المشهورين في تاريخ الأندلس.





الوالي الثاني أيوب اللخمي

تولى بعده أيوب بن حبيب اللخمي وكان رجلاً صالحاً يؤم الناس لصلاتهم، في رجب ٩٧للهجرة، ودامت ولايته ستة أشهر ومن أهم أعماله نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة.



الوالي الثالث الحر الثقفي

وأرسل والي إفريقية - وكانت الأندلس زمن الولاية تابعة لولاية إفريقية - يعينَ الحُرَّ بن عبد الرحمن الثقفي فدامت ولايته سنتين وثمانية أشهر لم يكن فيها سوى إجراءات تقليدية لإدارة الولاية واستتباب الأمن.

حكم بلاد المسلمين في هذه الفترة رجل قل أمثاله، أعاد الصورة المشرقة للمنهج الإسلامي: هو الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، فقد عمل خلال خلافته التي دامت سنتين فقط من الأعمال ما لا يستطيع غيره في سنين طويلة لصدقه وإخلاصه، متميزاً بالتقوى وطاعة الله.

الوالي المسلم الحر الثقفي مثل يُحتذى، لا يجعل لليأس على العزيمة سبيلاً، فرد كعدد أمة في عمل، بنى مجداً، وأسس إمارة، بهمته التي تخاطب كل شاب.

بدأت حركة التجارة منذ بداية الفتح الإسلامي

ثانياً السمح بن مالك الخولاني



الوالي الرابع السمح الخولاني

فأشرف عمر بن عبدالعزيز على رعاية الأندلس واختار السمح بن مالك الخولاني، فأرسله من الشام والياً في عام ١٠٠ للهجرة، وهو نوع فريد من الرجال يكفي أنه من اصطفاء عمر بن عبد العزيز، وأنه أقام ما أمره الخليفة به من القيام بالحق واتباع العدل والصدق، وأعاد تنظيم البلاد مستقلة عن الشمال الإفريقي خاضعة للخلافة مباشرة، فنشر الأمن وقسم الأندلس إلى كُوَر (مفردها كورة) والكورة قرية كبيرة تتبعها عدد من المدن والأقاليم، ويتبع المدينة عدد منها، ويتبع القرية عدد من المزارع والأرياف.


تخريمة على الرخام في قرطبة


باب أحد المساجد في إشبيلية

النهضة الحضارية

وأنشأ المدارس والمساجد والموانئ ليصل الناس ببلاد إفريقية، وأنشأ قنطرة قرطبة العظيمة التي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم. وجاء من خبر بنائها أنْ كتب السمح إلى عمر بن عبد العزيز: يستشيره ويعلمه أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحية غربها، وكان لها جسر يعبر على نهرها ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض في الشتاء عامة، فإن أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت، فإن قِبَلي قوةٌ على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد، وإن أحبَّ من صخر ذلك السور بنيت جسرهم، فيقال إن عمر رحمه الله أمره ببنيان القنطرة بصخر السور، وأن يبنى السور باللَّبن إذ لا يجد له صخراً، فبنى القنطرة في سنة ١٠١ للهجرة، ويفهم من هذا أن الخليفة قدَّم الناحية الاقتصادية ببناء القنطرة بالصخر على الناحية العسكرية، إذ بنى السور باللَّبن.





القنطرة

ويكفينا الإدريسي وصفاً حين يصف القنطرة التي بناها السمح بن مالك الخولاني بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز: لقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخراً في بنائها وإتقانها، وعددُ أقواسها سبع عشرة قوساً بين القوس والقوس خمسون شبراً، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبراً، وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبراً، ولها ستائر من كل جهة تستر العامة، وارتفاع القنطرة من موضع المشي إلى وجه الماء في أيام جفاف الماء ثلاثون ذراعاً، وإذا كان السيل يصل الماء منها إلى حلوقها، وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سدٌ مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الجافية من الرخام. وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء، في كل بيت منها أربع مطاحن، ولها أهمية حيث تصل جنوب الأندلس بقرطبة والشمال الإفريقي.

هذه القنطرة بحد ذاتها نهضة وعمران، سد وطواحين وجسور، هذا ما كان المسلمون يعملون في البلاد التي يدخلونها فتحاً تحت الحكم الإسلامي.
قارن إن شئت بما يفعله غيرهم في البلاد التي يستعمرونها.



الإسلام في جنوب فرنسا

تحرك السمح وهو صاحب همة عالية في أواخر ذي القعدة عام ١٠٢ نحو جنوب فرنسة ليضع حداً للاضطرابات هناك" وأنشأ حكومة إسلامية سميت باسم: حكومة "سَبْتِمانية الإسلامية" وفتح مدينة "طولوشة"، وجرت معارك عديدة بينه وبين دوق "أقيطانية" يسمى "أوديس" الذي فرّ وطلب المدد من شارل مارتل في مدينة "طَرَسْكونة"، فأمدّه الأخير بالعتاد الوفير والرجال الكثر الذين حاصروا المسلمين عند "طولوشة" حيث قتل السمح ورجاله الأقلة في يوم التروية سنة ١٠٢ للهجرة، ولذلك مدلوله العظيم، ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾ (الأحزاب٢٣١)، وكانت مدة إمارته سنتين وشهرين.

توحيد أوربا

وفي هذه الفترة استطاع ملك فرنسة أن يوحد أوربة، وقد أطلق البابا عليه لقب "مارتل" أي:المطرقة، وهو الملك المسمى شارل مارتل، وكان لابد أن يقع الصدام بينه وبين المسلمين.



شارل مارتل ملك فرنسا

عام ١٠٢هـ
٧٢١م

الوالي الخامس عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي

فاجتمع أمر المسلمين على رجل من الجيش مباشرة على تعيينه والياً هو عبد الرحمن بن علي الغافقي في شهر ذي الحجة عام ١٠٢ للهجرة، وهو تابعي جليل يروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم، لكنه لم يبق في الولاية إلا شهرين (وهذه ولايته الأولى)

عام ١٠٣هـ
٧٢٢م

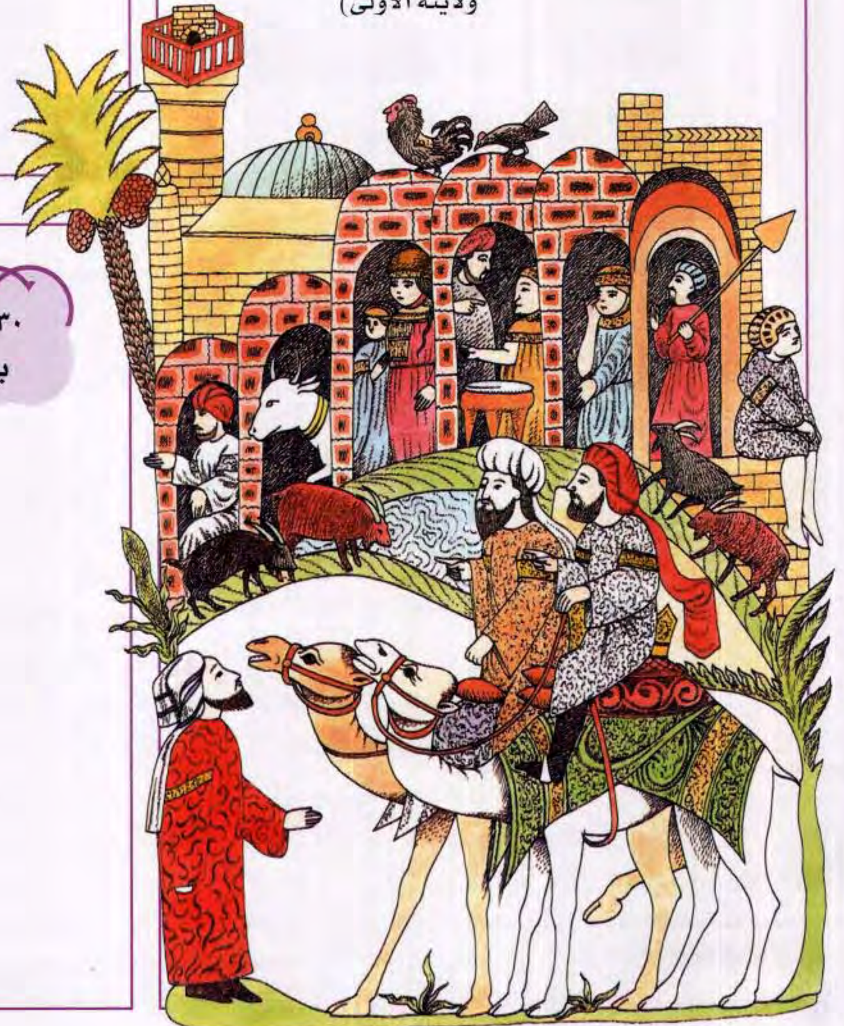
الوالي السادس عنبسة الكلبي

حتى قدم الأندلس عَنْبَسة بن سُحيم الكلبي في صفر ١٠٣ للهجرة، أرسله والياً إليها والي إفريقية في تلك الفترة بشر بن صفوان الكلبي.

فاستمرت ولايته أربع سنوات ونصف وهي فترة طويلة إن قورنت بحكم الولاة في تلك الفترة، فأكمل خطة السمح بالاستقرار في بلاد الأندلس، والهجوم على الروم وجهادهم، وكان تقياً ورعاً وإدارياً ومجاهداً أميناً.

٣٠ كم عن باريس

فسار من الأندلس حتى وصل إلى "سبتمانية" متجهاً إلى شرقي فرنسا ثم شماليها وقضى على قوة أوديس "دوق أقيطانية"، ثم مال غرباً حتى وصل مدينة "سانس" التي تبعد عن باريس ٣٠كم فقط، ولم يصل من المسلمين أحد حتى هذا التاريخ في غزوة إلى مكان قريب مثله من باريس، فطار صواب "شارل مارتل" وكاد يفقد رشده، فجمع حوالي أربعمائة ألف مقاتل، هاجموا جيش عنبسة وحاصروه وهدّوه بالمطارق فمات شهيداً هو وبعض أصحابه رحمهم الله تعالى أجمعين، وذلك في شعبان ١٠٧ هـ.



حركة التجارة والعمارة الإسلامية الكبيرة



الوالي السابع
عذرة الفهري

وتولى من بعده عذرة بن عبد الله الفهري في شعبان ١٠٧للهجرة، ولم يبق إلا شهرين فقط في ولايته، وكان من الصلحاء الفرسان الذين رافقوا عنبسة.



الوالي الثامن
يحيى الكلبي

حتى جاء الوالي الجديد المعين يحيى بن سلمة الكلبي في شوال ١٠٧ للهجرة والذي دام حكمه سنتين ونصف.



الوالي التاسع
حذيفة القيسي

ثم أرسل حذيفةُ القيسي في ربيع الأول عام ١١٠ للهجرة وكانت ولايته ستة أشهر



الوالي العاشر
عثمان الخثعمي

وولي من بعده عثمان بن أبي نِسعة الخثعمي في شعبان ١١٠للهجرة وولايته خمسة أشهر.



الوالي الحادي عشر الهيثم الكلابي

ثم جاء الهيثم بن عدي الكلابي من قبل والي إفريقية، والذي استمرت ولايته عشرة أشهر، فقد كان متعصباً للقيسية، يريدها قَبَلية لزعامة عروق جاهلية، جعل الحجاجَ رائده في معاملة الناس، فكان يأخذهم بالقوة، ويرد بالقمع على الحوار، فساءت سياسته في القيروان وفي الشمال الإفريقي مما أدى إلى ثورة البربر في المغرب، وكان واليه على الأندلس الهيثم مثله يتبع السياسة السيئة نفسها، إلا أنه كان صاحب جهاد أيضاً، فبدأ باستئناف الفتوحات حتى وصل إلى بلدة "مقوشة" ففتحها، وقد تكون هذه مدينة ماسون الفرنسية.

وثار الناس يطلبون عزله نتيجة القسوة والأخذ بالشدة، فعزل.



الوالي الثاني عشر
محمد الأشجعي

وجاء من بعده محمد بن عبد الله الأشجعي سنة١١١ للهجرة، وكان ضعيفاً ما استطاع أن يفعل شيئاً ولم تدم ولايته إلا شهرين.

ويلاحظ هنا التغيير السريع للولاة، وهذا يعني أن الحضارة تتوقف، ويلف الناسَ الركون والدعة، كذلك تتوقف الفتوحات لهذه التحولات السريعة، وتضطرب الأمور والأحوال، فالاستقرار السياسي مهم لأي نهضة حضارية.

ثالثاً عبد الرحمن الغافقي، وبلاط الشهداء



الوالي الثالث عشر عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي

وبقي الأمر كذلك إلى أن تم اتفاق أهل الأندلس وفرض الجيش رأيه، وأقرّ والي إفريقية على تعيين عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (الولاية الثانية) في شهر صفر سنة ١١٢ للهجرة، واستمرت ولايته سنتين وثمانية أشهر، هو اسم خلّده عمله وجهاده، قائد عسكري من أشهر من عرفهم التاريخ، شجاع وهو الذي أنقذ بقية المسلمين عندما استشهد السمح بن مالك الخولاني في يوم التروية عام ١٠٢ للهجرة، وكان أول عمل عظيم له حين تولى الولاية الثانية أن جمّد تلك الصراعات القبلية التي كانت تتأجج في بعض الصدور فتشعلها فتناً، وألف بين القلوب المتنافرة في تلك الحقبة إذ ذكرهم بالإسلام، وبالله الذي ألف بين قلوبهم، وأطفأ نار الصراعات القبلية، والإقليميات التي تسبب الانحطاط والتقهقر، وتدمر الحضارة، وما زالت في عصرنا هذا تفعل فعلها!

فضبط الأمور وأعاد الناس إلى وشيجة الإيمان لا إلى وشائج أخرى، فجنسية المسلم عقيدته، ولسان حاله ينبغي أن يقول:

أبي الإسلام لا أب لي سواه   إذا انتسبوا لقيس أو تميم



إحدى مدن الأندلس الزاهرة وآثار المسلمين باقية فيها

مهاجمة فرنسا

استطاع عبد الرحمن الغافقي أن يؤلف بين المسلمين هناك وحشدهم في خمسين ألفاً لم يتجمع للمسلمين مثله من قبل، وتوجه غازياً إلى بلاد الفرنج فرنسا أولاً.

فهاجم إقليم أقيطانية (إقتانية)، وفرّ حاكمها "أوديس"، ثم فتح "آبل"، ثم دخل "بودو" ثم استطاع أن يفتح "طولوشة" عاصمة الإقليم، وفرّ "أوديس" من "سان مارتن" إلى "شارل مارتل" يحتمي به ويستنجده، حيث توجه عبد الرحمن نحو باريس بعد أن فتح مدينة "تور".

فأخضع بذلك جنوب فرنسة ووسطها، ولم يبق أمامه إلا مدينة "بواتيه" فاصلة على طريق "باريس".



حرب صليبية

استنجد "شارل مارتل" بالبابا يستغيث به، فأعلنها حرباً صليبية - وهم صليبيون إلى الأبد- فأرسل إلى ملوك أوربة وأمرائها قاطبة أن يرسلوا ما يمكن من الجنود والأعتدة إلى "شارل مارتل" ليحمي "باريس" من السقوط، فاحتشد خلق كثير، واجتمع مئات الألوف.

تتويج الامبراطور من قبل البابا

معركة بواتيه

توجه "شارل مارتل" بجيش كثير العدد بلغ قوامه "٤٠٠"ألف لصدِّ زحف المسلمين، وبلغ ذلك عبد الرحمن الغافقي، فقرر أن يختار هو مكان المعركة، فتراجع عن "بواتيه" إلى سهل يدعى"شاتلِرو" شمال شرق "بواتيه" بـ"٢٠" كيلو متراً؛ وخيم على أطلال بلاط قصر مهجور قديم هناك، ينتظر قدوم القوات الأوربية، فأصبح الوضع هناك: يفصل "١٠٠٠" كيلو متر قوات المسلمين عن عاصمتهم "قرطبة"، وما من مَدَد يمكن أن يأتيها، وقيل إن بعض الجيش طلب الانسحاب لضعفٍ في نفوسهم وميل إلى بعض الغنائم التي كانت معهم، إلا أن عبد الرحمن ذكّرهم بأن مهمة المسلمين ليست إلا في إخراج الناس من العبودية إلى الحرية، ومن عبودية البشر إلى عبودية رب العالمين، وإنقاذ العباد من ظلمات الكفر والطغيان إلى النور والأمان، فطابت نفوسهم لذلك، وقرروا البقاء والانتظار لملاقاة الأعداء.

أما القوات الأوربية فإن البابا كان يمدها تباعاً، وهي قريبة من عاصمة فرنسة، ويقودها رجل عرف بالدهاء والبطش ويلقب بالمطرقة: "شارل مارتل".



بلاط الشهداء

حدثت المعركة في أواخر شعبان عام ١١٤ للهجرة، يسميها المسلمون "بلاط الشهداء"، وتسمى لدى أهل الغرب معركة "بواتيه".

استمرت هذه المعركة عشرة أيام، ودخل شهر رمضان والقتال على أشده، وكانت الأيام الأولى لصالح المسلمين، وكان الغافقي يهاجم في الصفوف المتقدمة، ويقتحم جيش العدو ويمزقه، وبعمله هذا يقدم نموذجاً للقادة العظام، لا الذين يقودون من وراء المكاتب أو يختبئون في الملاجئ وخلف الأسوار.

واشتد القتال وبلغ ذروة الهجوم حول النقطة والموضع الذي كان فيه عبد الرحمن حيث أمر "شارل مارتل" بالتركيز لقتل الغافقي، وكان يعتبره أنه هو مفتاح الجيش وثباته وقوته.

عبد الرحمن الشهيد

وسقط عبد الرحمن - رحمه الله - شهيداً، فضعفت النفوس، وبدأت الهزيمة تدب فيها لتعلق بعضها بالدنيا، وكثر القتل والشهداء في صفوف المسلمين، فانهزموا، وقد زاد استشهاد الغافقي صعوبة في الموقف ففضلوا الانسحاب.

فما رأى الفرنج في صباح اليوم التالي من المعركة التي قتل فيها أمير الجيش إلا أرضاً بلقعاً، فالمسلمون قد غادروا المكان دون أن يشعر بهم إنسان، وكانوا قد تركوا الخيام وبعض أمتعتهم ليوهموا الفرنجة باستمرارهم.



شارل مارتل يقود معركة بلاط الشهداء بنفسه



بلاط الشهداء أنقذت أوربا

وقد عدّ المؤرخون "بواتيه" نصراً مؤزراً للفرنجة، واعتبروها معركة حاسمة، وهي بالواقع معركة هامة فاصلة إلا أن المسلمين لم يهزموا فيها، بل تأكدوا أنهم يجب ألا يغامروا بجيوشهم القليلة العدد في بلاد واسعة وأمم عديدة تجمعت للقضاء على المسلمين.

وتحتاج هذه المعركة في دراستها وأسبابها إلى بحث علمي نزيه، لعلنا نصل إلى حقائق غير التي يعتمدها بعض الباحثين على أسس غير سليمة أو على أسس مفسرة بحسب المواقف والأهواء.

يقول"جيبون" أحد المؤرخين الإنكليز مثلاً:

إن "بواتيه" أنقذت آباءنا الإنكليز وجيراننا الفرنسيين من نير القرآن المدني والديني، وحفظت جلال رومة، وأخرت استعباد القسطنطينية، وفرقت بين المسلمين، ولو انتصر المسلمون في "بواتيه" ما كان شيء يقف أمامهم بعد ذلك.

وذكرى "بواتيه" مؤلمة للنفس، لتعلق بعض النفوس بالدنيا كما كان مثلاً في "أحد" حيث نزل قوله تعالى: ﴿منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة﴾ (آل عمران ١٥٢)، فأصيبوا هناك كما أصيبوا هنا.

ولكنها ذكرى عزيزة على النفس المسلمة، تدغدغ الآمال وتوقظ الهمم، فقد استطاع الغافقي رحمه الله أن يوحد المسلمين ويوجههم في الأندلس ويهاجم بهم أوربا لأداء دورهم وتبليغ رسالة العالمين إليهم، ولو انتصروا هناك لتغير وجه التاريخ، ولكنه قدر الله سبحانه وتعالى.

وقد عرف عديد من الكتاب الغربيين شيئاً من حضارة الإسلام ورقيه في كل أرض وطئها المسلمون ثم استقروا عليها، فقالوا عن "بواتيه" إنها نكبة كبيرة أصابت أوربة بحرمانها من الحضارة قروناً.

يقول أحدهم: ذلك ما أصابها (أوربة) على يد جند الفرنجة بقيادة "شارل مارتل"، الذي حشد جيشاً ضخماً من الفرنج ومختلف العشائر الجرمانية المتوحشة، والعصابات المرتزقة فيما وراء "الراين"، يمتزج فيه المقاتلة من أمم الشمال كلها، وجلب جنداً غير نظاميين، نصف عراة يتشحون بجلود الذئاب وتنسدل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية.



منظر تصويري لمعركة بلاط الشهداء في الرسوم الغربية

ولا تزال هذه المعركة تحتاج إلى دراسة منهجية لمعرفة الأسباب لانهزام المسلمين، وذكر الغنائم والفرقة في صفوف المسلمين يحتاج إلى نظر وفيه مقال.

تراجع المسلمون عن فرنسة، إلا أنه بقيت لهم مناطق فيها، وتتبع شارل مارتل المسلمين ثلاث سنوات، وما بقي لهم إلا منطقة صغيرة فيها "أربونة" عاصمة في جنوب فرنسة.



الوالي الرابع عشر عبد الملك الفهري

ربما كـان الذي انسحب بالمسلمين بعد استشهاد الغافقي هو عبد الملك بن قطن الفهري في شوال عام ١١٤ للهجرة، وكان متقدماً في السن شيخاً كبيراً، ولم تكن له مؤهلات للقيادة ولا للسياسة، وربما فرضته قبيلته إلى سدة الولاية، فأذعن الناس للأمر الواقع، فـمـلأ الأندلس بالظلم والجور، فضج الناس منه. وراسل أهل الأندلس عبَيدَ الله بن الحبحاب والي مصر وشمال إفريقية، وكان ممن يُعتمد عليه، إذ ولاه الخليفة في دمشق ولايتي مصر والشمال الإفريقي، فعزله لطلب الناس، وكانت مدة ولايته سنتان.

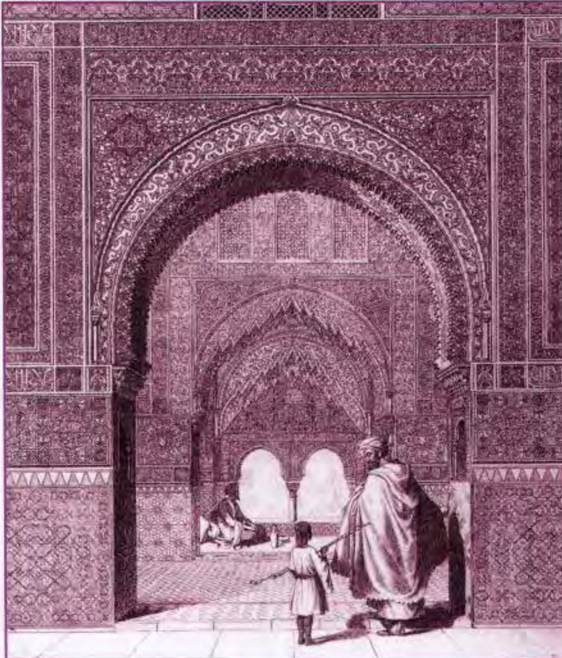


الوالي الخامس عشر عقبة السلولي

وأرسل والي مصر وشمال إفريقية عقبةَ بن الحجّاج السلولي والياً إلى الأندلس في شوال عام ١١٦ للهجرة، وكانت ولايته خمس سنوات، ويذكر أنه لما خيره والي مصر وإفريقية بين ولاية إفريقية وبين الأندلس، اختار عقبةُ الأندلسَ وقال: إني أحب الجهاد وهي موضع جهاد، فولاه، فدخل الأندلس وافتتح حتى بلغ "أُربونة"، ودخل "جيليقية" و"بَنْبلونة".
وكان محمود السيرة مثابراً على الجهاد وما ترك جيباً إلا فتحه ما عدا "الصخرة"، وذكر عن درجة حبه للدعوة الإسلامية أنه كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام، فأسلم على يده ألفا رجل، وفي الحديث:«لأن يهدي بك الله رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم» (رواه البخاري) فكيف بثواب الألفين عند الله سبحانه وتعالى!.

مهاجمة فرنسا ثانية

وجال عقبة رحمه الله في المناطق التي سلكها عنبسة وفي الوجهة ذاتها، في جنوب فرنسة وشمالها الشرقي، أشهرها مقاطعة "سبتمانية" وعاصمتها "أربونة" ومن مدنها "قرقشونة"، ومقاطعة "البروفانس" شمال "سبتمانية" إلى الشرق وعاصمتها"أبنيون"، وكذلك منطقة شمال "البروفانس".
ولعله كان ينوي التوجه إلى الشمال ليجتاز "أقيطانية"، ويصل إلى المكان الذي جرت فيه معركة "بلاط الشهداء"، ولم يكن هذا الجهاد سهلاً ولا قليلاً إلا أنه يدل على قوة الإيمان والهمة العالية.
ولما حاصر "شارل مارتل" "قرقشونة" بجيش كثير العدد، أرسل عقبة القوات لفك الحصار، ومن ثم جاء هو بنفسه لكنه سقط شهيداً عند "قرقشونة" رحمه الله.



غرناطة الحمراء : "غرفة الأختين" المعروفة قديماً بـ"بيت عائشة"





وفاة بلاي

وفي هذه الفترة جرى في منطقة "ليون" أن توفي "بلاي" سنة١١٩ للهجرة فورثه ابنه "فرويلة" الذي استمر سنتين، وتوفي هذا من غير أن يترك عقباً، فخلفه رجل يدعى "أذفنش" ويسميه المسلمون "ألفونسو الأول" الذي تزوج من ابنة بلاي"المسماة "إرمسندا".

تمكن "ألفونسو" من أن يوحد "منطقة الصخرة" وأن يجمع الشتات الذي كان عقبة قد فرّقهم، فهو يعتبر لهذا مؤسس المملكة النصرانية في الشمال، والتي سيكون لها دور كبير في تاريخ الأندلس بعد ذلك.

مدينة الزهراء، القاعة الفنية، كان عرش الخليفة منصوباً قرب الجدار الداخلي



الوالي السادس عشر عبد الملك الفهري (ثانية)

عبد الملك بن قطن الفهري (الولاية الثانية)، رفعته قبيلته وفرضته والياً على الأندلس لما اختلفت المعايير في ذاك الزمن ودامت ولايته سنة وشهراً، كان الوالي سابقاً يعيّن لحسن سياسته ونظام إدارته، فأصبح الآن يعيّن لعصبيته ولقبيلته القوية.

وخلال هذه الفترة من توالي الولاة في الأندلس كانت أحداث خطيرة تجتاح العالم الإسلامي وشمال أفريقيا أدت إلى أحداث هامة في تاريخ الأندلس، ومن هذه الأحداث:

رابعاً ثورة الخوارج في الشمال الإفريقي

بدأت تظهر في هذه الفترة الفتن والقلاقل في الشمال الإفريقي بشكل خاص من مختلف الفرق وأنصار الولاة، وكانت فرقة الخوارج أكثرها إثارة واضطراباً في المشرق الإسلامي ثم في الأندلس.

ظهر الخوارج أصلاً في جيش علي رضي الله عنه وكفروه لأنه رضي بالتحكيم، وكفروا كل من رضي بالتحكيم، فقاتلهم علي رضي الله عنه، ودمّرهم وكاد يقضي عليهم في معركة "النهروان" على شاطئ الفرات، لكن الخوارج جمعوا شتاتهم في العهد الأموي عدة مرات، فأثاروا الاضطرابات، وسفكوا الدماء، ونشروا الرعب، لكن الأمويين عاجلوهم ولاحقوهم، ولعلّ الفضل الأكبر في تمزيق هؤلاء يعود للقائد المحنك "المهلب بن أبي صفرة" الذي لاحقهم في كل مكان في المشرق الإسلامي.

ففر الخوارج فرادى وأشتاتاً وجماعات إلى الجزائر وتونس وليبية، وتجمعوا بشكل خاص في المغرب الأقصى، وكانوا متعصبين لفكرتهم، شديدي التمسك بمبادئهم، نشروا مذهبهم بين البربر وغيرهم، وساعد على ظهور الخوارج شعور معظم البربر بالظلم الذي كان يعاملهم به عمال بني أمية، وكذلك الشعور بالغبن من عدم مساواتهم في التعامل ببقية المسلمين.

استغل هذا الوضع رجل يدعى "ميسرة" فقادهم بعد أن جمعهم للثورة على والي طنجة: عمرو المرادي - الذي كان شديداً يبطش بهم- فقتله، وولّى خارجياً على طنجة يدعى عبد الأعلى بن جريج، وبعد احتلال طنجة توجه نحو "السوس" فاحتلها، وتقدم باتجاه القيروان.



الخوارج يثورون في الشمال الإفريقي

من هم الخوارج؟

كان الخوارج من المسلمين لكنهم يتمسكون بظاهر الألفاظ، ويكفّرون أهل الذنوب الكبائر، ولهذا خرجوا على جماهير المسلمين، واعتبروا مخالفيهم مشركين، وأقضّوا مضاجع البلاد والعباد، وكانوا فتنة عظيمة في كل مكان ظهروا فيه، كانوا كثيري العبادة والتلاوة، ولكن كما قال عليه الصلاة والسلام: «يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة» رواه مسلم وأبو داود.

وفي حديث آخر: «يخرج في هذه الأمة - ولم يقل منها - قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم - أو حناجرهم - يمرقون من الدين مروق السهم من الرّميّة» رواه مسلم وأبو داود .



القتال مع الخوارج

أرسل والي مصر خالد الفهري إلى قائد الجيش الذي كان في البحر: أن اترك البحر وأوقف تقدم الخوارج، لكن الخوارج انتصروا عليه في أول لقاء بينهما، وازداد اقترابهم من القيروان" عاصمة إفريقية، لأن من يقاتل من أجل عقيدة أو مبدأ - حتى وإن كان باطلاً - يكون أشدُّ بأساً، لأنه يقاتل لمبدأ لا لغنيمة.
وشاء الله سبحانه أن يحدث خلاف بين الخوارج أنفسهم، فقد استطاع أحدهم ويدعى "خالد الزيناتي" إقصاء "ميسرة" من زعامة الثائرين وتولى هو شأن الخوارج.
هنا شعرت الخلافة في دمشق بخطر الخوارج في الشمال الإفريقي شعور جدّ، فأرسلت جيشاً قوامه"٣٠" ثلاثون ألفاً بقيادة "كلثوم بن عياض القسري"، وكان طاعناً في السن شيخاً كبيراً، بلغ الثمانين من العمر، لكن ابن أخيه "بلج بن بشر" كان يقود الجيش فعلياً ويدير أمره، والتقى الجيشان، جيش الشام وجيش الخوارج قرب القيروان في قرية تدعى "قدورة"، وجرت معركة قتل فيها كلثوم القسري، وقتل معه "حبيب" قائد جيش البحر، وانتصر الخوارج، واشتد الأمر على المسلمين، إلا أن "بلج بن بشر" استطاع أن يفلت هو وسبعة آلاف من جند الشام وأن يلتجئ إلى "سبتة" ويتحصن فيها، فحاصره الخوارج بقيادة رجل يدعى "عبد الواحد الهواري" وثبت "بلج" وما استطاع الخوارج اقتحام "سبتة".
تقلص نفوذ الأمويين في شمال إفريقية، وخضع الشمال كله للخوارج ولم يبق إلا "سبتة"، وتقدم جيش آخر للخوارج تجاه القيروان بقيادة "عكاشة الفزاري" يريد إنهاء سلطة الأمويين من العاصمة.



تمزيق الخوارج في أفريقيا

خشي "هشام بن عبد الملك" الخليفة في دمشق من ضياع هذه المنطقة من بين يديه، فقرّر إرسال جيش ضخم العدد والعدة بقيادة "صفوان الكلبي" سنة ١٢٤هـ لإيقاف الزحف الخارجي والقضاء عليه، فاستطاع ضرب الخوارج والبربر، ومزّقهم، وقضى على ثورتهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وطردهم عن المناطق التي احتلوها، ما عدا منطقة "طنجة" فإنها بقيت بيد الخوارج، وتقع "سبتة" ضمن هذه المنطقة، لكن الخوارج يحاصرون الأمويين في مدينة "سبتة" وفيها بلج بن بشر الذي لم يبق له منفذ إلا عن طريق المضيق، فراسل واليَ الأندلس عبد الملك بن قَطَن يسأله المدد والمؤن والطعام، لكن هذا الظالم كان يفكر بمنطق العصبية، فلم يساعد بلجاً بشيء وما مدّ له يد العون، خشية أن يسلبه ولايته فيما إذا اشتد وقوي شأنه.
واشتدت الحال على بلج وساءت الأوضاع نتيجة الحصار، فسمع بذلك أحد التجار الأندلسيين متأثراً بوضع المسلمين بما يجري هناك فأرسل سفينتين محملتين بالطعام والطحين إلى سبتة، يسدُّ بذلك بعض حاجات المسلمين، لكن عبد الملك بن قطن أعدم التاجر لما بلغه هذا العون منه.

عندما تنقطع المودة والرحمة بين المسلمين ويبلغون هذا الحد من القسوة فيما بينهم فلا عجب أن يطمع بهم أعداؤهم وتتفرق دولهم

خامساً الفتن تعصف بالأندلس

جيش الأندلس وجيش الشام ضد الخوارج

وامتدت ثورة الخوارج إلى الأندلس على ثلاثة محاور، واقترب الخطر على عبد الملك بن قطن، الذي لا يستطيع بقواته القليلة أن يصمد أمام الثورة العارمة -ثورة الخوارج- لذلك استنجد ببلج بن بشر يقول: ساعدني على أن أساعدك بشروط: أرسل إليك ما تحتاج وتأتي إلي تعينني على الخوارج على أن تعود بجيشك إلى الشمال الإفريقي بعد النصر.

رضي بذلك بلج بن بشر، ونقلت سفن عبد الملك قواته إلى الأندلس، وفي ملاقاة العدو استطاع الجيشان "جيش عبد الملك والجند الشامي" أن يقهر الجيش الأول للخوارج عند "شذونة".

ثم توجها معاً إلى نحو "قرطبة" واستطاعوا هناك دحر الجيش الثاني وإبعاد الخطر عن "قرطبة"، وبعد ذلك توجه الجيش لفك الحصار عن "طليطلة" التي كان يحاصرها الجيش الثالث الخارجي منذ زمن، وتمزقت صفوف الخوارج ودحرت قواتهم، وساءت الأحوال في الأندلس للخوارج، لذلك فر كثير منهم إلى الشمال الإفريقي، واستقرت أمور المسلمين في الأندلس.



ولما أوقفت هذه الثورة طلب عبد الملك بن قطن من الجند الشامي مغادرة الأندلس فوراً، لكن الجند طلبوا مهلة للاستعداد للرحيل، فأصر الوالي على أمره، وأساء معاملة الجيش مما أدى بالجند الشامي الهجوم على قصر الولاية وأسر عبد الملك ثم إلقائه في السجن





الوالي السابع عشر بلج بن بشر

ولّى الجند الشامي بعد أسر عبد الملك وسجنه بلج بن بشر ولايةَ الأندلس وحصل خلاف في الأندلس، إذ فرّ أمية بن عبد الملك بن قطن إلى الشمال والتجأ في "سرقسطة"، كما فرّ أخوه قطن بن عبد الملك إلى منطقة الغرب واحتمى في "ماردة"، ثم راسلا بعض الشخصيات الأندلسية لمساندتهما في النزاع ضد بلج بن بشر، فاستجاب عبد الرحمن بن علقمة اللخمي، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري، اللذان هويا في فتنة الخصومة العمياء، وكان الوالي المسجون عبد الملك بن قطن قد طلب إلى بلج بن بشر إبان طلب المساعدة منه أن يقدم له رهائن ضماناً لعودة الأخير إن استطاعوا ردّ الخوارج، كما سبق، فلما لم ينسحب بلج بن بشر وسجن عبد الملك قام أنصاره في الجزيرة الخضراء حيث الرهائن هناك بإساءة معاملتهم، وتعذيبهم حتى قتلوا واحداً منهم، مما دفع أنصار بلج بن بشر إلى قتل عبد الملك بن قطن، ولهذا السبب المباشر توجه أولاده ومن ساندهم، وكان يربو عددهم على أربعين ألفاً نحو "قرطبة" لإسقاط ولاية "بلج" الذي لم يكن معه سوى سبعة آلاف من جند الشام، وتمكن من تجنيد ثلاثة آلاف آخرين فبلغ عددهم عشرة آلاف.

تمكن جند الشام من الثبات في قرطبة يناصرون الوالي بلج بن بشر، إلا أن عبد الرحمن بن حبيب الفهري قام بعملية انتحارية إذ اقتحم مع مجموعة من أنصاره صفوف الجيش الشامي ووصل إلى بلج بن بشر وجرحه جرحاً بليغاً، لكن أنصار بلج أحاطوا به فولّى هارباً، وهزم المتحالفون بعد أن تركوا وراءهم كثيراً من القتلى في شوال عام ١٢٤هـ، ومات بلج بن بشر متأثراً بجراحه، بعد أن استمرت ولايته أحد عشر شهراً.



عارضة مزخرفة بأشكال الورود موجودة في المسجد الكبير بالقيروان



الوالي الثامن عشر ثعلبة العاملي

وتولى ثعلبة بن سلامة العاملي في ذي القعدة عام ١٢٤هـ، ولاّه جند الشام، وقد استطاع أهل الأندلس أن يجمعوا شتاتهم ويهاجموا جيش ثعلبة في الشمال قرب "ماردة"، وما استطاع هذا الجيش الثبات والصمود فدخل مدينة "ماردة" وتحصن بها حيث حاصرهم جند الأندلس، وما استطاع من بقي من جنده في قرطبة فك الحصار عنه، وشدد الأندلسيون عليه الحصار وعلى جنده، وهو عازم على الصمود والقتال رافضاً الاستسلام، إلى أن جاء يوم عيد الأضحى في ذي الحجة عام ١٢٤هـ ففتح هو وجنده الأبواب وقاموا بهجوم مفاجئ باغت الأندلسيين الذين كثر فيهم القتل وولّوا الأدبار يطلبون النجاة، وتفرقوا في الأندلس، وكانت مدة ولايته عشرة أشهر.



الوالي التاسع عشر أبو الخطار الكلبي

رأى جماعة من أهل الرأي والفقه والعلم هذا الوضع المزري في الأندلس: صراع قبلي وعصبية قبلية تؤجج الأحقاد والنعرات، فأرسلوا وفداً إلى والي القيروان" حنظلة بن صفوان" يطلعونه على الصورة الحقيقية لحال الأندلس وواقعها والدماء التي تسيل حقداً على أرضها، فتفهم الأمر وأرسل رجلاً يدعى أبا الخطّار حسام بن ضرار الكلبي، في رجب عام ١٢٥هـ، والياً على الأندلس، وكان أبو الخطّار إدارياً حكيماً استطاع بسياسته أن يوقف الفتن، فأعلن العفو العام على الجميع، وطلب من جند الشام إما أن يعودوا إلى الشام أو أن يستقروا في أماكن مختلفة من الأندلس، لا أن يتجمعوا في مكان واحد، فاستجابوا له، وأمر أن يغادر ثعلبة بن سلامة (الوالي السابق)، وعبد الرحمن الفهري أرضَ الأندلس، ويتجها إلى شمال إفريقية ففعلا. ورضي أن يبقى ابنا عبد الملك (أمية وقطن) في الأندلس بشرط أن يساعداه ولا يتفرقا عنه.



«أبو الخطّار حسام بن ضرار الكلبي» الوالي الجديد يدخل الأندلس

واستمر أبو الخطّار على هذه السياسة الحكيمة لكنه تحول عنها إذ حدث حادث في الأندلس، حيث قُتل أحد أصدقائه المقربين ويدعى "سعيد بن جوّال" فاتهم أبو الخطّار القيسيين بذلك، وكذلك فعل لما تخاصم إليه قيسي وكلابي في شأن اختلفا فيه فضرب أبو خطار القيسي، وذهب وهذا بدوره إلى زعيم قيسي يدعى "الصُّميل بن حاتم" - وله شأن كبير في تاريخ الأندلس-. وجاء الصميل إلى أبي الخطّار يريد أن يستوضح الأمر ، إلا أن الأمير لحنقه على قبيلة قيس شتمه وزجره وطرده من مجلسه.

الداهية الصميل بن حاتم

كان الصميل بن حاتم داهية، صاحب كلام وصاحب حجة ولسان، وبدأ يجمع القيسيين، وراسل بعض الناقمين على أبي الخطّار من بني كلب مثل ثُوابة بن سلامة الجذامي يحضهم على الثورة، فرضي ثوابة على أن يكون الأمر له بعده، لقد أصبح معيار الناس الحكمَ لا المبدأ، كما جاء الصميل إلى رجل له شأن في "أستجة" يدعى "أبا العطاء" وما زال به حتى حرّكه ضدّ أبي الخطّار.

وتحالف هؤلاء جميعاً، وتجمعوا في "شذونة" عام ١٢٧هـ، هاجمهم أبو الخطّار لكنه أسر هو، وهزم جيشه. واستمرت ولاية أبي الخطار ثلاث سنوات.





الوالي العشرون ثوابة الجذامي

وتولى ثوابة بن سلامة الجذامي في رجب ١٢٨هـ. واستطاع رجل يدعى عبد الرحمن اللخمي في ٣٠ فارساً و٢٠٠ رجل من المشاة أن يقوم بعملية خاطفة في قرطبة ويخرج أبا الخطّار من سجنه، وثارت العصبية تضرم نيرانها على أرض الأندلس، ومات الوالي ثوابة بعد أن دامت ولايته ستة أشهر.



الوالي الحادي والعشرون عبد الرحمن اللخمي

عيّن الصميلُ "عبدَ الرحمن بن كثير اللخمي" والياً في محرم سنة ١٢٩هـ واستمرت ولايته مدة وجيزة، وكثرت عليه الثورات، وتنوعت الاضطرابات، فقد ثار عليه "عمرو بن ثوابة" الذي يرى أنه أحق منه بالولاية، ورجل آخر يدعى :يحيى بن حريّن"، لذلك لم يستطع عبد الرحمن إدارة الولاية بشكل يدعو إلى الاستقرار، فعزله الصميل بعد أن دام في الحكم ثلاثة أشهر فقط وعيّن مكانه:

أحد معالم الحياة الأندلسية حيث يبدو كيف كانوا يعتنون بالمحاصيل الزراعية وكيفية تخزينها

سادساً الوالي الأخير يوسف الفهري

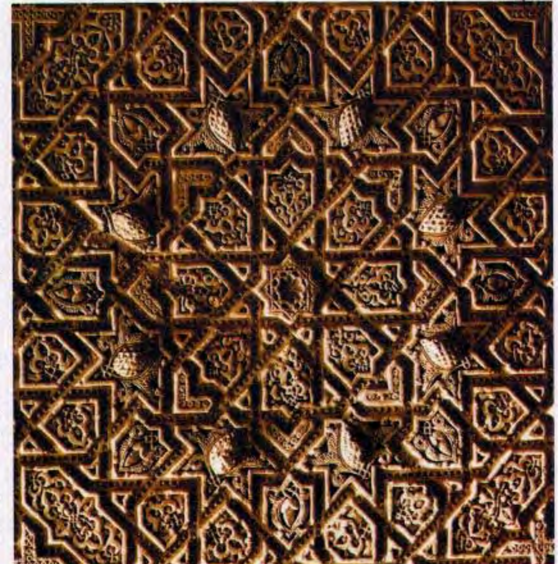


يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري، جده عقبة فاتح الشمال الإفريقي وباني مدينة القيروان، تولى في ربيع الثاني عام ١٢٩هـ، واستمرت ولايته تسع سنوات وتسعة أشهر.
بدأ يهدئ الأوضاع، ويزيل الاضطرابات، ويسكن الفتن، وكان شيخاً قد بلغ الستين من أسرة عرفت بالتقى والصلاح والذكاء.

الصميل يتدخل

طمع يحيى بن حَرين في هذا الهدوء النسبي واستطاع أن يستقر في جنوب الأندلس، وتولى مدينة "مرية"، وراسل أبا الخطّار وحركّه وحضّه على الثورة والمطالبة بالولاية، واتفقا معاً على إثارة القبائل وجمع الجموع، فتوجها نحو «قرطبة» غير أن يوسف بن عبد الرحمن توجه لصدّهم والتقى الفريقان في مكان قرب "قرطبة" يدعى "شَقَندة" عام ١٣٠هـ، فاقتتلوا اقتتالاً شديداً، وكسرت السيوف والرماح مما أدى إلى التشابك بالأيدي، وكلّت الأيدي وتعبت الأجسام، عندئذ قام "الصُّميل" بعمل يدل على حنكته ودهائه مع أنه أمّي، حيث رجع إلى قرطبة وجمع من العمال الذين تسلحوا بالحديد، وبقطع من العصي والسكاكين، فأدخلهم الاشتباك وهم في قوتهم ونشاطهم، وأنهَوْا هذه المعركة لصالح القيسيين وزعيمهم الصميل، مع أن عددهم لم يتجاوز "٤٠٠" رجلاً، وأُسر زعيما الحركة المضادة "يحيى بن حرّين" و"أبو الخطّار حسام بن ضرار الكلبي" فأمر الصميل بقتلهما فوراً لينهي -حسب رأيه- محركي الفتنة، ويقطع دابرها.
ثم أثخن الصميل في الناس فلما قتل سبعين أسيراً اعترض عليه حليفه السابق أبو العطاء غاضباً، أتقتل الناس؟ ومنعه من سفك الدماء.

روعة الزهراء في تلك الإبداعات التي لم يكن لها سابق في التاريخ



تذكر أمثال هذه الأخبار لإلقاء بعض الأضواء على الثغرات التي مرّت في التاريخ الأندلسي في عصر الولاة وغيرهم مما استفاد منها أعداء المسلمين في داخلها وخارجها.

ثم إن الوالي يوسف الفهري استاء كثيراً من تصرفات الصميل، فطلب إليه أن يترك العاصمة بعد أن ولاه سرقسطة، رضي الصميل بذلك درءاً للفتنة التي يمكن أن تقع إن لم يستجب، وحباً لسرقسطة التي كانت غنية في تلك الفترة، إذ نجت من القحط العام الذي أصاب الأندلس، فأكرم الناس هناك وأغدق عليهم العطايا فصار الناس يفدون إليه جماعات جماعات ليجدوا المأوى والمطعم، على العكس من الوالي يوسف الذي عانى من قدوم الجائعين والأفواج الكثيرة من شتى المناطق إلى قرطبة طلباً للرزق والطعام، فكان الوضع العام لصالح الصميل، فعلا شأنُه وكثر رجاله، بينما بدأ معظم الناس يتركون قرطبة ويهاجرون إلى المغرب طلباً للقوت والميرة، بل قامت الاضطرابات أيضاً في الأندلس ضد الوالي يوسف بن عبد الرحمن.



الثورات تشتعل

حاول الفهري أن يخضع الثورات التي انتشرت في عدة مناطق من الأندلس، كما حاول أن يسيطر على منطقة الصخرة "بلاي" فلم يتمكن من ذلك إذ ثار عليه قائد جيشه عامر بن عمرو الذي تمرد والتجأ إلى "قلعة عامر" في الغرب باسم "القلعة"، فأخذ يدعو للعباسيين ويدعي أن الخليفة العباسي قد عينه والياً على الأندلس -إذ كان ذلك في فترة سقوط الأمويين وظهور العباسيين في المشرق الإسلامي- والتف الناس حوله وأيده زعيم قيس "الحبحاب بن رواحة" وكان هوى قبيلة قيس للعباسين، ولأن الوالي يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري من ولاة الأمويين، فقد أصبح الصراع القبلي الآن صراعاً أموياً وعباسياً كما في المشرق.

الصراع الأموي العباسي

فتجمع دعاة العباسيين وأنصارهم قريباً من سرقسطة" وهاجموا قوات الصميل وحاصروا المدينة في عام ١٣٦هـ، مع أن الدولة الأموية كانت قد سقطت في سنة ١٣٢هـ، وانضم اليمنيون والبربر إليهم، فأرسل الصميل يطلب إلى يوسف مساعدته، مع أنه في الأصل يراه أخطر عليه من عامر بن عمرو ويحذر منه، ولذلك لم يقدم له يوسف يد العون، إلا أن زعيماً من القيسيين يدعى "عبيد الله بن عبد الله الكلابي" أيده بالجموع وبدأ يتحرك لنصرته، لكن الصميل لما رأى هوى هؤلاء مع الأمويين، فادعى أن هواه للأمويين أيضاً، فصار الصراع -وقد امتد للأندلس- صراعاً بين الأمويين والعباسيين، وبالنهاية انتصر الصميل، بعد أن استمر الصراع سبعة أشهر تقريباً.



قلعة على الطراز الأموي في الأندلس

النصارى يستغلون الأوضاع

في هذه الفترة مات "شارل مارتل" وتولى ابنه "بابان القصير" فاكتسح جنوب فرنسة وأخرج المسلمين منها.
وفي هذه الفترة - فترة القلاقل والاضطرابات- مات «ألفونسو الأول» ١٤٠هـ وتولى ابنه "فرُويْلة" مملكة ليون النصرانية وبدأ فيما بعد ما يسمى حروب الاسترداد، وكما قال الشاعر:

هي الأحوالُ إن نُبْدِل تُبدّلْ   على أعمالنا يُرسى الجزاء

ولاة الأندلس

الرقم	اسم الوالي	بداية الحكم	مدة الحكم
١	عبد العزيز بن موسى بن نصير	ذي الحجة ٩٥هـ	سنة وسبعة أشهر
٢	أيوب اللخمي	رجب ٩٧هـ	٦ أشهر
٣	الحر الثقفي	ذي الحجة ٩٧هـ	سنتين وثمانية أشهر
٤	السمح بن مالك الخولاني	رمضان ١٠٠هـ	سنتين وشهرين
٥	عبد الرحمن الغافقي (الولاية الأولى)	ذي الحجة ١٠٢هـ	شهرين
٦	عنبسة الكلبي	صفر ١٠٣هـ	٤ سنوات ونصف
٧	عذرة الفهري	شعبان ١٠٧هـ	شهرين
٨	يحيى الكلبي	شوال ١٠٧هـ	سنتين ونصف
٩	حذيفة القيسي	ربيع أول ١١٠هـ	٦ أشهر
١٠	عثمان الخثعمي	شعبان ١١٠هـ	٥ أشهر
١١	الهيثم الكلابي	محرم ١١١هـ	١٠ أشهر
١٢	محمد الأشجعي	ذي الحجة ١١١هـ	شهرين
١٣	عبد الرحمن الغافقي (الولاية الثانية)	صفر ١١٢هـ	سنتين وثمانية أشهر
١٤	عبد الملك الفهري (الولاية الأولى)	شوال ١١٤هـ	سنتان
١٥	عقبة السلولي	شوال ١١٦هـ	خمس سنوات
١٦	عبد الملك الفهري (الولاية الثانية)	صفر ١٢٣هـ	سنة وشهر
١٧	بلج بن بشر	محرم ١٢٤هـ	١١ شهر
١٨	ثعلبة العاملي	ذي القعدة ١٢٤هـ	١٠ أشهر
١٩	أبو الخطار الكلبي	رجب ١٢٥هـ	٣ سنوات
٢٠	ثوابة الجذامي	رجب ١٢٨هـ	٦ أشهر
٢١	عبد الرحمن اللخمي	محرم ١٢٩هـ	٣ أشهر
٢٢	يوسف الفهري	ربيع الثاني	تسع سنوات وتسعة أشهر



عهد الولاة ... حقائق وعبر

عهد جديد بدأ فيه نشر الدعوة وتوطيد دعائم الإسلام في الأندلس ولم يكن أقل أهمية من فتحها وإن عكرت صفوه فترات حكمتها العصبية القبلية والحمية الجاهلية.

لقد قامت الجيوش المسلمة بفتح المدن في الأندلس لإزالة الحواجز أمام دعوة الله، ثم جاء دور الولاة لينشروا تلك الدعوة وليثبتوا أنهم ما جاؤوا إلا للهداية والعدالة والنور، فكان نتيجة ذلك أن دخلت الأفواج من أهل الأندلس تباعاً في دين الله

لما رأى القوم جنداً فاتحين سمت   أخلاقهم حكموا بالعدل واللينِ
وأيقنوا أن هـذا الفتح مبعثـه   نور وهـدي أقر النـاس بالدينِ

ونشير في هذا العهد إلى نقاط هامة:

- إن توطيد دعائم الحكم في الأندلس وثباتها أمام هجمات الصليبيين وحكام فرنسا ما كان ليتم لولا تمكن الإسلام في قلوب كثير من أبنائها، ويعد هذا إنجازاً عظيماً في عهد الولاة بلغوه بالإخلاص في الدعوة وصدق النية وحسن المعاملة، حتى وصل عدد المهتدين على يد أحد الولاة ألفي مهتد أسلم على يده، وهكذا المسلم أينما حل وارتحل سفير دائم لدينه بأخلاقه وسيرته وتعامله، يحمله على ذلك تعاليم الإسلام وحبه لهداية الآخرين، فإندونيسيا - أكبر بلد إسلامي - ما فُتحت بالقوة ولا بالحروب بل فتحت قلبها للإسلام بفضل رجال مخلصين وتجار مؤمنين أظهروا لأهلها الصورة الحقيقية المشرقة للإسلام، وكذلك دول شرق آسيا جميعها فتحت بالدعوة والهداية، وأرى الذاكرة تعيدني إلى بداية الدعوة الإسلامية، حين فتحت المدينة المنورة أبوابها لصاحب الدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهل كان ذلك إلا بعد أن مهد له سفيره مصعب بن عمير بنشر الهداية بين جنباتها، أبين هذه النقطة لأننا مطالبون اليوم أكثر من أي وقت مضى بالعمل على فتح القلوب ونشر الدعوة كُلٌّ من موقعه - خصوصاً أننا في حالة ضعف لا نملك معها إلا سلاح الكلمة النيّرة بل ربما نلاحق عليها-، وقد بلغ عدد المسلمين اليوم في أمريكا وأوروبا عشرات الملايين - منهم المهاجرون ومنهم أهل البلد الذين اعتنقوا الإسلام - فلو أن هؤلاء أعطوا الصورة المشرقة لدينهم، وثبت في داخل كل منهم أنه سفير للإسلام، والتزم ذلك من يذهب إلى تلك البلاد سواء للسياحة أو الدراسة أو التجارة لتضاعف عدد المسلمين هناك ولأصبحنا قوة مؤثرة في سياسة تلك الدول، ويومها سيكون ذلك فتحاً كبيراً لا بقوة السلاح بل بفعل الدعوة ونور الإسلام.

نحن بالإيمان أحيينا القلوب... نحن بالإسلام حررنا الشعوب.... نحن بالقرآن قومنا العيوب.... وانطلقنا في الشمال والجنوب... ننشر النور ونمحو كل هون.. مسلمون مسلمون مسلمون..

- الفكر الخارجي فكر قديم حديث، كانت نشأته في الخروج على علي رضي الله عنه، ومازال ممتداً حتى اليوم يشق عصا المسلمين ويخلع طاعة الحاكم لأي سبب ولا يرعى حرمة لجماعة المسلمين ولا لدمائهم، وأخطر ما فيه أمران :

١- تكفير المسلمين على كبائر الذنوب بل بالغوا في الشطط فأصبحوا يكفرون كل من خالفهم، ونرى أثر ذلك في تقسيم المسلمين إلى طوائف يكفرون من شاؤوا منهم ويسبغون الألقاب والحمد على من يشاؤون، وسبب ذلك كله ضحالة علمهم وضيق أفقهم.

٢- اعتقادهم جواز الخروج على الحاكم لأي اختلاف معه في الفكر أو المنهج، ونشهد اليوم مآسي مؤلمة ودماء مسلمة معصومة تراق على أراضي المسلمين، ومن هنا أوجه دعوة ناصح مشفق، دعوة أخ يرى الفرقة والدماء فيذوب قلبه حزناً وأسى، أوجه دعوة إلى شباب المسلمين وحتى علمائهم أن ينبذوا التعصب الفكري واحتكار الحقيقة، ويحفظوا حرمة الدماء التي حفظها الله عز وجل، ألا يكفي أن يستبيح أعداؤنا دماءنا في كل مكان حتى نستبيح دماء بعضنا البعض ؟.
أما أدرك عقلاؤنا آثار تحزبنا وتقاتلنا عبر التاريخ حتى وصلنا إلى مانحن فيه ؟ .



الخوارج يغدرون بالمسلمين في سبتة

• ما حدث في حصار الخوارج لبلج بن بشر في سبتة حيث طلب المؤن والطعام من حاكم الأندلس عبد الملك بن قطن فما أمده بشيء !!! فتألم أحد التجار لما يحدث للمسلمين وأرسل لهم سفينتين فيهما الطعام والمؤن فلما علم عبدالملك بذلك أعدم التاجر!! ، أهذه الرحمة التي وضعها الله في قلوب المسلمين لبعضهم البعض ؟، أهذا هو التواصل والتراحم الذي تحدث عنه النبي صلى الله عليه وسلم ؟ ، إن هذا الماضي الأليم يتكرر اليوم بصور أخرى حيث تحاصر البلاد المسلمة اقتصادياً وسياسياً بقرارات جائرة وتصنيفات حاقدة وإخوانهم المسلمون يمنعون عنهم كل أنواع المساعدات مع أن الإسلام نسب ورحم بين أهله.

أليس من المعيب واللؤم أن يمنع المسلمون أموالهم عن إخوانهم المحاصرين في فلسطين لا لشيء بل لإرضاء الغرب ؟

إن غنى الأغنياء الممسكين عن إخوانهم في فلسطين وفي كل بلد إسلامي محاصر أومحتاج هو دليل لؤمهم لا غناهم.

إن كل دينار يدفعه المسلم لإخوانه المستضعفين يأتي يوم القيامة يقول:يا رب أنا إيمان فلان.

فاللهم انشر الألفة والمحبة بين عبادك

أهم المعارك والأحداث

انكلترا
بلجيكا
المانيا
باريس
نيتس
فرنسا
سويسرا
ايطاليا
١١٤هـ
بلاط الشهداء
قاتلرو
بواتيه
تولوز
أردونة
قرقشونة
صخرة بلاي
خيخون
شنتياجو
ليون
أشترقة
رنسفال
نافار
أرغون
جيرونه
قطالونية
جليقية
قشتالة
بلد الوليد
كوره
سرقسطة
برشلونة
طركونة
مدريد
طليطلة
طلبيرة
بلنسية
قطلونة
الغرب
بطليوس
ماردة
باجة
لقنت
شاطبة
دانية
اريوله
جزائر البليار
ميورقة
قرطبة
قرمونة
لبله
أشبيلية
ولبه
غرناطة
مرسية
قرطجنة
المرية
مالقة
شذونة
طريف
جبل طارق
سبتة
المغرب
البحر الأبيض المتوسط

حدود المعارك والأحداث
لون مسمى منطقة النفوذ
نهر
مدينة
جبال

الباب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس



الفصل الأول

عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)

الفصل الثاني

عهد الأمراء الأمويين

الفصل الثالث

عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر

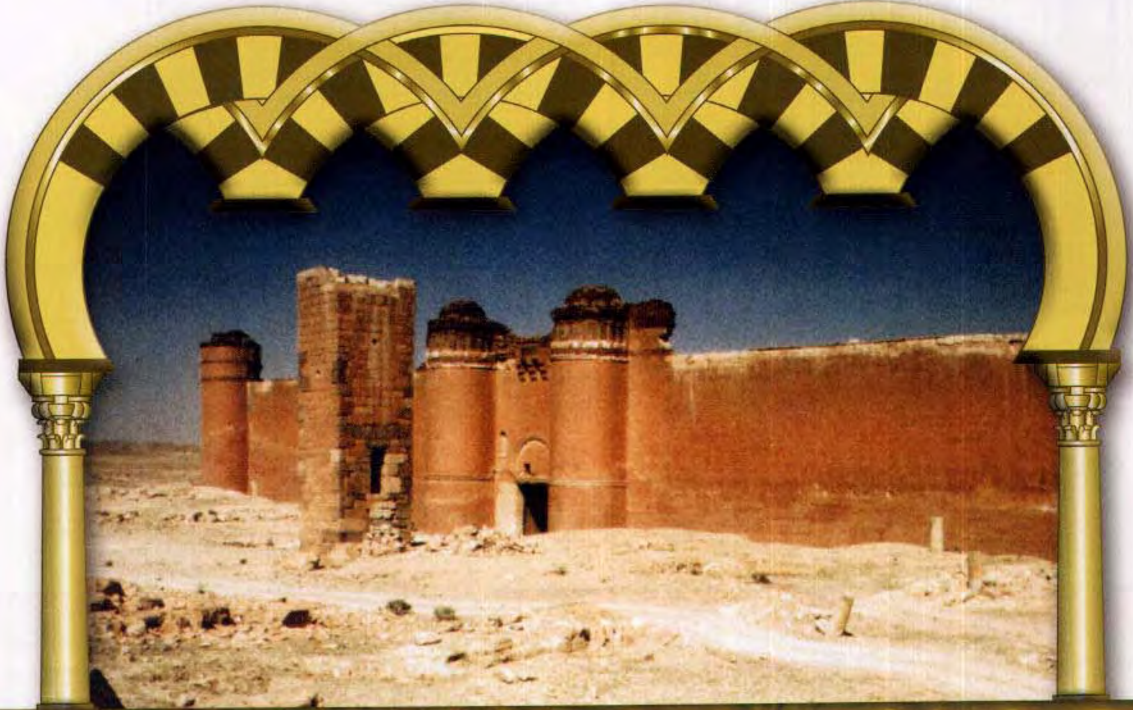
الفصل الرابع

عهد الحاجب المنصور



الباب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس



الفصل الأول

عبد الرحمن الداخل (صقر قريش)

- أولاً - تزعزع الدولة الأموية في الشام
- ثانياً - قصة الفرار العجيب
- ثالثاً - دخول عبد الرحمن الأندلس
- رابعاً - خمس وعشرون ثورة ضده



صقر قريش

قال أبو جعفر المنصور لندمائه وجلسائه يوماً: من صقر قريش؟ قالوا: أمير المؤمنين (أي أنت) الذي راضَ الملك، وسكّن الزلازل، وحسم الأدواء، قال: ما صنعتم شيئاً. قالوا: فمعاوية، قال: ولا هذا، قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: لا، قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمن بن معاوية، الذي تخلّص بكيده عن سنن الأسنة وظُبَاة السيوف، يعبُر القصر، ويركب البحر، حتى دخل بلداً أعجمياً، فمصّر الأمصار، وجنّد الأجناد، وأقام ملكاً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة عزمه. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبَه، وعبد الملك ببيعة تقدمت له، وأمير المؤمنين (أي نفسه) بطلب عترته واجتماع شيعته، وعبد الرحمن بن معاوية منفرداً بنفسه، مؤيداً برأيه، مستصحباً بعزمه، هذه قصة رجل فريدة، رجل مطارَد، مطلوب الرأس، مشرّد يُبحث عنه في كل مكان، يستطيع أن يتجاوز كل هذه المخاطر والصعاب، وينشئ ملكاً وحده، ويسيطر على الأندلس كلها، بل وتثور عليه خمس وعشرون ثورة فيقضي عليها كلها ويخضعها. فأية إرادة؟! وأية قوة مستندة إلى عزيمة كان يملكها ذلك الرجل؟!.

صفات فذة

قال ابن حيان القرطبي شيخ المؤرخين الأندلسيين يصفه: كان الإمام عبد الرحمن راجحَ العقل، راسخَ الحلم، واسعَ العلم، كثير الحزم، نافذ العزم، لم تُرفع له رايةٌ على عدو إلا هزمه، ولا بلد إلا فتحه، شجاعاً، مقداماً، شديد الحذر، قليلَ الطمأنينة، لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة، ولا يَكلُ الأمرَ إلى غيره، كثيرَ الكرم، عظيمَ السياسة، يلبس البياض ويعتمُّ به ويؤثره، يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويصلي بالناس -إن حضر- في الجُمع والأعياد، ويخطب بنفسه، جنّد الأجناد وعقد الرايات، واتخذ الحُجَّابَ والكُتَّاب، وبلغت جنوده "١٠٠" مائة ألف فارس.

عبد الرحمن الداخل

١١٣هـ	ولد في دمشق .
١٣٢ هـ	خرج فاراً من ملاحقة العباسيين إلى المغرب .
١٣٦ هـ	خرج فاراً إلى ليبيا .
١٣٨ هـ	عبر المضيق إلى الأندلس .
١٤٠هـ	تولى إمارة الأندلس .
١٧٢ هـ	توفي الداخل .
-	كان حازماً قوياً يباشر أعماله بنفسه أخمد خمساً وعشرين ثورة قامت ضده.
-	يعتبر حكمه بداية قيام الأندلس الحديثة.


العباسيون يطاردون بني أمية ويتبعون عبد الرحمن بن معاوية الداخل (صقر قريش)

الإرادة

هذه هي قصة الإرادة تمثلت في شخص، وقصة الطموح تمثلت في رجل! مع ما عليه من ملاحظات أذكرها في حينها، وكما قال الشاعر:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلُّها   كفى المرءَ نُبلاً أن تُعدَّ معايبُه

استطاع أن يؤسس الدولة الأموية في الأندلس بعد أن سقطت في المشرق.

قصة ينبغي على كل شاب أن يتفهم معانيها، وندرِّسها ناشئتنا، وفي التاريخ دروس وعبر، ترفع من الهمم التي فترت وتسقي الطموح الذي بدأ يذبل في النفوس في عصر العولمة.

إذا وُجد الإيمان وتوفرت الإرادة لا يقف أمامها شيء، ولا تحدُّها صعاب، حتى ولو كان الإيمان محدوداً وكانت الإرادة صادقة لفعلت شيئاً وانتصر الإنسان بها.

كن عزيز النفس عالي المرتقى   داعيَ الإسلام لا داعي النِّحَلْ

وإذا تعلق قلب الإنسان بالله أتاه النصر، ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ (آل عمران١٢٦)

لم يكن عبد الرحمن متميزاً بالعلم الشرعي ولا بالدعوة، ولكنه تميز بالإرادة والقوة، يقول العلماء: إذا تمسك الناس بالإسلام فالنصر آت، أما إذا ترك الناس الإسلام فالنصر للأقوى.

أمتنا في هذا العصر تركت الإيمان وتركت الهمة، بل خمدت، مع أن الآية الكريمة تخاطب المسلمين: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران١٣٩)، ويقول تعالى: ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون﴾ (محمد٣٥).

ومثال ما يجري في فلسطين شاهد على أن صاحب الهمة لا تقهره القوى الطاغية.

وكذلك هذا المثال من التاريخ (قصة عبد الرحمن الداخل).



أولاً تزعزع الدولة الأموية في الشام

الوليد بن يزيد الخليفة اللعوب

ولد في دمشق الشام سنة ١١٣هـ، وكانت أحداث خطيرة تجري في المشرق الإسلامي، والمسلمون أمة واحدة كالجسد الواحد يرتبط بعضه ببعض بأعصاب وجوارح، كما يجري في الجميع الدم الواحد والشعور ذاته، وكان في الشام الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان رجلاً صاحب لهو ويهوى الصيد، ويستمع إلى القيان شغوفاً بالجواري، ويعتبر بعض المؤرخين أن زوال الدولة الأموية من ابتداء حكم الوليد هذا. وفي تلك الفترة نشط الدعاة العباسيون من أمثال أبي سلمة الخلال في العراق، وأبي مسلم الخراساني في المشرق، مع عبد الله بن علي وغيرهم.

مجالس الأنس والطرب التي انتشرت في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك



أبو مسلم الخراساني داعية العباسيين

وكان أبو مسلم الخراساني شاباً أظهر كفاية ومقدرة في الدعوة العباسية، وكان يأخذ البيعة من الأتباع على الصورة التالية كما ذكرها الطبري:

أبايعكم على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله، وعلى أن لا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولاتكم، وإن كان عدو أحدكم تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم.

نصر بن سيار يحذر

وبدأ بجمع الأنصار في أقصى بلاد المشرق "خراسان"، ولكن والي الأمويين "نصر بن سيار" (وكان رجلاً بعيد النظر قوي الذكاء داهية مجرباً)، نظر إلى الأمور نظرة عميقة، فعمد إلى إصلاح الوضع، وأرسل إلى الوليد بن يزيد يُطلعه على ما يجري في الخفاء، ويلفت نظره إلى خطورة الوضع في خراسان، لكن الوليد بن يزيد لم يلقِ لها بالاً، واستمر على لهوه وعبثه، إلا أن الأمويين شعروا بخطورة الوضع، وأن الدولة صائرة إلى الزوال: كما قال واليهم نصر بن سيار:

أرى تحت الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكو	وإن الحرب أولها كلام
فإن لم يطفها عقلاء قومي	يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام؟

ثورات الأمويين على بعضهم

فقام يزيد بن الوليد بن عبد الملك عام ١٢٥هـ يعلن الثورة ويضع يده على الأسلحة الموجودة في مسجد دمشق، ويطلق المال في سخاء لمن يجتمع حوله، حتى التفً حوله نحو من ألف رجل، وأرسل قائده إلى "الغدف" في البادية وكان الوليد بن يزيد هناك حين ترك دمشق، فما استطاع الوليد أن يقاوم كثيراً فدخل غرفته ووضع المصحف بين يديه يقرأ فيه ويقول: يوم كيوم عثمان، فيقتل.

وكان مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ إيذاناً بسقوط الدولة الأموية، وتولى قاتله الخلافة وبالرغم من أنه أعلن رغبته في أن يسير بالناس سيرة عمر بن عبد العزيز (رحمه الله)، فإن الناس لم يجمعوا على بيعته بل اضطربت الحال، وحدث الصراع بين الأمويين أنفسهم.

١-فثار عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك في عمان.

٢-وثار أيضاً مروان بن عبد الله بن عبد الملك في الأردن.

٣-وثار مروان بن محمد في إرمينية، وكل هؤلاء يدعون أنهم ما أرادوا إلا الثأر والانتقام.



بدأ المسلمون يتحدثون عن الصدع والفتن التي أصابت كيان الدولة الإسلامية





مروان الحمار

على أن خلافة يزيد بن الوليد لم تطل إلا نحواً من ستة أشهر فقد مات في العام نفسه الذي ولّي فيه، وهو عام ١٢٦هـ، إبان هجوم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، فأصبح هذا هو الخليفة ويلقب بمروان (الجعدي أو الحمار)، وكان رجلاً قديراً داهية، صبوراً في الشدائد ولا يكلّ ولا يملّ، فثار عليه إبراهيم بن الوليد -أخو يزيد المقتول- فدحره مروان في أول اشتباك بينهما ودخل مروان دمشق ولم يجد مشقة في أن يبايعه الناس فيها خليفة، وبايعه إبراهيم أيضاً، كذلك ثار عليه عبد الله بن معاوية بن جعفر الطيار في الكوفة واستطاع مروان أن ينهي تلك الثورة أيضاً، كذلك ثار عليه سليمان بن هشام وهو محارب قديم، ولكنه لم يكن سياسياً فثار معه أهل الرصافة إلا أن مروان استطاع أن يخضعهم ويشتت تجمعهم، وهكذا تمكن مروان من قهر أعدائه في بلاد الشام، فاستتبّ له الأمر فيها. كذلك انتصر في المواقع التي ظهرت القلاقل فيها كالعراق والشام والحجاز واليمن.



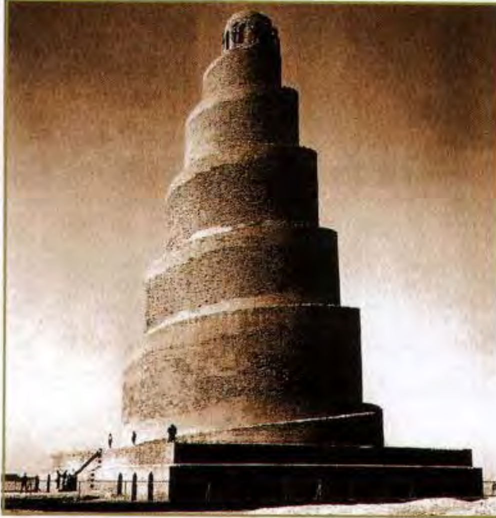
أبو مسلم الخراساني يعلن الثورة العباسية

في مثل هذا الوضع المتأزم الثائر كان أبو مسلم يجمع أنصار العباسيين ويدربهم تدريباً جيداً، وبعد أن تفاقم الوضع في الخلافة سنة ١٣٠هـ فاجأ أبو مسلم الأمويين بإعلان ثورته، والسيطرة على مدينة "مرو" أولاً في أقصى المشرق في خراسان، وقاوم "نصر بن سيار" وظل يدافع عن الدولة الأموية ويمنع تقدم العباسيين، وهو الذي أخّر سقوط الدولة عدة سنوات، لكنه مات في عام ١٣١هـ وكأن القدر يسهل الأمر للعباسيين، فاحتل أبو مسلم الخراساني خراسان كلها، ثم يعهد بالحرب إلى رجل من طيء يدعى "قحطبة" لقيادة الحرب في العراق، ثم بعد ذلك يعهد بقيادة الحرب في الشام إلى "عبد الله بن علي"، الذي قاد الجيش وفرّ مروان بن محمد إلى حرّان ثم قنسرين ثم إلى حمص فأراد أهلها قتله إذ لم يبق إلا رجال أقلة معه، لكن مروان قدّم الكمائن على الطريق والذين صدّوا غارات أهل حمص. وصل بعد ذلك مروان إلى دمشق وولى صهره "الوليد بن معاوية بن مروان" عليها.



نهاية الأمويين

دخل عبد الله بن علي دمشق، وقتل الوليد، وسيطر على مدينة دمشق الشام، وانحاز مروان إلى الأردن، وانضم والي الأردن إليه، ثم عبر إلى فلسطين ثم إلى صحراء سيناء فمصر، وكان عبد الله بن علي يتابعه حيثما وصل، ولما التقى به في "بو صير" حدثت المعركة المتوقعة الحاسمة بين الأمويين بقيادة مروان بن محمد، وبين العباسيين بقيادة عبد الله بن علي، ودامت المعركة عشرة أيام، وقتل مروان فيها، فانتهت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية.



سامراء: مكان إقامة العباسيين على ضفاف دجلة

أسباب سقوط الدولة الأموية في المشرق

هكذا انتهى حكم الأمويين في المشرق صدعته الفتن والثورات والانقلابات بعد أن ملأ الدنيا حضارة وعلماً وتوسعت فيه الفتوحات في كل اتجاه، وإن المتأمل في حكمهم يلحظ أموراً خطيرة ظهرت أواخر حكمهم مهدت لسقوط تلك الدولة العظيمة:

١- عدم اختيار الأصلح للخلافة :

وهذا الانحراف بدأ أواخر الحكم الأموي، فإن كان للحكم الوراثي ما يبرره من استقرار الحكم وحسم النزاع فإن الواجب أن يختار الأصلح من بين الأبناء والإخوان والأهل، ولقد كان هذا متبعاً في بداية حكم الأمويين حيث قدموا عمر بن عبد العزيز على أولاد سليمان بن عبد الملك، ثم انحرفت الأمور وتولى الوليد بن يزيد الخلافة ولم يكن أهلاً لها، بل كان صاحب لهو وانشغال بملذات الدنيا، وإذا كانت هذه أوصاف الخليفة لم ينتظر منه توطيد دعائم المملكة ولا رفع راية الدين، يقول عبد الله بن المعتز (الملك بالدين يبقى ، والدين بالملك يقوى) فإذا كان الملك صاحب لهو ولعب فأي قوة تنتظر منه ؟!.

٢- ظهور الثورات والانقلابات :

وهذه طامة كبرى ثانية لا ينتظر معها شيوع الأمن والاستقرار للحكم وإنما يشجع على الثورة أمران : إما ضعف الخليفة وإما الطمع في الملك وكلا الأمرين شر مهلك .

٣- عدم تحري الأهلية والعدل في اختيار الولاة:

فتولى في عهدهم ولاة ظلمة مثل الحجاج الذي ملأ الأرض ظلماً ورواها بالدماء فكان هو وأمثاله سبباً في نقمة الله عليهم ونقمة الناس أيضاً.

٤- انتشار الفساد المالي:

والفساد المالي كأي فساد آخر في جهاز من أجهزة الدولة يظل ينخر في جسدها حتى تقع.

٥- ابتعادهم عن العلم:

ولا نقصد بالعلم هنا العلم الشرعي فقط وإن كان يشمله، فالعلم بمختلف أصنافه يثمر الوعي السياسي والحضاري والاجتماعي ويجعل نظرة الحاكم والمحكوم إلى الأمور أرقى وأشمل وأبعد.

٦- ميلهم إلى الدنيا وانشغالهم بملذاتها:

وإن لم يكن ذلك منتشراً في جميع خلفائهم، لكن تعودُ البعض على هذه الحال كان سبباً في الانحدار وتدهور الأوضاع.



ثانياً قصة الفرار العجيب



أبو العباس السفاح

وتولى أبو العباس السفاح أمر الخلافة بتتبع الأمويين، فأجرى القتل في صفوفهم وبين أفرادهم، حتى إن سليمان بن علي (وهو عم أبو العباس السفاح) والي البصرة يأمر بقتل الأمويين ويرمي جثثهم على الطرقات تأكلها الكلاب! فاشتد الرعب ودب الهلع فيهم، فتواروا عن الأبصار، واختفوا في المناطق النائية، وتفرقوا في البلدان. وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام من المطلوبين.



قصر الحير الشرقي يمثل جزءاً من الفن المعماري للدولة الأموية

صفات عبد الرحمن الداخل

كان كما تقدم وصفه: راجحَ العقل، راسخَ الحلم واسع العلم كثير الحزم نافذ العزم لم ترفع له راية على عدو قط إلا هزمه، ولا بلد إلا فتحه، شجاعاً مقداماً شديد الحذر، قليل الطمأنينة لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعة، لا يكل الأمر إلى غيره، كثير الكرم عظيم السياسة... وصفات أخرى كثيرة قلّ أن يتصف بمثلها كثير من القادة والرجال.

تربى في دمشق حيث ولد فيها، وتأدب في بيوت الملك أعظم تأديب وأحسنه، وتدرب على الفروسية أفضل تدريب وتعلم فنون القتال، كما تأدب على كثير من معاني الخلق العربي الأصيل، وكان شاعراً رقيق الشعر، يأتي بأعذب الكلمات وألطف المعاني، جيد السَّبك، قال لما استقرت الأمور له في الأندلس، وقد رأى قافلة متجهة إلى الشام:

أيها الراكب الميمّم أرضي	أقرِ من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض	وفؤادي ومالكيه بأرض
قُدِّر البينُ بيننا فافترقنا	وطوى البينُ عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا	فعسى باجتماعنا سوف يقضي

شوقه للشام

وكان جالساً في قصره بالرصافة يوماً فرأى نخلة، ولم تكن بأرض الأندلس النخلُ وكان هو الذي أمر بجلبها وزراعتها هناك، فهاج به الشوق إلى الديار واستبد به الحنين إلى الأهل والأحبة، وذكرى الأصدقاء فقال:

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلةٌ ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي بالتغرب والنوى ... وطول اكتئابي عن بنيَّ وأهلي
نشأت بأرض أنت فيها غريبةٌ ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك عوادي المُزن في المنتأى الذي ... يسحُّ ويستمري السِّماكيْن بالوبْل

حب الوطن

فحب الوطن فطرة في الإنسان السليم، وبدهي أن يتذكر المرء بلده وأهله وهذا لا يتنافى مع الإيمان، فالصحابة الكرام -رضوان الله عليهم- كانوا يتغنون بحب مكة وشعابها وهم في المدينة المنورة، فكان بلال رضي الله عنه إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة ... بوادٍ وحولي إذخرٌ وجليلُ
وهل أردنْ يوماً مياه مجنة ... وهل يبدُوَنْ لي شامة وخليل

فقال عليه الصلاة والسلام: اللهم حبب إلينا المدينة.

وما علينا إلا أن ننشئ ناشئتنا على حب الوطن، ونعلّم الشباب حبَّ الديار والأرض دون أي تعصّب أو كراهية، ويكون التعصّب إذا قُدّم حبُّ الديار على حبِّ الله وطاعته، أو ينزلها ولا يؤدي ما يطلب منه للدعوة إلى الإسلام وإقامة شعائره وشرائعه، وحب الأهل والوطن معنى سامٍ لا تعرفه إلا النفوس العليّة الطيبة.

الاختفاء

فرَّ عبد الرحمن، واشتد عليه الطلب، واختفى في قرية نائية على شاطئ الفرات في بادية الشام سنة ١٣٢هـ، إذ حدث حادث يقصه هو في مذكراته إن صحّ التعبير، فيقول:

وإني لجالس في ظلمة في تلك القرية تواريت فيها برَمَدٍ أصاب عيني، وابني سليمان -بكرُ ولدي- يلعب قُدّامي، وهو يومئذ ابنُ أربع سنين، فخرج من البيت لحظة، ثم دخل إلى الغرفة فزعاً باكياً يلقي بنفسه عليّ، فجعلت أدفعه لما بي، وهو يتعلق بي لأنه خائف يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأتبين فإذا بالروع قد نزل بالقرية، وإذا بالرايات السود عليها منحطّة، وأخي حديث السنّ يشتد هارباً وينادي: النجاةَ النجاةَ يا أخي، فهذه الرايات مسودة، فضربت بيدي عدة دنانير ونجوت بنفسي و الصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمقصدي وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي "بدر" معهن.

فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطتْ بالدار فلم تجد لي أثراً، ومضيت ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشطّ الفرات فأمرته أن يبتاع لي دوابَّ وما يصلح لي للسفر، فدلَّ أحد عبيده السوء عليَّ فما راعنا إلا جلبةُ الخيل، فسبقناها إلى الفرات، ورمينا بأنفسنا إلى النهر.



السباحة والمأساة

ووصلت الخيل إلى الشاطئ الآخر، وكنت أحسن السباحة، ولما قطعنا نصف الفرات تعب أخي واندهش، فالتفتُّ إليه لأقوي همته وهم يخدعونه بالأمان، فلم يسمعني وخشي الغرق، واغترَّ بأقوالهم، فأسرع نحوهم، وهمَّ بعضهم أن يتجرد ليسبح ويلحقني فمنعه أصحابه، فتركوني، ثم قدّموا الصبي أخي وقتلوه مع أنهم كانوا قد أعطوه الأمان، ومضواْ برأسه، وأنا أنظر إليهم وهو ابن ثلاث عشرة سنة.

إلى المغرب

فاحتملت عليه ثُقلاً، وملأني الحزن وملأني مخافة، ومضيت على وجهي أحسب أني طائر لا على قدميّ فلجأت إلى غيضة كثيرة الشجر، فاختبأت فيها حتى خفّ الطلب ثم خرجت أطلب المغرب.

ولما استقر به المقام هناك أرسل يطلب أولاده وأمواله فأرسلوا إليه وتحسنت أحواله، ومعه مولاه بدر وابنه سليمان.

مطاردة عبد الرحمن الداخل وقتل أخيه غدراً

ثالثاً دخول عبد الرحمن الأندلس

عبد الرحمن الفهري يتتبع الأمويين في إفريقيا

في هذه السنوات كان عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد فرَّ من الأندلس إلى المغرب واستطاع أن يخضعه ويظهر على إفريقية، ولم يكن قد أعطى العهد للعباسيين ولم يبايعهم بعدُ، إذ ما يزال على عهده السابق، لذلك التجأ الأمويون إلى إفريقية وبخاصة في العاصمة "القيروان"، وكثر عددهم مما أدى إلى خشية الفهري منهم بأن يطلب أحدهم -وهم أبناء الخلفاء- الأمر لنفسه، لذلك لاحقهم وقتل ابنين للوليد بن يزيد بن عبد الملك وضيّق على الباقين، وصادر أموالهم، وقتل معظم من وجدهم.



عبد الرحمن الداخل يسير في شمال أفريقيا متخفياً

الوضع في الأندلس

وكانت السلطة في الأندلس بيد رجلين: يوسف بن عبد الرحمن بن عقبة بن نافع الفهري الوالي الرسمي، بينما الحكم الفعلي والإدارة المسيّرة بيد الرجل الثاني الصُّميل بن حاتم وبينهما شيء من الخلاف الذي يبدو ويستتر أحياناً.



ملاحقة عبد الرحمن بن معاوية

واشتدَّ الطلب على عبد الرحمن بن معاوية، فهرب إلى ليبية إلى قبيلة "زناة" واختفى عند رجل يدعى "أبي قرة البربري" في برقة، واقتنع بأن المكوث غير مقبول في إفريقية وأراد أن يختبر الأندلس فأرسل مولاه "بدراً" إليها، ليتصل بأنصاره ومؤيديه فالتقى بدر برجلين أحدهما أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، والثاني عبد الله بن خالد فأطلعهما على رغبة حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك، وأنه موجود في إفريقية وأنه يريد التأييد لطلب الحكم فوافقاه على ذلك وبدءا يجمعان المؤيدين الذين كانوا في زيادة مستمرة، وظهر أمر عبد الرحمن في جنوب الأندلس كدبيب النار في الجمر، وانتشر خبره.

عاد بدر إلى سيده عبد الرحمن وأخبره بما رأى وجرى هناك.



الرحيل إلى الأندلس

عام ١٣٨ هـ
٧٥٦ م

ولما ظهر أمر عبد الرحمن بن معاوية عياناً أرسل إليه مؤيدوه أن: اقدم إلينا، عبر رسولهم المضيق على سفينة، وكان عبد الرحمن ينتظر كل يوم هذه السفينة، ولما جاءه الرسول يوماً وجده يصلي ويدعو الله أن ييسر له الأمر ولما فرغ من صلاته ابتسم وقال: من الرجل؟ قال أنا رسول أنصارك، أنا أبو غالب تمام، تفاءل عبد الرحمن خيراً وقال: تمّ الأمر وغلبنا إن شاء الله تعالى. ومن بعد جعله حاجباً عنده إلى أن مات، ترك عبد الرحمن إفريقية في عام ١٣٨هـ وارتحل إلى الأندلس، فوصل إلى "إلبيرة" واجتمع إليه أنصاره ومؤيدوه، فبدأ ينظم أموره ويستعد لملاقاة معارضيه.

الداخل يستعد للرحيل إلى الأندلس



بلبلة في الأندلس

عام ١٣٨ هـ
٧٥٦م

في هذه الأثناء كان يوسف الفهري والي الأندلس والصميل في الشمال، وحدث أن عامراً البدري وابنه قد ثارا على الوالي يوسف الذي أعطاهما الأمان إن استسلما، ففعلا ذلك وسكنت الثورة، لكن يوسفَ غدر بهما وأمر بقتلهما مما جعل الناس يستاؤون، ويغضبون منه، ثم هطلت الأمطار بغزارة على مكان وجود الجيش حتى ما استطاع الجيش أن يحمي نفسه لهذين السببين: غدر يوسف وهطول الأمطار فانفض عنه كثير من جنده.

رأي الصميل

أما الصميل فقد رأى أن الوضع خطير على الأندلس ففي الشمال يتربص به عدوه "ألفونسو"، وظهر في الجنوب الأمويون، فاستقر رأيه على أن يحالف يوسف الفهري وجاء إلى قرطبة، وصلت إلى " يوسف والصميل" أخبارُ عبد الرحمن وحركته، فقال الصميل: دعنا نذهب إليه الآن، فإما قتلناه وإما شردناه قبل أن يستفحل الأمر -وكان هذا الرأي سديداً- إلا أن يوسف الفهري لم يرض محتجاً بقلة الجند وانفضاض الناس عنه، فقال له: نذهب إلى طليطلة ويستريح الجند ونجهزه ثم نقاتله.

تحرك عبد الرحمن الداخل

اتجه عبد الرحمن بن معاوية مع ٦٠٠ ستمائة رجل من أنصاره نحو "رية" و"شدونة" و"مارقه" وكلهم يلاطفونه أو يؤيدونه، وكان الصميل والفهري راجعيْن من "سرقسطة" فورد إليهما شأن عبد الرحمن، فعرضَ الصميل عرضاً قبله يوسف الفهري وذلك: أن يرسلا الهدايا له وأن يلاطفاه ثم يغرياه بالمال والأراضي ليترك طلب الولاية، فقبل الهدايا ولكنه لم يقبل العرض الذي قدماه فبقي الأمر معلقاً، ثم تحرك نحو إشبيلية وانضم إليه واليها "أبو الصباح" وكان يمانياً، وبذلك استقر له الوضع في الجنوب فبدأ يفكر بالهجوم على قرطبة.

مواجهة الداخل والفهري

كذلك تحرك يوسف والصميل من قرطبة لصده قبل الوصول إليها، فاجتمع الجيشان يفصل بينهما نهر، رأى عبد الرحمن أن يباغت العاصمة ويلتف عليها، فتحرك دون أن يشعر الخصم، لكن الخصم قد عرف خطته، وأسرع كلاهما نحو العاصمة: هذا للدخول، وذاك لمنعه من الدخول، فوقف الجيشان في قرية تدعى "المصارة" وخيّم عبد الرحمن على مشارف قرية تدعى "طُرُّش".



لوحة حجرية محفورة في منارة أحد المساجد



المعركة الفاصلة (المصارة)

في التاسع من ذي الحجة -يوم عرفة- عام ١٣٨هـ حدثت المعركة الفاصلة بين العسكرين، جيش قليل العدد والعدة ليس عنده ما يأكله إلا الفول الأخضر، وجيش كثير العدة والعدد، تصل إليه الإمدادات ويزيد الطعام عندهم، وقد همس في جند عبد الرحمن من همس بأن عبد الرحمن يركب فرساً ويستطيع بفرسه أن يبتعد عن جو المعركة إن حدث هجوم الخصم "جند يوسف والصميل" ويترك الناس ليلاقوا مصيرهم للذبح والقتل والأسر، ولما نُمَّ إليه الخبر، جاء إلى أبي الصباح يقول له:

فرسي هذا يمنعني من الحركة والمناورة، فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قوسي، لذلك قررت أن تبدل فرسي ببغلتك، ففعل هذا على حياء واطمأن الجيش إلى الداخل، ولما طلع فجر العاشر من ذي الحجة باغت عبد الرحمن خصومه صباحَ العيد عند قرية "المُصارة" وهم يظنون أنه يريد التفاوض وأعمل فيهم القتل وفر يوسف هارباً ونجا بنفسه، وفرّ جمع غفير منهم إلا أن عبد الرحمن رأى ألا يلحق القوم قائلاً: لا تستأصلوا أعداءً ترجون صداقتهم غداً، واستبقوهم لأشد عداوة منهم ليوم يكونون فيه معكم (يقصد القوط ومنطقة الصخرة).

دخول قرطبة ولقب الداخل

وانتهت معركة "المصارة"، واجتمع القادة اليمانيون مع بعض، فعرض عليهم "أبو الصباح" أن يقتلوا عبد الرحمن ويتخلصوا منه، ويستلموا حكم الأندلس، فرفض الباقون هذا الأمر، وبلغ عبدالرحمن كلام أبي الصباح فلم يفعل شيئاً، وإنما عرف خطورة الرجل وحقيقته، فأكمل المسير حتى وصل قرطبة فلم يدخلها، وأرسل إلى أهلها:

من كان يريد الخروج فليخرج آمناً ولو كان من أبناء الفهري أو أقارب الصميل وليأخذ من يشاء أمواله إن شاء، فإنا ما جئنا لنقتل أحداً أو نسلب مال أحد.

ولقب عبد الرحمن منذ ذاك التاريخ بالداخل، لأنه أول من دخل الأندلس حاكماً من الأمويين، وتمت سيطرته على قرطبة، وسار إلى الجامع وخطب خطبة الجمعة ووعد الناس بإجراء العدل.



الفهري يحتل قرطبة بمفاجأة



هرب الوالي السابق إلى "طليطلة"، كما فر الصميل إلى "جيّان" وصارا يجمعان القوات للهجوم على قرطبة وإخراج عبد الرحمن منها، وتوجه الداخل منها إلى ملاقاة الجيش القادم خارج قرطبة، إلا أن يوسف الفهري أرسل ابنه "أبا زيد بن يوسف" بقوة التفّت على قرطبة ودخلتها وأسرت "أبا عثمان" والي الداخل، فماذا فعل عبد الرحمن؟

باب المسجد الكبير في قرطبة



الداخل يتولى السلطة

أكمل تقدمه وكأن شيئاً لم يكن حتى وصل إلى "إلبيرة" وكان جيشه كبيراً، ورأى الصميل ويوسف أن يفاوضاه، فأقروا الصلح على أن يدخلوا قرطبة جميعاً، ويقراً بسلطة الداخل الذي اشترط أن يبقى ولدا يوسف: "أبو الأسود وعبد الرحمن" رهينة عنده، وأن يكرم الصميل ويوسف على أن يمرا كل يوم يسلمان عليه.

وبهذا الصلح الذي تم عام ١٤٠هـ بدأت الدولة الأموية في الأندلس وإن كان قد سقطت في المشرق الإسلامي، وانتشر هذا الخبر مما جعل الأمويين يتجمعون مرة أخرى في الأندلس واستقر الوضع العام لهم.

رابعاً خمس وعشرون ثورة ضده

١ أبو الصباح اليحصبي



وتطورت الأحداث في الأندلس عام ١٤١هـ، فقد وصل إلى الأندلس المشتتون من الأمويين، وقد وصل من بينهم رجل كبير ذو شأن هو "عبد الملك بن عمر المرواني" ومعه عشرة من كبار الأمويين.

عزل عبد الرحمن الداخل "أبا الصباح اليحصبي" حليفه السابق من إشبيلية وكان قد سمع مقالته بعد الانتصار على قوات الفهري والصميل، وولى عبد الملك بن عمر على إشبيلية كما ولى ابنه عمر أيضاً على "مورو" فأصبح بذلك معظم ولاة الأقاليم من بني أمية.

قطع الخطبة للعباسيين:

لاحظ عبد الملك المرواني والي إشبيلية جرياً على عادة العصر في ذاك الزمان أن خطباء الجمعة يدعون في آخر الخطب لأبي جعفر المنصور الخليفة العباسي، أو لأي خليفة يعاصرهم، فأشار على عبد الرحمن الداخل أن يقطع هذا الدعاء، فأجابه: لا أريد ذلك حتى لا أستفز العباسيين علينا، قال: لا، اقطع ذاك الدعاء، وما زال به حتى أمر الداخل بقطع الخطبة للعباسيين وذلك بعد مرور عشرة أشهر على توليه إمارة الأندلس -ومع ذلك لم يطلب لنفسه الخلافة، ولا ادعى أنه خليفة-.



صورة تمثل اجتماع المسلمين لصلاة الجمعة في الأندلس

٢ ثورة يوسف والصميل



ومن أحداث ١٤١هـ: أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري والي الأندلس السابق قد فرّ من قرطبة واختفى فسأل عنه الداخل الصميلَ بن حاتم قائلاً: أين ذهب يوسف؟ قال الصُّميل: لا أعلم، فقال له عبد الرحمن: والله ما كان ليخرج إلا بعلمك، فغضب الصميل وأغلظ له القول: والله لو أنه تحت قدمي ما رفعتها لك فافعل ما شئت، فرأى خطورة الوضع منه، فأمر بسجن الصميل وولدي يوسف "أبي الأسود محمد بن يوسف، وعبد الرحمن بن يوسف" وظهر يوسف في عاصمة الغرب "ماردة" يجمع الجموع من بعد ذلك.

تمكن أنصار الصميل ويوسف من أن يدبروا مكيدة فدخلوا إلى السجن وأخرجوا من فيه، فأمّا الصميل أخذته الأنفة فرفض أن يخرج من السجن هارباً، وأما عبد الرحمن بن يوسف فلم يستطع أن يتابع لسمنه فقبض عليه ولم يهرب إلا أبو الأسود محمد بن يوسف.

يوسف في ماردة

ظهر يوسف بن عبد الرحمن الفهري في "ماردة" واستطاع أن يجمع عشرين ألف مقاتل، فشعر عبد الرحمن الداخل بخطر هذا التجمع فاتجه إلى إشبيلية والتقى بعبد الملك بن عمر المرواني وقررا أن يجمعا الجند ويحشداه لإرساله وإخضاع هذا التمرد الثالث للوالي السابق يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

أمية بن عبد الملك يفر

ولى عبد الملك ابنه أمية على جيش أرسله على عجل ليتابع فيما بعد هو على رأس جيش كبير، فلما تقدم هذا الجيش نحو "ماردة"، ووصلت الأخبار عن ماردة وقوتها وعدد جيشها، هرب قائد الجيش أمية قبل أن يلتقي بأحد، وقبل أن تكون هناك بوادر معركة، ورجع إلى إشبيلية ففاجأ والده عبد الملك بعودته فقال له والده: ما حملك على أن استخففت بي، وجرأت العدوَّ علينا؟ فإن كنت قد فررت من الموت فقد جئت إليه. وأمر بقتل ابنه، وهنا حسم الأمر تماماً، ثم جمع بني أمية وخطب فيهم:



خزان (صهريج) باسم عبد الملك، من الرخام بشكل مزخرف منحوت

عبد الملك يقود الجيش

«طردنا من الشرق إلى أقصى هذا الصقع، ونحسد على لقمة تبقي الرمق، فاكسروا جفون السيوف، فالموت أولى أو الظفر» فحسم بقتل ابنه وخطبته في بني أمية كل الظنون والشكوك حول قضيتهم، ثم قاد عبد الملك بنفسه الجيش، ولحقه عبد الرحمن الداخل بقوة تدعمه، وجرت عند ماردة معركة مدمرة، طاحنة قضت على معظم الجيشين: جيش يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وجيش عبد الملك المرواني إذ قتل منهما ٣٠ ألفاً، وأبلى عبد الملك في هذه المعركة بلاءً منقطع النظير، وتمّ له النصر ولكن كان من نتيجة المعركة أن سقط هو قتيلاً، يروى أنه في بلائه أثناء القتال لم يكن يُرى من أثر الدماء وسيلانها عليه، ولما سقط ميتاً كانت يده ملتفة على مقبض السيف، وما استطاعوا أن ينتزعوا السيف من يده، ولما قدم الداخل ورآه بكى وذكره بخير، وزوج ابنه هشاماً من ابنة عبد الملك، وقرّب أبناءه وجعل منهم الوزراء وأكرمهم إكراماً جميلاً لمكانة عبد الملك بن عمر المرواني في نفسه.

مقتل الفهري

وفرّ يوسف الفهري تحدثه نفسه أن يجمع القوات ليثور للمرة الرابعة نحو طليطلة، فلما اقترب منها رآه رجل يدعى عبد الله بن عمر الأنصاري، وقال في نفسه: هذا الفهري قتلُه الراحةُ له والراحة منه، وتبعه فلحقه على مسافة أربعة أميال من طليطلة وقتله، وأرسل رأسه إلى الداخل ، فأعلن هذا مقتله على الناس، وظنّ أن الاضطرابات قد هدأت، لكنه أمر بقتل الصميل بن حاتم، وتتبع أنصاره وأنصار يوسف الفهري، فصفّى رجال الحكم السابق الذين ما تركوه على حاله إذ دخل الداخل إلى الأندلس بنفس سموحة متسامحة، ولكن هؤلاء ما تركوه.

٣ العلاء بن المغيث اليحصبي يدعو للعباسيين



ووقعت حادثة كانت من أخطر الحوادث التي مرت على عبد الرحمن الداخل في عام ١٤٦هـ، إذ عبر داعٍ من دعاة العباسيين شمالَ إفريقية ودخل الأندلس، وهو داعية يسمى: "العلاء بن المغيث اليحصبي"، أرسله الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور للسيطرة على الأندلس وجعلها تابعة للخلافة العباسية، فنزل العلاء "باجة" واجتمع الناس حوله حين أعلن أنه ينبغي أن يكون خليفة واحد للمسلمين، والآن فالخلافة بيد العباسيين فهم أولى بالاتباع من غيرهم (فنقلَ الصراعَ إلى الأندلس بين العباسيين والأمويين)، فاجتمع حوله: أعداء عبد الرحمن الداخل، رجال الحكم السابق، البربر، وأنصار العباسيين، وهيأ منهم جيشاً دخل إلى "شدونة" واستقبله أهلها وواليها، ثم استمر للوصول إلى عاصمة المنطقة "إشبيلية".



العلاء يسيطر على إشبيلية

أرسل الداخل جيشاً بقيادة مولاه "بدر" فتمكن من إعادة السيطرة على "شدونة" إلا أن العلاء وجيشه تمكنوا من دخول "إشبيلية" العاصمة واستولوا عليها، وهرب جيش الداخل وهو يقوده إلى مدينة "قرمونة" يتحصن بها، وبقي حاكم الأندلس وجيشه محاصراً من قبل العلاء وقوته في تلك المدينة مدة شهرين، لكن عبد الرحمن الداخل فاجأ العلاء وجنده إذ فتح الأبواب وهجم مباغتة بـ ٧٠٠ رجل فقط حيث دب الرعب في صفوف الثوار وجرى القتل بينهم، وفرَ العلاء واستطاع أحد أشخاص الداخل من اللحاق به وقتله، كما قتلوا من أنصاره سبعة آلاف رجل، قطع عبد الرحمن الداخل رأس العلاء وعلّق على أذنه رسالة مسجلة إلى أبي جعفر المنصور، حيث وضع الرأس في صندوق، كما جمع رؤوس بعض قادة أنصار العباسيين في صناديق تحمل داخلها رسائل مسجلة معبرة، معلقة في آذان القتلى إلى مكة إذ كان أبو جعفر المنصور يحج ذاك العام.

منارة أندلسية في إشبيلية مازالت باقية على حالها حتى اليوم

إنهاء الثورة

وضعت الصناديق في أماكن متفرقة من أنحاء مكة، أما الصندوق الذي فيه رأس العلاء فقد وضع قرب خيمة أبي جعفر المنصور ليلاً بعملية تسلل غريبة جداً، ولما استيقظ المنصور وجد الصندوق، وفتحه فإذا فيه ما رأى فقال: عرّضنا هذا البائس (العلاء) لحتفه، ما هذا (عبد الرحمن الداخل) إلا شيطان، وما في هذا الشيطان من مطمع !! والحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر.

يكاد المرء يشعر بخوف العباسيين وخليفتهم أبي جعفر المنصور من الداخل من تلك المقولة التي سبقت.
ولم تهدأ الأمور، وما سكنت الحوادث في الأندلس بالرغم من إخضاع الداخل أعظم ثورة قامت عليه، ثورة العباسيين بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي.

٤ هشام بن عذرة الفهري



قام بالثورة عام ١٤٧هـ رجل آخر هو هشام بن عذرة الفهري في طليطلة وكان الداخل قد تعلم الدرس تلو الدرس من التجارب الماضية، وأخذ العبرة من الثورات السابقة ، لذلك لم يمهل هذه الثورة الجديدة وانطلق فوراً وقاد جيشه وفاجأ هاشماً والثوار بهجوم سريع مباغت، وحاصرهم في طليطلة وشدد عليهم، فطالبوه بالصلح فأعطاهم مقابل أن يعطوه ابن هاشم رهينة لديه، غير أن هاشماً نقض الصلح بمجرد مغادرة عبد الرحمن طليطلة مما أثار عليه غضبه فقتل ابنه وكرّ عليه، وحاصره كرة أخرى في طليطلة، لكن الداخل فك الحصار عنه لنشوب ثورات عديدة في الأندلس، كلّف مولاه بدراً بمهمة القضاء على هاشم الفهري ومقاتلته، فقام مولاه بالمهمة خير قيام، ونجح في إخضاع طليطلة، وأن يخضع هاشماً ويقتله كما قتل عدداً من قواد الثورة والثائرين.


غرناطة الحمراء: حديقة أحد القصور



٥ سعيد اليحصبي



كما ثار في مدينة "نبلة" عام ١٤٨هـ سعيد اليحصبي المَطْرِيّ، واستطاع أن يسيطر على مدينة "إشبيلية" عاصمة جنوب الأندلس، وذلك في شهر ربيع الأول في العام نفسه.

٦ غياث اللخمي



كما ثار في نفس الفترة غيّاث اللخمي في مدينة "شدونة" وأعلن تأييد المطري.
فاستفحل أمر سعيد واستمرت ثورته إلى سنة ١٤٩هـ، عند ذلك أرسل عبد الرحمن مولاه "بدراً" فحاصرهم في "إشبيلية"، ثم أردف جيشاً بنفسه ليساند بدراً واستطاع أن يقتل سعيداً المَطْرِيّ، ولكن الثورة لم تخمد إذ ترأس الثوار "خليفة بن مروان".
ملّ أهل "إشبيلية" من الثورة والثائرين مما جعلهم يراسلون الداخلَ يطلبون منه الصلح والأمان، فأعطاهم عبد الرحمن ورضي منهم ذلك على أن يسلموه رأس الثائرين خليفة، فقبلوا الشرط وسلموه خليفة، فقتله الداخل وانطفأت ثورته، إنه لشيء مدهش وأمر عجيب! أن يستطيع عبد الرحمن الداخل الذي دخل الأندلس وحيداً، ثم استطاع بقلة من أتباعه من جند الشام أن يحكم الأندلس، وأن يخمد ثورة تلو أخرى!

٧ عبد الله الأسدي



وثار عليه في نفس العام ١٤٩ هـ عبد الله الأُسدي، واستطاع الداخل إخضاعه.

٨ أبو الصباح اليحصبي



وخرج عليه حليفه السابق "أبو الصباح اليحصبي" أيام دخل عبد الرحمن الأندلس وكان حاكم إشبيلية، إلا أنه كان قد أسرّ بقتله لكن أصحابه لم يرضوا بذلك، وقد وصل هذا الأمر عبد الرحمن فأسره في نفسه، ثم ولاه إشبيلية ثم عزله كما مرّ، فثار عليه أبو الصباح لهذا السبب -سبب عزله- وكان ذكياً شجاعاً قوياً وله أنصار كثر. استماله عبد الرحمن حتى جاءه في قرطبة، وانفرد به الداخل فقتله.

٩ غياث الأسدي



خرج عليه ثائراً غيّاث الأُسدي بعد مقتل أبي الصباح، وتزعّم اليمانية في إشبيلية فأرسل إليه الداخل جنوداً هزموه في إشبيلية وقتلوه فانطفأت ثورته.

كان عبد الرحمن الداخل قد دخل الأندلس بنفس تحب الصفح والمسامحة، يريد أن يجمع القلوب ويوحد الصفوف، كما بدا في تعامله مع الثائرين عليه والخصوم الدائمين مرات عديدة، لكن العنصر العربي في الأندلس قد قام بثورات عديدة، وأثار عليه الخصوم وجعل الاضطرابات، كل ذلك جعل الداخل يغير معاملته مع الناس فقتل وأسر، وأبقى رهائن عنده.

فماذا لقي من العرب؟ صراع دائم وثورات هائجة، واضطراب مستمر للحصول على الملك والسلطة - ووضع العرب في العصر الحالي لا يختلف كثيراً عن ذاك الوضع وما أشبه اليومَ بالأمس!-

لذلك قرر إجراء تغيير كبير في الجيش، فجعل معظم العناصر فيه من مسلمي البربر ومن الصقالبة، وهذه كلمة تطلق على كل من أسلم من الروم ومن الأوربيين، وكأن هذا الأمر وذاك التغيير لم يفعل شيئاً.

ممر إلى إحدى القاعات في أحد القصور الإسلامية



١٠ حيوة الحضرمي

١١ عبد الغافر اليحصبي

١٢ عمرو بن طالون



فثار عليه "حَيْوَة الحضرمي" في إشبيلية، وخرج عليه «عبد الغافر اليحصبي» في مدينة «نبلة» كما انتقض عليه "عمرو بن طالون" في مدينة "باجة"، لكن هؤلاء جميعاً طالبوا عبد الرحمن الداخل الصلحَ والأمان إذ جاءهم بالجنود مهاجماً، فتركهم وأعطاهم مما يكفل ألا يعودوا إلى الثورات، وذلك عند شعورهم بالضعف عن مواجهته.



أحد القصور في أشبيلية

١٣ فرويلة بن ألفونسو الأول



استغلّ الفرنج هذه الفترة الحرجة التي مرت من عصر عبد الرحمن الداخل، وانتفع "فَرُوِيْلة" الذي ورث عن والده "ألفونسو الأول" بما كان من أحداث داخلية، واضطرابات متواصلة في الأندلس والشمال، فاستولى على عدد من المناطق المجاورة لمنطقة الصخرة "منطقة ليون"، إلا أن الداخل أرسل إليه من يحاربه، وجرت الحرب سجالاً بينه وبين "فرويلة" ثم أرسل عبد الرحمن مولاه "بدراً" فأوقف تمدده فترة من الزمن، بعد أن وصل إلى "ألبة".

وكل هذه الحوادث قد جرت في الأندلس وتعتبر من الاضطرابات التي شغلت عبد الرحمن الداخل عام ١٥٠ هـ.

١٤ سقنة بن عبد الواحد



ونشبت ثورة من إحدى الثورات الخطرة التي واجهت عبد الرحمن الداخل في عام ١٥٠هـ، وذلك أن رجلاً من البربر يدعى "سقنة بن عبد الواحد" قام يدعو إلى شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فادعى أنه من نسل الحسين بن علي رضي الله عنهما. صدقته حشود كبيرة من البربر، وكانت ثورته في الجنوب الغربي من جزيرة الأندلس في منطقة "سنتا مارية"، فسار الداخل ليخمد ثورته في نفس العام، ولما اقترب من المناطق التي كانت تحت ثورة "ابن عبد الواحد" فرَّ الأخير إلى الجبال الوعرة معتصماً بها، وتفرقت جماعته أيضاً في عدة مناطق منها، وما استطاع الداخل أن يتابعه في تلك الأماكن الجبلية الوعرة، فكلف رجلاً من نسل عثمان بن عفان رضي الله عنه لمتابعة هذه الفئة وهو "سليمان بن عثمان بن مروان بن أبان بن عثمان"، وعاد هو إلى عاصمة ملكه، واستمرت ثورته حتى عام ١٦٠ هـ.

١٥ عبد الرحمن الصقلبي



وفي عام ١٦١هـ دخل الأندلس من الشمال الإفريقي رجل من العرب اسمه: عبد الرحمن بن حبيب الفهري وعرف بالصَّقلبي، ولم يكن من الصقالبة ولا صلة له معهم لكنه سمي بذلك لشبهه بهم فهو طويل، ذو عينين زرقاوين وشعر أشقر يشبه الأوروبيين، فقام سنة ١٦٢هـ يدعو للعباسيين مرة أخرى مدعياً أن بلاد المسلمين تحكمها الخلافة العباسية، وأن عبد الرحمن قد اقتطع الأندلس عن العالم الإسلامي والخلافة وعليه وعلى المسلمين في الأندلس مقاومته، وإعادته إلى سلطة الخلافة، فراسل والي "برشلونة" سليمان بن يقظان الأعرابي الذي رفض أن يؤيده، وبدلاً من أن يتجه الصقلبي تجاه عبد الرحمن الداخل بقواته، فإنه قرر أن يحارب سليمان بن يقظان الأعرابي، ودارت الدائرة عليه وعلى أتباعه، مما أضعف شأنه، فاستغل ذلك الداخل فقضى على ما بقي من قواته وأحرق سفنه مما جعله يفر إلى الجبال، فأعلن عبد الرحمن جائزة ألف دينار لمن يأتي برأسه فقتله أحد رجاله من البربر من أجل الدنانير، **وما أكثر من يبيع رجلاً بمبلغ زهيد في الدنيا بل هناك من يبيع جيشاً كاملاً!**

١٦ سليمان الأعرابي



زها سليمان بن يقظان الأعرابي بانتصاره على عبد الرحمن الصقلبي فأعلن الثورة على الداخل وهاجم عاصمة الشمال "سرقسطة" وتمكن منها هو وجماعته.

١٧ القائد السلمي



ثار في مدينة طليطلة "القائد السُّلَمي" لكن ثورته أخمدت وهزمه الداخل.



الداخل ينهي ثورة «القائد السُّلَمي»

١٨ إبراهيم البرلسي

١٩ دمية الغساني

٢٠ العباس البربري



كما أعلن العصيان "إبراهيم البرلسي" فهزمه مولى عبد الرحمن "بدر"، كما تمرد "دمية الغساني" في "إلبيرة" وأخضعه القائد "شهيد بن عيسى"، وثار من بعده "العباسي البربري" فأخمدت ثورته أيضاً.

٢١ عبد السلام بن يزيد بن هشام الأموي



ولأول مرة حدثت الفتنة بين الأمويين في الأندلس، فقد ثار عبد السلام بن يزيد بن هشام، وثار معه يعاونه عبيد الله بن أبَان بن معاوية بن هشام، والذي حرضهما أبو عثمان "عبيد الله بن عثمان" الذي كان قد دعم عبد الرحمن حين نزوله إلى الأندلس، وأيدهما بعض الأمويين ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا﴾ (الأنفال٤٦)، فاستطاع الداخل إخماد هذه الثورة أيضاً، وقتل الأمويَّيْنِ "عبد السلام وعبيد الله" لكنه لم يقتل أبا عثمان وقال له: لقد تركتك لفضلك عليّ وعلى الأمويين، ثم قال عنه: هذا أبو مسلم هذه الدولة في المغرب الإسلامي، يشبِّهه بأبي مسلم الخراساني الذي كانت له اليد الطولى في نجاح الدولة العباسية، ولكنه خاصمها وعاداها فيما بعد، فقتله أبو جعفر المنصور في المشرق الإسلامي.

٢٢ الخائن سليمان الأعرابي وشارلمان



استطاع عبد الرحمن الداخل أن يخضع ثورة "إلبيرة" لكنه ما استطاع أن يخضع الثورة التي نشبت في عاصمة الشمال "سرقسطة" التي استقر فيها الثائر سليمان بن يقظان الأعرابي، كما ثار من يعاونه الحسين بن يحيى الأنصاري، فأرسل إليهما جيشاً كثيفاً يقوده ثعلبة بن عبيد، فقاتلهما قتالاً شديداً وذلك في عام ١٦٤هـ، وفي بعض الأيام عاد ثعلبة إلى مخيَمه، فاغتنم سليمان غرّته وافتراق أهل الجيش عنه، فخرج إليه وقبض عليه، وأخذه أسيراً، لذلك تفرق عسكره.



شارلمان" إمبراطور ألمانية الكارولنجية" (القبائل الأوربية التي سكنت ألمانية في ذلك العصر).

خيانة سليمان الأعرابي

وخاف سليمان من الداخل فأحدث خيانة ما حدثت من قبل بين المسلمين، وهي أول حادثة يسجلها التاريخ، والله أعلم، أن يتصل مسلم بملك من الكفار يطلب إليه أن يعينه حتى يتفرد بحكم الأندلس، هذا الملك الذي اتصل به هو "شارلمان" إمبراطور "الكارولنجية" القبائل الأوربية التي سكنت ألمانية في ذلك العصر-، ويعرض له مقابل ذلك أن يسلمه منطقة الشمال كلها وعاصمتها سرقسطة أيضاً ليضمها إلى إمبراطوريته المترامية الأطراف.

حادث غريب وأمر مشين جداً ﴿وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل﴾ (الأنفال٧١)

كل الخيانات في من خان خالقه

لا بدّ أن تقرأ "الأنفال" تعتبر

ومن النفوس من تطمع بالإمارة والدنيا ولو على الإذلال والمهانات، وقد تكون حريصة على حياةٍ مهما كانت نوعية تلك الحياة.



شارلمان يهاجم والعلماء يتحركون

فسار "شارلمان" نحو الجزيرة الأندلسية -يدفعه الطمع والعرض المغري الذي سبق- مخترقاً جبال البيرينيه "البرت"، ولما وصل إلى سرقسطة وجد أهلها قد تحصنوا بها وأغلقوا أبوابها ورفضوا أن يدخلها واحد من جيش شارلمان أو غيره، إذ يوجد بين المسلمين في كل زمان وفي كل مكان من علماء المسلمين مَنْ يحرك الناس ويثيرهم، ويوقظ هممهم وينبههم إلى مثل هذه الجرائر التي ترتكب وإلى عظمها بحق الإسلام والمسلمين.

نهض العلماء في سرقسطة فعزلوا سليمان، وأيدوا الحسين بن يحيى الذي عارض حليفه، وقاد المقاومة الضارية ضد شارلمان الذي شدّد حصاره على هذه المدينة حصاراً كاد أن يهلك أهل سرقسطة.

السكسون يثورون على شارلمان

ويشاء الله تعالى أن تتحول الأمور لصالح المسلمين، بل ويغير وجه التاريخ، لقد ثار على شارلمان قبائل السكسون في شمال ألمانية وفرنسة، فاضطر شارلمان أن يفك الحصار ويعود أدراجه خائباً، ولما كان يعبر جبال البيرينيه وممراتها الضيقة عائدا" إلى بلاده هوجمت مؤخرة جيشه حيث كان فيها كبار ضباطه مع الغنائم والأسرى فأبيدت، ووقعت الوقيعة بين الفرنجة أنفسهم.

شعر شارلمان نتيجة ذلك بضعف موقفه وتغيرت سياسته نحو الأندلس، وظهر كأنه يؤثر السياسة السلمية تجاهها فأرسل وفداً على الداخل يدعوه إلى معاهدة بينهما فقبل الداخل بذلك وجرت معاهدة بينه وبين الفرنجة.

واستغل القوط هذه القلاقل والاضطرابات العديدة، فاحتلوا الثلث من منطقة الشمال لكن عبد الرحمن استطاع أن يوقف تقدمهم كما مرّ.



جيش شرلمان في قتال مع قبائل السكسون

منطقة نفوذ القوط في الأندلس في عهد عبدالرحمن الداخل

فرنســا
البحر الأبيض المتوسط
جزائر البليار
المغرب
طرف جليقية

جليقية
ليون
قشتالة
نافار
أرغون
قطالونية
سرقسطة
بلنسية
طليطلة
الغرب
دانية
مرسية
غرناطة
قرطبة
أشبيلية

شنتياجو
خيخون
صخرة بلاي
ليون
أشترقة
رنسسفال
أردونة
قرقشونة
جيرونه
برشلونة
طركرنه
سرقسطة
بلد الوليد
كورة
مدريد
طلبيرة
طليطلة
قطلونة
بلنسية
ميورقة
دانية
شاطبة
اريوله
مرسية
قرطجنة
المرية
غرناطة
مالقة
لشبونة
بطليوس
ماردة
باجة
لفنت
لبله
أشبيلية
قرمونه
ولبه
شدونه
طريف
جبل طارق
سبتة

نهر مينه
جبال قنتبريه
نهر دويره
وادي رامه
وادي الحجارة
جبال الشارات
نهر ابرو
نهر تاجة
نهر شقورة
نهر الوادي الكبير
جبال قرطبة
نهر سرقسطة
نهر الوادي
جبال الثلج

منطقة نفوذ القوط
نهر
مدينة
جبال





عام ١٦٥هـ
٧٨٢م

الأنصاري يثور

وبعد رجوع شارلمان من حصار سرقسطة، عاد الأنصاري إلى ثورته، ولم ينضو تحت لواء الداخل ظناً أنه متمكن في هذه المنطقة، فأرسل الداخل جيشاً يقوده ثُمامة بن علقمة وكلفه أن ينهي هذه الثورة، فاستطاع ثمامة أن يدخل سرقسطة ويقتل الأنصاري.

حادثة طريفة

حادثة طريفة: يذكرها المؤرخون قد وقعت بعد وصول عبد الرحمن الداخل إلى سرقسطة وبعد دخول قواته إليها، تدل على أخلاقية الداخل وصفاته وحسن سياسته، قالوا:

لما فتح الداخل سرقسطة وحصل في يده ثائرها الحسين الأنصاري، وشدخت رؤوس وجوهها بالعُمَد، وانتهى النصر إلى غاية أمله، أقبل خواص المدينة يهنئونه، وتسلل بينهم جندي لا يؤبه له، فهنأ الداخلَ بصوت عالٍ وأسلوب فجّ يدل على قلة أدب في مثل هذه المجالس، فقال عبد الرحمن: والله لولا أن هذا اليوم أسبغَ عليّ فيه من نعمه من هو فوقي -يقصد الله تعالى-، فأوجب عليّ ذلك أن أُمهل فيه من هو دوني لأُصلينّك ما تعرضت له من سوء بالنكال. من تكون حتى تأتيَ مهنئاً رافعاً صوتك غيرَ متلجلج بمكانة الإمارة حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟ وإن جهلك ليحملُك العودَ لمثلها، وأخشى أن تكون لمثلها فلا تجد مثل هذا الشافع في مثل هذه العقوبة.

يريد أن الله قد منّ عليه بهذا النصر، وإنك أيها الرجل لست بمقام يدعوك لأن تخاطب بهذه اللهجة في مثل هذا الموقف، ولولا وجود النصر الذي يشفع لك لأصابتك مني عقوبة ولردعتك، وكأني بك في موقف آخر لا يوجد مثله فيُنَكّل بك.



نبهونا إلى أنفسكم

لكن هذا الجندي قال قولة أعجبت الحاضرين، وأدهشتِ الداخلَ فقال: لعلَ فتوحات الأمير يقترب اتصالها باتصال ذنوبي وجهلي فتشفع لي، لا أعدمنيه الله تعالى. فأثار هذا الجواب نفسية الداخل وقال: ليس هذا باعتذار جاهل. وتهلل وجهه، ثم قال: نبّهونا على أنفسكم إن لم نكن ننتبه إليها، فأمر برفع مكانة الرجل الجندي، وأعلى مرتبته، وزاد في عطائه.

ازدهار حركة التجارة بين المسلمين ودول العالم

٢٣ المغيرة الأموي



ثار في قرطبة ابن أخيه عليه وهو المغيرة بن الوليد بن معاوية بن هشام يطلب الإمارة لنفسه ناكراً الجميل، ويجحد العرفان الذي أسداه إليه عمه بأن أقره في الأندلس بعد أن كان شريداً طريداً، يختفي من مكان إلى مكان وكأن الأرض قد ضاقت عليه، كحال بني أمية لما فُقدت دولتهم.

وأرض الله واسعة ولكن   إذا نزل القضا ضاق الفضاء

فآواه في قرطبة، وغمره بالنعم، وأغدق عليه العطاء لكنه أنكر ذلك وثار يطلب رأس عمه ليتولى بدلاً منه وكان هذا منه لؤماً وغدراً كما قال الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فقتله الداخل عام ١٦٧هـ، ثم أرسل أمواله إلى أبيه"أخيه الوليد" مع رسول يطلب إليه أيضاً مغادرة الأندلس، فجعل أخوه يعتذر عما بدر من ابنه، ويؤكد له إخلاصه هو إليه، وليس له أية صلة به وبثورته، فأبى الداخل إلا أن يخرج أخوه من الأندلس خشية أن يحركه دم الثأر غداً، فيطلب دم ابنه، وأمام هذا الإصرار رحل أخوه إلى إفريقية.

لم يعد يثق بأحد أو يطمئن إلى واحد ولو كان من أقرب الناس إليه لما رأى منهم جميعاً، وكأنه يتمثل قول امرئ القيس:

كذلك جدي ما أصاحب صاحباً   من الناس إلا خانني وتغيرا



عدد هائل من الأعمدة داخل مسجد قرطبة



٢٤ أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري



ظهر ثائر ما من أحد يفكر أن يثور أو يتخيل ذلك منه: هو أبو الأسود محمد بن يوسف الفهري الوالي السابق للأندلس، بعد أن أمضى سبعاً وعشرين سنة في السجن من ١٤١ إلى ١٦٨هـ إذ كان رهينة كما مرّ في الصفحات السابقة.

كان هذا الرجل يفكر بالثورة، ويخطط طيلة مدة بقائه في السجن فكيف يثور سجين على الأمير؟ وكيف يقوم بعملية وهو وحده؟

حيلة عجيبة

عمد إلى حيلة عجيبة، نادرة في التاريخ، تظاهر في سجنه بالعمى حتى أتقن دور الأعمى وحركاته وتصرفاته في جميع أحواله، كان الناس يمررون أيديهم أمام عينيه فلا يحرك رمشاً، ولا يُرى أثر انفعال أو إحساس على ملامح وجهه، وكان من معاملة السجناء في ذاك العصر أن يخرجهم الحراس إلى نهر قريب من السجن في كل مدة ليغتسلوا ويغسلوا ملابسهم، ويصلحوا شؤونهم، وكان ذلك بمثابة "تنفس" إذ يُخرجون من المهاجع والزنزانات.

وكان أبو الأسود كغيره يؤخذ معهم بدليل من رفاقه فابتعد يوماً ونادى رجلاً على الشاطئ الآخر أن يأتي بمولاه هو في موعد محدد في هذا المكان، وجاء مولاه في موعده الذي ضرب له، فسبح أبو الأسود في غفلة عن حراسه إلى الطرف الآخر، وفرّ مع مولاه على حصان أعدّه له، قاصداً طليطلة، ولما علم أن الوضع مستقر فيها، غيّر وجهته إلى "قسطلونة" التي تبتعد في شمال مدينة "جيان" عشرين كيلومتراً.

قرطبة، المسجد الكبير، البوابة الجانبية (الجانب الشرقي)، يعود تاريخها إلى عصر المنصور



إعلان الثورة

وأعلن ثورته، وأظهر عصيانه، فاحتشد حوله الآلاف من أهل الأندلس لمكانة أبيه يوسف الفهري الوالي السابق للأندلس قبل عبد الرحمن، واجتمع معه أيضاً أعداء الداخل، كما جاء إليه الطامعون في الحكم أو الراغبون في المال والغنائم، وغيرهم. حتى اجتمع حوله حشد كبير عدّ بعشرات الألوف، تتبع الداخل خطاه ولم يمهله فجاءه بجيش عظيم وجرت بينهما معركة قرب "قسطلونة" قتل فيها من أنصاره أربعة آلاف، وفرّ هو يريد أن يجمع الأنصار مرة أخرى فلم يفلح، وتفرق أنصاره وقتل منهم خلق كثير، والتجأ أخيراً إلى قرية قرب "قسطلونة" فلحقه الموت هناك.

٢٥ ثورة القوط والبربر



واستغل القوط ثورته، وانتهزوا الاضطراب الذي أحدثه في هذه الفترة، فتمكنوا من مدينة جيليقية، وبسطوا سيطرتهم عليها، وهي في الشمال الغربي من الأندلس، ولكن الداخل أرسل عليهم والي طليطلة الذي تمكن من أن يوقفهم، ويقتلهم ويغنم منهم.

وثار البربر أيضاً عليه في عام ١٧٠هـ لكن الداخل بسط قوته عليهم وأذلهم.

مصير بدر صاحب الداخل

لذلك لم يعد بإمكان الداخل أن يثق بأحد من الناس قط، فهذا مولاه بدر بعد أن تعب من القتال، وكلّ من متابعة الثائرين وإخضاعهم، طلب الولاية في مكان ما من الأندلس، وطلب الراحة إذ تقدمت به السن أيضاً، فأبى ذلك عليه الداخل، فسأله المال ليخلد إلى عيش رغيد فأبى أن يعطيه شيئاً، بل نفاه إلى جزيرة من جزر الأندلس الجنوبية فمات هناك رفيق السفر والشقاء، ورفيق الحروب، وصديق البيت في الحل والترحال.

أين الروح القديمة؟ وأين العاطفة تجاه الأحبة؟ وأين مسامحة النفس، والخلق السمحة وأين العفو؟ لقد تغير عبد الرحمن لتغير الناس حتى من أبناء عشيرته وبني جلدته.



مسجد قرطبة الذي اكتمل بناؤه في عهد الخليفة المنصور



جامع قرطبة (تحفة الفن الأندلسي)

لا يكاد يطأ المسلمون أرضاً حتى يبدؤوا ببناء مسجد أو بيت لله يكون مركز نور وهداية وإعلاء لكلمة الله أينما حل فالمآذن ترجيع أذان المهيمن الديان.

وحينما دخل المسلمون فاتحين إلى الأندلس أقاموا عدة مساجد كان من بينها جامع قرطبة الذي اختطه وحدد قبلته حنش الصنعاني رضي الله تعالى عنه -مهندس المساجد في الأندلس- وكان موقعه في البداية كنيسة للنصارى تسمى (شَنت بُنجنت) أي القديس منصور، فأخذ المسلمون نصفها وأبقوا لهم النصف الآخر وكان المسجد وقتها في منتهى البساطة.



أخبار مجموعة في افتتاح الأندلس
وذكر من وليها من الأمراء إلى دخول
عبد الرحمن بن معوية وتغلبه
عليها وملكه فيها هو وولده
والحروب الكائنة في ذلك بينهم

كتاب أخبار مجمعة ويبدو من الكتابة الواضحة قصة الفتوحات الإسلامية في الأندلس

ثم إن عبد الرحمن الداخل في عام ١٧٠هـ اشترى من النصارى النصف الآخر من كنيستهم بمائة ألف دينار وهدم البناء القديم للمسجد ورفع مكانه بناءً جديداً وصرف همته ليكون هذا المسجد الجديد الجامع في حاضرة ملكه قرطبة تحفة فريدة من حيث بهاؤه ودقة زخارفه وروعة منظره، وفرش صحن المسجد بالأشجار وبلغ ما أنفقه فيه ثمانين ألف دينار ذهبية .

ثم توالى اهتمام الخلفاء من بعده بمسجد قرطبة حتى كان عهد الحاجب المنصور فوسعه توسعة كبيرة وأولاه اهتماماً عظيما حتى صار يسمى (جامع المنصور).

مجسم تصويري لمسجد قرطبة الكبير

نتائج عهد الداخل



الداخل ينشيء الدواوين

- فصل الأندلس عن بقية الأرض الإسلامية، وأبعد الأندلس عن الخلافة الإسلامية.
- كثرت الثورات عليه والتهبت حوله تريد حرقه، أكثر من خمس وعشرين ثورة، فما أعطته الراحة النفسية للتفكير، فتغيرت معاملته حتى عن أقرب الناس إليه.
- ضاعت مناطق من جنوب فرنسة، وتمكن الفرنج من إزالة سلطة المسلمين عنها، كذلك ضاع أقصى الشمال الغربي، فتمردت "ليون القوط"، وذلك السبب الحتمي للنزاع بين المسلمين يقول الله تعالى: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ (الأنعام٦٥).
- أسس جيشاً دائماً تعداده ١٠٠ ألف مقاتل، وشكل من ٤٠ ألف مقاتل حرسه الخاص.
- دوّن الدواوين، واستقرت السلطة المركزية بيده، واستجلب الأشجار لتزرع في الأندلس منها النخيل والرمان، وشكّل الأسطول البحري لحماية سواحل الأندلس.
- بنى مدينة قرطبة (سورها) وبنى مسجدها في عام ١٧٠هـ، وهو مسجد قرطبة الكبير، وجعل مدينة قرطبة تضاهي بغداد بالمنشآت العمرانية وبأسواقها، وبنى قصراً سماه قصر الرصافة يتتبع آثار جدّه هشام بن عبد الملك الذي بنى في الشام قصره المسمى برصافة هشام.
- دوّن الدواوين ورتب شؤون الدولة إذ قسّم الأندلس إلى مناطق إدارية، وضبط الأمن فيها، وكان يتفقد أحوال الرعية، ولما خشي من الاغتيال أرسل غيره ليقوم بهذا الأمر ويبلغه عن كل كبيرة وصغيرة عن أحوال الناس، وكان كريماً سخياً يحفظ كرامة الناس، فقد أعلن ألا يطلب منه أحد حاجته على ملأ من الناس، بل إنه يرسل إليه كتابة فيلبيها له دون إبطاء، شاعر جيد الشعر، أديب، شجع الشعراء وأغدق عليهم العطاء.



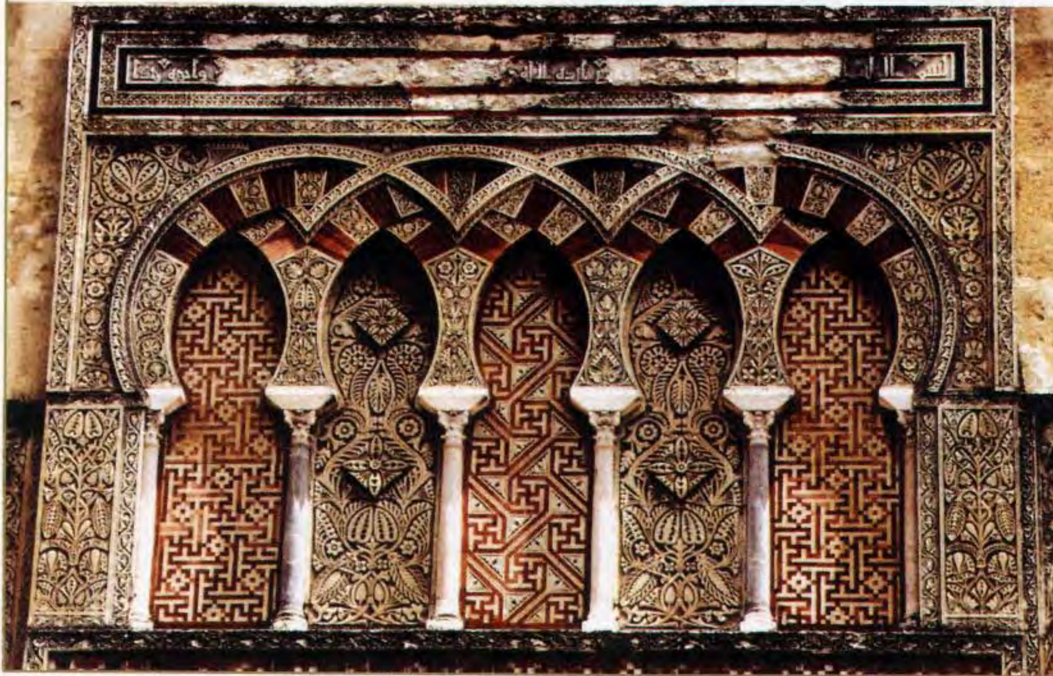
من الوالي بعد الداخل؟

ولما شعر بدنو أجله احتار فيمن يولي بعده:

أيولي ابنه البكر سليمان من زوجته الشامية وكان والياً على طليطلة، لكنه أقل كفاءة من ابنه الآخر هشام (والي ماردة) من أم إسبانية مسلمة، لكنه أقدر من أخيه على إدارة الأمور وأحسن دراية في استنباط ما يستجد من خفايا الحوادث، فهل يولي الأكبر؟ أم يسند الإمارة إلى الأكفأ؟

لكنه لما حضره الموت، سلّم خاتمه -خاتم الإمارة- إلى ابنه عبد الله، وقال له يوصيه: من سبق إلى قرطبة من أخويك فأعطه الخاتم، وكأنه يترك للقدر أن يختار الأمير على الأندلس من بعده.

توفي عبد الرحمن عام ١٧٢هـ، ولما أعلن نبأ وفاته، بادر ولداه بالإسراع إلى قرطبة -وهما لا يدريان بشأن وصية والدهما- فكان هشام السابقَ، وأول من دخلها، فسلّمه عبد الله خاتم والده، وسلّم عليه بتسليم الإمارة.



تزيين وزخرفة الأبواب خارج مسجد قرطبة الكبير يوحي تكوينها بمكانة عظيمة لمسجد عظيم

رحم الله الداخل وغفر له، لوحق وعمره ١٩ عاماً، وفرّ ووصل إلى الحكم في الأندلس وعمره ٢٩ عاماً، واستمرت إمارته أربعة وثلاثين عاماً تقريباً، فأسس دولة، وفتح الأمصار، وشاد البناء، وعمّر العمران، وكان يخالط الناس في أحوالهم، ويُقر أمور إمارته بنفسه، هو نموذج للصبر والمصابرة، قدوة لاتباع الهمة العالية والطموح.

إذا غامرت في شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم

وصدق عليه قول أبي جعفر المنصور -الخليفة العباسي- إنه حقاً: صقر قريش.

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

ملخص أحداث عهد عبدالرحمن الداخل

١٣٠ هـ	أبو مسلم الخرساني يعلن الثورة العباسية .
١٣٢ هـ	انتهاء الدولة الأموية بعد معركة (بونصير) .
١٣٢ هـ	تولي أبو العباس السفاح أمر الخلافة.
١٣٦ هـ	ملاحقة عبدالرحمن بن معاوية (الداخل) من قبل العباسيين.
١٣٨ هـ	دخول عبد الرحمن الداخل الأندلس .
١٣٨ هـ	حدثت معركة المصارة بين الداخل وتحالف الفهري مع الصميل انتصر فيها الداخل.
١٤٠ هـ	تولى الداخل سلطة الأندلس .
١٤١ هـ	ثورة الفهري والصميل ضد الداخل.
١٤٦ هـ	العلاء اليحصبي يدعو للعباسيين ويسيطر على إشبيلية ، ثم يدحره الداخل في نفس العام.
١٦٤هـ	خيانة سليمان الأعرابي وتحالفه مع شارلمان.
١٧٠ هـ	بناء جامع قرطبة.
١٧٢ هـ	وفاة الداخل رحمه الله .





عهد الداخل ... حقائق وعبر

لا تكاد تذكر الأندلس إلا ويذكر معها رجلها عبد الرحمن الداخل، بل إن البعض ممن لم يطلع على التاريخ يظن أن الداخل هو الذي فتحها ونشر الإسلام فيها.

ولعل الأمر الذي ساعد الداخل على أن يكون رجل الأندلس الأول والأقوى هو اعتناؤه بتكوين جيش قوي مدرب يحفظ به الأمن الداخلي، ويصد به العدوان الخارجي، ويمكنه من الجهاد في سبيل الله، وهذه حقيقة هامة ينبغي أن تقوم عليها الدول المسلمة اليوم، فلا ينبغي الاعتماد على ما تحمله من عقيدة ربانية ومبادئ سامية بل لا بد لذلك من قوة تحميه وتدافع عنه

والحق أعزل لا يروع فإن بدا   شاكي السلاح لقى العداة فروعا

ولما ترك المسلمون الاستعداد النفسي والقتالي صفعهم أعداؤهم

يصفع الذئب جبهة الليث صفعاً   إن تلاشت أنيابه والأظافر

فانظر إلى حال المسلمين اليوم كيف أن ضعفهم وتراخيهم طمع أعداءهم فيهم فأصبحوا فريسة سهلة تتقاسمها الدول العظمى وهم لا يملكون إلا السمع والطاعة، حتى أنهم لا يملكون أمر أسلحتهم وإنما أمرها بيد الآخرين، فماذا تصنع البندقية المستعارة المقيدة ؟!!!

وتناسوا قول الله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ (الأنفال ٦٠).

- وحينما نمر على حادثة خيانة سليمان الأعرابي للداخل واتصاله بملك القبائل الأوربية (شارلمان) ثم وقوف العلماء في وجه سليمان وخلعه ننبه إلى أمرين مهمين :

١- ضرورة إعداد الفرد المسلم وتنشئته على الولاء لدين الله وارتباطه بمنهجه ودينه حتى لا يكون فريسة سهلة لإغراءات الأعداء وهذا لا يأتي من فراغ بل يحتاج إلى جهد وإعداد.

٢- أن وظيفة العلماء لا تقتصر على الصلاة والدروس والخطب التي لا تحاكي واقع الأمة بل هم عصب الأمة وقلبها النابض وصرخة الحق المجلجلة والقادة الروحيون، فإن تعطل دورهم أو تنازلوا عنه فقد خانوا أمانتهم.

- ما كان عبد الرحمن الداخل ليبلغ ما بلغه إلا بعد أن واجه الموت مرات ومرات وعبر البحر وقاسى الجوع والأذى شريداً طريداً لا يملك إلا همة أعتى من الجبال وهدفاً ما ضعف يوماً في سبيل تحقيقه، وقصة الداخل عنوان عريض لكل حامل دعوة أو صاحب غاية أو طالب للمعالي أن الطريق مليء بالمشاق لا مكان فيه للضعيف والمتردد ولا من يؤثر الدعة والراحة

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتّال

ولا عجب بعد ذلك إن استطاع أن يخمد خمساً وعشرين ثورة قامت ضده، وأن يخضع الأندلس لسلطانه فهو الذي خاض البحر وقطع المسافات الطوال بهمته وكل شيء بعد ذلك هين

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا   فأهون ما يمر به الوحول

الباب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس



الفصل الثاني

عهد الأمراء الامويين



أولاً هشام بن عبد الرحمن (الرضا)



صفاته

هو هشام بن عبد الرحمن الداخل، لقب بالرضا، وبهشام الأول. ذكر عنه أنه:

كان تقياً (وقد أفلح من كان همه الاتقاء) ذا ورع ينهاه، ويقيه عن محارم الله، ذكياً يحسن الإدارة، كفأ يؤدي ما يسند إليه من الأعمال، لبقاً يتصرف بما يناسب الأحوال -كما كان رأي والده فيه- وسرّ الناس بتوليته، واستبشروا خيراً بقدومه، فقد كان من أهل الصلاح والخير كثير الجهاد والغزو كما ذكر المؤرخون عنه.



درهم الإمارة الأموية: عبد الرحمن الأول



ثورة أخيه سليمان بن الداخل

استرضى أخاه سليمان حين تولى الإمارة، إلا أن سليمان كان يرى أنه أحق من أخيه، وأنه أولى بالإمارة وأجدر، فأضمر في نفسه شيئاً، فلما رجع إلى عاصمة إمارته -طليطلة- أعلن العصيان ودعا بني أمية لمؤازرته ونصرته، فأجابه بعضهم، وجاء إليه أخوه الثاني عبد الله يؤيده، فحشد الناس وخرج بأنصاره نحو قرطبة يريد ما يريد!.



المسلمون ينشطون في تجارة وصناعة السيوف

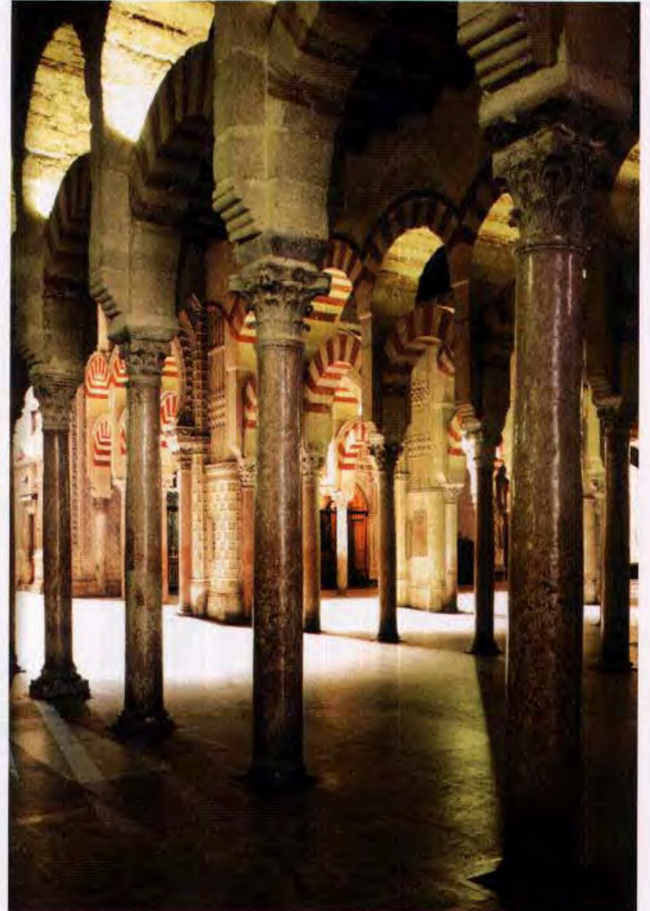
فبادر الأمير هشام لملاقاته ولصدّه عن قرطبة، وذلك في عام ١٧٣هـ والتقى الأخوان بين طليطلة وقرطبة على الطريق، وجرى الالتحام، إذ فشل الاتصال والمحاولات السلمية بينهما، فانتصر هشام وتمكن من تفريق المعترضين من أنصار سليمان الذي فرّ إلى "مرسية"، ومن بعد جرت مراسلات بينه وبين هشام، وكانت النتيجة أن رضي سليمان وأخوه عبد الله بالصلح مع الأخ الأمير، ورضيا مغادرة الأندلس لقاء مبلغ كبير من المال، فكان الموضوع دنيا وقضية تشترى وتباع، فاشتراها الأمير هشام بشيء من المال لحكمته الحسنة، وأنهى بذلك طمع أخويه.



ثورة سرقسطة

وثارت "سرقسطة"، وكانت قد ثارت على أبيه من قبل كما مرّ من أخبار سليمان بن يقظان الأعرابي والحسين بن يحيى الأنصاري، يقود الثورة ابنا الثائرين مطروح بن سليمان وسعيد بن الحسين، في عام ١٧٤هـ. فأرسل هشام جيشاً بقيادة (أبي عثمان)، وقد تمكن من قمع الثورة، وإخضاع العصاة، وتوجه هشام بعد ذلك يسترضي الناس ويقرب الزعماء، ويدني وجهاء القوم منه، ويستميل القلوب بالإحسان والإكرام، فهو يتمثل قول القائل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسان إحسانُ



المسجد الكبير في قرطبة



المحراب الحالي في المسجد الكبير بقرطبة في زمن هشام بن عبد الرحمن ولا تقرأ فيه إلا فخامة الصنعة

لذلك وطّد أركان دولته، وعمّ الأمن والأمان في إمارته، وهدأ النفوس بعد أن أنهى القلاقل والاضطرابات.

جهاده وغزواته



تأديب القوط والإفرنج

ولما تفرّغ هشام من القضايا الداخلية، جهز عدة حملات لقتال القوط والفرنج وإعادة الجهاد إلى مناطق أولئك الذين انتهزوا فرصة انشغال المسلمين ببعضهم بعضاً، وكانت هذه الحملات تأديبية غالباً، فقد بعث جيشاً بقيادة يوسف بن بخت فلقي ملك القوط "برمندُو" وهزمه وأثخن في جيشه قتلاً وتمزيقاً وشتت جموعه، وكان يقصد هو بنفسه أحياناً بلاد الشمال يقود الجند، وقد أخضع "قشتالة" ودخل "إلبة" والقلاع التي كان قد أنشأها القوط. ولما مات "برمُندو" جاء بعده ابنه "ألفونسو الثاني"، فأرسل إليه هشام حملات تأديبية أيضاً بقيادة "عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث الرومي"، فتوغل في الأراضي التي يسيطر عليها القوط وشتت جموعهم، غير أن "ألفونسو الثاني" كمن لهم في الطريق أثناء عودته وأصاب من المسلمين شيئاً، فأرسل هشام حملة أخرى انتقامية، هزمت القوط وكاد "ألفونسو" يقع في الأسر لولا هروبه والتجاؤه إلى قلعة بعيدة عام ١٧٥هـ، فقتل منهم مقتلاً كثيراً، وكان عبد الكريم بن مغيث قائد الحملة، وما كانت هذه الحملات إلا لرد عدوان أو تأديب أهل الشمال.

المسلمون يهزمون الفرنج ويثخنونهم تمزيقاً وتشتيتاً بحملات تأديبية



الهجوم على جنوب فرنسا

وأرسل جيشه بعد ذلك في حملة خلف جبال البيرينيه، ويبدو أنها كانت تأديبية، لتثبيت هيبة المسلمين، ولتحقيق رغبة الجهاد عملياً، والتمكن قدر المستطاع في جنوب فرنسة لأن المسلمين كانوا قد خسروا أكثر المواقع منذ الأحداث التي عصفت في أواخر عهد الولاة، وكادت إحدى هذه الحملات تحتل عاصمة "سبتِمانية" بينما كان ملك فرنسة "شارلمان" مشغولاً لقمع ثورة السكسونيين، إذ استمر قائد الحملة عبد الملك ينتقل من نصر إلى نصر فوصل "قرقشونة"، وانتصر على دوق "طولوز" وأسر الآلاف من جيشه.



ثورة البربر

ونشبت على هشام ثورة البربر في جنوب الأندلس عام ١٧٨هـ، وتمكن من إخضاعها، وإعادة السيطرة على اضطرابات الجنوب بحملات تأديبية، وتمكين الأمن، وإعادة الهدوء مرة أخرى.

استمرت إمارته من ١٧٢ -١٨٠هـ حوالي ثماني سنوات تميزت باستقرار الأوضاع، وقمع الثورات المخالفة، وبتمكين الحدود الشمالية، وإعادة الهيبة وبث روح الجهاد في نفوس المسلمين.







قرطبة، المسجد الكبير، مقاطع تدل على دقة وروعة العمارة الإسلامية



نتائج عهد هشام بن الداخل

كان رحمه الله يحب العلم والعلماء ويشاورهم ويعرف لأهل الفضل مكانتهم.

وأحب اللغة العربية فجعلها لغة التدريس في كل المدارس والمعاهد حتى في معاهد غير المسلمين ومدارسهم، فكان لذلك أثر في تعلم القوط هذه اللغة، وسهل لهم أن يتعرفوا لهذا الدين الحنيف فكثر اعتناقهم للإسلام، وفهموا حقيقة التفاهم مع مختلف فئات الناس والمذاهب.

وفي عهده شاع المذهب المالكي -مالك بن أنس رحمه الله- وكان أهل الأندلس من قبل على مذهب الإمام الأوزاعي المتوفى في بيروت ١٥٧هـ، ويذكر المقرّي في نفح الطيب: رحل أيام هشام بعض الأندلسيين إلى الحج والتقوا بالإمام مالك، فلما رجعوا وصفوا من فضل مالك وسعة علمه وجلالة قدره ما عظُمَ به صيتُه بالأندلس، فانتشر يومئذ علمه ورأيه في الأندلس.

ومن الناحية العمرانية رمم قنطرة قرطبة وقام هو بنفسه على العمل، ومن طريف ما يُروى: أن بعض الناس أشاعوا أن هشاماً قد بنى القنطرة لأموره الخاصة وأذاعوا ذلك، فأقسم الأمير هشام ألا يعبر عليها إلا للجهاد أو لمصلحة عامة.

ووسع مسجد قرطبة، ورُصّفت الشوارع وأنيرت في عهده ومن بعده وخاصة العاصمة، كما اهتم بالزراعة، فجلُبت الأشجار والنباتات المتنوعة.

مات هشام بن عبد الرحمن الداخل بعد أن دام حكمه سبع سنوات وتسعة أشهر تقريباً عام ١٨٠هـ وولى من بعده ابنه الحكم.



رسم تقريبي لمسجد قرطبة في أول بناء له



من البرج يمكن ملاحظة صلابة وضخامة جدران المسجد القرطبي الأعظم

ثانياً الحكم بن هشام (الربضي)



تسميته بالربضي

تولى إمارة الأندلس بعد وفاة والده عام ١٨٠هـ ولقب بالحكم الأول، ويُعرف بالربَضي، إذ حدثت في عهده ثورة "الطبقة الشعبية" من منطقة الربَض وهي القسم الجنوبي الغربي من مدينة قرطبة والتي يفصلها عن القسم الشرقي نهر قرطبة، وسبب ذلك أن الفقهاء قد أشاعوا بين هؤلاء الناس أن الحكم يلهو ويلعب، وتضيع أعماله وأوقاته في العبث، ويترك إدارة الحكم ضياعاً، فأثار حفيظة هؤلاء وتجمعوا حول رجل أموي وأسرّوا إليه أن يتولى الإمارة بعد عزل الحكم، لكن هذا الرجل وشى بهم لدى الحكم فجمعهم وقتل منهم مقتلة عظيمة في يوم واحد، وطرد قسماً ممن قام بها، وتتبع آخرين، وكان قضاؤه على تجمعهم بقسوة وعنف، وتلك من أحداث سنة ٢٠٢هـ وسنشرح هذه الحادثة بالتفصيل لاحقاً.

تولى الحكم وعمره ستة وعشرون عاماً، ويذكر من صفاته أنه كان حازماً قوياً ولم يكن أكبر إخوته. ولما وصل نبأ إمارته إلى المغرب "شمال إفريقية" ثار عليه قريبان له:

إحدى حدائق الأندلس الغناء التي كانت ملهمة للشعراء





ثورة سليمان بن عبد الرحمن الداخل

سليمان بن عبد الرحمن الداخل -وقد مرّ ذكره في إمارة هشام- جمع أنصاره وأتباعه وكان معظمهم من البربر، وعبر المضيق، وزحف باتجاه قرطبة، وكاد يدخلها لكنه فشل في اقتحامها، ثم انحرف نحو الغرب فتتبعه الحكم بقواته، واستطاع أن يقتله قرب "ماردة" عاصمة الغرب وانتهت ثورة العم على ابن أخيه في عام ١٨٤ هـ.



ثورة عبد الله بن عبد الرحمن الداخل

عبد الله بن عبد الرحمن الداخل -مرّ ذكره أيضاً في إمارة هشام - حاول مثل سابقه أن يحشد أتباعه وأنصاره ليثور على ابن أخيه الحكم، فأرسل إليه الحكم يعرض عليه الإمارة على بلدة بلنسية ويغريه بالمناصب والأموال، ويحذره من مَغبة ثورته أن تكون نهايته كأخيه سليمان، فرضي عبد الله بولاية "بلنسية" لذلك يُعرف في التاريخ باسم "عبد الله البلَنسي"، فأنهى الحكم هذه الثورة بحكمة وتعقل.



ثورة المولدين

كما قامت على عهده ثورة من نوع جديد غير معهود من قبل، وذلك أن المسلمين من العرب والبربر الذين قدموا من المغرب في الفتح وبعده قد تزوجوا بنساء من أهل الأندلس وقد أطلق المؤرخون اسم المولدين أو المستعربين عليهم أو على أولادهم، هم مسلمون ولكن تختلف طبائعهم وأشكالهم عن المسلمين العرب والبربر، فقام هؤلاء بثورة على الحكم يتزعمهم رجل يدعى عبيدة بن حميد، فاختار الحكم قائداً من المولدين أيضاً يدعى عمروس (كل اسم ينتهي بحرف السين أو النون يعود غالباً إلى أسماء المولدين)..

ثاروا في طليطلة وسيطروا عليها، وتمكن عمروس من إعادة السيطرة على طليطلة، وفتت جموع القائمين بالثورة، وشتت شملهم وأجهض حركتهم.

لكن "عمروس" تظاهر بعدائه للإمارة، وأنه ثائر على من أرسله، وأعلن أنه يجمع الثائرين للهجوم على قرطبة، فأخبر الحكم بذلك إذ تجمع حوله الثوار.

فأرسل الحكم جيشاً يقوده ابنه عبد الرحمن، توجه كأنه لا يريد إخضاع طليطلة بل يريد حماية الحدود الأندلسية وثغورها في الشمال، وعندما جاوز حدود المدينة التف عليها وطوقها، وتمكن من الدخول إليها وقتل من قواد المولدين حوالي "٧٠٠" رجلاً، فأحبط بذلك بداية ثورة خطيرة لو نشبت لكان لها دور كبير في إثارة الاضطرابات والثورات.

أوضاع الأعداء حول الإمارة

أحوال القوط

- حدث انشقاق في صفوف القوط عام ١٨٣هـ، إذ انفصل رجل يدعى "اذوار" عن المملكة الشمالية، فأسس مملكة دعيت باسم "نافار" وعاصمتها "بنبلونة".
- وبقيت مملكة القوط في أقصى شمال الغرب يحكمها "ألفونسو الثاني" وعاصمتها " جيليقية".



لويس بن شارلمان

وخلف بعد موت "شارلمان" ملك فرنسا ابنه "لويس"، وأراد بعداوته الصليبية أن يحقق شهرة، فقام بالهجوم على شمال الأندلس، وكان جنوب فرنسة بيده أصلاً، إذ أُخرج المسلمون بسبب تفرقهم الذي مرّ ذكره، فاحتل لويس شارلمان عام ١٨٥هـ برشلونة بعد أن اخترق جبال البيرينية، وفتك بأهلها، فأرسل الحكم أخاه سارية بحملة لرد لويس فهزم هزيمة منكرة، ثم أرسل جيشاً يقوده عبد الملك وعبد الكريم ابنا مغيث عام ١٨٧هـ فما استطاعا أن يفعلا شيئاً، ويبدو أن لويس قاد عسكره إبان حياة والده شارلمان، لأن شارلمان توفي ١٩٨هـ وهذا من المحتمل جداً.. وأراد لويس (الذي يسميه المسلمون لذريق بن شارلمان) أن يوسّع دائرة مملكته فحاصر عام ١٩٢هـ طرسونة، فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن في جند استطاع أن يهزمه ويفك الحصار عن المدينة، فكرر الهجوم في العام التالي وطمع ببلاد المسلمين -وهذا دأب الفرنج- فلاقى مثل ما لاقى العام السابق، وفي عام ١٩٣هـ عبر ألفونسو الثاني النهر الفاصل بينه وبين المسلمين ولأول مرة، ويصل إلى (قلبيرة) و(لشبونة) ويحتلهما ويخرج المسلمين.

وزاد من هذا الصراع والاختلاف بين المسلمين أنفسهم، وهجوم الأعداء من الفرنج والقوط في الأندلس، صراعٌ في المشرق العربي (العباسيين) إذ تحارب الأمين والمأمون على الخلافة بعد موت والدهما هارون الرشيد في عام ١٩٣هـ، كما تزامن الصراعَ في فرنسة إذ مات شارلمان الكبير ١٩٩هـ واختلف أتباعه فيمن يتولى بعده، فأرسل الحكم في عام ٢٠٠هـ نحو شمال الغرب (جيليقية) مستغلاً نزاعهم عبد الكريم بن مغيث أحد وزرائه، فأنزل بهم ضربات قوية وأوقف تقدمهم.



التسليح لدى الجندي النصراني



ثورة الربض

كان شأن الحكم بتصرفاته يثير دهشة الناس، ويوجب التفكير، لذلك احتار الناس في الحكم عليه، هو حاكم ماجن يلهو ويلعب، وهو في الوقت ذاته مجاهد شجاع، فمن يكون؟ وما طبيعته؟

موقف العلماء

رأى الفقهاء أن من كان في مثل حاله لا يصلح أن يحكم الناس، ولا يجوز أن يكون مثله سلطان المسلمين، وكان هذا رأي عالمين جليلين هما: "يحيى بن يحيى الليثي"ولد عام ١٥٢هـ وتوفي ٢٣٤هـ، سمع الموطأ من الإمام مالك، قال عنه ابن عبد البر: قدم يحيى بن يحيى الأندلس بعلم غزير فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار الفقيه عليه وانتهى السلطان والعامة إلى رأيه، وكان فقيهاً حسن الرأي، ومن فتاواه: أن عبد الرحمن بن حكم صاحب الأندلس، نظر إلى جارية له في رمضان فلم يملك نفسه أن واقعها، ثم ندم وطلب الفقهاء، وسألهم عن توبته، فقال يحيى بن يحيى: صم شهرين متتابعين فسكت العلماء، فلما خرجوا قالوا ليحيى: مالك لم تفته بمذهبنا عن مالك أنه يخير بين العتق والصوم والإطعام؟ قال: لو فتحنا له هذا الباب لسهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، فحملته على أصعب الأمور لئلا يعود» وكذلك كان رأي العالم الآخر. وهو"طالوت المعافري"فدعا العالمان إلى عزل هذا الخليفة الذي لا يصلح للحكم ، مما جعل الناس ينتظرون فرصة مواتية للهياج والثورة.



حركة الفكر والثقافة العلمية المزدهرة



الثورة الشعبية

وحدثت حادثة -وإن كانت صغيرة - لكنها كانت مناسبة للثورة الشعبية العارمة وكان الناس ينتظرون ذلك، إذ أصلح حداد من عامة الناس سيف جندي من حراس الحكم لم يعجبه عمله فقتل الحداد ظلماً وجبروتاً معتمداً على سلطة الحكم، واحتشد الناس على هذا الحارس فقتلوه، ثم قامت الثورة الشعبية العارمة -وقد كانت مهيأة في النفوس- فعبر الثائرون قنطرة قرطبة وحاصروا قصر الحكم وأتباعه في الجهة الشرقية، ولم يستطع عبد الكريم بن مغيث قائد الحامية فك الحصار، إلا أن الحكم أمر قائديه عبد الله وعبد الكريم ابني مغيث الرومي أن يقوما بهجوم مضاد ليخترقا صفوف المحاصرين بثلة من الجنود، فعبرا القنطرة وصارا يشعلان النار في بيوت الثائرين وعامة الشعب، مما اضطر المحاصرين أن يفكوا الحصار ويسرعوا لإخماد النيران التي تأتي على بيوتهم وأموالهم وأهليهم ولم يبق إلا القليل حول القصور، فأمر الحكم حراسه بالهجوم فقتلوا من بقي منهم، ثم كرّوا على أهل الربض فقتلوا منهم مقتلاً عظيماً، وأوقف الحكم الهجوم بعد ذلك.

ترحيل الربضيين



الربضيون يغادرون الأندلس إلى مصر مكرهين

وأمر بعد ذلك بأمر عجيب هو ترحيل أهل الربض كلهم، أي حاكم يطرد شعباً كاملاً؟! نعم، قد فعل الحكم بن هشام ذلك! لذلك لُقب بالحكم الربضي كما مرّ، فارتحل الربضيون مجبرين إلى فاس في المغرب ثم إلى الإسكندرية في مصر، ومكثوا عشر سنوات في الإسكندرية، لكن أهلها ضجوا منهم فأمر والي الإسكندرية عبد الله بن طاهر بإخراجهم منها أيضاً، فأين يذهبون؟ و أين يستقرون؟ ارتحلوا بما توفرت لهم من السفن ومخروا عباب البحر الأبيض المتوسط، حتى مرّوا بجزيرة فيها حامية بيزنطية قليلة هجموا عليها وفتحوها، وهي جزيرة كريت الحالية في بحر إيجة، وكان العرب يطلقون عليها اسم "إقريطش"، أسسوا الدولة الربضية المسلمة، وكان قائد الربضيين هو عمرو بن عيسى البلوطي، استمرت هذه الدولة المسلمة مائة عام إلى أن استردها البيزنطيون منهم.





نهاية الربضي

دام حكم الربضي مدة طويلة: من عام ١٨٠-٢٠٦هـ، ستاً وعشرين سنة، ولما شعر الحكم بدنو أجله، وبلغ من الكبر عتياً، ندم ندماً شديداً على أعماله، وعاتب نفسه على ما اقترفت يداها، فأعلن توبته على الملأ إذ كان يخطب بالناس في الجمعة والأعياد، واعتذر منهم قائلاً: «إن الآخرة هي الأبقى والأولى»، ثم إنه تزين بالتقوى، واعتصم بالعروة الوثقى، مقراً بذنوبه، مستغفراً ربه خاضعاً ذليلاً متواضعاً يستأنس بقوله تعالى: ﴿إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف﴾ (الأنفال٣٨).

وأناب إلى الله ولكن كما يقول المثل: بعد خراب البصرة، وكانت نهايته صالحة، عسى الله أن يغفر له، ومات في عام ٢٠٦هـ.

يدفع شعور الناس (معظمهم) بالنقص في مركزهم الاجتماعي، وبالنقص في حقوقهم العامة، وكذلك الشعور بالحيف من المسؤولين أو نوابهم، بالإضافة إلى وجود عناصر تستغل هذا الشعور، إلى الثورة والقلاقل مما يؤدي إلى اضطراب الأمن والاستقرار.

يدفع هؤلاء إلى النقمة فالثورة مستغلين أي فرصة بادرة، كفرض ضريبة جديدة على الحاجات الضرورية لسواد الشعب مثل المواد الغذائية أو الملابس أو السكن، وعندهم الاستعداد للعصيان وبخاصة إذا كان الحاكم قد عمد إلى إظهار فخامة الملك، وكثرة الخدم والحشم، وبنى القصور وجلب وسائل الراحة المتعددة، وأغرق في الترف والإسراف، ونسي الأحياء الشعبية حسب المصطلح الحديث، فأهمل الجوانب العمرانية والاقتصادية ولم يلتفت إلى تعليم سكانها، ولم يبد التفاتاً إلى العناصر المكونة للمجتمع والمتعددة، ولم يتحسس النار التي تحت الرماد، بل يلجأ إلى التهديد والبطش والتخويف، فتلك إذن قاصمة المُلك والحكم.

لقد أغفل الربضي تلك الأمور، فكانت الفجيعة في الربض، وكان خراباً بعد خراب، وترحيل قسم كبير، وليس هذا بعلاج!

وهو الذي أكثر من جلب المولدين، والفئات الأخرى واستعان بهم.



منظر للمحراب في مسجد قرطبة والذي زين بأجمل ألوان الفسيفساء

ثالثاً عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط)

لقب عبد الرحمن بن الحكم بالأوسط حتى يميز عن عبد الرحمن الداخل الذي سبق ذكره، وعن عبد الرحمن الناصر الذي يأتي ذكره فيما بعد.

اختاره والده من بين إخوته لأنه كان تقياً عالماً، متميزاً من أهل الثقافة والأدب وسياسة الناس وكان عمره إذ جاء إلى الإمارة ٣٠ عاماً، فواجهته مصاعب من الأحداث والثورات والاضطرابات.



ثورة عبد الله البلنسي

ثار عليه عمه "عبد الله البلنسي" رغم تقدمه في السن لكنه يدفعه الطمع إلى الحكم إذ تمكن من منطقة "تُدمير" واجتمع إليه أنصاره، وكثر مؤيدوه، فأدركه الأجل هناك، إلا أنه خلّف ثواراً وثورة دامت سبع سنوات، ولم يتمكن يحيى بن عبد الله والي المنطقة من السيطرة على الموقف، فأرسل عبد الرحمن الأوسط قائداً جديداً هو أمية بن معاوية أخمد الثورة وذلك بنقل العاصمة إلى "مرسية" وكان هذا سبباً من الأسباب التي أطفأت هذه الثورة، وسكنت الحوادث فترة منهم.



ثورة القوط

وفي الشمال استغل القوط وتمردوا في المناطق الإسلامية فأرسل الأوسط أحد وزرائه هو عبد الكريم بن مغيث، وانتصر عليهم في مواقع عدة، وفك الأسارى المسلمين منهم، وهدأت الأحوال في الشمال وأوقف نشاط القوط.



البرج الذهبي في الحمراء ينبئك عن فخامة البناء





ثورة البربر

ولكن توترت الأحوال من جديد، واضطربت الأمور في عام ٢١٣هـ إذ ظهر مَنْ يجمع البربرَ وهم غالبية يحبون الشغب ممن لم يتمكن الإيمان في قلوبهم، ظهر رجل يدعى "محمود بن عبد الجبار بن راحلة" يقود البربر في ثورة مضطرمة بمنطقة "ماردة"، ويرتكب حماقة أخرى إذ يتحالف مع "ألفونسو" حاكم القوط في الشمال الغربي وراسل الملك الفرنجي "لويس بن شارلمان"، أعدّ هذان العدوّان اللدودان العدد والمدد وأرسلاه إلى محمود ليتقاتل المسلمون، وكان القوط أصلاً يتبعون سياسة الاعتداء والتحرش كلما وجدوا لذلك مجالاً، وكانوا يثيرون في الواقع كل عاصٍ أو مخالف، ولا تختلف سياسة الفرنج عن سياسة القوط في الأندلس، ويلاحظ أنها الخيانة الثانية في الأندلس حين استنصر الثائرون بأعدائهم الفرنج أو القوط، وقبل أن يقوى أمر محمود أرسل الأوسط قوات متتابعة وجيوشاً متلاحقة لكنها أخفقت جميعاً في إطفاء هذا اللهيب الثائر الذي ألهب الأندلس من ٢١٣-٢١٨هـ، لذلك قاد عبد الرحمن الأوسط بنفسه جيشاً جراراً ليدحض هذا التحالف القوطي الفرنجي مع الثائرين، واستطاع أن يهزمهم هزيمة منكرة، وفرّ قائد هذه الجموع إلى الحصون فهدأت الأوضاع نوعاً ما في الأندلس.



البربر يتجمعون للثورة والقتال



ثورة سليمان بن مرتين

وما أن هدأت ثورة البربر حتى ثار بربري آخر اسمه "سليمان بن مرّتين"، جمع أتباع الثائر محمود قبله، وبدأت سيطرته على المنطقة تدريجياً، فأخضع أولاً مدينة "باجة" ثم أكمل سيطرته على مدينة "بطليوس"، رأى عبد الرحمن الأوسط هذا الأمرَ قوة، لذلك أرسل جيوشاً متلاحقة، وتابع أنصار سليمان في كل الأماكن، حتى اضطر قائد الثورة إلى الهرب ملتجئاً إلى النصارى القوط في الشمال.

رأى القوط هذا فرصة للتدخل في المناطق الإسلامية المتاخمة لهم، ولنصرة "سليمان بن مرّتين" حليفهم، فلم يستكن الأمير عبد الرحمن الأوسط لهذه الاستفزازات، بل تابع بجنوده تلك الثورات وتمكن في النهاية من قتل سليمان.

لم يكتف الثوار بأعمالهم الإجرامية والفوضى، ولا بإشعالهم نيران الاضطرابات، بل أخذوا يطلبون النجدة من جيرانهم الأجانب ويقحمونهم إلى المناطق الإسلامية، وبئست الخيانة هذه.



ثورة هاشم الضراب

ومما يشير إلى سوء الأحوال وضعف النفوس لدى العامة أنهم مستعدون للتحرك لكل من يناديهم، وجاهزون لإعلان العصيان استجابة لكل من يدعو إلى ذلك، ومن غريب الواقع أن حداداً يدعى هاشم الضرّاب ليس له هدف أو غاية استطاع أن يجمع الجموع في وسط الأندلس في "طليطلة" من الساعين إلى الفتن، والطامعين في الأموال والحكم ومن النفوس الباغية، وتمكن بهؤلاء أن يبسط سيطرته على "طليطلة" وما حولها، فأرسل إليه عبد الرحمن الأوسط خيرة قواده وصفوة جيوشه، وانتهى أمر هاشم وقُتل، لكن لهيب الثورات لم ينطفئ حتى عام ٢٢٤هـ، فأخمده عبد الرحمن بعد أن استمر اشتعالها ثماني سنوات.

وقد تزامن هذا اللهيب في الأندلس، مع لهيب اضطراب الأحوال في المشرق الإسلامي في هذه الفترة بالذات إذ مات الخليفة المأمون بن هارون الرشيد، واستلم الخلافة المعتصم، فدبّ الضعف في الخلافة العباسية، كما وهن حكم الإمارة في الأندلس.

نار الفتن والثورات تنهك كاهل الدولة الإسلامية





غزوة النورمان

النورمان: اسم يطلق في المصادر الحديثة على سكان الدول الاسكندنافية: السويد والنرويج والدانمارك، وأطلق المؤرخون المسلمون عليهم اسم المجوس، أما في المصادر الإنكليزية فإن اسمهم "الفايكنز" أو "النوريمين"، ويرجع أصل هذا الشعب إلى أصل جرماني، وقد ظهرت اعتداءاتهم أولاً على سواحل الدول الأوربية. وكانت قبائل همجية تشتهر بالنشاط التجاري أو الحربي، ويهمنا في هذا البحث القبائل النورمانية التي انطلقت من الدانمارك، يصفهم المؤرخون الأندلسيون: كانت تخرج من البحر مراكب عظام، وكان يخرج منها أقوام يعرفون بالمجوس، كانت لهم شدة وبأس وقوة وجلد على ركوب البحر، وكانوا متى خرجوا خلت منهم سواحل البحر مخافة منهم، وكانوا لا يخرجون إلا على رأس ستة أعوام أو سبعة، وكانوا أقل ما يخرجون في أربعين مركباً، وربما بلغوا المائة مركب، ويغلبون كل مَنْ لقوه في البحر ويَسْبُونهم ويأسرونهم.

في سنة ٢٢٩هـ ورد كتاب من "وهب الله بن حزم" عامل "الأشبونة": (لشبونة عاصمة البرتغال الآن) يذكر فيها أنه حلّ بالساحل قبله ٥٤ مركباً للمجوس (النورمان)، ومعها أربعة وخمسون قارباً، فخرجت الكتب إلى العمال بالاحتراس، وتمكن والي "لشبونة" من صدهم ومنعهم من الدخول إلى مدينته.

فتابع النورمان طريقهم نحو مصب نهر وادي

الفايكنج (النورمان) يجولون العالم في سفنهم العظيمة السريعة - ورأس التنين في مقدمتها

الكبير، و"إشبيلية" مدينة تقع على مجراه حتى وصلوها، فأصيب أهل إشبيلية بالدهشة من هؤلاء الغرباء وهجومهم المفاجئ حيث تمكنوا من بسط سيطرتهم عليها، إذ كانت سفن المسلمين متواجدة في الشرق لأنهم لم يتوقعوا أن يأتي أي هجوم من الغرب، فلما بلغ الأوسط أعمالهم القذرة أرسل أشهر قواده الغزال "يحيى بن حكم الجياني" و"يحيى بن حبيب" مع القوات، فهاجموا النورمان قرب قرية "طلياطة": ٣٠كم شمال غرب إشبيلية، إذ كانوا متوجهين لاحتلال العاصمة قرطبة، واستطاع المسلمون إيقافهم هناك وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وحطموا خمسة وثلاثين مركباً من مراكبهم الأربع والخمسين، وعلقوا على جذوع النخل أعداداً منهم بعد أسرهم، وقتل قائد النورمان هنا أيضاً.

استغرقت عملية النورمان مائة يوم من ظهورهم أمام لشبونة حتى اختفائهم، أشغلوا المسلمين، واستباحوا إشبيلية أكثر من غيرها، وقتل من الأندلسيين الخلق الكثير.



عائلة من الفايكنج (النورمان)



نتائج غزوة النورمان

كان من نتائج غزو النورمان أن أمر عبد الرحمن الأوسط إحكام بناء السور في إشبيلية، حيث قال: إن بنيان سور مدينة إشبيلية وتحصينها أوكد عليه من بنيان الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة.



غزو الشمال الإسباني وجنوب فرنسة

أراد عبد الرحمن الثاني أن يظهر قوته ويلقي الرعب في قلوب الأعداء في الشمال والشمال الغربي: الفرنج في فرنسة، والقوط في شمال غرب الأندلس، قاد بنفسه جنده نحو القوط وتحرك بحملة حتى بلغ مدينة ليون فأخضع كثيراً من الحصون والقلاع التي كانت بيد مملكة ليون، وأرجعهم إلى حدودهم في الجبال المنيعة من الصخرة.

وأرسل وزيره عبد الكريم بن مغيث عام ٢٣١هـ فعبر جبال البيرينية رداً على اعتداء هؤلاء على الأندلس وتخريبها، ودخل جنوب فرنسة وحاصر مدينة "غَرندة" واحتلها وغنم منها، وأرعب أهلها، ومن ثم صار الأمر بين كرٍّ وفرٍّ في جنوب فرنسة.



درهم الإمارة الأموية؛ عبد الرحمن الثاني





حركة تمرد (اليخيو) والقديسين

أثارت هذه القوة التي ظهرت أيام عبد الرحمن الأوسط حفيظة المتشددين من نصارى الأندلس، إذ قام رجل نصراني من نصارى قرطبة يدعى "أليخيو" بحركة سميت "حركة الشهداء القديسين"، ومن المعلوم أن المسلمين ما ألزموا أحداً بترك دينه، بل تركوا للنصارى ولغيرهم معابدهم ومدارسهم وأزياءهم وحرية عباداتهم، وبالرغم من هذه الحرية ظهرت حركة التمرد في قرطبة، فقام رجل في يوم الفطر عام ٢٣٥هـ يدعى "برتكتو" يناقش مسلماً حتى طور النقاش إلى أن نال من الإسلام والمسلمين شتماً وسباً مقذعاً فنهاه المسلمين فلم ينته، فأخذوه إلى القاضي فحذره وردعه فلم يرعوِ إذ قال له القاضي: إن الذي يشتم الإسلام يُقتل ولو كان مسلماً، فكيف بغيره؟ فأصرّ جهراً وشتم عياناً في مجلس القاضي، عند ذاك أمر القاضي بقتله، وذاع الخبر، مما جعل أنصار "أليخيو" ينشطون، إذ جاء رجل آخر يدعى "إسحق" نال بدوره من الدين الإسلامي ونبيه بأقذع السباب والشتائم فنبه وحذر فلم يرتدع فقتل.

وجاء واحد تلو آخر، لذلك سماهم بعض الدارسين الأوربيين بالمتعصبين المنتحرين، وأطلق عليهم آخرون اسم الشهداء القديسين، وذاع صيتهم بين نصارى الأندلس، ومنهم انتشر الخبر في أوربا.



صالة أحد القصور في الأندلس



السور المنيع المحيط بإشبيلية القديمة والذي كان لعبد الرحمن الأوسط الفضل في إحكام بنائه



فماذا فعل الأوسط؟ لو سكت لجاز أن يخدش هذا العمل منهم هيبة الإسلام والمسلمين، وإن قتل ازداد عدد المقدمين على الانتحار، واستغلهم إعلام الأعداء، حتى وصل الأمر إلى درجة خطيرة في الأندلس، فقد استمرت هذه الحركة ثلاث سنوات، حتى تطورت إلى درجة خطيرة ففي عام ٢٣٨هـ دخل بعض المتطرفين مسجد قرطبة الكبير وانتهكوا حرمته، ولوثوا بالأوساخ جدرانه، فأمر عبد الرحمن بإعدام كل من فعل هذه الفعلة الشنيعة.

تصرف الأوسط

انتهز هذا العمل "أليخيو" من وراء الستار يعلن أن هؤلاء مظلومون، وأنهم شهداء أبرار راحوا ضحية الظلم من أجل عقيدتهم، ولا يستغرب أن يكون الإعلام الأوربي والكتب النصرانية ممجداً لهذه الحركة، ورفع مقام المنتحرين إلى مرتبة القداسة والشهادة!!

أراد الأمير أن يستعمل الحكمة لإنهاء هذه الحركة الخبيثة ولأول مرة في تاريخ الأندلس يأمر الأوسط بعقد مؤتمر كنسي دعي إليه رجال الدين المسيحي في الأندلس إلى قرطبة واجتمع معهم الأوسط وسألهم سؤالاً صريحاً:

هل تقرون حركة "أليخيو" وما يسمى بالقديسين الشهداء؟

هل تريدونها فتنة عمياء بين المسلمين والنصارى؟

تشاور رجال الدين فيما بينهم، ثم خرجوا بقرار أن هذه الحركة مغالية في عملها خارجة عن مبدأ النصارى، وأنه ما ظلم أحد من النصارى في الأندلس، وأن النصارى يتمتعون بكل حرية بعقيدتهم، وعبادتهم ومدارسهم، ثم أعلن هذا المؤتمر إدانته الصريحة لهذه الحركة، وانتشرت بين الناس تلك الإدانة، فهدأت الحركة وقلّ المتعصبون منهم ظاهرياً.

والملفت للنظر أن هذه الحركة لم تتحدث عنها المصادر الإسلامية ومنها الأندلسية، وما يذكر عنها إنما هو من المصادر الأوربية التي تتسم أصلاً بالغلوّ والحقد والتحيّز، وهذا يدعو إلى الاحتراس من تلك المعلومات التي تذكرها، ولعلّ المصادر الإسلامية التي تتحدث عنها قد فقدت.



النصارى في الأندلس يشعلون نار الفتنة



الأسطول الإسلامي

اهتم عبـد الرحـمن الأوسط بالأسطول الإسلامي، فأصبح هذا الأسطول يحفظ سواحل الأندلس وأصبح مستعداً دوماً لحراستها من جهة الأطلسي والأبيض المتوسط، ويذكر ابن حبـان المؤرخ الأندلسي: أن الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٤هـ سيّر أسطولاً من ثلاثمـائة مـركب إلى أهل جزيرتي "ميورقة" و"منورقة" لنقضهم العهد وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين، ففتح الله للمسلمين عليهم وأظفرهم بهم فأصابوا سباياهم وفتحوا أكثر جزائرهم.



صفحة من القرآن الكريم من العهد الأندلسي

وزادت دور صناعة السفن كثرة وقوة ومهارة حتى لا تدع فرصة أخرى لغزوة مماثلة تباغت المسلمين كما فعلت غزوة النورمان.

استمر حكم عبد الرحمن الأوسط في الأندلس ٣٢ سنة إلى عام ٢٣٨هـ ومات رحمه الله وتولى من بعده الإمارة ابنه محمد بن عبد الرحمن بن الحكم.



الأسطول الأسلامي يحفظ سواحل الأندلس

رابعاً محمد (الأول) بن عبد الرحمن


درهم الإمارة الأموية: محمد الأول



دب الوهن، وظهر الضعف في ابتداء حكم محمد بن عبد الرحمن الأوسط الذي جلس على كرسي الحكم عام ٢٣٨هـ، وما يكاد يستقر على الجلوس حتى أعلن حاكم "سرقسطة" في الشمال انفصاله عن إمارة الأندلس، واستقل بمنطقة الشمال دولة.

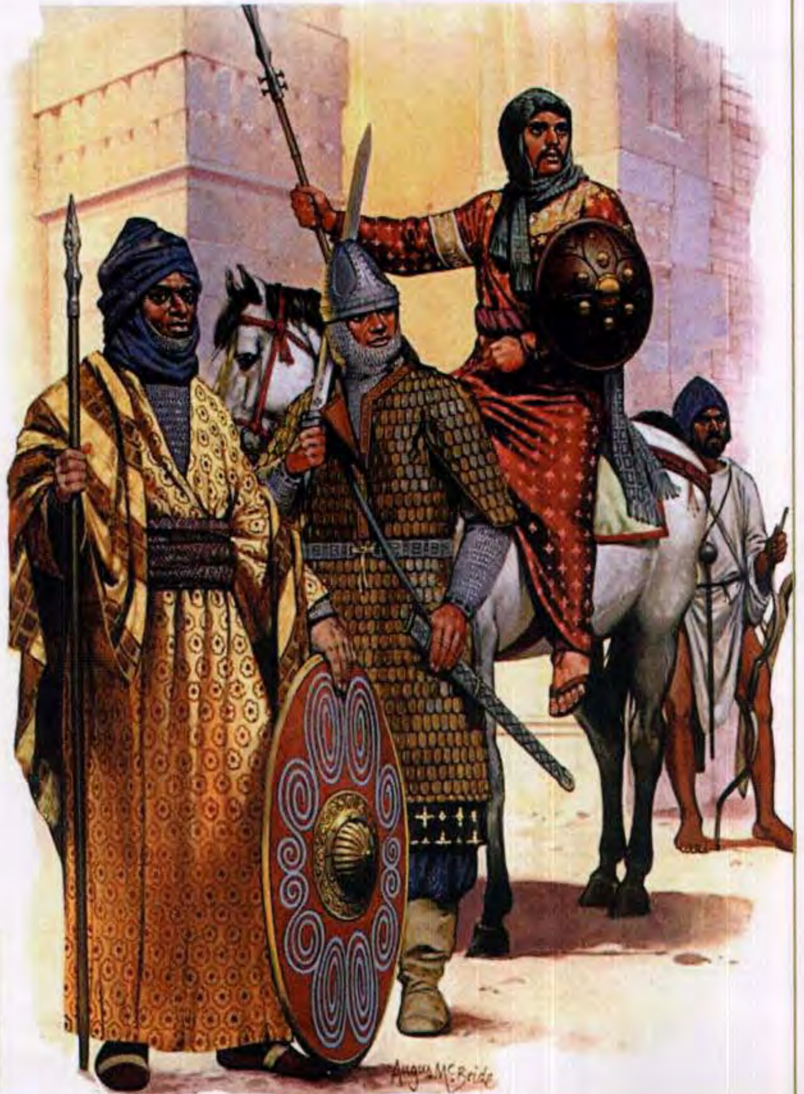
وتبعه في الغرب حاكم جديد يدعى "عبد الرحمن الجيليقي" فانفصل بمدينة "بطليوس" ثم ضم إلى حكمه عاصمة الغرب مدينة "ماردة". وطمع أهل الرغائب في وسط الأندلس في "طليطلة"، لكن جيشاً أرسله الأمير محمد أخضع ثورتهم، وبقيت النفوس تغلي خمس سنوات إلى عام ٢٤٤ حتى تمكن أن يوطد الحكم فيها وأرسل رجلاً من بني ذي النون يدعى إسماعيل والياً عليها، وما أن وصل هذا الرجل حتى أعلن انفصاله عن إمارة الأندلس، فأسس دولة ذي النون.

وظهرت بداية دول الطوائف في الأندلس في هذه الفترة، وهذه التسمية واضحة المدلول في وصف حالتها، وكانت في فترتين:

١-الأولى: بدأت في عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط وكانت قليلة العدد كما ذكرنا.

٢-الثانية: ظهرت أواخر عهد الأندلس فقد وصلت أعدادها إلى اثنتين وعشرين دويلة! تأمل رحمك الله، وارجع إلى بيتين ذكرا في المقدمة لابن خفاجة.

ظهر في بداية حكم الأمير محمد انفصال في الشمال، وتبعه انفصال في الغرب، وكان الانفصال الثالث في الوسط في طليطلة.



جيش الأمير محمد بن عبد الرحمن يخضع طليطلة ويحصن قلعتها





النورمان من جديد

كانت هذه الفترة أجمل وقت مناسب للنورمان الذين أعادوا الكرة بثمانين مركباً، فأبحروا عبر خط طويل ملتفين حول الأندلس ليقتحموها من الجزيرة الخضراء، وذلك في سنة ٢٥٤هـ، فأحرقوا المسجد الذي كان قد أرساه موسى بن نصير "مسجد الرايات" ثم التفوا إلى شمال الأندلس ثم رجعوا فأعادوا الهجوم على النصارى، واقتحموا عاصمة مملكة "نافار" ودحروا جيشها وأسروا ملكها "غرسيه" الذي افتدى نفسه منهم بسبعين ألف دينار.

وعاث النورمان فساداً في الأماكن التي مروا بها، إلى أن تهيأ للأمير أن يجهز جيشاً يهزمهم، وحطم المسلمون من مراكبهم أربعين مركباً، وقتلوا كثيراً من جنودهم، وردّهم الله خائبين، لأن الأندلسيين كانوا قد استفادوا من هجومهم الأول فأنشؤوا سفناً حربية لحماية شواطئهم، فلم يستطع النورمان هذه المرة أن يفعلوا شيئاً كما فعلوا في المرة الأولى.

لكنهم أعادوا الكرة بعد سنتين من هذا الهجوم، ففي عام ٢٤٧هـ ظهرت من مراكبهم ستون مركباً قبالة الشواطئ الأندلسية فأمر الأمير محمد عمال السواحل بالاحتراس والتيقظ، فتمكنوا من تحطيم أربعة عشر مركباً، بينما لاذت المراكب الباقية بالفرار.



النورمان يبدؤون بالنزول على شواطىء الأندلس

زاد هجوم النورمان ضعف الأمارة الأندلسية الواهن، بالاضافة إلى بدايات الصراع من أجل الحكم على مدينة أو منطقة.



النزاع بين النصارى في الشمال

لم يكن النزاع من أجل الحكم بين الدويلات الإسلامية (الطوائف) فحسب، فقد امتد لهيب التنازع إلى ممالك النصارى، ففي عام ٢٤٩هـ حدثت الحرب بين مملكة "نافار" وعاصمتها "بنبلونة"، ومملكة "ليون"، فانتصر النافاريون انتصاراً كاسحاً على جيش مملكة ليون، ولكنهم ما استطاعوا أن يسقطوا العاصمة "ليون" بأيديهم.

وما زال الوضع في الشمال على دولتين "مملكتين" لنصارى الإسبان.

١-مملكة نافار" وملكها "غرسيه"، وقد بسط سلطته على حساب المملكة النصرانية الأخرى، ويعتبر هذا من أشهر مؤسسي هذه المملكة في منطقة الشمال الغربي للأندلس.

٢-مملكة "ليون" وقد حكمها في هذه الفترة ملك قوي شديد البأس هو "ألفونسو الثالث" تمكن من توسيع مملكته وأوصل حدودها إلى جبال البيرينيه" وعبر نهر "دويرة" بعدة حملات حالفه فيها النجاح.

- أما المسلمون فما زالت الثورات والانقسامات تهز الإمارة الأندلسية، ومن أشهر هذه الثورات:

قتال النصارى فيما بينهم





ثورة عمر بن حفصون الخطيرة

ظهر على مسرح الأحداث في عام ٢٦٤هـ رجل خطير في جنوب الأندلس بمنطقة "رنده" يدعى ابن حفصون أصله من المولدين، بدأ عمله بقطع الطرق، فاجتمع حوله قطاع الطرق والسراق والباحثون عن الأموال والفوضى، وتجمع حوله أناس أغلبهم من المولدين لحاجات في أنفسهم، يصفه ابن حيان: إنه إمام الثائرين وقدوتهم، وهو أعلاهم ذكراً في الباطل، وأضخمهم بصيرة في الخلاف، وأشدهم سلطاناً وأعظمهم كيداً، وأبعدهم قوة. بدأ يقطع الطرق في الجبال بأربعين رجلاً، ثم نزل إلى السهول واحتل مدينة "بربشتر" وجعلها قاعدة له ولعصابته، وكانت ثورته قريبة من العاصمة، لذلك خُشي من سطوته، ولم يتمكن حاكم "ريّة" وقائد منطقة الجنوب من إخضاع ابن حفصون، بل هزمه هذا الأخير، فأتبعه محمد بن عبد الرحمن الأوسط بجيش آخر هُزم أيضاً، وتلاه جيش تلو جيش يهزمهم ابن حفصون الواحد بعد الآخر. إلى أن أرسل جيشاً بقيادة ابنه المنذر الذي استطاع أن يحاصر "ابن حمدون" - حليف ابن حفصون- في حصن "الحامة"، هبّ ابن حفصون لنصرة حليفه المحصور في الحامة، حيث سنحت الفرصة للمنذر بن محمد أن يلتقي به خارج الحصون فانتصر عليه وقتل رجاله، وهرب ابن حفصون بعد أن جُرح جرحاً بليغاً إلى حصن الحامة يحتمي به، فشدّد عليه المنذر الحصار حتى كاد ينهي تمرده لولا قدوم الأخبار بوفاة والده، ففكّ الحصار وعاد إلى قرطبة ليتولى الإمارة، وأنقذ القدر -لأمر يريده الله سبحانه وتعالى- ابن حفصون، مات محمد بن عبد الرحمن الأوسط في عام ٢٧٣هـ بعد أن استمرت إمارته ٣٤ أربعاً وثلاثين سنة من عام ٢٣٨-٢٧٣هـ.



بقايا كنيسة أمر ابن حفصون ببنائها خارج مقره وكانت محفورة بكاملها في الصخر حيث ورد في بعض الروايات أنه دخل في النصرانية.

خامساً المنذر بن محمد بن عبد الرحمن



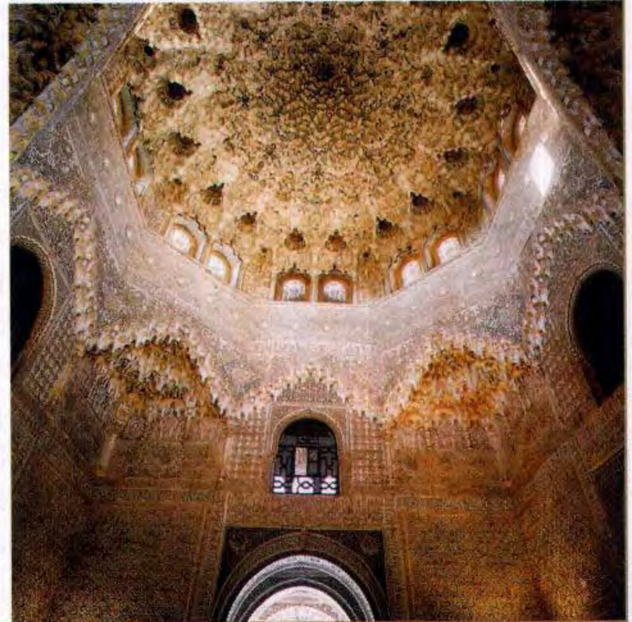
رجع المنذر إلى قرطبة وتولى إمارة الأندلس عام ٢٧٣هـ، كان قوي الشخصية ذا مراس بفنون الحرب، فقد كان يقود جيوش والده كما سبق، لكنه ورث من والده إمارة ممزقة: تمزق في الشمال الغربي، والشمال الشرقي، وفي الوسط، وفي جنوب الأندلس حيث ثورة ابن حفصون، لم يكن الوضع السائد في هذه الفترة لصالحه، بل وجد وزير والده "هاشم بن عبد العزيز" هو الذي يدير الأمور، وهو المتسلط على مقاليد الحكم، ولما حاول إيقافه عند حدوده حدث الصراع بينهما.



قصيدة شعرية في رثاء محمد الأول منحوتة على الحجر

الاغتيالات السياسية

بدأ المنذر أعماله في الأندلس بشريط الاغتيالات السياسية حين أرسل من يغتال الوزير وينهي الصراع بينهما لصالحه، ثم جاهد المنذر محاولاً توحيد الأندلس لكن الثوار المنفصلين رفضوا كل مراسلاته للتصالح أو التفاوض، حتى إن ابن حفصون راسل الأغالبة ولاة شمال إفريقية يعرض عليهم ما يسميه هو فتح الأندلس، ويطلب منهم المدد والعون، غير أن الوالي الأغلبي كان عاقلاً حكيماً رفض أمثال هذه الفكرة من أساسها، مما جعل عمر بن حفصون يتجه إلى المولدين ليجمعهم على أسس عرقية، فاستجابوا له وتجمعوا يثيرون القلاقل على الإمارة في الجنوب، مما دعا المنذر أن يقود بنفسه الجيش لإخماد ثورتهم وحركتهم التي تعيث في الجنوب فساداً، فقضى على تسلطهم في عدد من المدن، وقبض على أحد زعمائهم يدعى "عيشون" -حليف ابن حفصون- المتسلط على مدينة - أرشدونة- وقتله.



القبة العظيمة المدهشة في قصر الزهراء





ثم سار المنذر نحو "بِربُشتر" عاصمة ابن حفصون، وشدد عليها الحصار، وضيّق على عمر بن حفصون الخناق، مما اضطر هذا أن يطلب الصلح ويجري التفاوض حيث أبدى استعداده للذهاب إلى قرطبة إذا رفع المنذر عنه الحصار، وأمدّه بالطعام والعتاد، رأى المنذر أنه قد يصدق هذا الثائر قاطع الطريق ويعود بذلك الهدوء والاستقرار، فأجابه إلى طلبه، فبرّ بوعده هذا ابن حفصون وذهب مع المنذر إلى قرطبة، وهدأت الأحوال في الجنوب شيئاً ما.

حصار ابن حفصون

ولكنه فرّ بعد فترة من الزمن إلى عاصمته السابقة "بربشتر" وأعلن عصيانه مرة أخرى، فلم يمهله المنذر بل اشتد في طلبه فحاصره في عاصمته.

وقد صادف هذه الفترة من القلاقل في الأندلس تمزق وانقسامات في أوربة وظهرت على الساحة الأوربية دول جديدة، فتشكلت دول: إيطاليا وألمانيا...



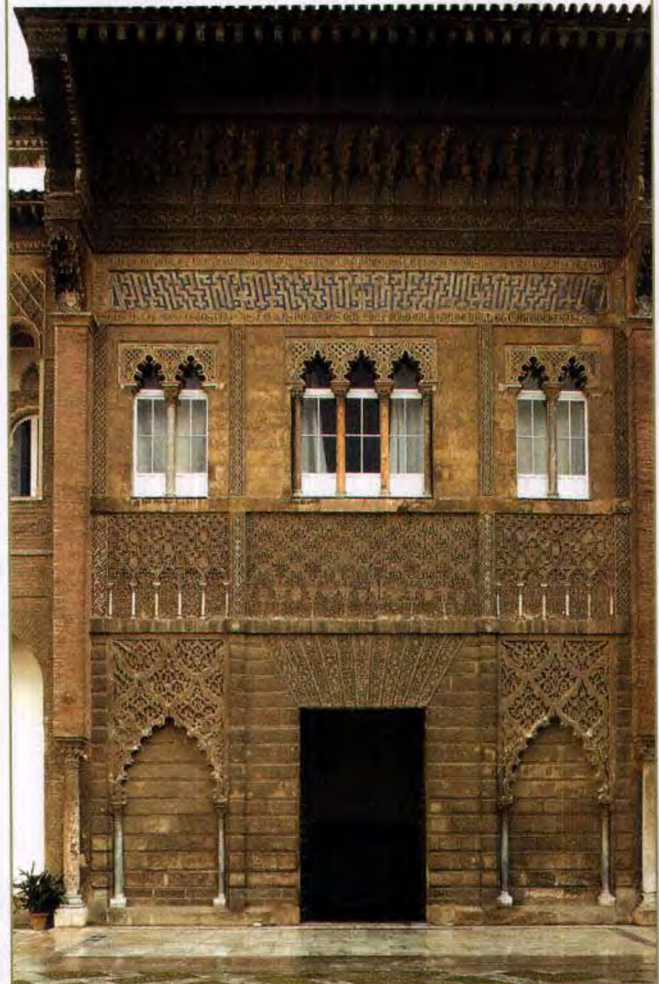
آثار قلعة إسلامية قديمة باقية حتى اليوم وتجري عليها الحفريات الأثرية

وفي صفر ٢٧٥هـ مات المنذر وهو يحاصر "بربشتر" إذ قضى الله عليه بالموت، لم يكن الوقت -كما يقال- لصالحه، فلم يستطع توحيد إمارة الأندلس، ولم يقض على تمرد فيها، ولم ينه أية دويلة منفصلة خلال حكمه القليل إذ لم تستمر إمارته سوى سنتين: من ٢٧٣-٢٧٥هـ. رحمه الله، وتولى الإمارة من بعده أخوه.

سادساً عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن



جاءته الإمارة بعد وفاة أخيه المنذر، وكان يحاصر ابن حفصون، فطلب إليه الصلح على أن يرفع الحصار عنه، فوافق عبد الله على ذلك، ومضى إلى قرطبة ليدير شؤون إمارته، وفي حكمه أضيفت دويلة جديدة إلى قائمة الدويلات المنفصلة في عهد أخيه.


بوابة قصر في أشبيلية



ثورة كريد بن عثمان

ثار في "إشبيلية" كُريد بن عثمان على والي الأمويين أمية بن عبد الغافر الذي لم يستطع أن يفعل شيئاً لإخماد ثورة كريد، فطلب كريد العون من "ماردة" في الغرب وعليها رجل يدعى "جيليقين"، فأرسل هذا مدداً قوياً مما مكّن كريداً أن يبسط سيطرته الكاملة على إشبيلية ويقتل واليها أمية. وكان هذا تمزقاً جديداً في جسم الأندلس، وأضيفت مدينة جديدة إلى المتمردين العصاة.



ثورة خير بن شاكر

وثار في عام ٢٧٧هـ رجل يدعى خير بن شاكر وسيطر على مدينة "جيّان" لكن ابن حفصون المتمرد حاول أن يتقرب إلى الإمارة الأندلسية لتقر بثورته وتعترف بها، فأرسل رجلاً يدبر اغتيال ابن شاكر فقتله، وأرسل ابن حفصون إلى الأمير عبد الله بعد مقتله يظهر حسن نواياه، يسأله الصلح والمعاهدة، لكنه قوبل بالرفض.

كانت الأوضاع غير مستقرة بشكل عام وتتوالى الثورات، سواء في الدويلات أو في مملكتي ليون أو نافار الإسبانيتين.





ابن حفصون من جديد

أرسل عبد الله ابنه المطرف ليتخلص من ابن حفصون بجيش إلى "بربشتر" فحاصرها وضيق عليها الحصار، وجرت معارك طاحنة حولها وما استطاع أن يخضعها.

لكنه تمكن في إشبيلية من ثورة كُريد وقضى على المتمردين فيها، وولّى عليها رجلاً يدعى "إبراهيم بن الحجاج" يديرها، ومن العجيب أن ابن الحجاج أعلن انفصاله عن قرطبة، واستقل بشؤون دويلته بعد فترة وجيزة.

إنه لأمر مؤسف يدعو إلى الغرابة! ما إن يتمكن والٍ في مدينة يولّى عليها حتى يبادر إلى إنشاء دويلة تنازعُ أختَها، أو تنازع حكم الأمويين.



خزان روماني، كان القوطيون الغربيون والعرب يستعملون هذا الخزان ويحافظون عليه



واستمرت الأحوال على ما هي عليها من الثورات الهائجة والحركات الانفصالية المتمردة حتى حلّ عام ٢٨٩هـ إذ يتحالف متمرد الجنوب ابن حفصون مع إبراهيم بن الحجاج في إشبيلية مع نصارى القوط في الشمال، وتمت المراسلات بين أقطاب التحالف الشيطاني (ابن حفصون، ابن الحجاج، القوط).

لذلك بادر عبد الله دون إمهال، فقاد الأمويين إلى معركة هي الوجود أو الضياع ضد هذا التحالف الذي كان أكثر عدداً، واستطاع أن ينتصر عليه بعد قتال عنيف جرى حول إشبيلية، ويمكن قبضته منها، ما عدا "بربشتر" التي بقيت بيد ابن حفصون.



هجوم نصراني

ولا يزال الصراع في الجنوب حتى لاح الخطر على الأندلس من الشمال فقد هاجم القوط والفرنج من الفرنسيين ينشرون القلاقل، ويزرعون الرعب، ويبثون الخوف في نفوس الناس هناك على الحدود الإسلامية.

أرسل عبد الله على عجل جيشاً يقوده القائد "لُبّ بن عيسى"، فاستطاع هذا القائد الفذّ أن يوقف هجومهم ويحاصر مدينة "بنبلونة" حصاراً شديداً وكاد أن يفتحها لولا أنه سقط شهيداً على أبوابها، وعادت الحملة إلى قرطبة بعد استشهاده.

صمود ابن حفصون

ثم جهز عبد الله حملة أخرى في عام ٢٩٥هـ لإخضاع ابن حفصون في "بربشتر" فأتت على الحصون حولها ودمرتها دون فتح تلك المدينة، وبعد عامين أي في سنة ٢٩٧هـ أرسل عبد الله جيشاً كثير العدد لإنهاء تمرد ابن حفصون فعاد دون أن يفت من عضد هذا الثائر شيئاً.

ابن حفصون إنسان عجيب، قاطع طريق على قلة من رجاله يحافظ على مدينته ويمنعها عن السقوط بذكائه الشيطاني، وقد دامت ثورته سبعة وأربعين عاماً.

الوضع العام للنصارى على حدود الأندلس في تلك الفترة

خلع الملك "ألفونسو الثالث" في عام ٢٩٧هـ بعد أن تقدمت به السن ولعدم استطاعته إدارة المملكة التي انقسمت بدورها إلى مملكتين:

١-مملكة ليون الأصلية: ويحكمها "غرسيه الأول" في الشمال الأندلسي.

٢-مملكة "جيليقية" التي انفصلت عن ليون ويحكمها "أدونيو" في أقصى شمال غرب الأندلس.

٣-مملكة "استرياس" ويحكمها "فرُويلة" في أقصى الشمال.

٤-مملكة "نافار" في وسط الشمال.

٥-بالإضافة إلى الفرنسيين "الفرنج" في شمال شرق الأندلس.



جندي من جيش القوط

وفاة عبد الله بن محمد

دام حكم عبد الله بن محمد الأول خمسة وعشرين عاماً ٢٧٥-٣٠٠هـ حيث توفي في قرطبة عام ٣٠٠هـ رحمه الله، وكان آخر الأمراء، وقد تمتع بالصفات الحسنة والأخلاق العظيمة، وكان ورعاً متواضعاً محباً للخير، كثير العناية بشؤون الحكم وتوطيده، فنشر العدل ورفع الظلم، وكان ينظر في المظالم بنفسه، كما وصفه المؤرخون.



درهم أندلسي في عهد عبد الله بن محمد الأول



نهر
مدينة
جبال
0 100 km
فرنسا
أردونة
قرقشونة
شنتياجو
خيخون
صخرة بلاي
طرف جليقية
نهر منيه
ليون
جبال قنتبريه
أشترقة
ليون
جليقية
رنسسفال
نافار
أرغون
قطالونية
قشتالة
جيرونه
سرقسطة
سرقسطة
كوره
بلد الوليد
نهر دويره
برشلونة
وادي رامه
وادي الحجارة
جبال الشارات
طركونة
نهر إبرة
مدريد
نهر تاجة
طليطلة
طلبيرة
طليطلة
بلنسية
قطلونة
نهر شقورة
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
لشبونة
الغرب
بطليوس
ماردة
نهر الوادي الكبير
بلنسية
باجة
لفنت
شاطبة
دانية
دانية
جبال قرطبة
نهر سرقسطة
اردونة
قرطبة
مرسية
البحر الأبيض المتوسط
لبله
أشبيلية
قرمونة
أشبيلية
نهر الوادي
غرناطة
جبال الثلج
مرسية
غرناطة
قرطجنة
ولبه
المرية
شدونه
مالقة
طريف
جبل طارق
سبتة
المغرب
نفوذ ابن حجاج
نفوذ ابن قسي
نفوذ بني ذي النون
نفوذ الجليقي
نفوذ مملكة ليون النصارنية
نفوذ عمر بن حفصون
نفوذ الفرنجة
نفوذ مملكة نافار النصرانية
عهد المنذر بن محمد
وعبدالله بن محمد



ملخص أحداث عهد الأمراء الأمويين

١٧٢ هـ	تولي هشام بن عبد الرحمن (الرضا) إمارة الأندلس.
١٧٣ هـ	ثار عليه أخوه فانتصر هشام ثم تصالحا.
١٨٠ هـ	وفاة هشام (الرضا)
١٨٠هـ	تولي الحكم بن هشام (الربضي) للإمارة .
١٨١هـ	ثار عليه عماه سليمان وعبد لله فقتل سليمان وتصالح مع عبد الله .
١٨١ هـ	ثورة المولدين ولكنه تمكن من إخمادها .
٢٠٦ هـ	وفاة الحكم بن هشام الربضي.
٢٠٦ هـ	إمارة عبد الرحمن بن الحكم (الأوسط).
٢٠٦ إلى ٢٢٩هـ	قامت ضده عدة ثورات وبعضها دام فترة طويلة لكنه تمكن من إخمادها .
٢٣٥ هـ	بدأت حركة تمرد (إليخيو) والقديسين واستمرت ثلاث سنوات ثم أنهاها الأوسط بذكائه وحزمه.
٢٣٨هـ	وفاة عبد الرحمن الأوسط .
٢٣٨ هـ	تولي محمد (الاول) بن عبد الرحمن للأندلس .
٢٤٥ هـ	النورمان يحاربون من جديد .
٢٤٩ هـ	نزاع بين مملكة نافار ومملكة ليون انتصر فيها النافاريون .
٢٦٤ هـ	ابتداء ثورة عمر بن حفصون .
٢٧٣ هـ	وفاة محمد (الأول) وتولى ابنه المنذر .
٢٧٥ هـ	وفاة المنذر وهو يحاصر ابن حفصون في (بربشتر) .
٢٧٥ هـ	تولي عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن للإمارة .
٢٧٦ هـ	ثورة كريد بن عثمان .
٢٩٧ هـ	خلع ألفونسو الثالث .
٣٠٠هـ	وفاة عبد الله بن محمد .



التطورات في عهد الأمراء الأمويين

١- انتقلت الأندلس في هذا العهد إلى حياة جديدة يحكمها الإسلام وقد حرر الإنسان من جميع الضغوط والوشائج التي تحركه إلا ما ندر، وهو على الغالب صفة المجتمع المسلم إذ ليس على الإنسان سلطان غير منهج الله سبحانه وتعالى، لذلك ازداد إقبال الناس من نصارى الأندلس للدخول في الإسلام.

٢- نظمت فيه إدارة الدولة وأوجد منصب الحجابة أو الوزارة.

٣- صُكَّ في دار الصكوك النقد الإسلامي، واعتمد أساساً للتعامل.

٤- ظهر الاهتمام العمراني فأنشئت المدن والجوامع، واهتم بالمرافق العامة فأنشئت الحدائق، وتنوعت وسائل الري، وجلبت المياه بالأقنية والترع.

٥- أصبح التبادل الثقافي بين الأندلس والمشرق الإسلامي، فقد رحل كثير من أبناء الأندلس لينهلوا من علوم المشرق، وظهر منهم فقهاء ومحدثون، ويُذكر هنا "عباس بن فرناس" المعروف بمحاولة الطيران التي ذهب ضحيتها، وهو أول من عمل صناعة الزجاج من الحجارة، كما عمل الميقاتية لمعرفة الأوقات.



٦- عُممت المدارس، وانتشر التعليم على نفقة الدولة للذكور والإناث، وقررت اللغة العربية لغة رسمية في المعاهد والمدارس غير الإسلامية.

٧- عرف القضاء بنزاهته واستقلاله، فَسادَ نظامُ العدل والإنصاف لكل الناس.

٨- قلَّ الجهاد نحو الشمال أو الفرنجة.

٩- زاد الترف في الحياة الاجتماعية، ومال معظم الناس للهو والعبث، يشير إلى ذلك قدوم "زرياب" الذي كان في العراق تلميذاً لإبراهيم الموصلي المعروف بفنون الغناء والموسيقا، قربه الأمراء والأثرياء، وظهر فن الموشحات الأندلسية.

رسم يبين ترفه وانشغال المسلمين بلعبة الشطرنج

١٠- لم يقم نشاط سياسي ملحوظ مع الخلافة العباسية في الشرق.

١١- ظهرت اضطرابات وثورات عديدة في عدد من المدن.



دينار خليفة قرطبة
عبد الرحمن الثالث

١٢- ظهر الاهتمام بالجند ودور الصناعات الحربية، ونظمت القوات العسكرية، وظهرت القوة البحرية، فقد قسمت الأندلس من الناحية العسكرية إلى عدة مناطق" وكان لكل منطقة جيشها الذي يخضع لقيادة أميرها أو حاكمها، وكانت تجتمع هذه الجيوش في الحروب في منطقة حشد، وأغلب ذلك في العاصمة، ثم تنطلق للقتال، وبعد انتهاء العمليات القتالية يعود كل جيش إلى منطقته، وإذا وقع هجوم مباغت فإن كل جيش يقوم برده إلى أن يأتيهم المدد من بقية المناطق، هذا عن الجيش النظامي العامل، ويلتقي بهم بعد ذلك المتطوعون والمرتزقة والملحقون إبان الأزمات أو المواجهات مع الأعداء.

جنود الأسطول الإسلامي



الأمراء الأمويون ... حقائق وعبر

لم تكد شمس الخلافة الأموية تأفل في المشرق العربي حتى أشرقت ثانية من الأندلس، فهم الملوك أبناء الملوك، وكأن تلك النفوس العظيمة لا تصلح إلا للخلافة، وتزداد الخلافة بهم حسناً وبهاءً

فلم تـك تصلـح إلا لــه ولم يك يصلـح إلا لهـا

ولو لم تطعه بنات القلوب لزلزلت الأرض زلزالهـا

ومع أن عهدهم كان عهد عز للأندلس لكن لم يكونوا جميعاً بنفس الدرجة من الكفاءة والحنكة، لذا نرى شمس حكمهم تسطع تارة وتكسف تارة أخرى، ولعل الفترة التي بين حكم عبد الرحمن الداخل وحكم عبد الرحمن الناصر لم يكن فيها شخصيات تمتلك الكاريزما أو التأثير الذي كانا يتمتعان به، ولا جرت فيها تطورات خطيرة غيرت مجرى الأمور سوى بعض التطور الحضاري الذي مر ذكره، وأرى لزاماً علي حين أحلل أحداث التاريخ وأستخرج منها العبر أن أقف مع فاجعة عظيمة وقعت في زمن الحكم بن هشام (الربضي) وهي :

- الثورة التي قام بها الربض (الطبقة الشعبية) ضد الحكم تستحق أن نقف معها لأنها لم تكن عن طمع أو اختلاف في الفكر والسياسة بل كانت ثورة شعبية عفوية وكان خطأ الحكم فيها من جهتين :

١- التمييز بين طبقات الشعب وإقصاء طائفة عن المشاركة الفاعلة في إدارة الدولة أو حتى التنعم بثروتها وكان هذا هو الدافع للثورة والمؤجج لها.

٢- حينما تمكن من إخماد الثورة والقضاء عليها قام بترحيل الربض جميعاً وإخراجهم من الأندلس !! وحينما نطالع التاريخ نجد أن بعض الولاة أو الحكام نفوا رجلاً أو أكثر لسبب أو لآخر، لكن أن ينفي حاكم شعباً بأكمله يدين بدينه، ويهجّر طائفة عن بكرة أبيها، فمن أعطاه الحق بذلك؟ ومن ملكه أرض المسلمين حتى يبعد عنها أصحابها؟!

إن هذا هو الاستبداد والاستعباد الذي قاتل الإسلام لمحوه وجاء لإلغائه، ولئن كان الحكم أول حاكم بدأ بذلك فقد تفنن حكام جاؤوا من بعده باضطهاد طوائف وجماعات من شعوبهم، وما الجرائم والتنكيل الذي مورس ضد جماعات إسلامية معروفة وطوائف أخرى في بعض البلدان العربية ببعيد عن الذاكرة.

وهذا الاستعباد من الحكام هو الذي يولد العنف المضاد وينتج آراءً متطرفة ويجعل البعض يرى الخروج على الحكام .

- إن إشارتنا إلى أخطاء الحكم بن هشام لا تعني تبرئة ساحة الربض ومن ساعدهم وأغراهم بالثورة عليه، فإن الخروج على الحاكم - وإن انحرف - من أكبر المفاسد التي تعصف بالبلاد وتجرها نحو الدمار، خصوصاً حينما يكون الخروج بطريقة المواجهة المباشرة التي يكون عامة الشعب فيها هم وقود المعركة، فيكثر القتل ويعم الدمار.

وفي التاريخ شواهد كثيرة على ذلك، وكأني بحوادث التاريخ توجه نداء إلى الحكام أن يلتفتوا إلى شعوبهم ويحفظوا حقوقهم ويوسعوا مشاركتهم ليحفظوا حكمهم من التزعزع.

الباب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس



الفصل الثالث

عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر

أولاً - عبد الرحمن بن محمد (الناصر)

ثانياً - القتال والجهاد

ثالثاً - إعلان الخلافة

رابعاً - غزوة الخندق

خامساً - حضارة الأندلس تبرز في عهد الناصر

سادساً - الحكم بن عبد الرحمن (المستنصر)



أولاً عبد الرحمن بن محمد (الناصر)



هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، الملقب بالناصر لدين الله، ويسمى كذلك الثالث تمييزاً عن الداخل والأوسط.

درهم خليفة قرطبة : عبد الرحمن الثالث



كان ولي عهد عبد الله بن محمد الأول ابنه محمد، لكن أخاه المطرّف دبر مكيدة سببت في قتله غيلة، ليكون هو المستلم لإمارة أبيه، إلا أن الأمير عبد الله اكتشف الأمر وعلم أن ابنه المطرّف هو قاتل ابنه الثاني فقتله قصاصاً.

توليه الحكم

فاهتم الأمير لذلك بحفيده عبدالرحمن اهتماماً بالغاً، وأولاه عناية خاصة إذ جعله بعدما شبّ وبلغ يشرف على بعض أعمال الإمارة، وكأنه يهيئه ليكون هو الأمير بعد وفاته، وكان الفتى عند حسن ظن جده. تولى الإمارة وعمره اثنان وعشرون عاماً، ودام حكمه خمسين عاماً من ٣٠٠-٣٥٠هـ.

الحدائق الأندلسية الباهرة

عبد الرحمن الناصر

٢٧٨ هـ	ولد في الأندلس .
٢٧٨ هـ	دبر عمه المطرف مكيدة لقتل والده محمد.
-	اهتم به جده اهتماماً بالغاً بعد وفاة والده.
٣٠٠ هـ	تولى إمارة الأندلس وعمره اثنان وعشرون سنة !!.
-	كان يحب مظاهر الملك والمجد مع خشوع وخشية لله.
-	اتسم عهده بالنهضة العمرانية .
-	كان ذكياً حازماً عاقلاً استطاع توحيد الأندلس بعد التمزق.
-	كان محباً للجهاد وأمضى أكثر خلافته في سبيله.
٣٥٠هـ	توفى الناصر - رحمه الله تعالى - بعد أن دامت إمارته خمسين سنة.

أحوال الأندلس والعالم الإسلامي

ولا بد أن نلقي نظرة سريعة على أحوال العالم الإسلامي لما استلم الحكم عبد الرحمن:

١- في الأندلس:

- ما زال ابن حفصون مستمراً في ثورته متمكناً من الجنوب.
- وبنو الحجاج يسيطرون على مدينة إشبيلية وما حولها.
- ويستقل بنو ذي النون في طليطلة وسط الأندلس.
- ويستمر على التمرد موسى بن موسى في مدينة سرقسطة.

ولا زالت الدويلات النصرانية متمزقة فيما بينها كما سبق ذكرها.

٢- العالم الإسلامي

في المشرق، فالخلافة العباسية ليس لها إلا الاسم وتتحكم أسر أو شخصيات على مناطق ممزقة من كيان الخلافة.

- يتحكم بنو بويه على فارس وأصبهان، ويتفرد محمد بن إلياس بحكم كرمان.
- بنو حمدان هم سادة الموصل وما حولها، والإخشيديون حكام مصر وبلاد الشام.
- يسيطر الفاطميون (العبيديون) على المغرب العربي وإفريقية.
- يعلو على اليمامة والبحرين في تلك الفترة حكم القرامطة.
- طبرستان وجرجان وما حولهما في أقصى الشرق بيد الديلم.
- وتشدُّ يدُ نصر بن أحمد الساماني على خراسان.
- أما العراق ووسطه الأهواز ففي قبضة البريديين.
- وللأمويين الأندلس وحالتها كما ذكرت.

تمزقٌ ما بعده تمزق ! أرأيت مثيله في الحياة والتاريخ؟ ولم تبق للخلافة إلا الاسم

وكلٌ يدعي وصلاً بليلى

وليلى ما يكون لها وصال





دينار تم صكه من قبل الفاتحين في الاندلس في عام ١٠٢ هـ



صغر سن الناصر

ونغير مجرى الحديث عن جو المنازعات والانشقاقات والثورات لعلّه أن يكون استراحة للنفوس فنبدأ بالجانب الحضاري والإنساني، رأى الناس من صغر سن عبد الرحمن الناصر أنه لن يستطيع أن يقود الأندلس وحالها كما ذكرنا، مما دعا ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد أن يقول أبياتاً مستبشراً بصغر السن:

بدا الهلال جديداً	والمُلك غضّ جديد
يا نعمةَ الله زيدي	إن كان فيك مزيدُ
إنْ كان للصوم فطرٌ	فأنت للدهر عيد

ونسبت إليه أيضاً أبيات كأنه يردّ على من يغمز في صغر سن الحاكم:

لا يضر الصغير حدثان سنٍّ	إنما الشأن في سعود الصغيرِ
كم مقيم فازتْ يداه بغنمٍ	لم تنله بالرفض كفُّ مغيرِ

الناصر يتدرب على فنون القتال منذ الصغر

حب المظاهر مع الخشوع

وكان يجمع مع حبه للمجد والمظاهر الذي ورثه عن أجداده من بني أمية الثقة التامة بالله تعالى والخضوع له والخشية منه.

ذكر مرة أنه أرسل إلى المنذر بن سعيد (سنذكر تعريفاً به لاحقاً)، أرسل إليه يحثه ليصلي في الناس بالمصلى صلاة الاستسقاء، فالناس قد ضجروا من قلة الأمطار يشتكون، وقد بادروا إلى المصلى، ولما جاءه الرسول قال له المنذر: ما شأن الخليفة سيدنا في هذا اليوم؟ نحن نريد أن نصلي للاستسقاء وهو جالس في قصره غائب عنا، لا يُدرى على أية حال هو؟

فردّ رسول المنذر قائلاً: ما رأينا الخليفة أخشع منه في يومنا هذا! إنه منتدبٌ (يبكي) حائر منفرد بنفسه، لابس أخشن الثياب، مفترش التراب قد رقد به على رأسه ولحيته (جعل التراب فوق رأسه وخلال لحيته)، يبكي معترفاً بذنوبه يناجي ربه: أتراك تعذب بي الرعية؟ وأنت أحكم الحاكمين! لن يفوتك شيء مني.

تهلل وجه المنذر إذ سمع هذا عنه فقال: يا غلام احمل المطر بيدك -كناية على أن الغيث آتٍ- وقال: إذا خشع جبار الأرض فقد رحم جبار السماء. ولم ينصرف الناس عن المصلى إلا فتحت أبواب السماء بالمطر وتدفق الغيث من السحب.



منزل عبد الرحمن الثالث باقٍ إلى الآن في أطلال مدينة الزهراء



الزهراء وعمران الأندلس

حكم عبد الرحمن الناصر خمسين عاماً، وقد قام بأعظم عمل عمراني لما استقرت الأمور، فقد بنى مدينة الزهراء سنة ٣٢٥هـ على بعد خمسة أميال من الشمال الغربي من قرطبة اكتمل بناؤها على مدى أربعين سنة، وبنى له قصراً فيها يقتدي بجده الأمير محمد وأبي جده عبد الرحمن الأوسط وجده الحكم، فكل هؤلاء وغيرهم قد بنوا قصوراً سموها بالزاهر والمبهر، والقصر المنيف وما إلى ذلك من التسميات، أما هو فقد سمى قصره: "الزاهر"، وبنى فيه داراً سماها دار الروضة لسكنه، وبنى في الزهراء داراً للحيوان "حديقة الحيوانات" وداراً للطيور، وداراً للحلي والزينة، إلى جانب دور الصناعات الحربية والسفن.

زخرفة متعددة الألوان للحمام والترف الكبير لدى حكام الأندلس



قصر الزهراء

ربما أطنب المؤرخون في وصف ما بناه الناصر، فقد ذكروا: أن جدران قصر الزهراء كان من الذهب والرخام السميك الصافي، وأن قرامد سقفه من الذهب والفضة، ووضع في وسط القصر "اليتيمة": الجوهرة التي لا مثيل لها أهداها له إمبراطور القسطنطينية، وجعل في وسط القصر أيضاً إناءً واسعاً (قالباً كبيراً) مليئاً بالزئبق، وفي كل من جوانب القصر ثمانية أبواب انعقدت فيها حنايا العاج وخشب الأبنوس المرصع بالذهب والجواهر قائمة على أعمدة من الرخام والبلور الصافي.

مدينة الزهراء: الجناح الأوسط للقاعة الغربية الكبرى

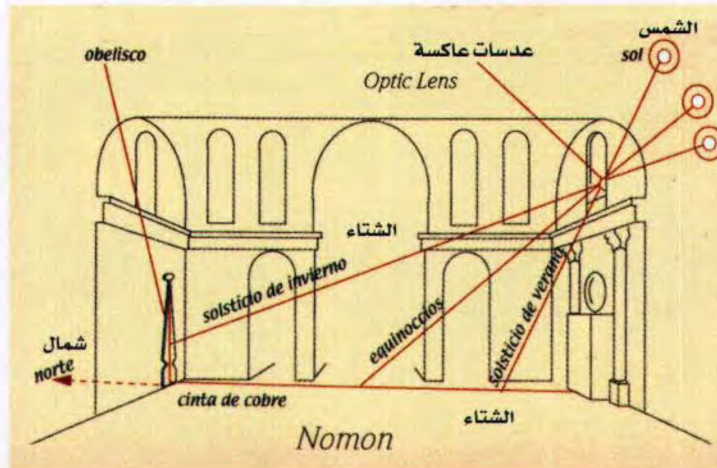


حسابات الشمس

وكذلك قالوا عن قصر الزهراء: كانت الشمس تدخل من تلك الأبواب، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وجدرانه، فيعكس نوراً مبهراً يسلط على هذا الإناء، فإذا أراد أن يفزع أحداً من المجلس أمر أحد خدمه بتحريك الإناء، فينبعث نور من الزئبق المتحرك الرجراج يملأ جو المجلس بريقاً عجيباً، فيشعر المرء كأن المجلس يدور حول نفسه، وتُستقبل الشمس أينما كان المرء جالساً.

ومن عجائب قصر الزهراء: الحوض المنقوش بالذهب، والحوض الأصفر المنقوش بالأخضر وبالصور والتماثيل، قالوا عنها: لا يمكن أن يُثَمَّنَ بمال، حُمل الحوض من مكان إلى مكان من البحر ثم نصب في القسم الشرقي من دار الملك المعروف بالمجلس المؤنس الجميل الذي يطل على حديقة غناء، وجُعل فيه اثنتا عشرة صورة "تمثالاً" من الذهب الأحمر مرصع بالدر الغالي.

الغرف والاعمدة موضوعة في أماكنها بحيث تستبقل الحجرات الشمس في الشتاء أكثر منه في الصيف.

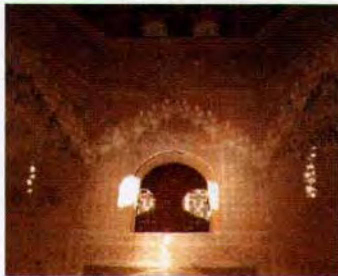














قرص الشمس الذي كان دليلاً حياً لمعرفة الوقت

صناعة التماثيل

ومما صنع بدار الصناعة بقرطبة: صورة أسد إلى جانبه غزال وإلى جانبه تمساح، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل وفي المجنبتين حمامة وشاهين، وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر، وكل ذلك من الذهب الخالص المرصع بالجواهر النفيسة، وجعلت تلك التماثيل بحيث يسيل الماء من أفواهها، وفي وسط الحديقة بحيرة كان يخبز في كل يوم لحيتانها ثمانمائة خبزة، وقيل اثنتا عشرة ألف خبزة، وكان الحكم بن الناصر يشرف على البناء، وكان هو يشرف بنفسه أحياناً، قال المقري في وصف هذا القصر:

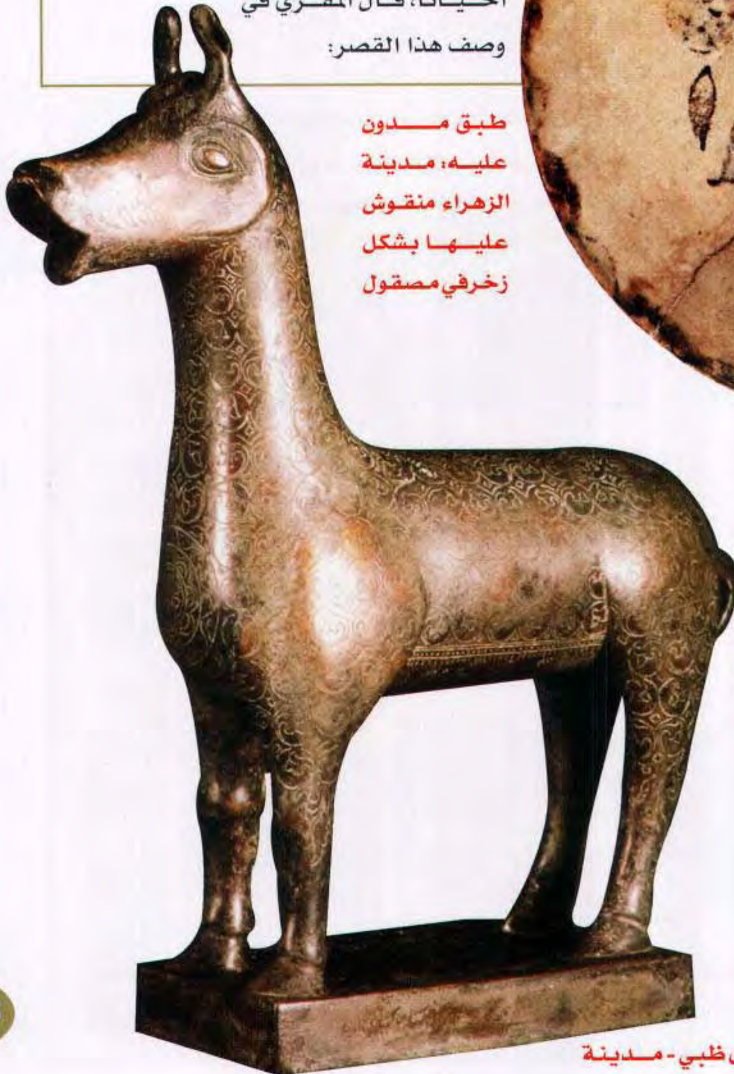


طبق مدون عليه: مدينة الزهراء منقوش عليها بشكل زخرفي مصقول





درهم مصكوك في عهد عبد الرحمن الثاني، سنة ٢٢٩ هـ



نافورة على شكل ظبي - مدينة الزهراء - نحاس منصهر ومشكل



حضارة رائعة

إنه لم يبن مثله في الإسلام البتة، وما دخل إليها قط أحد من سائر البلاد النائية، والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد وتاجر جهبذ (بارع بالتجارة)، -وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة- إلا وكلهم قطع أنه لم ير لها شبهاً، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله.

ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد والمشرف على الروضة، المباهي بمجلس الذهب والقبة، وعجيب ما تضمنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف، وبراعة الملبس والحلة، ما بين مرمر مسنون، وذهب مصون، وعمد كأنما أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة لأشخاص لا تهتدي الأوهام إلى استقصاء التعبير عنها ووصفها.



علبة حلي من العاج يعود تاريخها إلى سنة ٩٦٦ (باريس، متحف اللوفر)

مدينة الزهراء، "القاعة الجميلة" (الفنية)، كانت قاعة عبد الرحمن الثالث للاستقبال.

موقف العالم المنذر بن سعيد من هذا الإسراف

هذا البناء العجيب أو ليس فيه إسراف؟ أما كان قد بلغ غاية الترف؟ كان سقف القصر في البهو الذي يقابل فيه الناس مغشى بالذهب والفضة، صفراء فاقعة إلى بياض ناصع تسلب الأبصار وتخلب العقول بأشعة نورها وضيائها من أصفر فاقع يبعثه الذهب إلى أبيض ناصع ينبعث من الفضة.

تقويم قرطبة (بالعبرية)

جلس يوماً لأعضاء مملكته وأهل قرابته، فسألهم الناصر هذا السؤال: هل رأيتم أو سمعتم ملكاً كان قبلي فعل مثل ما فعلت وبنى مثل ما بنيت أو قدر عليه؟ قالوا -وهذا شأن البطانة التي توافق أهل الحكم على كل حال-: لا والله! وإنك لأوحدُ في شؤونك كلها، ما سبقك إلى هذا ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره، إلى أن دخل المنذر بن سعيد، فوجه إليه الناصر السؤال ذاته، فسال الدمع على لحية القاضي، وقال: لا والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان -لعنه الله- يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكن من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله من فضله ونعمه وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، فغضب الخليفة غضباً شديداً وردّ بجفاء: انظر ماذا تقول، كيف تجعلني مع الكافرين؟ وكيف أنزلني الله منزلتهم؟

قال المنذر: نعم، أما يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ (الزخرف٣٣).

فوجم الخليفة وأطرق رأسه ملياً، وغلبه البكاء خاشعاً، فأقبل على القاضي يقول: جزاك الله عنا وعن نفسك وعن المسلمين خيراً، وعن الدين والمسلمين أجل جزائه، وكثر من أمثالك، ما قلته هو الحق، وأمر بنقض الذهب والفضة عن السقف، وأعاده تراباً على مثيل سقف غيره، وهو يستغفر الله تعالى، وندم ندماً شديداً على ما أنفق في هذا السقف، ولكنها هي الدنيا:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

فلا يغرركـمُ مني ابتسامٌ ... فقولي مضحك والفعل مبكي



جرة من مدينة الزهراء من الخزف، مزينة بالرسومات على الخزف المصقول



المنذر يخطب في الخليفة

انهمك الناصر في الإشراف على الزهراء حتى تأخر عن حضور صلاة الجماعة -في يوم الجمعة- ثلاث جمع متواليات، فأراد المنذر بن سعيد أن يذكره بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطاب والحكمة، والتذكر بالإنابة والرجوع، فابتدأ بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله في أول خطبته بقوله تعالى:

﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ (الشعراء١٢٨-١٣٦)، ثم وصله بقوله: ﴿فمتاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى﴾، ثم مضى في ذم الإسراف على البناء بكل كلام جزل وقول شديد، ثم تلا قوله تعالى: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (التوبة١٠٩)، وراح يحذر وينذر ويحاسب حتى ادكر من حضر من الناس وخشعوا، وأخذ الناصرُ من ذلك بأوفر نصيب، وقد علم أنه المقصود به فبكى وندم على تفريطه، غير أنه لم يحتمل صدره لتلك المحاسبة العلنية، ولشدة ما سمع فقال شاكياً لولده الحكم: والله لقد تعمدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، فأسرف عليّ وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي واستشاط غيظاً عليه لذلك!! فأقسم أن لا يصلي خلفه صلاة جمعة، وجعل يلزم صلاتها وراء أحمد بن مطرف خطيب جامع قرطبة.



الممر إلى مدينة الزهراء



بقايا غرفة استقبال في مدينة الزهراء ويظهر الحوض في وسطها

تلك هي عقوبة القاضي المنذر، أن لا يصلي الخليفة الناصر خلفه في صلاة الجمعة، لذلك الخطيب الذي تجاوز الحدَّ في الكلام!! وانظر كيف يتعامل حكام اليوم مع العلماء الذي يذكرونهم بالله تعالى والآخرة ومصلحة الأمة.

الناصر واقتراح عزل المنذر

ولكن لما رأى ولده الحكم تعلق والده بالزهراء والصلاة في مسجدها العظيم، قال له: فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة به إذ كرهته؟ ولكن الناصر زجره قائلاً: أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه -لا أم لك- يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد؟ سالكة لغير القصد؟ هذا ما لا يكون، وإني لأستحيي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكن أحرجني فأقسمت ولوددت أني أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي منذر بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله، فما أظننا نعتاض منه أبداً.

واعتذر الحكم لأبيه عما قاله بشأنه، فقال: يا أمير المؤمنين إنه رجل صالح، وما أراد إلا خيراً، ولو رأى ما أنفقت وحسن هذه البنية لعذرك.



صندوق مجوهرات من العاج بمدينة الزهراء

المنذر الزاهد

أمر الناصر بعد ذلك بالقصور ففرشت، وفرش ذلك المجلس بأصناف الديباج، وأمر بالأطعمة، وقد أحضر العلماء والأمراء وغص بهم المجلس، فدخل منذر بن سعيد في آخرهم، فأومأ إليه الخليفة أن يقعد بقربه، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يقعد الرجل حيث انتهى به المجلس، ولا يتخطى الرقاب، فجلس في آخر الناس وعليه ثياب رثة.



جدار مع بعض الأقواس والأعمدة في مدينة الزهراء

بمثل هذه الروح الطيبة الطاهرة، بمثل هذا التعامل بالخلق الرفيع من العلماء والحكام مع كل الناس بُني المجد الأندلسي، فقد مضى المنذر إلى ربه ليلحق بالخليفة الناصر، وذبلت زهرة الزهراء، ولم يبق منها إلا أطلال خربة، وبقي المسجد الكبير -مسجد قرطبة- خالداً على الأيام، شاهداً بعظمة الإسلام الذي يبني الرجال.

ثانياً القتال والجهاد

أحوال الأندلس

أصبح عبد الرحمن أميراً على قرطبة، والبلاد في حالة من الفوضى، فالتمزق الداخلي قد جعل كل مدينة دولةً مستقلة، ومن كل إقليم إمارة منفصلة -كما سبق ذكره- وكانت الحروب الداخلية والفتن المتلاحقة التي استمرت طوال حكم المنذر وأخيه عبد الله قد أرهقت الإمارة الأندلسية، واستنزفت كامل قوتها.

وكانت الدول النصرانية في الشمال: (ليون أو نافار) -كما ذكر سابقاً- تتابع مسيرتها لبناء قدراتها الذاتية، فأصبحت مملكة ليون من أقوى تلك الدول، وأخذت زعامة دول النصارى في محاربة المسلمين.

تقويم بالألوان

التوجه لتوحيد الأندلس

كانت الأندلس كما ذكرنا يوم تولى عبد الرحمن الناصر الحكم، فكانت مهمته خطيرة وصعبة، وكانت سنه حينذاك اثنتين وعشرين سنة، لذلك بايعه كل أصحاب المكانة، ولم ينافسه أحد لخطورة المهمة التي كانت ستواجه مَن يتولى الحكم في الأندلس في ذلك الحين، لكن عبد الرحمن كان أميراً حازماً، وذكياً عادلاً، وعاقلاً شجاعاً محباً للإصلاح حريصاً عليه، أحبه الشعب وأخلص له، وكان هو قدوةً له، لذلك استطاع أن يقضي على العصاة، ويعيد للأندلس وحدتها وقوتها ومكانتها.



هزائم ابن حفصون

في عام ٣٠٠هـ أي في العام الذي تولى الناصر الحكم هاجم الثائر ابن حفصون مدينة "رية" وضرب حصاراً حولها، فبدأ عبد الرحمن الثالث عملياته فوراً يقود بنفسه الجيش، وتمكن من رفع الحصار عن المدينة، ثم تابع هجومه على قوات ابن حفصون فانتزع منها عدداً من الحصون المهمة، ثم لم يتوان عن تحرير المدن الموالية لابن حفصون في كورة "إلبيرة" وتطهيرها من أنصاره، وتوجه عبد الرحمن الناصر بعد ذلك إلى وادي آش، فاحتل الحصون والقلاع المنتشرة فيه، وأوغل في تقدمه عبر شعاب جبل الثلج (سيرا نيفادا)، وعاد إلى قرطبة بعد مضي ثلاثة أشهر.

صندوق مجوهرات، مصنوع من العاج في مدينة الزهراء

اهتز ابن حفصون من تلك الهزائم التي منيت بها قواته، وأخذت الحصون منه، كيف لشاب صغير أن يفعل به هذه الأفاعيل؟ ويهزمه بهذه الهزائم المرة؟ فتحرك يريد أن يفعل شيئاً فالتقى بجيش عبد الرحمن الذي يقوده بنفسه قرب قرية تدعى "طَرَش"، ووقعت معركة رهيبة قرب قلعتها، قتل فيها عدداً كبيراً من جند ابن حفصون وحلفائه النصارى، وتقدم الناصر مزيداً في هجومه وإعادة المناطق التي كانت بيد هذا الثائر العنيد.

ذهل ابن حفصون مما أصابه من همة هذا الشاب غريمه الناصر، فأرسل يطلب المدد من العبيديين (الفاطميين) على عجل، إلا أن الناصر كان يقظاً فتوجه مباشرة نحو "شذونة" ومنها إلى "قَرمونة" اللتين كانتا تحت قبضة المتمرد ابن حفصون، وحاصرهما فاستسلمتا له، كذلك تمكنت سفنه أن تستولي على مجموعة من السفن المحملة بالمؤن والأمداد التي أرسلها العبيديون (الفاطميون)، (وهي طائفة من الإسماعيلية المنحرفة) لدعم ابن حفصون عن طريق البحر في المضيق، فأمر الناصر بحرقها.



رأس العمود في قرطبة، وحفر على الرأس عازف للموسيقى



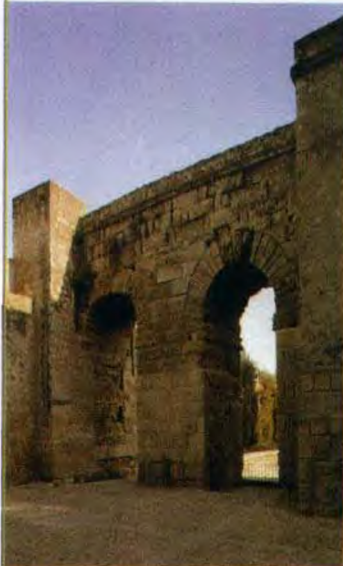


السيطرة على إشبيلية

ومن حوادث سنة ٣٠١هـ موت عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج، فتولى إمارة المنفصلين في إشبيلية ابنه محمد بن عبد الرحمن، لكنه ما إن جلس حتى ثار عليه من أسرته أحمد بن سلمة من بني حجاج، وهكذا يطمع الطامعون في الحكم على أقاربهم، وأدرك هذا الأخير أنْ ليس بإمكانه مقاومة عبد الرحمن بن إبراهيم فأرسل إلى الناصر يطلب منه المساعدة والمعاونة وأنه يعطيه الولاء إذا أنهى حكم عبد الرحمن بن حجاج، فلبّى الناصر هذا النداء، وأرسل قوة استطاعت أن تقضي على تمرد بني حجاج، ويصدق ابن سلمة إذ يعلن ولاءه للأمويين الذين أعادوا سلطتهم على إشبيلية.

بدأ نجم الناصر يلمع فيضيء في سماء الأندلس، كيف استطاع هذا الشاب أن يعيد إشبيلية؟ وكذلك معظم المناطق التي كانت تحت قبضة ابن حفصون بأقل من سنة؟

جنود الناصر يهبون لنجدة أمير أشبيلية محمد بن عبدالرحمن



قرطبة: باب إشبيلية، الطريق القديمة المؤدية إلى إشبيلية



سرقسطة تخضع

انتشرت أخبار الانتصارات التي مكنت الناصر في أرجاء الإمارة ولما سمع بها ابنُ قسيَ المتمرد بمدينة "سرقسطة" لم يتمهلْ بل بادر فوراً فأرسل إلى الناصر يعلن له الخضوع، وأنه يدخل فيما دخل فيه الأمويون، فأقره الناصر، وكان من خلقه أن يغدق على العصاة الذين يستسلمون له ويكرمهم، ويوسع عليهم، وغالباً كان يبقيهم على أعمالهم، لذلك أخذت المدن الأندلسية في الخضوع له، وتسليمه قيادها مدينة بعد أخرى، بداية من إشبيلية وسرقسطة، ونهاية بالعصاة في "بربشتر" عاصمة ابن حفصون المتمردة.



النصارى يهاجمون

كان عبد الرحمن الناصر يفضل دونما ريب (وهو في بداية عهده) عدم الدخول في معارك مع دول الشمال النصرانية، حتى يتفرغ لتصفية أعداء الداخل، لينطلق من قاعدة صلبة من الجنوب والوسط، إلا أن دول الشمال لم تترك له الفرصة، إذ قاد ملك ليون "أردينو الثاني" هجومه الكبير سنة ٣٠٢هـ، ووصل بهذا الهجوم حتى مدينة "ماردة" وكان يحكمها "عبد الرحمن الجيليقي" واستولى على بعض القلاع، وأباد المدافعين عنها، ثم تابع تقدمه حتى "بطليوس" وهي من المدن المهمة التابعة لماردة، فأرسل أهلها وفداً محملاً (بالفدية) مظهراً الطاعة، واكتفى أردينو بما حققه من نصر، وعاد وهو مثقل بالغنائم دون أن يواجه قوة، خشيةً إذ اقترب من منطقة قرطبة.

النصارى يهاجمون بقيادة «أردينو الثاني»





الناصر يهاجم النصارى

وجد عبد الرحمن الناصر الفرصة مواتية لإظهار وحدة المسلمين وتلاحمهم ضد العدو المشترك (مملكة ليون)، فوجه جيشاً بقيادة وزيره "أحمد بن عبدة" مع بداية سنة ٣٠٤هـ، واصطدم بجيش مملكة ليون في عدد من المعارك الثانوية التي انتهت كلها بالنصر، وغنمت قوات المسلمين غنائم كبيرة، وعاد جيش قرطبة إلى قاعدته بعد أن ألحق أضراراً كبيرة في ممتلكات ليون وأراضيها.



واجهة مدخل مجلس الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث في غرناطة



النصارى يدخلون طليطلة

النصارى يدخلون منتصرين طليطلة



وفي ربيع ذلك العام ٣٠٤هـ تحالف "أردينو" ملك "ليون"، و"شانجة" ملك "نافار" للقيام بعمليات ناجحة، فوصلت قوات التحالف إلى "طليطلة" -عاصمة الشمال وكانت مستقلة بيد بني ذي النون- فدخلت المدينة ومناطقها فأعملت فيها هدماً وإحراقاً وأذلت أهلها وأخذت منهم السبايا، وأحرقوا مسجدها، فأسكرتهم نشوة الانتصار هذه.

كانت هذه الدويلات أمثال "طليطلة" نقمة ووبالاً على الإسلام والمسلمين في المغرب والمشرق والأندلس، إذ ما كانت باستطاعتها حماية أنفسها، بل كانت تجُدّ في المنازعات مع جيرانها، ليست إلا كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد، وتطمع دول النصارى دائماً بالهجوم عليها، وسفك الدماء وإتلاف الحرث والنسل، وأين من يوحدها ويجمعها؟

وكان لا بد من عمل عاجل، فيتحرك عبد الرحمن الناصر ليجمع الشتات، ويوحد القوات، ويجمع الدويلات المتفرقة، فرأى قبل أن يقوم بهذه المهمة توجيه ضربة لهذه الدول النصرانية التي لا تزال تثير الفتن والحروب، وتنشر الخوف والرعب في المسلمين قريبين منها كانوا أو بعيدين، فأرسل وزيره أحمد بن أبي عبيدة فخاض عدة معارك ثانوية أنتصر فيها وعاد بالغنائم.



نهاية ابن حفصون

وقدّر أن يموت "عمر ابن حفصون" -وكان قد تنصر ظناً منه أن ذلك يجلب له التأييد فكان العكس- في سنة ٣٠٥هـ، فتفرقت حكومته بين أولاده، فقام "جعفر بن عمر" مكان أبيه في "بربشتر"، واستقل "عبد الرحمن بن عمر" في حصن "طَرَش"، بينما تمركز ابنه الثالث "سليمان" في مدينة "أَبْدة"، فكانت فرصة مناسبة إذ أسرع عبد الرحمن الناصر فوجه جيشه إلى "أبدة" واستولى عليها وأخذ سليمان أسيراً إلى قرطبة فأكرمه الناصر وعفا عنه وضمه إلى جيشه، أدى عفو الناصر هذا إلى أن يستسلم عبد الرحمن بن حفصون دون قتال ويعلن خضوعه للأمير الناصر.



الأعمدة والأقواس داخل المسجد الكبير في قرطبة

ثورة سليمان بن عمر بن حفصون

وتطورت الأحداث في جنوب الأندلس، حيث قتل جعفر بن عمر بن حفصون في سنة ٣٠٨هـ، فقام أخوه سليمان مكانه، وأقره عبد الرحمن الناصر على ولايته، ولكنه نكث عهده، وثار عليه، فأرسل الناصر عدة حملات سنوياً لإخضاعه، فامتنع جعفر في حصونه ولم تتمكن الحملات المتتابعة في كل سنة من إخضاعه.



علبة من العاج للمغيرة أخ الحكم الثاني (موجودة في متحف اللوفر في باريس)





عام ٣٠٨هـ
٩٢٠م

معركة الفَرَج

في عام ٣٠٨هـ تقدم عبد الرحمن بنفسه يقود جنده وكتم الأخبار ليفاجئ مملكة "ليون" وحليفتها "نافار"، وأسرع الجند الأندلسي يتقدم نحو الشمال، إلا أن النصارى هناك كانوا على علم بتحركه، فأرسلت مملكة "جيليقية" حملة للعدوان على قرية "الفَرَج" -وهي منطقة حدودية- وعلى ريفها، فسيطر الجيش على الريف، واستولى على ما فيه من خيول وماشية، وتقدم للانقضاض على "الفَرَج" بالذات، لكن عامل هذه المنطقة استطاع أن يحشد كل الإمكانات المتوفرة، فاندفع جميع أهل المدينة من الفرسان والمشاة، حتى خرجت النساء أيضاً لمجابهة هذا العدو الغاشم، ودارت معركة قاسية انتهت بانتصار المسلمين انتصاراً حاسماً، وبدأ جيش "جيليقية" بالانسحاب فاندفع فرسان "الفرج" وأبطالها لمطاردته طوال النهار وأبادوا معظم قوات العدو، دبت روح الأمل في نفوس المسلمين لما رأوا قدرة هذه المنطقة الصغيرة أن توقع الهزيمة المنكرة بجيش "جيليقية".



عبدالرحمن يقود جنده ليفاجيء مملكة «ليون»



عام ٣٠٨هـ
٩٢٠م

الناصر يتوجه شمالاً

تابع الناصر التقدم بجيشه نحو الشمال، في الوقت الذي كانت فيه الحشود وقوات الدعم تتلاحق بصورة مستمرة من سائر الأندلس لتنضم إلى الأمويين، ولتزيد من قوتهم، حتى إذا توجه عبد الرحمن الناصر نحو "طليطلة" كان في استقباله حاكمها "لب بن الطربيشة" ومعه حامية المدينة التي انضمت فوراً إلى جيش المسلمين، فقد توحدت الأندلس ما عدا مناطق صغيرة لا يؤبه لها، لذلك قرر الناصر تكثيف الجهد القتالي وأخذ في الاستعداد لمعركة حاسمة مع خصمه "أردينو" ملك ليون فكانت غزوة "موبش"، هل قرأتم؟ أو سمعتم عن هذه الغزوة؟ غزوة "موبش"! من الغزوات المهمة في التاريخ الأندلسي، تقول: أين أنتم يا أحفاد المسلمين؟ وهل جهلتم عزكم؟

غزوة مويش



القاعدة في سالم

تقدم عبد الرحمن الناصر كما رأينا نحو الشمال حتى وصل إلى مدينة "سالم" وجعلها قاعدة لقواته وتوقف فيها لإعادة تنظيم قواته، ثم أرسل منها قوات أخضعت "إلبة" والقلاع التي حول مدينة "سالم"، حتى وصلت إلى نهر "دويرة"، وهو نهر يفصل بين مملكة النصارى وبين المسلمين يقع في الثلث الشمالي من الأندلس.

فأرسل فرسانه بقيادة وزيره "سعيد بن المنذر" الذي تمكن من إخضاع حصن "وَخْشمة" والرجوع بالغنائم، وقد أضرم فيها النار بعد أن كانت الحامية المدافعة عنها قد انسحبت.



حدائق ساحرة داخل القصور

حصن قاشتر

وفي صباح اليوم التالي انطلق عبد الرحمن إلى حصن "قاشتر" حيث كانت الأخبار عن سقوط حصن "وَخْشمة" في قبضة المسلمين قد انتشرت عبر الإقليم، مما أضعف الروح المعنوية في وسط الحاميات المدافعة، لذلك انسحبت حامية "قاشتر" عن الحصن وتخلت عنه دون قتال، فدخله المسلمون وغنموا ما فيه، وانطلقت مجموعات من فرسان المسلمين في اتجاهات مختلفة لتدمير جميع الحصون والقلاع، حتى لم يتركوا في تلك الجهة مكاناً يأوي إليها جند "ليون".



عازف العود وأثنان من الموسيقيين مع آلاتهم





مدينة قلونية

توجه الناصر بعد ذلك نحو مدينة "قلونية" من أمهات المدن التي تستخدمها قوات النصارى للإغارة على حدود المسلمين، فلم تجابه مقاومة كبيرة، وكان أهلها قد تركوها ولجؤوا إلى الجبال المجاورة، فانطلق الجند يدمرونها ويحرقونها، ويغنمون ما فيها لتصبح نكاية لهم ولغيرهم، وأرسل من هناك أحد قواده "محمد بن لب" بمجموعة من الفرسان للإغارة على حصن "قَلَهُرَّة" فدخل الحصن الذي تركته الحامية خوفاً من المسلمين.

طبق مدون عليه وآخر مرسوم عليه اسود متقابلة منقوش عليها بشكل زخرفي مصقول، مدينة الزهراء

حصن قَلَهُرَّة

ثم تحرك الناصر بنفسه يقود بقية الجيش إلى حصن "قَلَهُرَّة" ولم تحاول حاميته الدفاع عنه بل انسحبت قبل قدوم المسلمين، فدخله المسلمون وأخذوا في تدمير منشآته وتحصيناته الدفاعية طوال يومين كاملين لإشاعة الهلع والخوف في نفوس الحاميات الأخرى المتواجدة في قلاع الأعداء المتناثرة، ثم عبر الناصر نهراً صغيراً يدعى "أبرة" نحو الشمال.



قلهرة؛ الحصن المنيع الشهير

قتال نافار

جعل هذا التقدم الظافر للمسلمين ملكَ نافار "شانجة" ينطلق بنفسه لإيقافه محاولاً تدمير طلائع قوات المسلمين أثناء العبور، لكن قوات الفرسان في المقدمة تلقت صدمة هجوم النافاريين، واستطاعت إحباط الهجوم، وأخذت قوات شانجة بالانسحاب، مما جعل قوات المقدمة الإسلامية أن تلقي بثقلها في المعركة ونجحت في تحويل انسحاب العدو إلى هزيمة وانطلق الفرسان إلى مطاردة فلول العدو الممزقة ثم عادوا إلى مركز تجمع القوات بعد العبور لإعلام عبد الرحمن وإطلاعه على الموقف. استطاعت مقدمة الجيش الأندلسي إلحاق الهزيمة بجيش العدو "مملكة نافار" فكيف إذا لاقاهم جيش عبد الرحمن الناصر. ثم انطلق عبد الرحمن الناصر في تقدمه عبر إقليم "نافار" بجيشه إلى المناطق الجبلية، وكان قد أمّن الأطراف والممرات بمفارز الاستطلاع لحماية أجناب الجيش والمؤخرة، فتجاوز المناطق الجبلية والمضائق بأمان، ووصل إلى منطقة سهلية، فأمر عسكره بالتوقف وإقامة المعسكر للاستراحة.

معركة موبش

وفي هذا السهل بدأ تدفق جيش "ليون" و"نافار"، ودارت معركة كبيرة انتهت بهزيمة التحالف النصراني فهربوا لا يلوون على شيء، ولا يهتدون إلى أين ينهزمون، والمسلمون على آثارهم يقتلون من أدركوا منهم حتى حجز الظلام بينهم، وكان حصن "موبش" قريباً من ميدان هذه المعركة وهو حصن يتميز بدفاعاته.

فهرب أكثر الجيش إليه، فما كان من الناصر إلا أن طوّق الحصن واستخدمت قواته تجهيزات الحصار من المناجيق وغيره، ثم اندفع المسلمون فاقتحموا الحصن وأسروا من فيه من المقاتلين فأمر الناصر بضرب رقابهم جميعاً، وغنم المسلمون ما في الحصن من غنائم كثيرة، فتوقف خشية أن يوغل في بلاد الأعداء، وليعيد ترتيب أموره وتنظيم جيشه، وقد أحرق معاقل النصارى النافاريين حتى لا يستفيدوا منها ثانية. استمرت غزوة "موبش" ثلاثة أشهر، يفتح الناصر فيها معظم الحصون ويخترق في عمق الدولة المعتدية "نافار"، ثم عاد إلى قرطبة بعد أن تفقد أحوال الثغور واجتمع بقادتها، عزّ وأي عزّ بعدما كان من تدهور الأحوال!.

النصارى يبدؤن الهجوم على جيش المسلمين في معركة موبش







معركة سانت استيفان

وفي عام ٣٠٥هـ تقدم "أردنيو" حاكم "ليون" من (القوط)، بجيش كبير نحو إقليم "طَلَبيرة" واستطاع أن يستولي على معظم الإقليم، وكان قد بدأ سياسة جديدة سيئة -سياسة الأرض المحروقة- فيأخذ الغنائم، ويحرق المدن والقرى والأرياف، إذ لم يبق في شمال الأندلس مسلم واحد، بقي القوط أحراراً في أرض المسلمين، وانظر ما يفعله القوط و"أردينو"!.. فكل إناء بالذي فيه ينضح، وانظر إلى أخلاقنا وأخلاقهم، فأرسل الناصر جيشاً بقيادة "أحمد بن أبي عبدة" وكانت وجهته نحو "سانت استيفان" وكانت من أقوى الحصون، فجاء "أردينو" بجيش يقوده بنفسه لأهمية هذا الحصن وأرسل يطلب المدد من الدول النصرانية، فتجمعت قوات لهم كبيرة متوجهة نحو حصن «سانت استيفان»، لإنجاده وإنقاذه من المحاصر "أحمد بن أبي عبدة"، فأمر "أحمد بن أبي عبدة" جيشه بالانسحاب لمعرفته أنه لا يمكن لقواته القليلة من مواجهة الأعداد الهائلة القادمة، لكنه صمد هو ومجموعة من قادته وأعداد قليلة من المقاتلين حتى أبيدوا إبادة تامة، وتمكنت بقية القوات من الانسحاب بكامل قوتها وأسلحتها.

"أردينو" يقود جيشه بنفسه ضد جيش الناصر بقيادة "أحمد بن أبي عبدة"



هزيمة النصارى

وفي العام التالي في عام ٣٠٦هـ أرسل الناصر حاجبه "بدر بن أحمد" بجيش يأتيه الرفد من المناطق الأخرى حتى وصل هذا الجيش إلى حدود مملكة ليون، فأرسل النصارى في الشمال طلائعهم ليصدوا المسلمين أو يعيقوهم من التقدم، ولكن الطلائع الإسلامية استطاعت تمزيق تلك الطلائع المعادية، أما اللقاء بين الجيشين فقد تم في مكان قريب من "مدونية" أو "مطونية"، وجرت معركة عظيمة، وتمكنت القوات الإسلامية من إحراز النصر بالرغم من ثبات قوات ليون واستماتتها في القتال، فسحقت قوات الشمال، وهزمتها هزيمة منكرة، حتى إنه لم تتمكن سوى وحدات قليلة معادية من مغادرة ميدان المعركة، والفرار بعيداً تنجو من أهوال المعركة.



منظر جميل لقاعة العدالة ويبدو السقف العلوي وقد رسم عليه ملك الناصر



النصارى يقتحمون بقيرة

كان من بعض ما تركته هذه الغزوة من النتائج ظهور حالة انهيار معنوي كبير في وسط سكان الثغور النصرانية المتاخمة لحدود إمارة الناصر، لذلك أراد "شانجة" ملك "نافار" أن يقوم بأعمال عدوانية لمعالجة تلك النفوس، فتقدم عام ٣١١هـ على رأس جيش كبير في اتجاه مدينة "بقيرة" وما استطاعت حاميتها الصغيرة بقيادة "ابن لب" ومعه "مطرف بن موسى" من بني ذي النون من الصمود طويلاً في الدفاع، واستطاع "شانجة" اقتحام المدينة وإبادة حاميتها وقتل قادتها جميعاً - ابن لب وأبناء ذي النون-.



النصارى يدخلون بقيرة



الناصر يرد

فأراد الناصر وقد بلغه تجاوز الأعداء في الشمال، وعبورهم وادي "دويرة" وإثارة الخراب في أرض المسلمين أن يوقفهم عند حدودهم، وأن يزحف هو على رأس جيش بعد أن أرسل مقدمة بمهمة مجابهة قوات الشمال وإحباط هجماتها جيشاً يقوده "عبد الحميد بن سُبيك"، الذي وصل إلى "تطيلة" وأوقف العدوان هناك.

عبد الحميد بن سُبيك يقود جيشاً وصل به إلى «تطيلة»

ثورات ضد الناصر

وأراد عبد الرحمن الناصر تحقيق المباغتة والإسراع في تنفيذ العمليات لردع الأعداء فخرج من قرطبة على رأس جيشه الكبير عام ٣١٢هـ، وأقام قريباً من قرطبة لتنظيم القوات القادمة في منطقة الحشد وإعدادها للمعركة الفاصلة، في هذه الأثناء تحرك بعض الطامعين في الحكم ولم يقدّروا الخطر الحقيقي الذي يهدد وجود الإسلام والمسلمين في الأندلس، فثار في الجنوب "بتدمير" عبد الرحمن بن وضاح، كما أعلن العصيان في "بلنسية" شرقاً محمد بن عبد الرحمن بن الشيخ، فأصبح الناصر بين أعداء متفرقين حيث كان في الشمال: القوط، وفي الجنوب "تدمير" وثائرها، بالإضافة إلى ثورة ابن حفصون نشأت من جديد بقيادة ابنه في "بربشتر" عاصمة الجنوب الشرقي.

الهجوم العظيم

لذلك توجه بجيشه نحو "تدمير" وانطلق منها إلى "بلنسية"، فنزل الثائرون من معاقلهم ولكن الناصر استطاع أن يخمد ثورتهم ما عدا "ابن الشيخ" الذي أصر على التمرد، فخشي الناصر أن ينتهز النصارى القوط ابتعاده، فترك حامية لحصار "ابن الشيخ" وانطلق بجيشه هو نحو "تطيلة" فلما وصل إلى حصن "قليقرة" وجده خالياً، فأمر بتدمير وإحراق جميع ما فيه (يرد على ما فعله "شانجة" سابقاً)، كذلك كان العدو قد أخلى جميع الحصون والقلاع وكانت حامياتها قد تركت متاعها وموادها التموينية فغنمها المسلمون، وهدموا الحصون التي كانت في تلك الجهة.



شكل يمثل بعض الدفاعات التحصينية الوقائية في مبنى الناصر الحربي حيث يتم سكب الزيت أو الرصاص المذاب من البرج على اي اعداء يحاولون كسر باب القوس أسفلهم.



مضيق المركوير

وتقدم الناصر بعد أن اجتاز السهول فوصل بقواته إلى منطقة الجبال وكان عليه أن يعبر بجيشه الجرار "مضيق المَركوير" بين السلاسل الجبلية الشاهقة، وهو أمر صعب بالغ الخطورة، فخشي من المباغتة، فأعاد الناصر تنظيم قواته للمسير في تلك المناطق، ودعم المقدمة والمجنبات والمؤخرة بقوات من الفرسان، وفعلاً استطاع أن يعبرها على أسلم طريقة وقطع تلك الجبال إلى أن وصل إلى مدينة "بشكسونة" وإليها ينسب "شانجة"، فأحرق الناصر مبانيها، كان "شانجة" قد حشد قواته في المرتفعات الجبلية، وأخذ في متابعة تقدم جيش الناصر لعله يجد منه غرة، مما جعل عبد الرحمن الناصر يتابع تحركاته أيضاً، فدفع عناصر الاستطلاع في كل اتجاه، وأمر القادة بالحذر، وأخذ تدابير الأمن.

هجوم نافار

وعندما وصلت قوات المسلمين إلى المضيق الضيق الصعب أخذ فرسان "نافار" في الهبوط من الجبال، والانحدار من المرتفعات لإيقاف تقدم المسلمين، فأمر الناصر بالهجوم، وانطلقت القوة الرئيسية بهجومها فعبرت النهر، ولم تستطع قوات "نافار" الصمود في مواضعها، فاقتلع المسلمون أعداءهم، ووضعوا السيوف فيهم ففروا إلى جبل وعر، فاقتحم المسلمون عليهم وبسطت الأرض بأجسادهم حتى كانت الخيول تجري عليهم مثل ما قال المؤرخون.



منظر حي الاذرع أو حي سكن الضباط من برج المراقبة



دخول العاصمة بنبلونة

وتقدم الناصر إلى أن وصل بقواته إلى مدينة "بنبلونة" أهم مدن مملكة "نافار" وهي عاصمتها، لا يمر بمكان إلا دمره، ولا بقرية إلا هدمها، وأزال المواقع المحصنة بها، وكان أهل "بنبلونة" قد غادروها، كما قد انسحبت الحامية المدافعة عنها، فدخلها الناصر لدين الله وأمر بتدميرها وتخريب مبانيها.



بقايا مدينة الزهراء

صخرة قيس

وكان "شانجة" ملك "نافار" قد شيد كنيسة كبيرة أنفق عليها الأموال الكثيرة في مكان يسميه المسلمون "صخرة قيس" وكان قد حصنها تحصيناً قوياً كما عمل على حشد قوات كبيرة في الجبال والمرتفعات المشرفة على هذه الصخرة، فوصل إليها الناصر بسرعة وفي لحظة طرف اقتلع المسلمون جيش "نافار" وصرعوا من فرسانه ووجوه أصحابه من كان عوناً للملك "شانجة"، وأمر الناصر بإحراق القرية وما فيها.



رأس عمود: قرطبة أو مدينة الزهراء

فرار الملك

لم يتوقف "شانجة" عن محاولة تنظيم قواته، وتنظيم قوات الدعم التي كانت تأتيه من "إلبة" والقلاع عند حصن يدعى "شنت اشتبين" لشن هجوم مضاد على جيش الناصر المتقدم، فدارت معارك قاسية أظهر فيها المتصارعان عناداً في القتال وبأساً شديداً، ولكن المسلمون استطاعوا انتزاع النصر في النهاية، ومضوا يلاحقون جيش "نافار" الذي فر نحو المرتفعات الجبلية وكذلك فعل الملك النافاري "شانجة".

أخضع الناصر جميع القلاع والحصون في الشمال حتى إنه أحرق العاصمة "بنبلونة" ومزق جيش "نافار" وجعل ملكها فاراً يبحث عن مأوى في الجبال، إنها العزيمة الصادقة تفعل الأفاعيل.



الناصر يقود الجيوش ويلاحق النصارى بنفسه



احتدام صراع النصارى فيما بيهم

صراع بين النصارى

ورجع الناصر إلى قرطبة.. ومات "شانجة" في سنة ٣١٤هـ، وكان ولي عهده "غرسيه" صغيراً، لذلك قامت جدته التي تدعى "طوطة" بالوصاية عليه.

رأى أحد قواد "نافار" ويدعى "فرزلند" تسلط "طوطة" على الحكم واستئثارها به فتحالف مع ملك ليون "أردون بن روزيد" ضد "غرسيه" وجدته، مما جعل "طوطة" وحفيدها وأنصارهما يتوجهون إلى "قرطبة" يستنصرون بالأمير عبد الرحمن الناصر وهكذا الأيام دول. فوجد فرصة للإيقاع بهم، ويعيد الحكم إلى "طوطة" بمساندتها بقوات من جنده، وتتولى هي وحفيدها ملك "نافار" مرة أخرى.

نهاية ثورة ابن حفصون

في هذه الأثناء تطورت الأحداث في "بربشتر" عاصمة الجنوب الشرقي التي كانت تحت قبضة ابن حفصون وأولاده من بعده، حيث وجه الأمير عبد الرحمن جند الأندلس بقيادة وزيره "عبد الحميد بن سبيل"، وخرج "سليمان بن عمر بن حفصون" للقائه فهُزِمت قوات ابن حفصون وقُتل سليمان، فخلفه حفص أخوه، واستمر على المقاومة، لكنه اضطر في النهاية إلى الاستسلام، فأخذ أسيراً إلى "قرطبة"، وعفا عنه الناصر وضمّه إلى جيشه، وانتهى هذا التمرد الذي دام سبعة وأربعين عاماً، وخضعت عاصمة الجنوب للأمويين.

لم يكن ابن حفصون ثائراً عادياً يعتمد على أساليب العنف والبطش فقط، وإنما بذكائه أعلن أنه صاحب دعوة سياسية يطلقها بين الذين يحسون أنهم مضطهدون في دولة تحكمها فئة لا تلتفت إلى مصالح أولئك المنتمي إلى أعراق وجنسيات عديدة في المجتمع، وهؤلاء على الأغلب في فترات التاريخ كانوا يحتفظون بنزعة استقلالية، يظهرونها إذا ضعفت الإدارة المركزية، أو إن وجد من يجمعهم في صف واحد وراية واحدة للقيام بالعصيان، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن الذين يعتنقون الإسلام لا عن علاقة وطيدة بالمسلمين، ولا عن اعتقاد سليم متين يبطنون نحلهم ومذاهبهم متربصين بالإسلام والمسلمين الدوائر، فجمع ابن حفصون لذلك عشاق الفوضى والقلاقل والاضطرابات، كما جمع أدعياء الظلم والعسف والجور الذي لحق بهم من السلطان وأعوانه.

وهل كانت الثورات التي قامت في المشرق الإسلامي أو المغرب أو في الأندلس إلا من تلك الفئات التي عرفت بالباطنية في تاريخنا؟ كثورة الزنج، أو القرامطة، أو ثورة ابن حفصون.



مدخل مجلس الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث في غرناطة

ثالثاً إعلان الخلافة

عام ٣١٤هـ
٩٢٦م

العبيديون (الفاطميون)

ظهر في الشمال الإفريقي خطر جديد يهدد الناصر ألا وهو حكم العبيديين "الفاطميين" الذين نشطت دعوتهم في تلك الفترة، فبسطوا سلطانهم في المغرب وغيره، واحتلوا "تاهرت" في سنة ٣١٤هـ.



جيوش الفاطميين تبسط نفوذها في المغرب

عام ٣١٦هـ
٩٢٨م

اضطراب الخلافة العباسية



بلغ الضعف في الخلافة العباسية في الشرق حداً كبيراً، حتى إن "مؤنساً بن المظفر" من الترك قتل الخليفة العباسي "المقتدر" وعين "القادر بالله" خليفة اسماً، إذ أن الذين كانوا يديرون هم قادة الموالي لا الخليفة، فأعلن الناصر أن القادر غير جدير بالخلافة، وأن الوضع في الشرق يسوده الضعف والتجزئة، بل أصبح الخليفة لا يملك من أمور الخلافة شيئاً سوى المظهر الاسمي، والدعاء له على المنابر، فأعلن أنه أجدر بالخلافة منه، ولقب بالناصر لدين الله أسوة بألقاب المشرقيين، وذلك في ذي الحجة سنة ٣١٦هـ، ونشر للملأ أن يكون الدعاء له على المنابر، وأن يخاطب بلقب: "أمير المؤمنين"، وربما لأسباب أخرى تجمعت لديه جعلته يعتقد أنه أحق من غيره.

فنقل الدولة من عهد الإمارة إلى عهد الخلافة، فهو أول من لقب بأمير المؤمنين، وهو أول خليفة أموي في الأندلس وكانوا قبله أمراء.



دينارين عباسيين مصكوكين في عهد المعتمد، سنة ٤٦٦ هـ



الفاطميون يهاجمون

في عام ٣١٨هـ تقدم الفاطميون المتحكمون في المغرب بأسطول بحري هاجم أسطول الأمويين في مدينة "المرية" جنوب شرق الأندلس وكانت قاعدة للأسطول الأموي وفيها الميناء الرئيسي، وأحدثوا دماراً هائلاً في ذلك الأسطول، فرأى عبد الرحمن أن يعيد تنظيم قواته البحرية، وينشئ المراكب البحرية القوية، وهجم بأسطوله على الساحل المقابل للأندلس فاستطاع أن يبسط سيطرته على "سبتة"، ولم يعد بعد ذلك يخشى الناصر أي خطر أو تهديد يأتيه من الجنوب أو الشمال الإفريقي، وكان يمكن أن يتابع انتصاراته وأن يبسط سيطرته على الشمال الإفريقي لولا حدوث ثورة في "طليطلة" ضده.

خارج مسجد قرطبة الكبير، أكبر جامع في العالم الاسلامي بعد مكة

ثورة طليطلة

إذ أعلنت تمردها في عام ٣١٨هـ، فوجه عبد الرحمن وفداً من العلماء لإقناع زعمائها بالعدول عن الثورة، ولما فشلت المحاولات السلمية أرسل جيشاً لإخماد لهيب الثورة في "طليطلة"، غير أن هذا الجيش لم يتمكن من فرض السيطرة عليها، مما دفع الطمع بالنصارى للاستفادة من هذا الوضع المتأزم، فأرسل ملك ليون "راميرو" لدعم الثوار في تلك المدينة المتمردة، فأرسل الناصر فوراً جيشاً لصدّ قدوم جيش النصارى قبل أن يصل إلى "طليطلة"، واستطاعت هذه القوات دحر تقدم جيش ليون وتمزيقه في شمال المدينة، فأسقط بيد الثوار واستسلموا للناصر الذي وصل بجيشه، ودخل "طليطلة" ظافراً.



رابعاً غزوة الخندق

تطور القتال بين المسلمين في الأندلس والنصارى في شمالها، وجرت أحداث معركة تُعدّ من أخطر ما مر على الأندلس زمن عبد الرحمن الناصر، هي "غزوة الخندق".



قرطبة، المسجد الكبير، منظر نحو المحراب: الجناح المؤدي إلى المحراب (الذي كان هو الجناح المركزي حتى توسيع المنصور) أوسع من الأجنحة المشتركة، ونلاحظ أنه قد تحول إلى متحف للزوار فقط!.

أوضاع النصارى في الأندلس

وقبل أن ندخل في تفاصيلها نلقي نظرة عامة على أوضاع نصارى شمال الأندلس، فقد كانت هناك ثلاث ممالك وقواتها مقسمة تبعاً لذلك إلى:

١-مملكة ليون شمال غرب الأندلس.

٢-مملكة نافار التي استطاع الناصر أن يبسط عليها سيطرته في غزوة "بنبلونة" التي سبق ذكرها، وأعاد الملكة "طوطة" وحفيدها "غرسيه" إلى الحكم في أقصى الشمال.

٣-منطقة شمال شرق الأندلس ويحكمها الفرنسيون.



صندوق مجوهرات من العاج في مدينة الزهراء

هجوم ليون

وكانت مملكة ليون أخطر هذه الممالك على المسلمين لقربها من بلادهم، وقد تربع على عرشها عام ٣٢١هـ "راميرو الثاني" بعد صراع ومنازعات شديدة استمرت بين أعضاء هذه المملكة للاستيلاء على الحكم استمرت سبع سنوات. فأراد "راميرو" إظهار قوته بأول عمل له فتوجه إلى حصن "وَخْشمة"، فخرج المسلمون تاركين الحصن كما انسحبت القوة المدافعة عنه إلى الجبال.



الملك «راميرو» يتجه لقتال المسلمين عند حصن "وَخْشمة"



خيانة في سرقسطة

بادر الناصر على عجل بنفسه يقود جيشه لملاقاة ملك ليون ليوقف نشاطه، إلا أن "راميرو" رفض المواجهة وتجنب الصدام فآثر الانسحاب، رأى عبد الرحمن الناصر أن يبدد قوة ليون، وأن يزيل خطر مملكة الشمال الغربي "ليون"، فتوجه عام ٣٢٣ هـ لضربها وتمزيقها، لكن الوالي الذي كان قد عينه الناصر على مدينة "سرقسطة" ويدعى "محمد بن هشام التجيبي" أعلن عصيانه، وثار على الناصر وأرسل إلى حكام المدن والمناطق الإسلامية القريبة منه أن يثوروا، ويعلنوا استقلالهم وانفصالهم عن الخلافة، ولم يكتف بهذا بل أرسل إلى "راميرو الثاني" يعرض له خضوعه، ويطلب إليه العون والمساعدة فأرسل إليه ما طلب فوراً، أما حكام المناطق الإسلامية -ولو أعلن بعضهم التمرد على سلطة الناصر- قد رفضوا خيانة المسلمين أو الغدر بهم لما أرسل إليهم "راميرو الثاني".








أشكال من الخطوط الكوفية المنقوشة على الأبنية





النصارى يسندون الثورة

وما لبثت "طوطة" أن نقضت عهدها متأثرة بنشاط ملك ليون ونسيت فضل الخليفة عليها وعلى حفيدها حين أعادهما ملكين إلى حكم "نافار"، فأرسلت إلى "راميرو" تساعده وتحالفت معه بإثارة الهجوم والقتال على حدود المسلمين وثغورهم، وأدت بذلك معونة ضخمة ودعماً قوياً إلى حلف ملك ليون ومحمد بن هشام التجيبي، وشكلت بذلك جبهةً واحدةً وتحالفاً قوياً، وبدا بذلك التحالف الثلاثي (ليون-نافار-التجيبي) الخطر الكبير على الخلافة الأموية في الأندلس.

الناصر يهجم بنفسه

لم ينتظر الناصر تطور هذا التحالف، فأسرع يقود جيشه بنفسه سنة ٣٢٦هـ، وبدأ جهاده بحصار قلعة أيوب، وهي من أشهر من الحصون المهمة المتمردة التي حالفت النصارى، واستطاع اقتحامها، وقتل قائدها "مطرف بن مندف التجيبي"، وقتل كذلك قادة قوات الدعم الذي أرسله "راميرو الثاني" لمساعدة مطرف.

الناصر يحاصر قلعة أيوب وهي من الحصون المتمردة التي حالفت النصارى



خيانات متتالية

وعين أميراً جديداً من أحد أقاربه يدعى أحمد بن إسحاق قائد الفرسان على حصار "سرقسطة" بعد أن وصل إليها ثم جاوزها، كان أحمد بن إسحاق هذا متآمراً يراسل الفاطميين سراً ليتفرد بالسلطة، ولما عيّن حاكماً على منطقة "سرقسطة" -سوى المدينة- ظن أن الفرصة قد حانت له، وآن الأوان لإظهار نواياه السيئة، فتهاون في الحصار، ولم يبذل في تهدئة الأمور شيئاً، فاطلع الخليفة على حقيقته، وأرسل من يقبض عليه ويغتاله، ويقضي على عصيانه، ووصل هذا الخبر إلى "أمية بن إسحاق" أخي أحمد فأعلن العصيان على الإمارة، وتمرد على الناصر في مدينة "شنترين" غرب الأندلس، ولكن قائداً من قواد الخليفة الناصر استطاع أن يتصدى لمؤامرة هذا الخائن الذي فرّ إلى مملكة ليون يستنجد براميرو الثاني، ويحارب معه، ويدله على عورات المسلمين.



رأس عمود: في سرقسطة ونقش على المرمر



فتح سرقسطة

تمكنت قوات الخليفة من فتح "سرقسطة" وإنهاء التمرد، ووقع حاكمها "محمد بن هشام التجيبي" أسيراً فأرسل إلى الناصر فطلب منه أن يعفو عنه وأن يسامحه وأظهر له صدقه وولاءه وخضوعه، فعفا عنه الناصر وأعاده إلى منصبه حاكماً لسرقسطة.

استسلام الملكة طوطة

تابع الناصر تقدمه بجيشه يدمر حصون مملكة نافار وقلاعها ويمزق جيش الملكة "طوطة" التي أصبحت عاجزة عن الاستمرار في القتال فاستسلمت، وتقدمت تطلب الخضوع وتظهر الطاعة تعطي المواثيق، و﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ (التوبة:١٢١)، فقبل الخليفة طلبها، وأقرها وحفيدها "غرسيه" على مملكة نافار مرة ثانية.



رأس عمود آخر في سرقسطة





قلعة سمورة

لما استطاع الناصر أن يمزق شمل هذا التحالف الثلاثي: ليون- نافار- المتمردين التجيبيين، لم يبق أمامه سوى شمال غرب الأندلس (مملكة ليون) وخصمه هناك اللدود "راميرو الثاني"، فبدأ يستعد لإجراء معركة فاصلة حاسمة ضده، وينظم جيشه الذي وصل تعداده إلى مائة ألف مقاتل. وبعد أن أكمل استعداداته، توجه الخليفة نحو قلعة "سمورة" وكانت أقوى قلعة لمملكة ليون، لها سبعة أسوار، وبين الأسوار خنادق واسعة عميقة تغمرها المياه، بالإضافة أن لها حامية قوية وفيها قوات عديدة للدفاع عنها. نجح الناصر في اقتحام السور الأول، ثم تابع جنده إلى السور الثاني فجاوزوه ثم إلى الثالث، وانتهى الأمر إلى ذروته، فاشتد النصارى للقتال يدفعهم الخوف بحيث لو سقطت القلعة في "سمورة" لأصبحت أبواب مملكة ليون مفتوحة. وكان الغرور قد دب في نفوس بعض القادة من جند الناصر وعلى رأسهم "نجدة الصقلبي" مع وجود بعض القادة غير الأكفاء في مراكز القيادة وظهور العصبيات مع اغترار بعض المسلمين بكثرة العدد، وبالانتصارات التي سبقت، وكأنهم نسوا قوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ (التوبة ٢٥)، أدت كل هذه الأمور وأمثالها إلى إنقاص الحماس للقتال، فتهاون هؤلاء واسترخوا وأظهروا قصوراً واضحاً في متابعة زخم الهجوم والتقدم نحو الأمام بقوة.


الناصر وجنده يفرون من المعركة بعد أن تهاونوا وأصابهم الغرور وظهرت بينهم العصبيات



هزيمة الناصر

استفادت قوات العدو المدافعة عن القلعة من فتور بعض المسلمين، فنظمت هجوماً مضاداً قوياً تمكنت بواسطته تدمير قوة هجوم جند الناصر، وأثارت الاضطراب في تنظيمه، فبدأت الهزيمة تدب في صفوف الجيش الأندلسي، فأسرع "راميرو الثاني" إلى تطوير هذه الهزيمة بالهجوم المتواصل حتى حوّل هزيمة جيش الناصر إلى مطاردة، وكان ذلك في شهر شوال سنة ٣٢٧هـ، فرّ الناصر وجنده نحو "شلمنقة" على شاطئ نهر "دويرة، وتوقف فيها لإعادة تنظيم قواته ومحاولة الجمع لإيقاف المطاردة المعادية، إلا أن ملك ليون لم يدع له الفرصة، وساندته "طوطة" التي خانت للمرة الثانية وهذا شأن غير المسلمين ﴿كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة﴾ (التوبة:٨)، وكما بينه سبحانه وتعالى: ﴿لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون﴾ (التوبة:١٠)، ودارت رحى معركة ثانية، فانهزم جند الأندلس مرة أخرى.

الخندق

وصل المسلمون منهزمين إلى مكان يدعى الخندق يقع جنوب شرق "شلمنقة" فقام الناصر وجنوده بهجوم مضاد قوي، لكن هذا الهجوم لم يفد شيئاً إذ لم يتمكن جيش الأندلس من مجابهة ضراوة هجوم الشمال - مملكة ليون ومملكة نافار- ففروا على غير نظام، وقتل قائد الجيش "نجدة الصقلبي" واستشهد عدد من العلماء، وأسر "محمد بن هشام التجيبي" كما أصيب الخليفة الناصر بجراح، فولّى باتجاه قرطبة وليس معه سوى خمسين فارساً فقط، ولم ينج من الأسر إلا بأعجوبة.





درهم مصكوك في عهد عبد الرحمن الثالث، سنة ٣٣١ هـ



فلس الإمارة الأموية؛ عبد الله

غرناطة الحمراء، ساحة البركة، يعد هذا البرج من أعظم بروج الحمراء وتوجد فيه قاعة السفراء (قاعة الاستقبال)



تقدم النصارى إلى العاصمة قرطبة

وتقدمت قوات التحالف الشمالي إذ قرر "راميرو" أن يسقط قرطبة فلم يعد أمامه مانع، لقد دمر الجيش الكبير مائة ألف مقاتل، ولم يبق إلا خمسون فارساً.

لكن "أمية بن إسحاق" -هذا الخائن وأخوه كما مر ذكرهما- أخذته بقية من إيمان، وتحركت فيه جذوة من نور، فخاف على المسلمين، فأقدم على "راميرو" يوقعه في مكر أعده -وقد حفظ له التاريخ هذه المكرمة- يقول له: إن ما عمله عبد الرحمن الناصر خطة محكمة يُغريك لتتقدم فتقع في مصيدة أعدها لك، ليدمرك وقوتك، ولا يزال هناك كثير من الكمائن على مجنبتي الطريق الموصل إلى قرطبة تتربص لك ولجيشك، ثم رغبه بالاكتفاء بما حصل عليه من الغنائم وأنه يكفيه فخراً بما حقق من انتصار كبير على هذا الناصر الذي ظن وجنوده أنهم لن يغلبوا.



البقية الباقية من الناصر وجنوده الخمسين لم تقع في الأسر تتجه إلى قرطبة

عودة النصارى

انطلت الحيلة على "راميرو الثاني" فأوقف المطاردة وكر راجعاً على مملكة ليون.

تنفس عبد الرحمن الناصر الصعداء وأعاد تنظيم جيشه، ورتب أمور قواته، وهكذا الأيام:

فيوم لنا ويوم علينا ويوماً نُساء ويوماً نُسر

ثم أرسل إلى ملك ليون يفتدي أعداداً كبيرة من أسرى المسلمين ومن بينهم "محمد بن هشام التجيبي" حاكم "سرقسطة"، فأفرج عنهم بعد أن مكثوا في الأسر ثلاث سنوات.

وأرسل "أمية بن إسحاق" فيما بعد إلى الخليفة الناصر يطلب إليه العفو فأمّنه، وعفا عنه وأكرمه لما قدّم من خدمة بإنقاذ البقية الباقية بعد معركة الخندق.


رأس عمود، قرطبة

نتائج الخندق

١-كان من أبرز نتائج الخندق، تعرض جيش المسلمين للخسائر الفادحة، إذ قتل عند حصون سمورة أربعون ألف مقاتل، وعلى بعض الروايات بلغت الخسارة خمسين ألف قتيل.

٢-وعلّمت المسلمين أن النصر بيد الله حقاً، وأن لا يتكلوا على عدد أو قوة، أو تغرهم وسيلة من وسائل الدنيا.



الهجوم الإسلامي

واستفاد الناصر من غزوة الخندق -أو هزيمته - فعمل على إزالة عوامل الضعف وكانت هناك محصورة في نطاق ضيق، ولم تتضخم لتشكل وباءً قاتلاً ولم تؤثر على مسيرة الجهاد في تكوين جيش الأندلس حينذاك، فأعاد الثقة إلى الأكفاء من قادته، واعتمد على أهل الخبرة ممن يتوافر فيهم البأس والكفاءة في إدارة المعارك، وبالرغم من توقفه هو عن قيادة الجهاد، فقد وجه عام ٣٢٩هـ أي بعد سنتين فقط من هزيمته في الخندق قوة استطاعت اقتحام حدود مملكة ليون، وعملت فيها تدميراً وتخريباً، وقد هلك فيها من جند النصارى في الشمال ضعف ما قُتل من المسلمين في الوقعة الأولى "الخندق" كما ذكر المقري في "نفح الطيب".

سالم قاعدة الشمال

ثم بنى الناصر مدينة "سالم" عام ٣٣٥هـ لتكون مركزاً للقوات المدافعة المتواجدة في منطقة الثغور، ولتكون القاعدة قريبة من الشمال، يمد منها العون لأي ثغر يحتاج إلى مساعدة ومدد في أي خطر ما، وأوجد الصائفة والشاتية.

وبنى مدينة "المرية" في الجنوب الشرقي من الأندلس على البحر المتوسط لتكون قاعدة للأسطول الأندلسي، وجعل فيها داراً لصناعة السفن.


قبة برج أحد القصور تظهر من أسفل

خامساً حضارة الأندلس تبرز في عهد الناصر

بعد أن استقرت الأوضاع في الأندلس، توجه الناصر إلى إرساء دعائم الحكم في كل الاتجاهات الداعية إلى بناء الدولة.

١ من الناحية السياسية



أصبحت قرطبة أيام الخلافة في المكانة السياسية التي تفد إليها الوفود والرسل من جميع الدول، فقد وصل إليها سنة ٣٣٦هـ وفد من "بيزنطة الشرقية" من القسطنطينية - إستانبول حالياً- لتطوير العلاقات بين دولة الرومان الشرقية وبين الأندلس، فهال الوفد ما رأوه من عظمة الأندلس ورقيها، وبهرهم هول المجلس -الذي سبق ذكره- فوجموا لا يتكلمون، وردّ الناصر بوفد يرأسه "هشام بن بديل" بالهدايا الثمينة إلى ملك الروم، ودامت السفارات بينهما.

كما جاءت وفود الدول المجاورة لقرطبة تلتمس الصداقة، وتبادل السفراء فيما بينها ومن مختلف المناطق حتى من نصارى شمال الأندلس، فأجروا مع الناصر معاهدات سلم وأمن، فأمن المسلمون في الثغور وساد الهدوء.

مات في عام ٣٣٩هـ "راميرو الثاني" ملك ليون، فاقتسم ولداه الملك أردينو وشانجة، ثم تنازعا مما جعل "شانجة" -وهو الصغير- يطلب المساعدة والعون من الناصر بالذات، ولم يتوان الناصر في ذلك فأمد "شانجة" بمال وعتاد مكنه من استلام الحكم، لذلك عقد مع الناصر معاهدات أمن وسلام.

روعة الزهراء في تلك الإبداعات التي لم يكن لها سابق في التاريخ

٢ من الناحية الاجتماعية



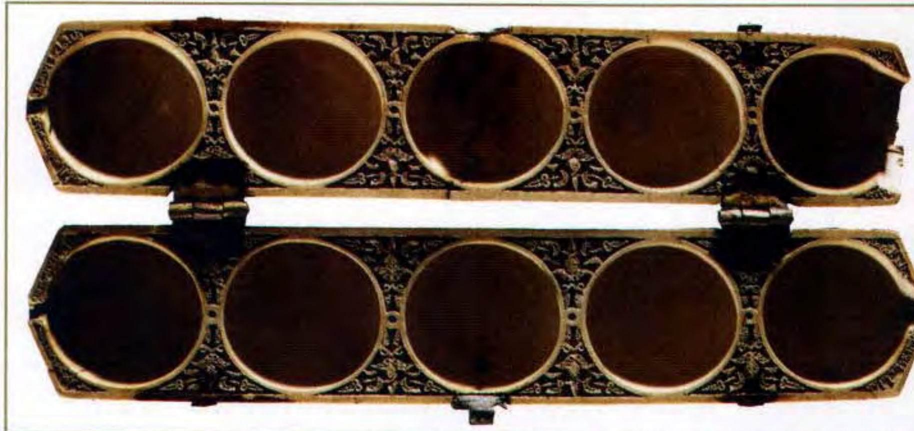
قدر صغير من مدينة الزهراء من الخزف، مزينة بالرسومات

تفنن الناس في أنواع الأطعمة والملابس والغناء والطرب، وانشغلوا عن الاستعداد للجهاد، وكان من سنَّ فيهم هذه السنة: "زرياب" الذي سبق ذكره فأشغل الناس بابتكاراته في عالم الطعام واللباس، فلكل فصل نوع من اللباس والطعام، ولكل مجلس آداب وتقاليد، ولكل حفلة طرب وغناء و(موسيقا) بمختلف الألحان، ولقد تصدى العلماء على محاربة الترف والإسراف منهم "المنذر بن سعيد البلوطي" (موضع قرب قرطبة يقال عنه فحص البلوط)، قال عنه "ابن بشكوال": منذر بن سعيد خطيب مصقع (ماهر) لم يكن بالأندلس أخطب منه، مع العلم البارع، والمعرفة الكاملة، واليقين في العلوم والدين، والورع وكثرة الصيام والتهجد والصدع بالحق، كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وقد استسقى غير مرة فسقي، وكذلك الخليفة الذي بيده متاع الدنيا الكثير يقف خاشعاً متضرعاً إلى الله أن ينزل الماء وأن لا ينال المسلمين قحط أو حرمان من رحمة الله بسببه، وهو الذي ما قصر يوماً بحق الإسلام والمسلمين.

رسم يعبر عن انشغال المسلمين باللهو والطرب ومجالس النساء



٣ من الناحية العمرانية



سبق ذكر بعضها، إذ أصبحت قرطبة من أكبر مدن العالم آنذاك سكاناً، إذ بلغ عدد سكانها نصف مليون، ولم يكن مدينة أكبر منها إلا بغداد، وبلغتْ دورُها ثلاث عشرة ألفاً (دور واسعة عربية كما يقال)، بالإضافة إلى القصور، وكان فيها ثلاثة آلاف مسجد، فهل في هذا العصر مدينة مثلها بعدد مساجدها؟

صندوق العاب لأحدى فتيات عبد الرحمن الثالث مصنوعة من العاج والمعدن

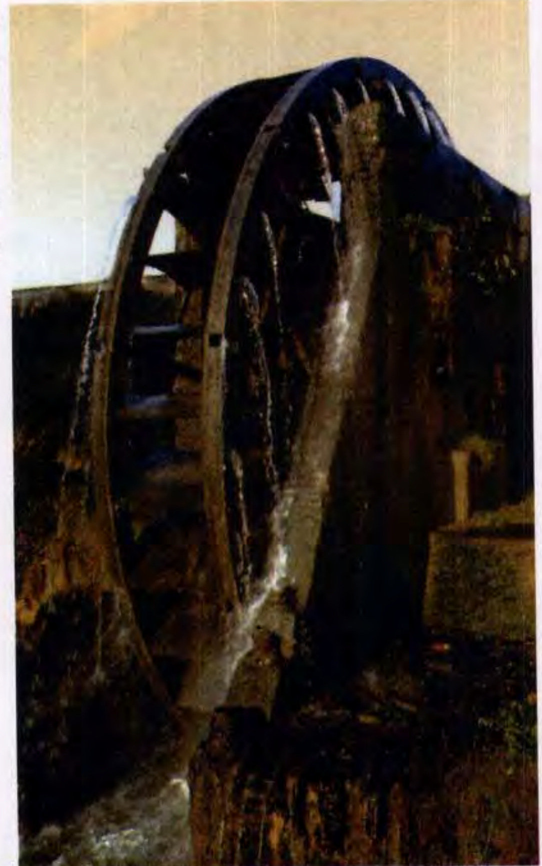
الأعمدة والأقواس والزخرفة والفسيفساء في بهو أحد قصور الزهراء

٤ من الناحية الإدارية

إبريق مـــاء على شكل طاووس مدينة الزهراء، صب ونقش على النحاس

قسمت قرطبة وحدها إلى ثمانية وعشرين ضاحية، وقسم رجال الشرطة إلى شرطة بالليل وشرطة بالنهار، وجعل قسم منهم لمراقبة التجار، ونظم جباية المال وموارد بيت المال حتى بلغ دخل هذا البيت (٦,٢٤٥,٠٠٠) ديناراً ذهباً، ولما مات كان قد ترك في بيت المال ثلاثمائة مليون ليرة ذهبية، وكان ثلث هذا المبلغ يرصد لتغطية نفقات الدولة الجارية، ويدخر الثلث الثاني، وينفق الباقي على مشروع العمران، وقد ذكر فيما قبل الجانب العسكري في الحياة العامة لأهل الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر عند الحديث عن مدينة سالم. **لذلك أطلق على قرطبة لقب "جوهرة العالم" في ذاك الزمان، وحُقّ لها هذا اللقب.**

وكذلك نظم أسلوب البريد، ونظم المالية، فالضرائب والمكوس والخراج والجزية، ونظم القضاء ووضع شروطاً لتولي القضاء، في الناحية الفقهية، وفي العدالة والاستقامة، ولم يشترط عربية الجنس في القضاء، وأنشأ قضاءً جديداً أسماه قضاء المظالم ما يقابل محاكم الاستئناف في يومنا هذا، وأوجد جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كذلك جعل نظام الحسبة ففي كل بلد محتسب، يشرف على الأسواق التجارية ومشاكلها وقوانين القضاة.



عجلة مياه عربية اشتهرت في عهد الأمويين

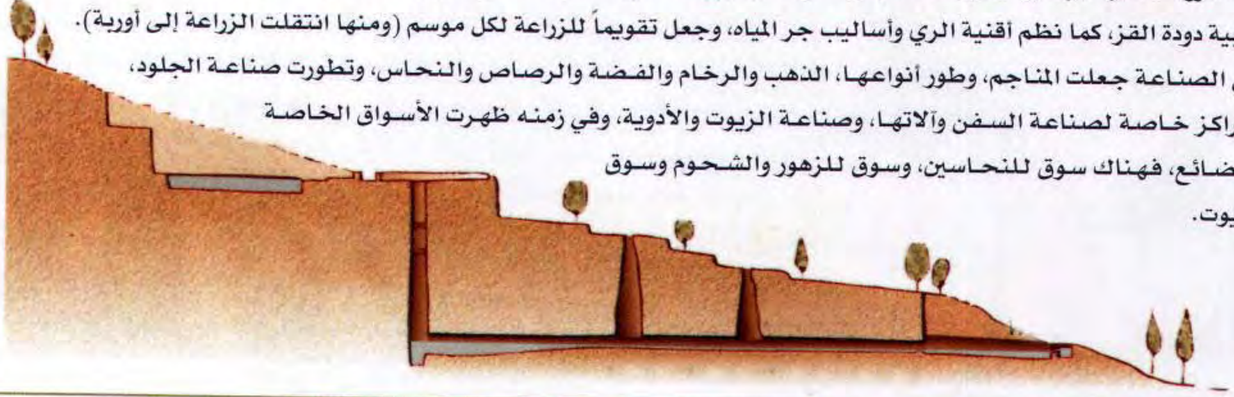


التطور في هندسة جر مياه الشرب

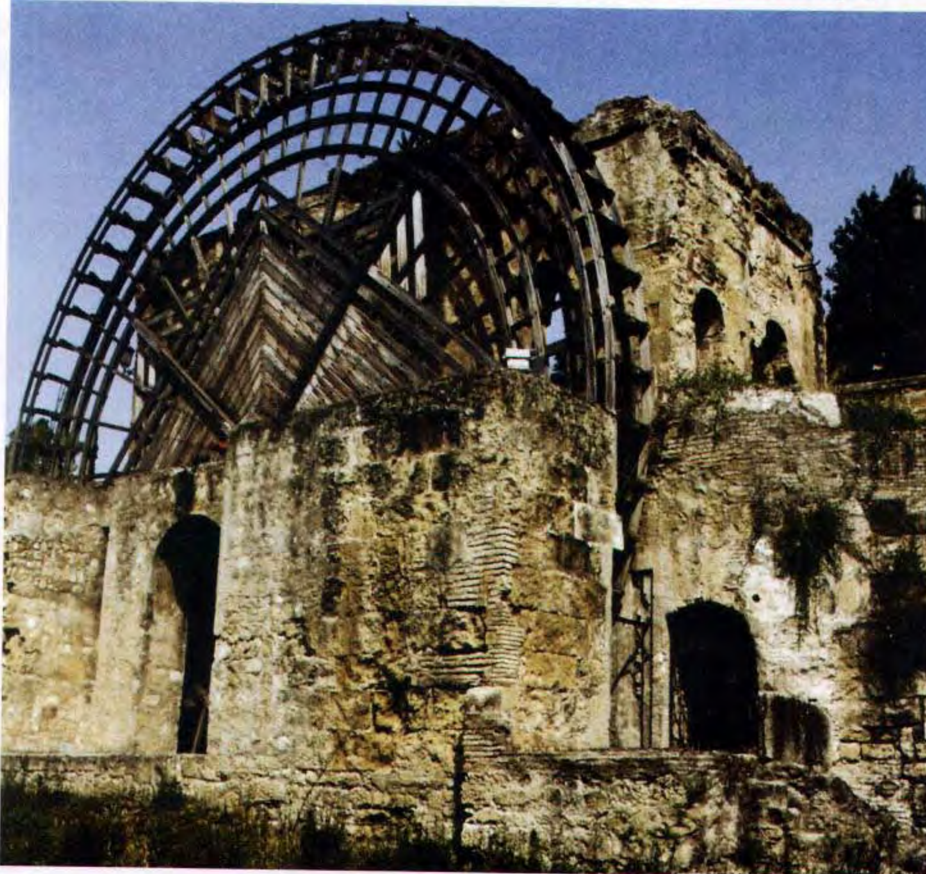


٥ من الناحية الاقتصادية

نمت الزراعة نمواً مزدهراً، فتنوعت أشجار الفواكه والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان، وأوجد مزارع خاصة لتربية دودة القز، كما نظم أقنية الري وأساليب جر المياه، وجعل تقويماً للزراعة لكل موسم (ومنها انتقلت الزراعة إلى أوربة). وفي الصناعة جعلت المناجم، وطور أنواعها، الذهب والرخام والفضة والرصاص والنحاس، وتطورت صناعة الجلود، ومراكز خاصة لصناعة السفن وآلاتها، وصناعة الزيوت والأدوية، وفي زمنه ظهرت الأسواق الخاصة للبضائع، فهناك سوق للنحاسين، وسوق للزهور والشحوم وسوق للزيوت.



التطور في الهندسة الزراعية حيث تبدو هندسة جر المياه من الأنهار والقنوات



النواعير: لرفع مياه الأنهار إلى الأراضي الزراعية



صهريج مياه الأمطار

٦ من الناحية الثقافية

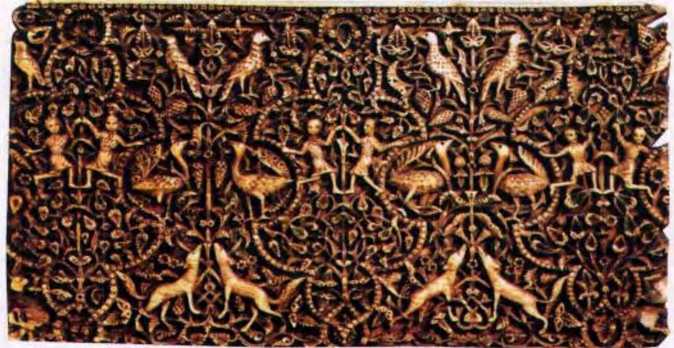

صندوق مزين، مدينة الزهراء من العاج

صارت قرطبة مركزاً للعلوم والآداب، وانتشرت الثقافة وكثر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة، وبلغ عدد الكتب "٤٠٠٠٠٠" أربعمائة ألف كتاب في مكتبة واحدة هي مكتبة الحكم، وبلغ عدد المكتبات "٧٠" مكتبة. ووضعت لها فهارس دقيقة، وتصانيف عديدة، كما ظهر النساخون الذين كانوا يقومون بدور المطابع في عصرنا، وظهر المجلّدون لتجليد الكتب والعناية بها وحفظها، وكان الناصر يعرف بحبه للعلم والعلماء، ومن أشهر العلماء: القاضي عبد الله محمد بن محمد الذي أخذ العلم عن مائتين وثلاثين شيخاً، كما ظهر القاسم بن الدباغ الذي نقل العلم عن مائتين وستة وثلاثين شيخاً، ولم يكتف بما أخذ من الأندلس بل سافر إلى المشرق لينهل من علومه، وكان من بين العلماء الأندلسيين الذين قدموا المشرق الإسلامي.



وبرز ابن عطية في التفسير، كما اشتهر في الفقه: الباجي، وابن وضاح وابن عبد البر، وابن عاصم والمنذر بن سعيد في الفقه والحديث، وظهر بالفلسفة ابن رشد وابن مسرّة القرطبي، وبرع في اللغة ابن سيده صاحب المعجم، وأبو علي القالي صاحب الأمالي الذي تلقى تعليمه في بغداد ثم رحل إلى الأندلس فبلغ في فقه اللغة شأناً بعيداً هناك، وكتب ابن القوطية في التاريخ، وبرز شاعر عظيم هو محمد بن هانئ الأندلسي ضاهى المتنبي وأبا تمام وكان أهل الأندلس يأملون له مكانة مثل عظماء الشعراء لكنه مات صغيراً.

وغيرهم، فقد عمل الناصر على نشر المعرفة في ربوع البلاد، فابتنى في قرطبة وحدها سبعاً وعشرين مدرسة وأدخل إليها الفقراء من الطلاب مجاناً، حتى أصبحت قرطبة في عهده منارة تجتذب إليها الأدباء والعلماء والفنانين.



حاوية من الفخار مخصصة عند وجود فيضان

لوح صندوق مزين، مدينة الزهراء من العاج





ومما يذكر أن القاضي منذر بن سعيد وقف يوماً إلى جانب الخليفة الناصر لدين الله، واستمع إلى ما قيل في مدح الزهراء، فاهتز الناصر وابتهج، وأما القاضي منذر فأطرق، ثم قال منشداً:

يا باني الزهراء مستغرقاً — أوقاته فيها أما تأمَّلْ؟
لله ما أحسنها رونقاً — لو لم تكن زهرتها تذبلْ!

فقال الناصر: إذا هبَّ عليها نسيم التذكار والحنين، وسقتها مدامع الخشوع لا تذبل إن شاء الله تعالى، فقال منذر: اللهم اشهد أني قد بثثت ما عندي، ولم آلُ نصحاً.

نهاية الناصر

وذبلت الزهراء وتوفي الخليفة الناصر لدين الله عبد الرحمن الثالث بعد حكم دام خمسين عاماً، قضاها في جهاد دائم لم يعرف خلالها من أيام الهناء إلا قليلاً، ولم يركن إلى الراحة أثناءها إلا نزراً يسيراً، ما عرفت الدنيا نموذجاً من الحكام يماثله أو يشابهه، كان فرداً في تكوينه، وكان فرداً في حكمه وقيادته، وقد وجد بخطه -رحمه الله-: أيام السرور التي صَفَتْ له دون تكدير، يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من كذا، وعُدَّتْ تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً. كما ذكره المؤرخ المقري في نفح الطيب.

من سيصل إلى العزّ مثله، همة الشباب وحكمة الشيوخ، يقترن اسمه بأروع آيات المجد والعزّة للإسلام والمسلمين، ملك الأندلس خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوماً! فتأمل وتدبر!.

وصدق تعالى: ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ (آل عمران ١٨٥).

مضى الناصر للقاء وجه ربه تاركاً مال الدنيا للدنيا، وتاركاً وراءه زهراءه وآماله وتوارى في غياهب حفرة في قصر قرطبة من ثرى الأندلس، رحمه الله..

وتبقى سيرة الخليفة الناصر مدى الزمان بالرغم من زوال الزهراء، وبالرغم من إخراج المسلمين من الأندلس سيرة مشجية، عظيمة بآن واحد لأنها سيرة رجل في حياة أمة يرجى لها -الآن- عز ماضيها، ومجد غابرها.

ويذكر عنه أنه أوجد الخلافة الثالثة للمسلمين:

١-الخلافة العباسية في الشرق.

٢-الخلافة الفاطمية (العبيدية وهكذا اسمها في التاريخ) في الشمال الإفريقي.

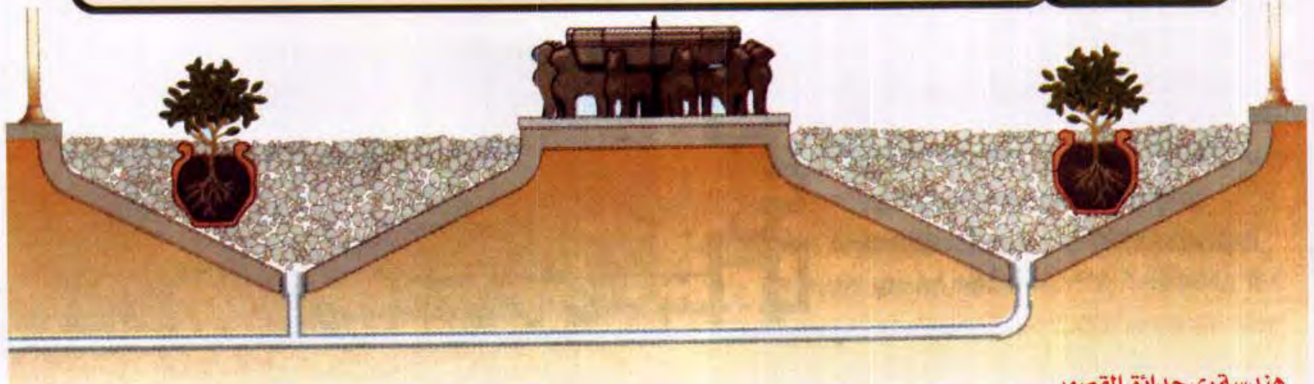
٣-الخلافة الأموية في الأندلس أعلنها الناصر.



وعاء حجري من الخزف منقوش ومزخرف

ملخص أحداث عهد عبد الرحمن الناصر

٣٠٠ هـ	تولي عبد الرحمن الناصر للإمارة .
٣٢٥ هـ	بناء مدينة الزهراء (الأسطورة التاريخية) .
٣٠١ هـ	هزيمة ابن حفصون أمام الناصر .
٣٠١ هـ	سيطر على إشبيلية وأخضع سرقسطة .
٣٠٤ هـ	النصارى يدخلون طليطلة ويخربونها ويحرقون مسجدها .
٣٠٨ هـ	معركة الفرج وغزوة موبش وكان الانتصار فيهما للناصر .
٣٠٥ هـ	جيش الناصر يحاصر (سانت استيفان) لكن الجيش ينسحب ويقتل قائده .
٣١٣ هـ	الناصر يهزم القوط والنافاريين في عدة معارك .
٣١٤ هـ	موت شانجة ملك نافار وقيام الملكة (طوطة) بالوصاية على غرسيه بن شانجة .
٣١٤ هـ	سيطرة الفاطميين على المغرب.
٣١٨ هـ	الفاطميون يهاجمون عبر البحر لكن الناصر أبعد خطرهم .
٣٢٦ هـ	فتح الناصر لسرقسطة .
٣٢٧ هـ	غزوة الخندق التي هزم فيها الناصر .
٣٢٩ هـ	أعاد الناصر الثقة إلى جنده واقتحم حدود مملكة ليون.
٣٥٠ هـ	وفاة الناصر - رحمه الله تعالى.



هندسة ري حدائق القصور



عهد الناصر ... حقائق وعبر

نجم لامع في سماء الأندلس، وصفحة بيضاء من تاريخها، وحاكم لم يعرف الدهر له مثيلاً، ولو أن العظمة والأمجاد تخلد أصحابها في الدنيا لكان الناصر من أحقهم بذلك

ولو جاز الخلود خلدتَ حيا ولكن ليس للدنيا خليل

ولمَ لا وهو الكريم ابن الكريم سليل صقر قريش (عبد الرحمن الداخل)

أفعال من تلد الكرام كريمة يتوارثون الجود والإقداما

ومع ما ذكرناه من عظمة الناصر وتمكنه من الخلافة فإنني أجد من واجبي التوقف مع بعض الأمور:

- التطور العمراني والحضاري الهائل الذي حدث في عهد الناصر كان إنجازاً عظيماً سجله له التاريخ وخلد اسمه في مصاف العظماء، لكن أن ينتج عن ذلك الإسراف والتبذير في بناء القصور بالذهب وأنواع الحجارة الباهظة الثمن - كما مر في وصف الزهراء وما فيها - ويُتفنن في نحت التماثيل الضخمة والتي لا تحل شرعاً فهذا مما يؤخذ على الناصر - رحمه الله تعالى - ومما يزيد الأمر سوءاً أن يكون هذا التبذير من بيت مال المسلمين مع أن الحاكم مؤتمن عليه لا مالك له.

فمن الذي أعطى الحق للحكام أن يتصرفوا بأموال الدولة ويلعبوا بها خارج نطاق مسؤولياتهم وأمانتهم؟

إن النبي صلى الله عليه وسلم عين والياً على بعض مناطق المسلمين - يدعى ابن اللتبية - فجاء بعد ذلك ومعه هدايا ومقتنيات فجعل يقسم الهدايا يقول : هذا أهدي إلي وهذا لكم فاشتد غضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام خطيباً في أصحابه يقول: «أما بعد: فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله عز وجل فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت إلي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا» (رواه مسلم وابن خزيمه)

فإذا كان الحاكم يُحاسب على الهدايا التي تأتيه وهو على كرسي الرئاسة فكيف بمال المسلمين الذي ائتمنه الله عليه ؟!

والمؤلم أن يكون هذا النظام الرقابي الصارم النابع من تعاليم ديننا قد تلقفه الغرب اليوم وطبقوه على رؤسائهم ومسؤوليهم، بينما نراه مهملاً عندنا فترى أموال المسلمين تهدر وتنهب وتسرق ولا يجرؤ أحد أن يحاسب المسؤولين عن ذلك.

- العفو الثاني الذي أعطاه الناصر لملكة نافار (طوطة) وحفيدها (غرسيه) وإعادتهما للحكم بعد أن غدرا به أول مرة كان عفواً في غير محله، وفقد قال رسول الله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» (رواه الشيخان) وإن الحزم كان يقتضي محاسبتهما على الغدر الأول وعدم إعادتهما للحكم ثانية:

ومن البلية عذر من لا يرعوي عن غيه وخطاب من لا يفهم

وقد اتضح أثر هذه الزلة حينما تحالفت الملكة (طوطة) مع ملك ليون وجهزا الجيوش لمحاربة الناصر وقد استطاعا بتحالفهما هزيمة المسلمين في معركة سميت بالخندق، فما ينبغي للمسلمين أن تأخذهم الرأفة بعدو ماكرحاقد فيستغل طيبتهم وتسامحهم.

- إن المطالع لتلك الحقبة من التاريخ يذهله التطور الحضاري الذي كان عليه المسلمون بينما كان القوط والفرنجة وما أصبح اليوم فرنسا وأوربا قبائل همجية لا تعرف شيئاً عن الحضارة

أيام كانت قصور الملك عالية كان الفرنج إلى الغابات آوينا

وحين كنا نجر الخز أردية كانوا يسيرون في الأسواق حافينا

إن المسلم الذي يربط حاضره بماضيه لا تزال في نفسه العزة والهمة التي بنت تلك الأمجاد، وإن قوماً كانوا أئمة الدنيا وشعلة الحضارة فيها لا يليق بهم أن ينحدروا إلى المستوى الذي نحن فيه فيصبحوا تابعين بعد أن كانوا قادة، وينقلبوا مقلدين بعد أن عمرت الدنيا باختراعاتهم وابتكاراتهم.

فلتكن دراستنا لذلك التاريخ المجيد دافعاً ومحفزاً لنا لننهض من جديد، فليست القوة أن لا تسقط أبداً إنما القوة أن تسقط ثم تنهض من جديد.

سائلوا التاريخ عنا ما وعى ... من حمى حق فقير ضيعا؟

من بنى للعلم صرحا أرفعا؟ ... من أقام الدين والدنيا معا؟

سائلوه، سيجيب: المسلمون



المسلمين يرصدون الجواسيس والمرتزقة في المدن الأندلسية في عهد الناصر



سادساً الحكم بن عبد الرحمن الناصر (المستنصر)



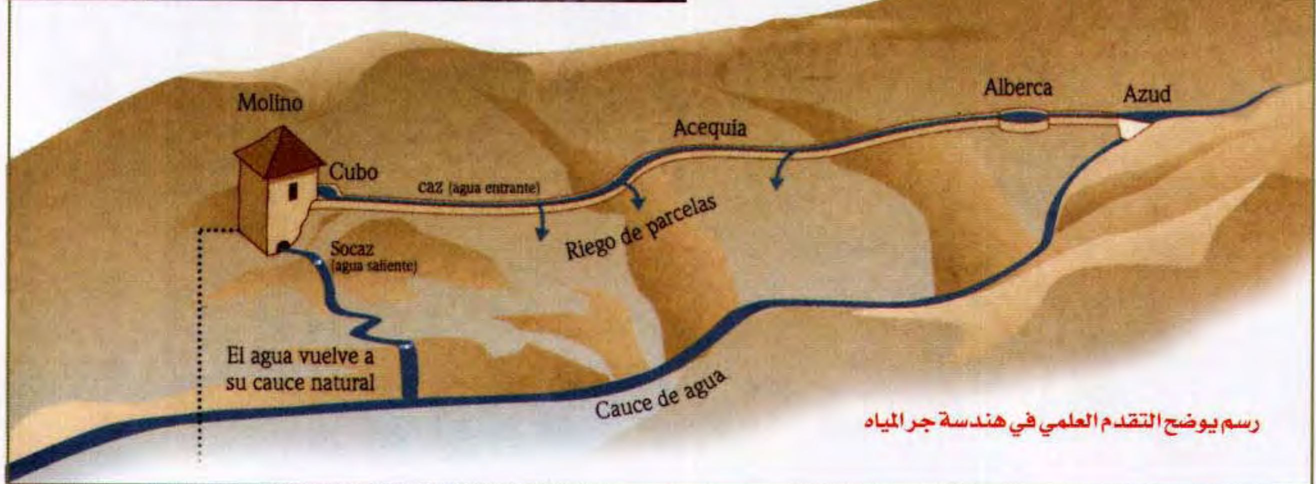
على نهج أبيه

لقب الحكم بالمستنصر، وبويع له وعمره سبع وأربعون سنة، استلم الأمانة من والده، فتابع السير بالأندلس على النهج الذي سار عليه والده من قبل، وعلى الطريق الذي رسم، وليس من الغرابة بمكان أن يكون عهد الابن لعهد الأب في الظاهر والمضمون وقد قيل عنه: جرى على رسم والده ولم يفقد من ترتيبه إلا شخصه، لقد كان والده قد أعده أثناء حياته لهذا.

اعتلى الحكَم سريرَ الملك ثاني يوم وفاة والده يوم الخميس ثالث شهر رمضان من عام ٣٥٠هـ، وقام بأعباء الملك خير قيام، وكانت الأندلس مستقرة ثابتة، حدودها آمنة، وتتمتع بالتقدم والعمران.



ساحة الأسود الرائعة في قصر الحمراء



رسم يوضح التقدم العلمي في هندسة جر المياه

عاشق الكتب وقصة المسجد

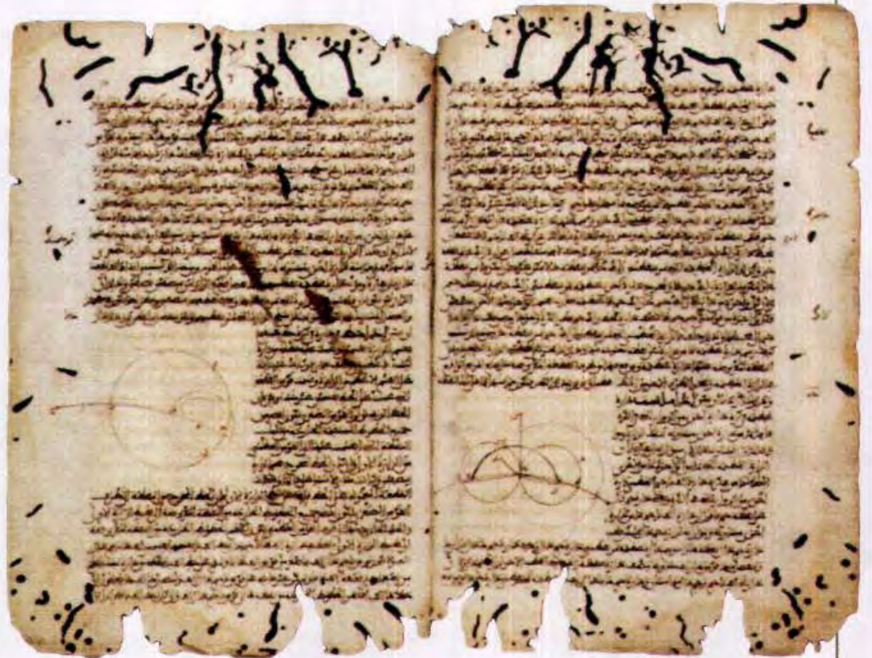
كان الحكم عالماً كبيراً يلقبونه "عاشق الكتب"، يحضر المجالس العلمية، وينشئ الجامعات والمدارس والمكتبات العامة، ويجلب الكتب إلى الأندلس من البلاد الإسلامية، وقد جعل تاجراً خاصاً يرسله إلى البلاد ليشتري له، سمع بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، فأرسل وفداً لشرائه، ودفع لمصنفه ألف دينار من الذهب ليشتري النسخة الأولى منه. وكان عالماً بالأنساب والأسماء، حافظاً للتاريخ، محباً للعمران، فكان أول عمل قام به: أن وسّع مسجد قرطبة "الجامع الكبير"، الذي تقام فيه الجمعة والأعياد بالإضافة إلى الصلوات الخمس، وقد حدثت قصة طريفة لما أتم التوسعة، وذلك أن الناس امتنعوا أن يأتوا إلى المسجد، فاستغرب الحكم الثاني هذا!! وسأل من حوله ما الأمر؟ وما السبب الذي منع الناس أن يقصدوا جامعه؟ قالوا: لقد انتشر بين الناس: أنك بنيت توسعته على أسس من مال حرام!! فأرسل إلى علماء قرطبة وأعيانها وأهل الفضل منها يجتمعون عنده، ثم قام فحلف أيماناً مغلظة أنه ما جعل في هذا البناء شيئاً حراماً ولو يسيراً، وإنما بناه من أخماس بيت المال، عند ذلك توافد الناس إليه، وأقيمت الصلوات فيه.



صندوق من العاج ورثه الحكم عن أبيه الناصر

تلك هي التقوى، تولد حساسية لدى المسلمين بالتحري عن الحلال في كل شيء، فهل تعود إلى مجتمعاتنا؟ وتفعل فعلها في حياتنا؟.

كذلك أمر ببناء ثغر قريب من مدينة "طليطلة"، وجعله قوياً محكماً ليصدّ غارات الأعداء عن هذه المدينة.



مخطوطة لكتاب الاستكمال ليوسف المؤتمن (معالجة الهندسة)



الجهاد على الأعداء في عصره

١-طمع القوط "من نصارى الشمال الغربي في الأندلس" سنة ٣٥٠هـ أي بعد تولي الحكم الثاني مباشرة، فهاجموا ثغور المسلمين، فتوجه الجيش الإسلامي بأمر من المستنصر وتقدم في بلادهم، وفتح حصناً من أشد حصونهم يدعى "سانت استيفان".

وبرهن المستنصر أن الأندلس ما زالت قوية كما كانت زمن والده، لذلك أرسلوا إليه يطلبونه الصلح والمعاهدة.

٢-قامت مجموعة أخرى من شمال الأندلس "ليون" تحذو حذو الشمال الغربي بالهجوم على ثغور الحدود، فأرسل الحكم الثاني جيشاً يقوده قائده الشهير "غالب بن عبد الرحمن الناصري"، فردها خائبة، وأمَّن الثغور هناك.

٣-وفي عام ٣٥٢هـ، نقض "غرسية بن شانجة الأول" حاكم البشكنس العهد ﴿ولا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ (المائدة:١٣).

فأرسل إليه الخليفة حاكم سرقسطة "محمد بن هشام التجيبي" بجيش ليصده، فاستطاع أن يفرق جموعهم، ويمزقهم عند الثغور.

قائد واحد لمنطقة واحدة بجيش وحده يوقع الهزيمة بالأعداء ويجعل الثغور الإسلامية في أمان، هذا إذا كان المسلمون قد أخذوا بالاستعداد الدائم فلم يركنوا إلى الدنيا، يرهبون بقوتهم عدو الله وعدوهم.

٤-توجه "محمد بن هشام التجيبي" بأمر من المستنصر بجيش إلى "برشلونة" عام ٣٥٢هـ فخربها على أهلها ودمرها حتى لا يعودوا إلى العدوان أو يفكروا به.

٥-وفي العام نفسه تمكن "غالب بن عبد الرحمن الناصري" بجيش أن يفتح حصناً يدعى "قَلْهرة" ويضمه إلى حكم الأندلس، وكان قلعة لنصارى "البشكنس" ومقراً لهم للهجوم على الثغور الحدودية للمسلمين.

الخليفة ابن نصر الأحمر وخلفاء الدولة في صورة على سقف قصر الأسود في غرناطة في نهاية القرن ١٤م





مملكة ليون النصرانية

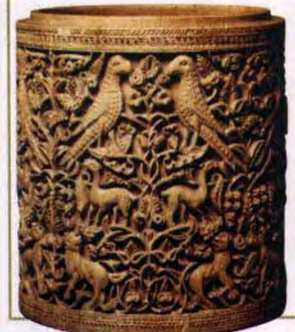
أما في مملكة ليون فقد جرت أحداث بين ملكها "شانجة الأول" وبين ابن عمه "أردون الرابع" الذي كان قد خلع عن الملك، ويريد الأخير أن ينتزع الملك من الأول، لذلك أسرع "أردون" إلى الحكم المستنصر يرجوه المساعدة، ولكن القدر لم يمهله فمات وهدأت الأحداث، إلا أن "شانجة" أرسل إلى الحكم يرجوه المسامحة والصفح عما كان منه في الحوادث ضد ثغور المسلمين، ويظهر له الخضوع.



النورمان يغزون من البحر

وظهر النورمان من جديد، ففي عام ٣٥٥هـ إذ ورد كتاب من حاكم منطقة قصر "أبي دانس" على المستنصر بالله يذكر فيه ظهور أسطول المجوس "النورمان" بثمانية وعشرين مركباً، فخرج أسطول إشبيلية إليهم عن طريق النهر ثم البحر فاشتبك الأسطولان في وادي "شِلْب" بحيث تمكن الأسطول الأندلسي من تحطيم عدة مراكب لهم، وردّ النورمان على أعقابهم خاسرين.

أسطول الأندلس يحطم سفن النورمان



صندوق من العاج مزخرف بالحيوانات في مدينة الزهراء



الصراع مع الفاطميين

سيطر العبيديون "الفاطميون" في عام ٣٥٨هـ على مصر وجعلوها مقراً لهم لإخضاع العواصم الإسلامية حتى إنهم سموا عاصمتهم باسم "القاهرة" آملين بذلك أحلامهم، ثم تقدموا نحو الحجاز وبلاد الشام، وظهر تهديدهم للأندلس وكانت مدينة سبتة بيد الخلافة الأندلسية "الأموية" فأرسل المستنصر جيشاً فتح طنجة أيضاً وجعلها تابعة للأندلس، ليمنع الأندلس من طمع العبيديين.

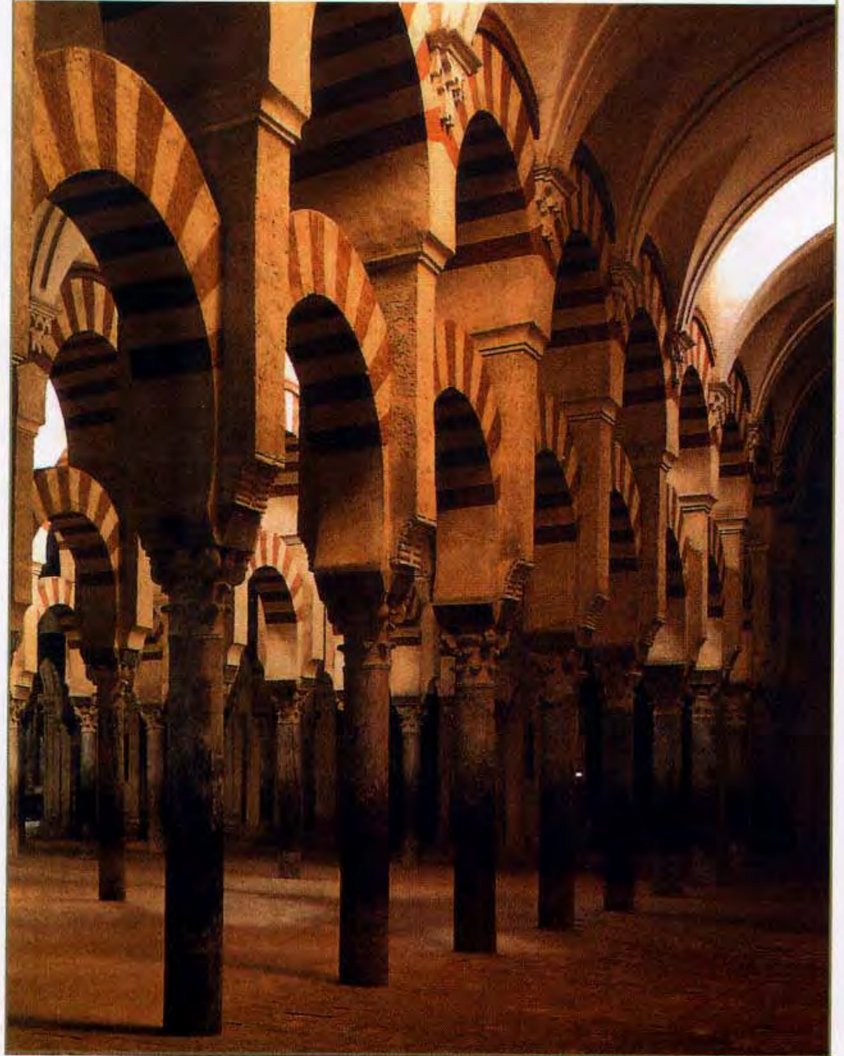


جرة ضخمة مذهبة صمدت خلال القرون لتشهد على المدنية التي وصلت إليها غرناطة



النورمان من جديد

عاد النورمان على الهجوم على السواحل الأندلسية بين عامي ٣٦٠-٣٦١هـ وكانوا قد هجموا قاصدين المرية، فأصدر الخليفة المستنصر بالله الأمر إلى قائد أسطول المرية، وإلى أمراء البحر الآخرين الذين ردوا غزوة النورمان، فانصرفوا خائبين كما قدموا، وردّهم الله ولم يصيبوا شيئاً، وكان آخر هجوم لهم.



قرطبة، المسجد الكبير، منظر من طرف آخر



ثورة البربر

ظهر أمر خطير للغاية عام ٣٦١هـ إذ ثار البربر، وهم سكان البلاد أصلاً على الحكم العبيدي (وهذا اسم يذكره مؤرخونا عن الفاطميين تنزيهاً عن نسبتهم لفاطمة الزهراء رضي الله عنها وذلك لانحرافهم)، وأرسلوا إلى الحكم المستنصر في الأندلس يطلبون المساعدات منه، ويسألونه النصرة، فلم يتوان المستنصر بالله من إرسال المدد السريع إليهم، واستطاع هذا التحالف البربري الأموي من إخراج الفاطميين من المغرب، وأن يقتلوا الحاكم الفاطمي هناك، ويبسطوا سيطرتهم على الشمال الإفريقي.


حوض مياه صغير من الحجر مزخرف ومنحوت



ظهور الأدارسة

لكن فتنة ثانية ظهرت بين البربر أنفسهم، إذ قامت مجموعة منهم يطلقون على أنفسهم الأدارسة ثاروا على الأمويين والبربر حلفائهم فأخرجوهم من المغرب وسيطروا على "طنجة"، خشي الخليفة الحكم أن يتطور شأن الأدارسة فأرسل أسطوله البحري بقيادة أمير البحر «عبد الله بن ماسح»، فهاجم أسطول طنجة، التي يحكمها الأدارسة وقائدهم «الحسن بن مكنون».

دافع الحسن عن مدينة طنجة وجماعته دفاع المستميت، لكن الغلبة كانت للأسطول الأموي فبسط السيطرة على طنجة مرة أخرى، وفر الحسن بن مكنون إلى حصن آخر يدعى "حصن النّسر"، فتوجه الجيش الأموي بقيادة "غالب بن عبد الرحمن" لتصفية هذا الجيب وغيره من الجيوب العائدة للأدارسة، وطلب حشد القوات عنده من شتى أنحاء المغرب، وكان من بين الحشود جندي مغمور لا يعرف من قبل، ولا يؤبه له، جندي عادي صغير، يدعى محمد بن أبي عامر جاء لمساندة القائد غالب بن عبد الرحمن، وسيكون له شأن في تاريخ الأندلس.

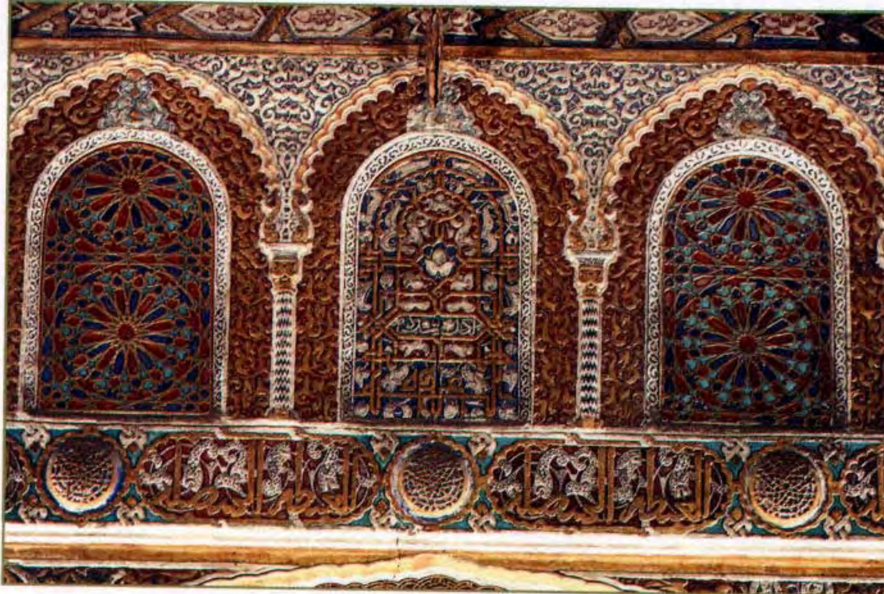
تمكنت القوة الأموية من تفريق الأدارسة بعد حصار شديد، ووقع الحسن بن مكنون أسيراً بيدها فأرسل إلى قرطبة، ويقال إن غالب بن عبد الرحمن قد أغرى جنود الحسن بالمال فتفرقوا عنه.


الحسن بن مكنون قائد الأدارسة



نفي الحسن بن مكنون

أمر وزير بني أمية جعفر بن عثمان المصحفي في قرطبة عام ٣٦٥هـ بإخراج الأسير الحسن بن مكنون من الأندلس إذ أنه لا يزال يحمل فكر التمرد والثورة، فأرسل إلى تونس "إفريقية" فرفض حاكمها إبقاءه هناك فأبعد إلى مصر حيث استقبله العزيز الفاطمي، وسيكون له ذكر في المستقبل.



فسيفساء دقيقة وجميلة



ظهور محمد بن أبي عامر

ظهر شأن محمد بن أبي عامر ذلك الجندي البسيط في قتال الأدارسة حول حصن النسر وغيره، فَعَلا، ورفعت مكانته، ورقي في المناصب حتى أصبح مديراً للشرطة في العاصمة قرطبة أي أنه أصبح الرجل الرابع في الخلافة:

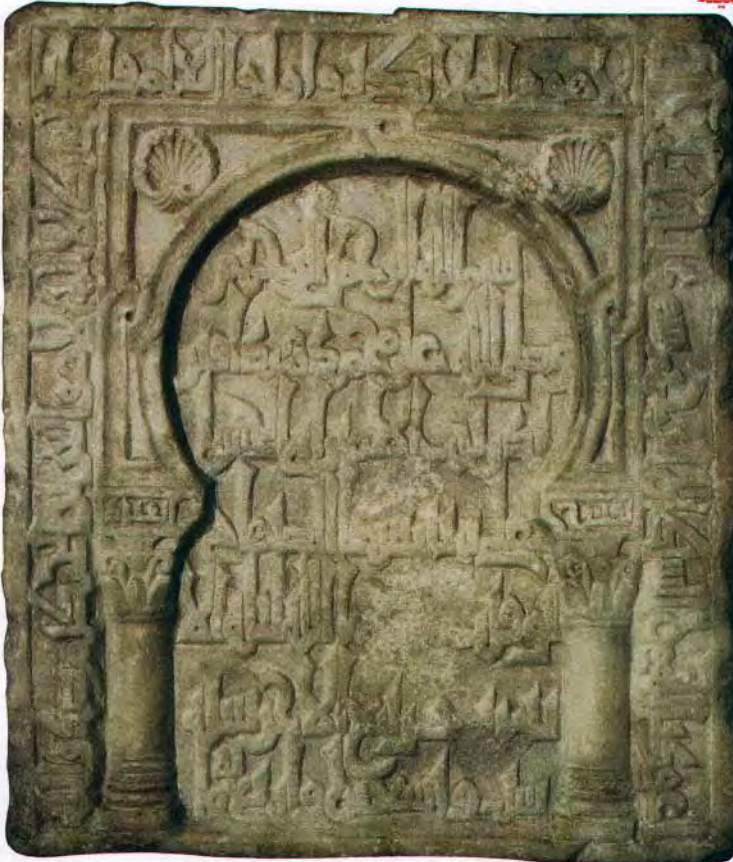
١-الخليفة الحكم المستنصر.

٢-الوزير جعفر المصحفي.

٣-قائد الجيش غالب بن عبد الرحمن الناصري.

٤-قائد الشرطة محمد بن أبي عامر.

توفي الحكم المستنصر عام ٣٦٦هـ بعد أن دامت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر، من ٣٥٠-٣٦٦هـ.



لوحة جنائزية على شكل محراب مصنوعة من الرخام

عهد المستنصر.... حقائق وعبر

إن المطلع على تاريخ المستنصر لا يستطيع أن ينكر ما كان عليه الرجل من حزم ودين وحب للعلم وأهله، ويكفيه أنه قطع الخمر من الأندلس وتشدد جداً في منعها، ولكن حدثت في عهده فاجعة عظيمة ربما كانت هي بداية السقوط في الأندلس وإيذاناً بانتهاء دولة بني أمية فيها، وذلك عندما عين ولده الصغير هشام الذي لم يبلغ الحلم بعد ولياً لعهده، بل يذكر المؤرخون أن هشام عين وهو لم يزل في بطن أمه !!!!

فعندما حملت (صبح) محبوبة المستنصر بهشام هنأه حاجبه ورجل الدولة الثاني جعفر بن عثمان المصحفي قائلاً :

هنيئــاً للأنــام وللإمــام كريم يستفيد على كرام

مرجى للخلافة وهو ماء !! ومأمــول لآمال عظام !!

واستخلف هشام وهو ابن أحد عشر سنة، فبالله أي خلافة أو حكم ينتظر من خليفة طفل أو طفل خليفة ؟!!

وخليفة في قفص بـين وصيـف وبغـا

يقـول ما قالا لـه كمـا يقول الببغـا

وكأن الخلافة مال يقسم بين الورثة حتى وإن لم يكونوا أهلاً لها، وهذه آفة وطامة كبرى جعلت أمتنا تتكبد الكثير من الخسائر وتعاني الكثير من الظلم والفوضى.

وانظر كيف حدثت الفتن حينما تولي هشام الصغير وحجب عن الخلافة وأصبح الرجال من ورائه يحكمون باسمه ويحيكون المكائد لبعض وهو عن كل ذلك غافل لاه !!.

فالإمارة والحكم مسؤولية عظيمة وكبيرة لا ينبغي أن يتسلمها إلا من هو أهل لها وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر حين طلب الإمارة :«إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة» (رواه مسلم).

ومـا يجـوز للحكام أن يوزعـوا المناصب على أولادهم وأقـربائهم ويجعلوا لهم صلاحيات تفوق صلاحيات رجالات الدولة!!! فتذوب الأمانة عند المصالح الشخصية والمنافع والشهوات، ويشعر الناس بالظلم وتشتعل نيران الثورة والانقلابات.



الحمامات الملكية في قصر الزهراء زينت بالفسيفساء والزخارف البديعة

قاعة رئيسية في بعض قصور غرناطة تم تحويلها في القرن السابع عشر الى كنيسة

صالة العدالة في أحد قصور إشبيلية

الباب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس



الفصل الرابع

عهد الحاجب المنصور

أولاً هشام بن الحكم (المؤيد بالله)



الخليفة الصغير

مات الحكم المستنصر ولم يخلف سوى ابنه هشام ولياً من بعده، وكان له من العمر إحدى عشرة سنة، واتخذ لقب المؤيد بالله، وكان غير قادر لصغر سنه ولخلل واضطراب في عقله على إدارة شؤون الدولة ورعايتها، فتنازع الأمويون على من يتولى الأمر؟

ثم استقر رأيهم على أن يشكلوا مجلس وصاية من الخليفة يدير الدولة حتى يكبر هشام، وأن يكون أعضاء هذا المجلس رجالاً من غير بني أمية، إذ كان بنو أمية يخشون ألا يسلم الأمر إلى الخليفة إن كان منهم أو أن يستبد به دونهم، لذلك اختاروا ثلاثة رجال ليسوا من بني أمية:

الأول: جعفر بن عثمان المصحفي وزير الدولة الأموية.

الثاني: غالب بن عبد الرحمن الناصري قائد الجيوش الأموية

الثالث: محمد بن أبي عامر قائد الشرطة في قرطبة.

أصبح الصغير الذي وصل إليه الحكم بالوراثة، دون أن يكون مهيأً لها -ولن يكون الصغير كذلك- هو مركز المؤامرات والدسائس بين الأقارب وبين المقربين من ذوي المكانة العليا في إدارة الدولة.

وقد رأينا ما آل إليه الأمر في عرض قصة هشام المؤيد بالله، فالصغير بحاجة إلى وصي! ومن سيكون ذاك الوصي؟

فيُقتل من يقتل، ويُبعد من يُبعد، ويؤول الأمر إلى من هو أشد حيلة وأكثر دهاءً، وأقوى مركزاً.

في التاريخ أمثلة كثيرة شاهدة للعيان عن الفتن والاضطرابات إذا عُيِّن الصغير حاكماً! وما الصغير إلا للهو واللعب، وحوله رجال يلعبون بحبك الدسائس لا لرفع الدولة أو عزتها أو أمور الناس، وإنما لرفع المكانة والأقارب، والتحكم من وراء الوصية. فيقتل ابن العم، ويبعد العم، ويقضى في السجون من كان ذا أمرٍ قبلُ.



رسم تقريبي يوضح خروج الخليفة الصغير هشام الصغير من أحد غرف القصر والحاشية تمشي خلفه

ثانياً الحاجب المنصور


القارس المسلم الحاجب المنصور

عـهـد جـديد، عـهـد الحـاجب المنصور، من ألمع الأسمـاء في تاريخ الأنـدلس، فكيف اسـتطاع هذا الرجل أن يملأ الدنيا ويشغل الناس في الأندلس والشمال الإفريقي ويدخل التـاريخ؟ إنه يذكـرنا بعبد الرحمن الداخل وحده.

ولد عام ٣٢٦هـ في منطقة الجزيرة الخضراء في مدينة "تركش" جنوب الأندلس، ونسبه: محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعـافري، وكـان الجد الأخير من قـواد الجيش الذين فتحوا الأندلس ودخلوها مع طارق بن زياد. ولما بلغ توجه نحو قرطبة -عاصمة العلم والمعرفة- فكان يحضر مجالس الفقه حريصاً عليه بالرغم من فقره، وانشغاله لتأمين قوته وقوت أولاده، فتتلمذ على جميع فقهاء قرطبة، ولما حصلت فتنة الفاطميين في الشمال الإفريقي، اشترك متطوعاً في الجيش الذي أرسل لقمع الثورة، فلما رجع تطوع في الشرطة حتى أصبح قائدها في العاصمة قرطبة كما مرّ، وهو الآن عام ٣٦٦هـ في مجلس الوصاية الذي يدير شؤون الأندلس، ثم أصبح الحاكم الحقيقي فيما بعد ولذا عدّه بعض المؤرخين بداية لعهد جديد في الأندلس.

الحاجب المنصور

٣٢٦هـ	ولد جنوب الأندلس في مدينة (تركش) .
-	من أحفاد عبد الملك المعافري أحد القواد الذين فتحوا الأندلس مع طارق بن زياد .
٣٦٥هـ	كان بداية عمره أجيرا ثم تولى قيادة الشرطة .
٣٦٧هـ	عين وزيرا وحاجبا لهشام المؤيد بالله .
٣٦٨هـ	استأثر بحكم الأندلس .
-	ملك الأندلس بحزم وعزم وتوسعت الفتوحات في زمنه .
٣٩٢هـ	توفي وهو يستعد للجهاد .





ابن أبي عامر يحمي الخليفة

لما مات المستنصر بالله حدث أمر خطير: ذلك أن جنود الجيش (وكانوا يسمون الصقالبة وهم قوم يؤتى بهم من مختلف البلاد الإفرنجية ذكوراً أو إناثاً إلى الأندلس، ثم تتولى الدولة رعايتهم، فينشؤون نشأة إسلامية، وقد كان لهم دور كبير في عدد من حوادث الأندلس إذ كانوا يشكلون غالبية حرس الإمارة أو الخلافة) هؤلاء لم يرضوا أن يعيّن هشام المؤيد بالله لصغر سنه أو غير ذلك، فثاروا وضجّوا يريدون أن يولوا المغيرة بن عبد الرحمن الناصر (عم هشام) إذ كان عمره سبعاً وعشرين سنة، فلما رأى محمد بن أبي عامر ذلك منهم بادر بمجموعة من شرطته غير آبه بالصقالبة أو غيرهم، وتوجه إلى منزل المغيرة فقتله -قيل قتله خنقاً-، وبعمله هذا قد أيد موقف هشام وأبقاه خليفة.

أيدت موقفه هذا أم الخليفة "صبح البشكنسية" وكانت قد أسلمت، ودعمته، وهل كان هناك من هو أقوى من سلطة المرأة إن كانت مقربة أو أثيرة لدى أولي الأمر، أجرى محمد بن أبي عامر بعض التغييرات في تشكيلة الحرس الخاص للخليفة من الصقالبة واستبدلهم بعناصر من الشرطة الموالين له، ولم يعارضه أحد.


صندوق من العاج في الأندلس



التصدي للهجوم النصراني

وفي عام ٣٦٦هـ سمع نصارى الشمال بالحكم الجديد في قرطبة، وببعض الاضطرابات التي وقعت فيها، فهاجمت مجموعة من مملكة ليون قلعة رباح إحدى ثغور المسلمين واقتحمتها وارتكبت مذبحة دامية في سكانها، فلم يقم الوزير المصحفي بأي شيء، ولم يبد أي مقاومة لذاك العدوان وصده، ربما خوفاً من الوضع السائد في قرطبة وخشية على مركزه إن غادرها، فما كان من قائد الشرطة محمد بن أبي عامر إلا أن قاد الجيش بنفسه متوجهاً إلى ديار النصارى إلى قلعة تدعى "الحامة" من حصون "جيليقية"، وحاصرها حتى أخضعها، ثم جال في مناطقها ثلاثة وخمسين يوماً، فغنم وسبى، في طريق عودته وزع الغنائم على الجنود وعلى الناس، يتقرب بها إلى القلوب، فانتشر أمره وذاع صيته، فأحبه الناس لسخائه وشجاعته.


وعاء حجري من الخزف، قرطبة



غزو نصارى الشمال

وفي نفس العام ٣٦٦هـ توجه بجيش آخر مشاركاً جيش الدولة بقيادة غالب بن عبد الرحمن (الوصي الثالث) من مدينة "مجريط" (مدريد عاصمة إسبانية الحالية)، وغزوا معاً النصارى في شمال الأندلس، فانتصرا نصراً مؤزراً وعادا، وأصبح ابن أبي عامر حديث الساعة وعلا نجمه، وذاع صيته، فأصدر الخليفة المؤيد بالله أمراً يعين بموجبه ابن أبي عامر قائداً للجيش إضافة إلى قيادة الشرطة، إلا جيش الشمال فقد بقي بقيادة غالب بن عبد الرحمن، ومركزه مدينة سالم.



مصباح زيتي في قصر ابن أبي عامر

زواج سياسي

أراد محمد بن أبي عامر أن يقوي مركزه، فأرسل يخطب أسماء ابنة غالب، وكان قد سبقه الوزير المصحفي إلى خطبتها، فزوجها أبوها من ابن أبي عامر، وكان عرساً مشهوداً في الأندلس.



أسماء ابنة غالب تزف لأبن أبي عامر على هودج بعرس مهيب





الحاكم العام للعاصمة

وغزا مع عمه بلاد النصارى عام ٣٦٧هـ، وسيطرا على مجموعة من الحصون التي كانت في قبضتهم، وبخاصة حصن "شلمنقة"، وجالا معاً في بلاد القوط أربعة وثلاثين يوماً، وبعد عودته أصدر الخليفة المؤيد بالله أمراً جعل ابن العامري الحاكم العام للعاصمة قرطبة، كما أصدر أمراً بتأثير من والدته "صبح" عين القائد غالب بن عبد الرحمن "أبا زوجة ابن أبي عامر" وزيراً مشاركاً للوزير جعفر المصحفي.



صندوق خاص للمصاحف عليه نقش اسم الخليفة هشام الثاني تم اكتشافه عام ١٨٥٣م



إقالة الوزير المصحفي

ثم أصدر ابن أبي عامر أمراً بإقالة الوزير في العام نفسه، وسجنه قالوا لتلاعبه أو خيانته بيت المال -والله أعلم- ثم تجاوزت هذه الملاحقة لإنزال العقاب بأولاده وأهله وأصحابه، فطولبوا بالأموال، وأُخذوا بالحساب الشديد، واستمرت النكبة عليهم وكأنها نكبة البرامكة في الدولة العباسية، ومن طريف ما يذكر أن المصحفي أرسل أبياتاً إلى ابن أبي عامر من السجن يستعطفه:

هبني أسأتُ فأين العفو والكرمُ؟ إذ قادني نحوك الإذعان والندمُ
يا خير من مُدت الأيدي إليه أما ترثي لشيخ رماه عندك القلمُ
بالغت في السُخط فاصفح صفحَ مقتدر إن الملوك إذا ما استُرحموا رَحموا

فردَ عليه محمد بن أبي عامر رداً قاسياً وكتب إليه:

الآن يا جاهلاً زلّت به القدم تبغي التكرم لمّا فاتك الكرمُ
أغريتَ بي ملكاً لولا تثبتُه ما جاز لي عنده نطق ولا كلمُ
فايأس من العيش إذ قد صرت في طبق إن الملوك إذا ما استُنقموا نقموا
نفسي إذا سخطت ليست براضية ولو تشفّع فيك العُرب والعجمُ



ثم أصدر الخليفة هشام المؤيد بالله أمراً عيّن بموجبه العامري وزيراً بدلاً من المصحفي، فتنازل العامري عن قيادة الجيش لأحد أتباعه: جعفر بن علي بن حمدون الملقب بالأندلسي.

العامري وزيراً وحاجباً

ووصل آخر الأمر أو في نهاية المطاف للاستيلاء على مراكز القوى في الدولة الأموية أن أصدر الخليفة قراراً جعل ابن أبي عامر حاجبه الخاص، وهذا يعني أنه أصبح بمثابة وزير دولة، أو مدير الديوان الأميري في عصرنا، فيدير شؤون الخليفة منه وإليه، وكان يتقرب إلى العلماء والفقهاء، وقد اشتكوا له مرة انتشار كتب الفلسفة البيزنطية والفرنجية إذ ترجمت إلى العربية تحمل مبادئ تسيء إلى العقيدة الإسلامية، وتتضمن كلمات ذات مدلول إلحادي، فأصدر الحاجب المنصور المعروف بحزمه،(حيث كان لا يدع الأمور تفلت من قبضته) أمراً بحرق كل الكتب التي فيها أية إشارة أو غمز أو لمز بأحكام الشريعة.

وبدأ يقرب إليه البربر المسلمين، يستبدل بهم العرب الأمويين، وكثر أولئك في مراتب الدولة.

جنود الحاجب المنصور





بناء مدينة الزاهرة

أنشأ الحاجب مدينة الزاهرة شمال شرق قرطبة وابتدأ في إنشائها عام ٣٦٨هـ على الوادي الكبير، وتم بناؤها بسرعة إذ انتهى البناء في عامين فقط، وجعلها مقراً له ولأنصاره، فنقل إليها الأموال والأسلحة من الزهراء، وأقام فيها القصور ينافس بها الزهراء، ونقل الدواوين إليها وجعلها مركزاً لإدارة الدولة، ومن ثم توسعت الزاهرة حتى وصلت حدود العمران إلى قرطبة.



إبريق منقوش ومزخرف من النحاس



منطقة أثرية تعود لابن حفصون - في مدينة الزاهرة



ثلاثة معازق حديد



الحاجب يستأثر بالحكم

وفي نهاية العام ٣٦٨هـ أصدر الحاجب بياناً يمنع فيه دخول أحد على الخليفة إلا بأمره، ومن ثمّ لا يخرج الخليفة من القصر إلا بإذنه، إذ عين حراساً حول الخليفة بحجة حمايته، لذلك وصل إلى درجة أنه هو الحاكم المتفرد الوحيد، وصكت النقود باسمه وباسم الخليفة.

قام بسلسلة من الأحداث والتصرفات جعل الخليفة بموجبها اسماً لا حكم له وتقلد هو الحكم الفعلي وإن لم يعلن ذلك، فقد سيطر على الأندلس، وفاق بمجده مجد عبد الرحمن الناصر على رأي بعض الأندلسيين.

تتجلى شهوة الحكم في كل نفس لا يحدها حدّ، ولا يجؤها إلا الخوف من مبدأ المحاسبة عقيدة أو نظاماً، أو حذرٌ من شهوة أقوى هيبة منها.

وقد تؤدي إلى الاستبداد والتفرد، أو تصبح المهيمنة الوحيدة على الذين يديرون الحكم ظاهراً.

فيزداد أوار الشهوة، ويلهب سعارها إذا كان الحاكم صغيراً تحت وصاية، أو ضعيفاً هزيلاً في الشخصية والمعرفة.

وتستأثر البطانة -القوي منها- على شؤون الحكم والإدارة ولا بد هنا من أن تسفك الدماء، وتكثر الاغتيالات السياسية، كما فعل الحاجب حين حمل أم هشام بدهائه وقوة عزمه على أن تخلق هي بذاتها الأعذار لحجب ابنها، حتى غدا الصغير هشام شبه معتقل أو سجين.


درهم خليفة قرطبة، محمد الثاني


مكبح حصان من الحديد المصنوع والمزخرف


دينار خليفة قرطبة: هشام الثاني



ثالثاً الأحداث في عهد الحاجب المنصور



بلابل في المغرب

لم يستقر شأن المغرب فقد ثارت قبيلة صنهاجة من البربر في مدينة فـاس عـام ٣٦٩هـ يقـودها رجل يدعى "بلكين بن زيري" واتصل هذا بالفاطميين في مصر فأمدوه بجيش يقوده رجل -مرّت أخباره سابقاً- من البربر هو "الحسن بن مكنون".

ومـا استطاع القـائد الأمـوي أن يصـمـد في قتـال البـربـر الثـائـرين والفـاطميين الذين جاؤوا مدداً لهم، فهزم هو وجنده، وسيطر البربر على المغرب، ولم يبق للأمويين إلا مدينة "سبتة"، فخشي الحاجب المنصور من تطور تلك الأحداث، فحصّن الجزيرة الخضراء، لأنه يخشى من مطامع الحسن بن مكنون الذي أصبح والياً على المغرب.



بلكين بن زيري يتصل بالفاطميين



الثأر لهزيمة الناصر في الخندق

تحرك القوط في الشمال عام ٣٧١هـ ومارسوا أعمالاً انتقامية ضد ثغور المسلمين هناك، فقاد الحاجب المنصور جيشاً يتوجه به إلى قلعة "سمورة" -وكان عبد الرحمن الناصر قد هزم أمام أسوارها كما مر- فاستطاع المنصور أن يقتحمها ويفتك بأهلها، وتركها طعمة للنيران، فدمّرت معظم معالمها، وهرب أهلوها إلى قلعة قريبة منها تدعى "سانت مانس"، توجه إليها المنصور أيضاً بجنده، وأوقع بهم هزيمة منكرة، وقد أصبح طريق العاصمة ليون مفتوحة أمام قواته إلا أنه لم يتابع إليها لشدة البرد في ذلك الشتاء القارص.

وأصبح عمله هذا حديث الناس أجمعين.

لقد استطاع الحاجب أن يدمر قلعة "سمورة"، وقد عجز عنها من عجز من قبل، فهي حصن ليس في البلاد حصن أشد قوة، وأمنع سوراً منه.



صراع بين الحاجب وغالب

خشي أبو زوجة المنصور غالب بن عبد الرحمن على مكانته من صهره، أو هكذا بدا له فتحركت الوساوس والهواجس في صدره! فقام بخطة يريد أن يتخلص منه، فدعاه إلى وليمة في قلعة "أنبية" وكان المنصور قد خرج إلى تلك الثغور يتفقدها، فوجئ المنصور بهجوم مباغت من رجال عمه، بل هجم عمه عليه وضربه بالسيف فجرح في يده، وكاد أن يقتل، فرّ من الحصن وألقى نفسه من عل فكسرت رجله، وانطلق بحصان أعده أصحابه هناك إلى أقرب مدينة هي سالم، وجمع أنصاره، وتوجه نحو قلعة عمه، وقد خرج لملاقاته فتقابل الرجلان بجيشيهما ويا أسفاً! صراع بين اثنين من مجلس الوصاية، الحاجب المنصور وجنده، وغالب بن عبد الرحمن أبو زوجته قائد الشمال! ما شأنهما؟ وما الغاية.. هل هي إلا حزازات النفوس ووساوسها؟ أم هو الكرسي والسلطة؟ فهزم غالب، وقيل قتل، وعاد الحاجب إلى قرطبة، ولم يعد له منافس وقد كان يخشى كيد أبي زوجته، فتخلص منه، بعد أن نجا من عملية اغتيال له كما مر.



حيوان من النحاس مع النقش والزخرفة



ريبة قاتلة

لم يعد الحاجب يتوجس خيفة إلا من رجلين اثنين:

١-جعفر بن عثمان المصحفي الوزير المعزول فأمر بقتله، وقيل مات في السجن.

٢-جعفر بن علي بن حمدون قائد الجيش الذي عينه هو فأمر بعزله.

كأنه يتمثل بقول الشاعر:

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه؟ ومن أين للحر الكريم صحابُ؟
فإني رأيت الناس إلا أقلَّهم ذئاباً على أجسادهن ثياب

فأصبح بذلك الحاكم المطلق الذي لا يرد له أمر، زعيم الأندلس بلا منازع، وإن كان الخليفة يذكر على المنابر فليس هو إلا اسماً فقط.





البربر يجاهدون القوط

وفد إليه جماعة من البربر عام ٣٧٣ وفيهم إخوة "بلكين بن زيري" الذي كان ثار على الأمويين (وهم زاوي، وحلالة، وماكسن)، وطلبوا الإذن بالدخول عليه، فأذن لهم ثم سألهم ماذا تريدون؟ قالوا: تعبنا من الثورات ضد المسلمين، وقد عزمنا على الجهاد، فأذنْ لنا أن نتوجه نحو القوط لجهادهم، ففرح بهم الحاجب المنصور فأمدهم بالرجال والعتاد، فتوجه هؤلاء إلى "جيليقية" وعسكروا قريباً منها ينامون النهار ويغيرون بالليل، ونشروا الرعب والهلع على منطقة ليون، ولم يعرف أحد مَنْ هؤلاء؟ ومن أين قدموا؟، وبقي أمرهم مكتوماً فترة طويلة، ثم أرسل حاكم ليون جيشاً للتخلص من هذه العصابات كما كانوا يطلقون عليها، ترك هؤلاء جيش ليون يتوغل في العمق، ثم قاموا بهجوم على مؤخرته، وهم يكبرون ويهللون، فولى جيش ليون الأدبار، ولحقهم هؤلاء البربر يقتلونهم ويأسرون ويغنمون.



صورة تمثل قتال المسلمين في الأندلس مع النصارى (من الكتب الغربية)



غزوة ليون العظمى

عزم المنصور بالهجوم على ليون عاصمة إقليم "جيليقية" في غزوة عظيمة تعد من المعارك الفاصلة في حروب الأندلس تدعى (غزوة ليون).

قاد الحاجب المنصور الجيش بنفسه، واتجه إلى ليون مباشرة فحاصرها وكان قد جاء إليها المدد من كل أرجاء بلاد الفرنج ومن فرنسة بشكل خاص، ودارت المعارك حول ليون ليالي وأياماً، وبقي الحصار الشديد الطويل حولها، واستشهد في القتال المرير هناك عدد كبير من المسلمين، كما قتل من النصارى الكثير ومن قادتهم بشكل خاص حتى استطاع الحاجب المنصور أن يفتح ليون وكانت تلك أول مرة تسقط فيها ليون بعد الفتح الإسلامي ويؤسر من هذه المدينة ثلاثة آلاف أسير، أمر المنصور أن يصعد المؤذنون ليرفعوا نداء الله أكبر، الله أكبر، فوق هذه المدينة الطاغية، فأعاد إلى جنباتها صدى الأذان بعد انقطاع مائتي سنة.

وأذانُ المسلمِ كانَ له ... في الغربِ صدىً من همّتنا



فتح برشلونة

ثم توجه المنصور نحو عاصمة المشرق "برشلونة" التي كانت بيد الفرنسيين، وما استطاع هؤلاء أن يقفوا في وجهه أو يصدوه ففتحها، ولم تهزم له راية قط.

بقايا قلعة في برشلونة

هواية جمع الغبار

خاض الحاجب المنصور في حياته أكثر من خمسين معركة، وكان غلمانه يأتون إليه بعد كل معركة وينفضون ما علق على ثيابه وأسلحته من غبار ويجعلونها في قارورة أعدت لهذا الغرض، لقد أوصى أن تدفن معه في قبره هذه القارورة لتكون شاهدة له عند الله يوم العرض والحساب.



صندوق فضي تم تنفيذه بأمر الخليفة الحكم الثاني لابنه هشام





السيطرة على المغرب الأقصى

ثار البربر على الفاطميين في المغرب عام ٣٧٥هـ، فأرسل الحاجب المنصور ابنه عبد الملك ليعاونهم في إنهاء الحكم العبيدي "الفاطمي" الذي كان يتولى لهم الحسن بن مكنون كما مرّ ذكره.

هُزم الحسن بن مكنون والجنود الفاطميون، وسيطرت قوات الأندلس على الوضع، فعين الحاجب والياً يدعى "الحسن السلمي" على المغرب الأقصى، واستطاع هذا أن يهدئ الأوضاع حين عيّن نائباً عنه رجلاً من البربر اسمه "الزيري المغراوي"، وأصبحت دولة الأندلس إلى أقصى اتساع لها في زمن الحاجب، ولم يمر على الأندلس حاكم مثله، رجل فريد من نوعه، أية همة جعلت من هذا الأكّار (الذي يعمل بالأجرة) أن يحكم الأندلس، ويبسط نفوذه على المغرب، ويهزم دولة النصارى في الشمال، والشمال الغربي، والشمال الشرقي في الأندلس، وأظنه كما قال الشاعر:

نفسُ عصامٍ سوّدت عصاماً ... وعلّمته الكرَّ والإقداما

كان الحاجب في أول حياته (أكّاراً) يحمل أمتعة الناس بأجرة على دابة من الأسواق إلى بيوتهم أو بالعكس، وأصبح نجماً يحكم دولة واسعة بطموحه وهمته، فلا نامت أعين الكسالى والعابثين.



ولده يثور عليه



إبريق مـــاء على شكل طاووس من مظاهر ترف الملوك في الزهراء

في عام ٣٧٩هـ ثار ولده عبد الله الذي كان قد عينه حاكماً على مدينة "سانت استيفان" عليه، وأعلن التمرد على أبيه يريد أن يستقل بدويلة، فغضب المنصور غضباً شديداً، غضبة مضرية كما يقال، فحاصر المدينة، ثم اقتحمها، ففر ابنه إلى البشكنس محتمياً بهم، فأرسل المنصور إلى "غرسيه" حاكم البشكنس رسولاً يطالبه بتسليم الولد المتمرد ومن معه.

ظن "غرسيه" أن هذه فرصة له، فرفض تسليمه، مما جعل المنصور يتوجه إليهم بجنوده، واستمر القتال المرير أياماً، إلا أنه أنهى القتال لصالحه فهُزم البشكنس، بعد أن كُسروا في ساحات القتال، واحتل المنصور حصن "وَخْشمة"، فاضطر غارسيه أن يطلب منه الصلح والسلم، بعد أن قبل بطلب المنصور، فسلم اللاجئين ومن بينهم ابن الحاجب جميعاً، فأمر المنصور بقتل جميع الذين التجؤوا إلى النصارى وكانوا قد تعاملوا معهم ومن بينهم ابنه.



الجهاد مع نصارى ليون

ثار حاكم ليون الذي ظن أن هذا الاضطراب الذي وقع بين الأب وابنه لصالحه، فاجتاز ثغور المسلمين عام ٣٧٩هـ ذاته، لكن حاكم مدينة الثغور سالم تصدّى له وهزمهم ثم تبعهم في أراضيهم، وقام الملك بهجوم مضاد إلا أن وزير الحاجب "قند" تمكن منه ومن قواته وأسر الملك بعد أن أصيب "غرسية" بجرح بليغ، ومات متأثراً بجراحه بعد فترة.

جاء ابنه "شانجة" يطلب الصلح، ويرضى بدفع الجزية، ويطالب بجثة أبيه فأرسلت إليه، ولكن أنى يكون له ولغير المسلمين الوفاء بالعهد؟

إذ خان وهاجم أراضي المسلمين في عام ٣٨٥هـ، فتوجه الحاجب المنصور يقود الجيش بنفسه ويهزم جيشه ويوقعه في الأسر ويحمله معه إلى قرطبة، وتعهده المنصور بالعناية والرعاية.



وزير الحاجب "قند" يصد هجوم النصارى ويأسر الملك



خيانة في المغرب

ومن الجنوب ثورة إذ قام "زيري المغراوي" الذي كان قد عُيِّن على الشمال الإفريقي حاكماً من قبل الأندلسيين، بثورة على الحكم الأندلسي، فسيطر على المغرب الأقصى بكامله ما عدا مدينة "سبتة"، وفشل جيش الحاجب الذي أرسله بقيادة ابنه عبد الملك، فماذا فعل المنصور؟ وهل ترك الوضع على ما هو عليه؟ كلا، بل اتصل ببعض زعماء الثورة سراً يغريهم بالسلطة وبالأموال، فأقدم أحدهم على طعن زيري لكنه لم يُقتل! ودب النزاع بين أنصاره، فبادر المنصور أثناء ذلك فأرسل جيشاً آخر يقوده ابنه عبد الملك وقاتل البربر وأنصار زيري قرب طنجة، وانتصر عليهم، وفرّ زيري وأعوانه، واستطاع عبد الملك أن يبسط سيطرة الأمويين على الشمال الإفريقي (تونس والجزائر والمغرب) مرة أخرى، وأرسل "زيري" إلى المنصور يطلب الصفح فعفا عنه.



رابعاً غزوة شنت ياقب (سانت يعقوب)



الهجوم على جيليقية

عزم الحاجب المنصور أن يقتحم (شنت يعقوب) عاصمة "جيليقية"، آخر معقل للنصارى في شمال غرب الأندلس وكانت منطقة وعرة وتعد من أخطر المناطق الأندلسية، لم يصل المسلمون إليها إلا أيام الفتح من عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد، ثم خرجت من أيدي المسلمين، فقرر المنصور أن يعيدها إلى حكم المسلمين، إذ أيقن أنه من المحال تحقيق الاستقرار أو ضمان الهدوء في الأندلس مع بقاء "جيليقية" صامدة قوية، لذلك قرر أن يقتحم هذه المنطقة الصعبة، فوجود عشرات الأنهر ما بين عاصمته قرطبة وبين شانت ياقب، تجعل العبور بالغ الصعوبة، بالإضافة إلى سلاسل الجبال الوعرة.

عاصمة روحية

وكانت هذه المنطقة قاعدة روحية للنصارى في الأندلس أيضاً، إذ كانت منزلتها عندهم تأتي بعد القدس وروما، ومكانة كنيستها عندهم كمكانة الكعبة عند المسلمين -وللكعبة المثل الأعلى- احتلت الكنيسة في جيليقية هذه المكانة لوجود قبر هناك يزعمون أنه قبر "يعقوب الحواري" أحد حواري عيسى عليه السلام، وأنه قد خرج من القدس يبشر بدين المسيح ويدعو إلى الله حتى وصل إلى هذه البقعة، ولما مات بعد عودته إلى بلاد الشام، حمل أصحابه رفاته ليدفنوه في أقصى المكان الذي بلغه في دعوته، فدفنوه هنا ولقبت الكنيسة باسمه: "سانت يعقوب"، ثم بلغتهم "ياقب"، يحلف النصارى باسمه ويحجون إليه، ويعتكفون عنده.

حملة برية بحرية

رأى المنصور أنه لا يمكن أن يصل إلى هذه البقعة إلا بالكتمان، كتمان استعداداته وطريق مسيره ليأخذهم بغتة، وكيف ذلك؟ إذ لا بد أن تصل الأخبار إلى أهل "جيليقية" للأسباب التي ذكرت.

أمر المنصور بإعداد جيش البر من مدينة "سالم" ثم ينطلق منها، وأن يعدَّ الجيش البحري (الأسطول) من مدينة "قصر أبي دانس" وسيحمل الأسطول العدة والطعام، ومع الأسطول قوات الهندسة.

وقد أخذ الاستعداد لهذه الغزوة وقتاً طويلاً، لأن الخطة التي رسمها المنصور قد نفذت بدرجة مذهلة في إطار حملة (برية بحرية) معاً.

أمر المنصور أن تبدأ الحملة في الرابع والعشرين من جمادى الآخر عام ٣٨٧هـ وقاد بنفسه هو القوات البرية حتى وصل إلى نهر "دويرة" وأمر أن تدخل السفن في النهر وجانب المحيط الأطلسي، واصطفت السفن سفينة جنب أخرى حتى تشكل جسراً يمكن العبور عليه، ويتزود الجند مما فيها من الطعام.

ابتكر الحاجب طريقة اهتدى إليها تفكيره ونفذتها قوة عزيمته، جيش بري يعبر جسوراً تشكلها السفن على عدة أنهر فانظر إلى الإبداع كيف يتفجر عندما توجد الإرادة والعزيمة والطموح.



سفن الحاجب تعبر المضائق النهرية وتمون الجيش

سلاح الهندسة

فتح في طريقه مدينة "بورتو" موضع التقاء القوات البرية والبحرية، ثم جازها، وكان سلاح الهندسة يوسع للجند الممرات الضيقة، ويردمون العوائق البسيطة، وعبروا الجبال إلى أن وصل الجيش إلى حصن بلاي ففتحه، ولم يكن المسلمون قد فتحوه من قبل، وأتم طريقه، يعبر السهول والجبال حتى وصل إلى حصن "شنت ياقب" في الثاني من شهر شعبان أي بعد مسيرة استغرقت أربعين يوماً تقريباً.

المدينة الخالية

لم يكن سكان تلك المدينة يعتقدون أن المسلمين سيصلون إلى مدينتهم، لكنهم لما رأوا طلائعهم ووصلتهم أنباء تقدمهم أسقط في أيديهم، ففروا إلى الجبال وأخلوها بسرعة توازي سرعة تحرك الجيش الإسلامي، دخل المسلمون المدينة وليس فيها من أحد، بغير قتال يذكر، فجمعت الغنائم الكثيرة التي تركها أهل المدينة.

تسامح وحزم

قرر المنصور أن يمر على القبر المقدس لدى النصارى هناك، فلما وصل إليه لم يجد أحداً سوى شيخ طاعن في السن عاكف عليه، فسأله الحاجب: ماذا تفعل هنا؟ فأجاب الشيخ الهرم: إني أؤنس صاحب القبر. فتعجب منه المنصور ومن وفائه لهذا القبر الذي لا ينفعه في الدنيا ولا في الآخرة، وصدق الله تعالى القائل عن من يعمل ويتعب وينصب وهو في الآخرة، ﴿عاملة ناصبة﴾ (الغاشية٣)، فأعطى ابن أبي عامر أوامره بتدمير كل مصنع حربي، وإحراق السفن، وهدّ الأماكن الحصينة، دون أن يمس القبر أو الكنائس، ثم أمر بالرحيل والعودة وقد وصلت أخبار فتوحاته إلى رومة والقسطنطينية.



لا يأتي الزمان بمثله

قال الشاعر عن الحاجب المنصور (وقد كتبت فيما بعد على قبره):

آثـاره تنبيك عـن أخبـاره	حتى كأنك بالعيـــان تـراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله	أبداً ولا يحمي الثغور سواه

وقد صدق فيما قال فيما يتعلق بمهمته وحرصه على الأمـة ومـجـدها عندمـا نقـارنه بالحكام الذين جاؤوا بعده.

الحاجب المنصور

خـاض المنصـور خـمـسين معـركة، ولـم تهـزم لـه رايـة قط، وقد وطئت قدماه ما لم تطأه قدم مسلم قبله. خمسون معركة بلا يأس ولا قنوط ولا استـسـلام ولا راحــة، فـأي همـة وأي طموح هذا.

قصص رائعة

واليك بعض القصص التي جرت في أيام الحاجب المنصور والتي تدل على ذكائه وهمته:

الأسيرة

أرسل يوماً رسوله إلى ملك البشكنس زمن السلم والمعاهدة، إذ يعم الأمن وتتبادل السفارات، وكان من شروط المعاهدات بينه وبين ذاك الملك: ألا يبقى أسير مسلم في بلاده. ولما وصل الرسول إلى ملك البشكنس أكرمه إكراماً زائداً، وسمح له أن يتجول في مملكته كما يحب، وان يلتقي بمن يريد، فدخل هذا الرسول إلى كنيسة من كنائسهم، بينما هو هناك أقبلت إليه امرأة فكلمته، وعرفته بنفسها وقالت: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها؟ وزعمت أن لها سنوات طويلة في الأسر، هي وابنتها، وحلفت عليه أن يبلغ الحاجب المنصور شأنها.

ولما قدم الرسول فأخبر المنصور بمشاهداته في تلك المملكة، وما لاقى من أمور، وما أعجبه وما لم يعجبه، وأخبر المنصور بكل ما رأى وسمع، فقال له المنصور: أو غير هذا؟ قال: نعم، وذكر قصة المرأة الأسيرة، وسردها له. فقال له الحاجب: ويلك، كان ينبغي أن تقدم خبرها على كل شيء، ثم أعد الجيش مباشرة متوجهاً إلى بلاد البشكنس، اندهش ملكهم وأرسل يريد أن يعرف ما السبب؟ فأخبره الحاجب بأن هناك مخالفة صريحة لشروط الصلح والاتفاق، وذلك أن أسيرة مسلمة مع ابنتها ما زالت مقيدة عندكم، فاستطلع الملك الخبر، وتتبع خيوط القصة حتى وجد تلك المرأة فأعادها مكرمة عزيزة إلى قرطبة، واعتذر للحاجب بأن أحد جنوده قد تصرف هذا التصرف وليس له هو علم بذلك، فلما جاءت المرأة الأسيرة أكرمها الحاجب المنصور أيما إكرام.

فإن وجد أسرى من المسلمين بيد الأعداء، فإن الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة، حتى لا تبقى في المسلمين عين تطرف، حتى تخرج إلى استنقاذهم إن كان عدد المسلمين يحتمل ذلك، أو تُبذل جميعُ أموالهم في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم.

هذا ما يقوله علماء المسلمون إن كان بيد العدو أسير مسلم، وعلى الأمة السعي لفكَ أسره الأقرب فالأقرب ثم الجميع.



منظر لكنيسة نصرانية في أرض الأندلس



طابت لنا العيشة

وقصة أخرى أعجب من التي سبقت: غزا الحاجب المنصور بلاد البشكنس غزوة، فدخل فيها أعماق بلادهم، وأصبح وراء الجبال، وفي أثناء عودته سالماً غانماً وقد فعل الأفاعيل في أرضهم وأملاكهم، كان القوط النصارى قد تجمعوا في مضيق ضيق جداً وحازوا على أطرافه وهيؤوا سبلاً كثيرة لمنع الحاجب المنصور وجنوده من عبوره، ومن أصعب المواجهات، مواجهة عدو تمكن في ممرّ إجباري.

فماذا فعل الحاجب المنصور؟

لم يقتحم، ولم يقاتل! بل اختار مدينة قريبة من ذلك المكان، فنزلها ووزع جنوده في أرجائها، يعملون ويحرثون، يبيعون ويشترون، ويقوم بكل متطلبات الحياة فيها، وبعث الحاجب الجند بالسرايا يميناً وشمالاً يقتلون ويأسرون ويغنمون، حتى ضج القوط من غاراتهم، وأرسلوا إليه أن اعبر المضيق أنت وجنودك، إلا أن المنصور رفض قائلاً: لقد طابت لنا المعيشة هنا وإن هذه البلاد جميلة، يطيب سكناها، وسأبقى إلى السنة القادمة، لأغزو في الصيف القادم إن شاء الله تعالى، وكان جنده يأتون بقتلى النصارى منهم ومن القرى في السرايا والغارات ويلقونها أمام الوادي، حتى ضج سكان المنطقة إلى الذين في الوادي أن دعوه يعبر، فأرسلوا ثانية بذلك إلى الحاجب المنصور الذي قبل أن يمر عبر المضيق برجاله وذلك بشرطين:

١-أن يحمل النصارى ما معه من الغنائم والأسلاب على دوابهم أمامه.

٢-وأن يقوموا هم بإزالة الجثث التي ألقاها على الطريق بفم الوادي.

رضي القوط بذلك تخلصاً منه، وذلك هو العزم والحزم من المنصور رحمه الله تعالى.



تقويم في قرطبة

الجاسوس

استقر الحاجب المنصور في إحدى غزواته بمدينة سالم وهو الثغر الذي بناه هو على حدود الدول النصرانية في الشمال، وخطرت له خاطرة تدل على مدى ذكائه وحسابه وتوقعاته، فاستدعى أحد فرسانه في ليلة شديدة البرد، كثيرة الأمطار، وكلّفه أن يخرج إلى مكان من المضيق سمّاه قرب هذه المدينة، وقال له: من مرّ بك في هذه الليلة تأتي به إليّ كائناً من كان.

فاستغرب الفارس -في نفسه بالطبع- ومن يخرج في مثل هذه الليلة؟ البرد القارس والمطر الغزير.

نفذ الفارس الأمر، وبقي يرصد الطريق يرجف من البرد تحت وابل المطر، وإذا بشيخ كبير من النصارى الذين كانوا يعيشون في هذه المدينة من أهل الذمة، على دابة ومعه آلة الحطب من فأس وحبل، فسأله الفارس بعد أن استوقفه: إلى أين أيها العجوز في مثل هذا الوقت؟ وماذا تفعل؟

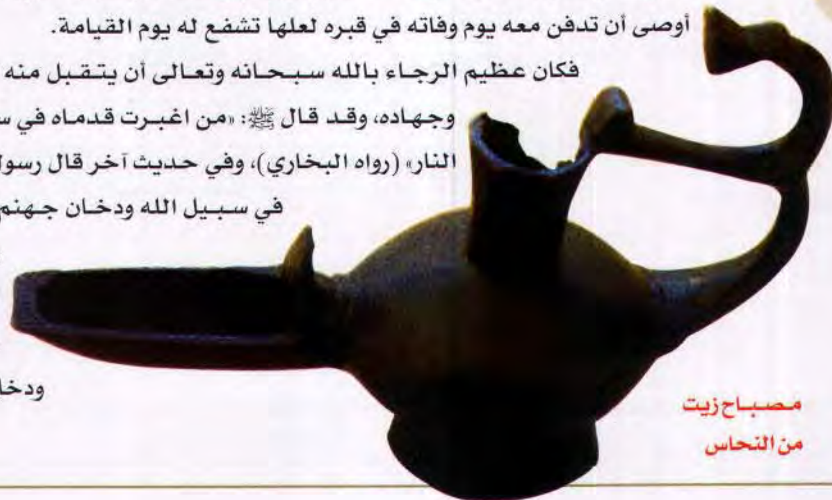
قال العجوز: أريد حطباً لأهلي ليستدفئوا، فتركه الفارس يواصل مسيره، لكنه تذكر أمر الحاجب المنصور وحزمه، فأوقف العجوز قائلاً: لا بد أن تأتي معي إلى الأمير، قال: وماذا يريد الأمير مني؟ دعني أتابع سيري. إلا أن الفارس أجبره على المثول بين يدي الحاجب، فأمر بتفتيشه وتحري ملابسه فما عثروا على شيء مريب، لكن المنصور أمر بتحري بردعة الحمار، وبعد تحريها وجدوا فيها خطاباً من بعض النصارى القاطنين في جهة من هذه المدينة يدلون العدو على عورة من عورات المسلمين كاتبين: أن اهجموا على مدينة سالم وعلى جيش المنصور من الجهة الفلانية -مكان سمّوه- ونحن سنساعدكم على تلك المباغتة.

تملكت الدهشة الحارس، واستفهم من أميره: وكيف عرفت أن هذا الجاسوس سيمر في تلك الليلة؟ فقال: وهل تنتهز العيون (الجواسيس) إلا أمثالها؟ ومن ملك البلاد عليه أن يسهر لحمايتها وحفظها، ويعرف مداخل المتربصين بها، فلما كان الصباح جمع أولئك الطابور الخامس، فأمر بضرب أعناقهم وكذلك عنق ذلك العجوز الحطاب الكذاب!.

قارورة الغبار

أعد الحاجب المنصور لنفسه كفناً -إن مات يكفن به- من حلال كسبه، وكسب أهله، وكان قد أعدّ كما سبق قارورة -أو صرة قماش- فيها ما علق بثيابه وجسده من غبار الغزوات أو أثناء سيره إليها، وقد أوصى أن تدفن معه يوم وفاته في قبره لعلها تشفع له يوم القيامة.

فكان عظيم الرجاء بالله سبحانه وتعالى أن يتقبل منه أعماله وبخاصة غزواته وجهاده، وقد قال ﷺ: «من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار» (رواه البخاري)، وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً» هذه رواية النسائي، وفي الترمذي: «لا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم».



مصباح زيت من النحاس





الراية المنسية

كان كلما غزا غزوة، رفع الجند الرايات، وحين ينزلون يثبتونها على الأمكنة العالية، فيأخذونها حين يرحلون، وقد صادف أن نسي أحد الجنود راية رفعت على تلة بين عدة حصون كان المسلمون قد اقتحموها وفر أهلوها وجنود العدو منها إلى الجبال القريبة منها، أو تفرقوا بين شعب الجبال، وصار هؤلاء يراقبون الراية المنصوبة التي ترفرف للدلالة على العزّ ووجود الجيش من بعيد، ويظنون أن هناك قوّة باقية من المسلمين لتباغتهم إذا نزلوا إلى الحصون الخاوية، وهكذا أياماً إلى أن استيقنوا برحيل المسلمين جميعاً وأن هذه الراية منسية هنا، لذلك يذكر المؤرخون عنها باسم غزوة الراية.

عزّ الراية المنسية، وأي عزّ، وكأنه مثل مخاطبة الرشيد للسحابة، ذلك يوم كنا أمة عزيزة.

باب العدالة في غرناطة

محاكمة الوصيف

يضاف إلى ذلك العز والعظمة عدله بين الناس، والعدل أساس الملك، وبالعدل قامت السموات والأرض، وقد ذكرت عنه قصص عدة في عدله وقبوله للحق وسعيه له دون محاباة أحد، فمنها أنه كان جالساً ذات يوم في مجلسه إذا برجل من عامة الناس يطلب الإذن بالكلام فأذن له المنصور، فقال الرجل: إن لي مظلمة عندك، فقال المنصور: ومن ظلمك؟ فأشار الرجل إلى وصيف واقف عنده والوصيف هو "المحبوب الذي يُقرَّب من الرجل"، فسأله الحاجب المنصور: هل اشتكيت إلى القاضي؟ قال: نعم، ولم يفعل شيئاً ولم أصل إلى حقي ولم يرفع عني المظلمة ، فغضب غضباً شديداً إذ وجه كلامه إلى القاضي: يا عبد الرحمن، أعجزت أن تأخذ العدل، أو كنت مهاناً فلم تصل إليه؟ فقال له القاضي: هذا وصيفك، وكيف لي أن أقاضيه لمكانته عندك؟

فما كان من المنصور إلا أن أمر ذلك الوصيف: أنِ انزل، واخلع ملابسك وأزل الشارات والرتب، ففعل ذلك، ثم قال له: اجلس مع خصمك أمام القاضي.

واستمع القاضي إلى الرجل والى الوصيف، فحكم على هذا الأخير بعد أن استمع إلى الشهود والأدلة، وأوصل إلى الرجل حقه وردّ عليه مظلمته.

ثم أمر الحاجب المنصور بضرب ذلك الوصيف ضرباً مبرحاً، فسئل: لم تفعل به هذا؟ قال: ما ظلم إلا لمكانته مني، وعليه أن يُعاقب لاستغلاله هذه المكانة.



جهاد متتالي

ومن غزواته أنه عندما نقض نصارى الشمال بقيادة "شانجة" العهود مع المسلمين عام ٣٩٠هـ فتجمعوا واحتشدوا للإغارة على الدولة الإسلامية قرب جبال "الجرْبية"، فهب المنصور بذاته يقود جيشاً وأوقع بهم هزيمة نكراء قرب تلك الجبال، وكانت إمداداته تصل إليه من مدينة سالم ثم قفل راجعاً إلى قرطبة، ولكنه ما أن ينزل من صهوة جواده حتى يمتطي جواداً ليعود مجاهداً في سبيل الله.



منظر لمقبرة سلاطين الحمراء

الموت مجاهداً

خرج من العاصمة وهو ابن الستين لغزو الشمال كرة أخرى حتى وصل إلى مدينة سالم ليعد العدة لغزوة أخرى، فجاءه الموت الذي هو نهاية كل حيّ، وهو على الفراش لمرض أصابه، وقيل بجرح أصابه كان به، وكان يدعو ربه راجياً أن يأتيه الموت وهو على طريق الجهاد، فمات رحمه الله في عام ٣٩٢هـ.
توفي رحمه الله بعد جهاد يقرب من ثلاثين عاماً، وبعد أكثر من خمسين غزوة، ولم يتوقف عن البذل والعطاء، ورفع شأن الأندلس إلى مكانة لم تبلغها في عصر من العصور لا قبله ولا بعده، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له.
وأذكر هذه القصة لتدل على عظمته أولاً، ولما أصاب الأندلس بعد وفاته من مصائب الدهر، والتمزّق المدمّر لهذا المجد الذي بناه الحاجب المنصور.

الكافر على قبر الحاجب المنصور

ذلك أن مولى المستعين بالله بن هود (وسيأتي خبر دويلة بني هود من دول الطوائف) يقول: لما توجهت إلى مقابلة "ألفونسو" وجدته في مدينة سالم، وقد نصب على قبر المنصور بن أبي عامر سريره، وامرأته متكئة إلى جانبه، فقال لي: يا شجاع (اسم المولى) أما تراني قد ملكت بلاد المسلمين وجلست على قبر مليكهم؟ قال فحملتني الغيرة أن قلت له: لو تنفس صاحب هذا القبر وأنت عليه، ما سمع منك ما يكره سماعه! ولا استقرّ بك قرار! فهمّ بي، فحالت امرأته بيني وبينه، وقالت: صدقك فيما قال، أيفخر مثلك بمثل هذا؟

اسم خالد

وذهب المنصور إلى لقاء ربه، وسيبقى اسمه خالداً مع أسماء الأبطال في تاريخ المسلمين، ولكلّ خصوصيته وشخصيته، وكلّ مجزيٌّ بعمله. و﴿من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ (النساء ١٣٤) وقد أشار بعض المؤرخين إلى أنه ربما كان ينوي غزو جنوب فرنسة وأوروبة، ويخترق جبال البيرينيه.

منطقة نفوذ
الحاجب المنصور في الأندلس

فرنسا
البحر الأبيض المتوسط
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
أردونة
قرقشونة
جبال البرانس
شنتياجو
خيخون
صخرة بلاي
ليون
جبال قنتبريه
رنسسفال
أشترقة
نافار
أرغون
قطالونية
ليون
جليقية
قشتالة
جيرونه
كوره
بلد الوليد
نهر دويره
سرقسطة
سرقسطة
برشلونة
وادي رامه
وادي الحجارة
جبال الشارات
طركونة
مدريد
نهر تاجة
بلنسية
قطلونة
طلبيرة
طليطلة
طليطلة
الغرب
نهر شقورة
بلنسية
بطليوس
ماردة
نهر الوادي الكبير
دانية
باجة
لفنت
شاطبة
جبال قرطبة
نهر سرقسطة
دانية
اريوله
قرطبة
مرسية
لبله
نهر الوادي
أشبيلية
قرمونه
غرناطة
جبال الثلج
مرسية
وليه
أشبيلية
غرناطة
قرطجنة
المرية
شدونه
مالقة
طريف
جبل طارق
سبتة
المغرب
طرف جليقية
نهر مينة
نهر ابره

منطقة نفوذ الحاجب المنصور
نهر
مدينة
جبال
100 km

ملخص أحداث عهد الحاجب المنصور

٣٦٦ هـ	تولي هشام المؤيد بالله الحكم وعمره ١١ سنة !!.
٣٦٦ هـ	ابن أبي عامر (قائد الشرطة) يحمي الخليفة الصغير من محاولة انقلاب الصقالبة ويقتل عم الخليفة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .
٣٦٧ هـ	إقالة الوزير المصحفي وتعيين ابن أبي عامر وزيراً وحاجباً .
٣٦٨ هـ	استئثار ابن ابي عامر (الحاجب المنصور) بالحكم .
٣٧١ هـ	صراع بين الحاجب المنصور وعمه (والد زوجته) غالب بن عبد الرحمن ينتهي بقتل غالب .
٣٧٣ هـ	غزوة ليون العظمى التي انتصر فيها الحاجب المنصور .
٣٧٤ هـ	فتح برشلونة .
٣٧٩ هـ	ثار ولده عبد الله عليه فأمر بقتله ومن معه .
٣٨٦ هـ	قام (زيري المغراوي) بثورة في المغرب استطاع أن ينهيها الحاجب المنصور .
٣٨٧ هـ	غزوة شنت يانت (سانت يعقوب) التي انتصر فيها الحاجب في جيليقية .
٣٩٢ هـ	وفاة الحاجب المنصور وهو يستعد للجهاد رحمه الله تعالى .
٣٩٢ هـ	تولي عبد الملك الحاجب المظفر ابن الحاجب المنصور .
٣٩٩ هـ	وفاة عبد الملك وتولي أخيه عبد الرحمن (شنجول) .
٣٩٩ هـ	شنجول يطلب الخلافة من هشام المؤيد بالله .
٣٩٩ هـ	الأمويون يثورون ويعزلون هشاماً المؤيد بالله .



الحاجب المنصور.. حقائق وعبر

إرادة لا تقهر وعزيمة لا تعرف العجز أو الكلل،، أكّار (أجير) لم يجلس به فقره عن طلب المعالي ولا منعته قلة ذات يده عن الطموح حتى إلى أعلى المناصب !!... رجل جاء من بين الطبقة المنسية الكادحة ليعلو سدة الحكم ويصبح حاكم الأندلس !!..... رجل أصبح بقصته دليلاً من أدلة التاريخ على أنه لا شيء يقف أمام الإرادة والعزيمة،... رجل لم يصنعه نسبه ولا غناه، ولا رفعته عشيرته ولا قومه، بل صنع مجده بيده وعقله وأصبح رجل الأندلس الأول بحنكته وذكائه وجده، وقصة الحاجب المنصور كقصة عبد الرحمن الداخل لا تتركان ذريعة لمتخاذل أو متباطئ أو متكاسل، فإنه من صح عزمه وقويت إرادته فلا بد أن ينال غايته

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

وهذه دعوة إلى كل شاب أو فتاة يبدآن حياتهما فإنهما لا بد أن يجدا مصاعب كثيرة وعقبات متتالية- وهذه سنة الله في الأرض - لكن ما ينبغي لكل هذه العقبات والمصاعب أن تحول دون طموحهم أو أن تثني عزمهم عما يصبون إليه، بل ينبغي أن تزيدهم إصراراً وتحدياً وليكن لهم في أمثال الحاجب المنصور أسوة و قدوة.

- لقد تسلم الحاجب المنصور مقاليد الحكم والدولة مشرفة على فتنة عظيمة، فاستطاع بقوته وذكائه وحزمه أن ينتشلها من نيران الفتنة ويعيد لها هيبتها وعزها، لكنه ربما في بداية أمره تجاوز حد الحزم إلى الأخذ بالريبة والشبهة، كما فعل مع الوزير المصحفي، وهذه سلبية تؤخذ على الحاكم بل على كل إنسان يتعدى ظواهر الأعمال إلى خفايا النوايا، والنبي صلى الله عليه وسلم قال لخالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه حين قتل مشركاً شهد أن لا إله إلا الله: لمَ قتلته؟ فقال خالد بن الوليد: إنما قالها خوفاً وجزعاً، فقال له نبي العدل صلى الله عليه وسلم: (أشققت عن قلبه؟) بل إنه صلى الله عليه وسلم ينقلنا إلى الجهة الأخرى وهي تغليب العفو وحسن الظن فيقول: (ادرؤوا الحدود بالشبهات).

وما أجمل قول معاوية رضي الله عنه حين بعث رسالة إلى أحد ولاته يخاطبه (لاتأخذن أحداً بجريرة غيره أو بتهمة لم تثبت فإنك لأن تخطئ بالعفو خير من أن تخطئ بالعقوبة).

- ما ورد من أن الحاجب المنصور كان يجمع الغبار العالق في ثيابه وأسلحته من آثارغزواته التي تجاوزت الخمسين، وأوصى أن تدفن معه لتكون شاهدة له عند الله تعالى يوم الحساب !! وانا لنرجو الله أن يكرمه بدفاعه ورفعه راية هذا الدين.

لكننا نسأل أنفسنا ومن حولنا: ماذا قدمنا من عمل نقف به بين يدي الله عز وجل؟... هل هيأنا أنفسنا ليوم نقف فيه بين يدي مالك الملك فيسألنا عن كل ما قدمناه وما عملناه؟ ... وإن يوم القيامة ذو حسرات، فيا فرحة من جاء يوم القيامة وقد قدم صالحاً في دنياه... فيقول : يا رب جاهدت في سبيلك بالمال أوبالنفس أو بالكلمة، ويا رب: صمت وقمت وتصدقت رغبة ورهبة منك وفيك.

ويا حسرة من جاء يوم القيامة وقد نسي لقاء الله وانغمس في الشهوات والمعاصي فيقول له رب العزة سبحانه كما ورد في الحديث: يا فل (اختصار فلان للإهانة والتحقير) ألم أكرمك و أزوجك و أسودك وأسخر لك الخيل و الإبل وأذرك ترأس وتربع ؟! فيقول: بلى يا رب، فيقول له الجبار: أفكنت تظن أنك ملاقي؟! فيقول الخاسر: لا يا رب، فيجيبه الملك الديان: فاليوم أنساك كما نسيتني.

الموت باب وكل الناس داخله   ياليت شعري بعد الباب ما الدار؟
الدار دار نعيم إن عملت بما   يرضي الإله وإن خالفت فالنار

خامساً عبد الملك بن الحاجب المنصور (الحاجب المظفر)



هو عبد الملك بن محمد بن عبد الله، ولقب بالحاجب المظفر، أوصى له والده بالحكم بعده، واستمر على سياسة والده إذ أقر بالخلافة للأمويين وما زال الخليفة الرسمي هو: هشام المؤيد بالله، فبقيت الأندلس في عهده موحدة كما تركها والده، وتابع الغزوات سنوياً كعادة أبيه، ولم يتغير الوضع في الشمال الإفريقي، وكان المغراويون هم سادته، بينما تمزقت دولة النصارى في الشمال للخلافات التي نشبت بينهم، توفي عبد الملك عام ٣٩٩هـ إذ دام حكمه حوالي ست سنوات، وكانت وفاته في مدينة سالم حين كان يستعد لإعداد غزوة في سبيل الله. وتولى من بعده أخوه عبد الرحمن الملقب (شنجول)

جنود عبد الملك بن الحاجب المنصور يخوضون المعارك



منظر المنازل من إحدى الشرف العديدة في مدينة الحمراء

سادساً عبد الرحمن بن الحاجب المنصور (شنجول)



حياة الترف

الملقب بشنجول، أمه قشتالية الأصل، نشأ حياة الترف وأمضى طفولته وشبابه باللعب لم يكن يعرف الجديّة في أموره مثل والده الحاجب المنصور، أو أخيه الحاجب المظفر، تولى بالوراثة فلم يكن مهيأً لتولي الأمور، ولكنه تولى فأضاع البلاد وأظهر الفساد، لا هدف له فكأنه كما قال الشاعر:

ومن أخذ البلاد بغير جهد يهون عليه تسليم البلاد

وتلك الحياة: إذا ولينا أمثال الخلفاء والقواد الأبطال كان العز والنصر لنا بإذن الله، ولما جاءنا أمثال "شنجول" ممن همه الشهوات انتكسنا وأصابنا الذلّ وحلّ بدولتنا الدمار.

اصبحت المعازف من مظاهر التـرف بين عامة المسلمين

طلب الخلافة

ضيّع شنجول الملك والعز، ثم كان السبب الأول في ضياع الأندلس، فكان أول عمل أقدم عليه أنه يريد أن يدعي الخلافة أو يصل إليها، فما كان والده ليتجرأ على هذا المقام لأنه يعرف نسبه ويعرف أصله، والأصل أن تكون الخلافة كما مرّ في الأندلس في عصره في قريش، وكذلك كان موقف عبد الملك بن الحاجب المنصور فلم يدعيا الخلافة، وإن كان الخليفة في عصرهما اسماً بلا حكم، ولكنه المقام المحترم، والشرف المصون، فطمع شنجول بالخلافة وضغط على المؤيد بالله الذي أصدر أمراً يعلن فيه أن ولي العهد من بعده: عبد الرحمن "شنجول"، فأعلن على المنابر ذلك، فأثار الجدل بين الناس والإشاعات، من هذا؟ شنجول ولي العهد؟ ما نسبه؟ وما مكانته؟ أليس هذا قلة دراية ونقص حكمة؟



الأمويون يثورون

فاضطربت الأحوال في الأندلس، ورأى الأمويون أن الخلافة ستخرج من أيديهم، وعاشوا في حذر من ذلك فجمعوا أمرهم وثاروا، يقودهم: "محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر"، وحشد حوله أيضاً خصوم العامريين، وانتهز فرصة خروج شنجول من قرطبة متوجهاً إلى طليطلة، فسيطر على إدارات الدولة، وسيطر على العاصمة، كما سيطر على الزاهرة التي هي مقر الحكم من دواوين، فأصدر أمراً باسم الأمويين يعزل فيه الخليفة المؤيد بالله هشاماً، ويلقب نفسه بالخليفة محمد المهدي بالله.



نهاية شنجول وصراع الأمويين

ولما وصلت الأخبار إلى شنجول رجع بمن معه إلى قرطبة ليستعيد السيطرة، ودارت معركة طاحنة بين أنصاره وبين أنصار المهدي بالله، فهزم شنجول وفر من المعركة ثم قتل في نفس العام الذي تولى فيه، فانتهت سلطة العامريين، وعاد الحكم إلى بني أمية مرة أخرى، ولكن الأحوال تزعزعت في قرطبة، فالمعزول هشام لم يرض بالأمر الواقع، فجمع حوله أنصاره من بني أمية، وكذلك من بني عامر، وجرى التصادم بينه وبين المهدي بالله قُتل المهدي فيه، وعادت الخلافة من جديد إلى هشام المؤيد بالله، كل ذلك في عام ٣٩٩هـ.



ثورة الأمويين في الأندلس

تمزق الأندلس

عاشت الأندلس بعد ذهاب الخلافة وإنهاء حكم أسرة بني عامر سنوات صعبة من الفرقة والتنافس، وتمزقت إلى دول وممالك يحكم فيها أمير مستقل عن غيره، حتى بلغت جملة عددها إلى أكثر من اثنتين وعشرين أمارة، ولكن هؤلاء الأمراء المهازيل على تلك الدويلات الممزقة، لم يستعينوا ببعضهم، ولم يتفقوا فيما بينهم، بل تمسكوا بعوامل الفرقة والتمزق من العصبيات والأنانيات، فهانت لديهم مصالح الأمة، واتصف بعضهم بالغدر والخيانة، فباعوا دينهم ودويلاتهم للعدو المتربص بهم جميعاً، وراح هؤلاء يستعينون به ضد بعضهم بعضاً، ويقدمون متنازلين عن حصون ومدن ومناطق له (للعدو) ثمناً لبقائهم في السلطة والحكم، وهذه الدويلات (بهذه التسمية أليق بها من اسم الدول).

أهم المعارك والأحداث

فرنســـا

البحر الأبيض المتوسط

جزائر البليار

ميورقة

يابسة

طرف جليقية

شنتياجو

خيخون

صخرة بلاي

ليون

٣٧٣ هـ

جبال قنتبريه

أشترقة

ليـون

جليقية

قشتالة

٣٢٧هـ

بلد الوليد

الخندق

كوره

نهر دويره

نهر مينه

وادي رامه

وادي الحجارة

جبال الشارات

رنسسفال

نافار

جبال البرانس

أرغون

قرقشونة

أردونة

قطالونية

جيرونه

برشلونة

طركونه

سرقسطة

نهر ابرة

مدريد

نهر تاجة

طلبيرة

طليطلة

بلنسية

قطلونة

نهر شقورة

الغرب

لشبونة

بطليوس

ماردة

نهر الوادي الكبير

باجة

لفنت

جبال قرطبة

دانية

شاطبة

نهر سرقسطة

اريوله

قرطبة

نهر الوادي

لبله

أشبيلية

قرمونه

غرناطة

جبال الثلج

مرسية

ولبه

قرطجنة

المرية

شدونه

مالقة

طريف

جبل طارق

سبتة

المغرب

حدود المعارك والأحداث

لون مسمى

منطقة النفوذ

نهر

مدينة

جبال

0 — 100 km

الباب الثالث

دويلات الطوائف وملوك المغرب





الباب الثالث

دويلات الطوائف وملوك المغرب



الفصل الأول

دويلات الطوائف

أولاً - عهد الطوائف

ثانياً - مأساة مدينة بربشتر

ثالثاً - الصراع الإسلامي النصراني في الأندلس

رابعاً - سقوط طليطلة وبعض دويلات الطوائف

أولاً عهد الطوائف



في عام ٤٠٠هـ تمزقت الأندلس وقامت كل طائفة أو عائلة بارزة بإعلان الاستقلال في مدينة من المدن وما يحيط بها، فتمزقت الأندلس إلى ٢٢ دويلة مستغلين ضعف الأمويين وصراعهم، وبدأت فترة حالكة في تاريخ الأندلس. وهذه الدويلات هي:

بلنسية

المبارك والمظفر أعلنا الاستقلال في مدينة "بُلنسية".

دانية والبليار

وأعلن مجاهد العامري انفصاله عن سلالة الحاجب المنصور وتفرده بمدينة "دانية" والجزر الشرقية في الأندلس "جزر البليار".



حديث بين تاجرين أندلسيين وتظهر عليهما الحسرة على وضع الأندلس

أركش

وتابع مثل السابق "بنو خزرُون" معلنين انفصالهم في مدينة صغيرة تدعى "أركش".

البونت

وتفرد بحكم مدينة صغيرة تدعى "البونت" رجل يدعى "عبد الله بن القاسم".



عزل هشام المؤيد بالله

قام سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر بثورة على الخليفة هشام الملقب بالمؤيد بالله، مستغلاً فوضى الاضطرابات في المدن الأندلسية وانفصالها عن قرطبة، وسيطر على العاصمة وعزل المؤيد بالله.

عجباً أمر هذا الخليفة!

كان الحاجب الوصيّ على هشام في صغره، فلما كبر عزله شنجول، وأعاد لنفسه الخلافة بعد أن أنهى الصراع لصالحه ضد محمد المهدي بالله، ثم إنه يعزل الآن مرة أخرى الآن من قبل سليمان بن الحكم. وانظر إلى الحال عندما يولى الأمر لمن لا يستحقه وليس له من المؤهلات سوى نسبه.

ولقب سليمان نفسه "بالمستعين بالله"، وأدت هذه الفتن إلى ازدياد عدد الدويلات وتتابعها.


درهم يحيى بن إسماعيل من النحاس

وَلْبة

أعلن بنو البكري انفصالهم، وانشقوا عن قرطبة في مدينة "وَلْبة".

غرناطة

وثار رجل من البربر اسمه "زادي بن زيري" وحكم غرناطة مستقلاً.

شنتمرية (سانتا ماريا)

كذلك قام "هذيل بن عبد الملك" منفصلاً في مدينة "شنتمرية" بإدارتها.

مورور

وأعلن بنو تزيري انفصالهم في مدينة "مورور".

مرسيه

أما خيرون العامري من أقارب الحاجب المنصور فقد أعلن انفصاله في "مرسية".

اختل الحكم في قرطبة سنة واحدة (٣٩٩-٤٠٠هـ) فتمزقت الأندلس، وساءت الأحوال وتردت الأوضاع نحو الحضيض أكثر فأكثر، فبلا رأس وقائدٍ حازم يختل الأمر ويضيع الناس ويفشلوا وتذهب ريحهم.


جزء من دينار يحيى بن إسماعيل من النحاس



قرمونة

أعلن رجل يدعى أبو محمد بن برزالمدينة "قَرمونة" مستقلة وتفرد يحكمها.



المرية

واستطاع خيرون العامري أن يبسط سيطرته على مدينة "المرية".



رندة

ينشق بنو يفرون في مدينة "رندة"، ويحكمونها.



بنو حمدون يحكمون قرطبة

أما في قرطبة، فقد ثار رجل من بني حمود واسمه علي بن حمود من الأدارسة على الخليفة المستعين بالله، ويعزله، ثم يستلم هو الخلافة ولقب نفسه الناصر بالله، وما أكثر الألقاب! وذلك في عام ٤٠٧هـ.

وفي العام نفسه ثار القاسم بن حمود على أخيه علي، وتمكن من قتله، ليستلم الحكم ويلقب نفسه بالمأمون، لكن يحيى بن علي بن حمود انتزع الحكم من عمه وسيطر على مقدرات قرطبة ويعرف هذا "بالمقلي"، وما كان هذا ليحكم إلا مدينة قرطبة، ومع هذا فأطلق على نفسه أمير المؤمنين، أمير المسلمين.

ما أتفه الإنسان إذا لم يعرف حدَّ نفسه، وتجاوز عن حدوده، لا يحكم إلا مدينة! وها هو أمير المسلمين كل المسلمين أينما كانوا وأينما وجدوا!



صندوق مجوهرات من العاج، وقفل من الفضة



سرقسطة

ثار المنذر بن يحيى التجيبي على حكم قرطبة، وأعلن انفصاله وسيطرته على مدينة سرقسطة، وذلك في عام ٤٠٨هـ.

عام ٤١٢هـ
١٠٢١م

عودة الدولة الأموية

وفي عام ٤١٢هـ استطاع عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر إعادة الحكم إلى الأمويين، فأنهى حكم بني حمود الذي دام من عام ٤٠٧-٤١٢هـ، ولقب نفسه المستظهر بالله في قرطبة.

وتقول الأوضاع المتردية هل من مزيد لهذه الدويلات:

عام ٤١٣هـ
١٠٢٢م

بطليوس

انفصل عبد الله بن محمد بمدينة "بطليوس".

أطلال خربة للرومان الذين كانوا يقطنون الأندلس

عام ٤١٤هـ
١٠٢٣م

إشبيلية

واستقلت إشبيلية يحكمها قاضيها محمد بن إسماعيل بن عباد.

نبلة (لبلة)

أما في "نبلة" فقد تفرد بها أحمد بن يحيى.

نشتكي نحن الآن من تمزق المسلمين، فقارن أوضاعنا بأوضاع المسلمين في الأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري، كل مدينة دولة!! ولا تظنن أن وضعنا اليوم هو أسوأ الأوضاع، فقد مرت على تاريخنا فترات سوداء ومظلمة ولكن لابد من معرفة التاريخ والاعتبار من أخطائه واستنهاض الهمم من أجل ذلك.



ولادة وابن زيدون

جاء إلى الحكم الأموي في الأندلس عام ٤١٤هـ محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر وتلقب بالمستكفي بالله، وكان همه لا يعدو نفسه في رغباتها، وأطلق العنان لشهواته قبل أن يستلم الحكم فكيف وقد تولاه، فثار عليه الأمويون وأهل قرطبة لمجونه وأنه لم يزل معروفاً بالتخلف والبطالة أسير الشهوة، فقتلوه لأنه هان على نفسه فهان على الناس، وهو أبو الشاعرة المعروفة "ولادة" ومجلسها الأدبي في قرطبة، وقد هام الشعراء بها، منهم الشاعر المعروف ابن زيدون، وكذلك ابن عبدوس، ومما قاله ابن زيدون يتشوق إلى محبوبته ولادة بنت المهدي:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا — والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله — كأنما رق لي فاعتل إشفاقاً

وله فيها قصيدة مشهورة يعتبرها الشعراء من كنوز الأدب والتي أولها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا — وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا — شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا



بنو حمدون ثانية في قرطبة

واستغل بنو حمدون هذه الثورة بين الأمويين والفتنة التي وقعت بينهم فقاموا بثورة عليهم جميعاً وسيطروا على قرطبة مرة أخرى.



ابن جهور يسلب الحكم

لكن "محمد بن جَهْور" قام بثورة هو الآخر على بني حمود، وانتزع منهم مقاليد الحكم وسيطر على الإدارة، وأعاد الحكم إلى الأمويين شكلاً اسمياً إذ عيّن منهم خليفة يدعى هشام بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر الذي لقب "بالمعتز بالله".



باجه

استقل الحاجب بن محمد بأمر مدينة "باجة" عام ٤٢٢هـ، فهذه دويلة!



درهم خلفاء الحموديين: من النحاس إدريس بن يحيى

طليطلة

كذلك تمكن بنو ذي النون من طليطلة وبسطوا سيطرتهم عليها وانفصلوا عن قرطبة.



نهاية الدولة الأموية

وفي منتصف ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ أعلن العلماء والقادة وذوو الرأي من المسلمين سقوط الخلافة الأموية، وأسلموا زمام الحكم إلى رجل يدعى "أبا الحزم بن جَهْور"، وكان جديراً بهذه المهمة، إذ رضي أن يتسلم مقاليد الأمور على أن يجعلها شورى.

دولة الأندلس الأموية دامت ٢٠٠سنة تقريباً، أسسها عبد الرحمن الداخل وكانت عهد قوة في بدايتها، ثم جاء دور المجد والعز أيام الأمراء والخلفاء في وسطها، ثم تمزقت إلى دويلات خلال ٥٠عاماً، فوصلت إلى اثنتين وعشرين دويلة أو أكثر.


دينار عباد بن محمد من النحاس

النصارى يأخذون ثلث الأندلس

واستغل النصارى هذا التمزق -وهل فرصة أثمن من هذه- فاستردوا ثلث الأندلس في الشمال، وأرجعوا كل المناطق التي كان الحاجب المنصور قد فتحها وضمها إلى سلطة الأندلس المسلمة، وكان "شنجول" وهو السبب الأول في هذا الهوان لفساده وشهواته، ثم ورثه الذين جاؤوا من بعده لجشعهم بمنصب ولو كان على قرية، وأنانيتهم المفرطة وطمعهم بحكم ولو على أهل بلدة.


صندوق من المجوهرات

أمة ممزقة

ونحن اليوم أمة ممزقة لم تصل إلى ما يشبه تمزق الأندلس، ولن نيأس قطّ لقوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (القصص٥).

ووعد الله قائم: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض﴾ (النور٥٥).

ولكن الآمال لا يوصل إليها بالأماني وإنما بالصدق والعمل.


درهم خلفاء حمود: علي بن حمود من الفضة



ملك إسبانية النصراني

في هذه الفترة سيطر "غارسية الثاني" على مدينة "قشتالة"، وقد اغتيل سنة ٤٢٠هـ في كنيسة بمدينة ليون أثناء تأدية مراسم زواجه من أخت ملك ليون "برمودة الثالث".

جاء من بعده "شانجة" ابنه ولقب بالثالث أو الكبير، فبسط سيطرته على "قشتالة" و"نافارة"، وهجم على مملكة ليون وضمها إلى ملكه، وسمى نفسه بعد ذلك باسم ملك إسبانية، وكانت الدول النصرانية في شمال الأندلس تتوحد، ويزداد شأن المسلمين فيها سوءاً بتنازع دول الطوائف.

مات "شانجة الكبير" عام ٤٢٦هـ، وجاء من بعده ابنه "فردلند" وأكمل هذا بضمّ ما بقي من مملكة ليون إلى ملكه، وأما في الأندلس فما زال التمزق يستمر.



شانجة يوحد ممالك الأندلس الشمالية

مرسية

وفي عام ٤٢٩هـ استقل بنو طاهر بأمر مرسية.



بنو هود في سرقسطة

وفي عاصمة الشمال التي بيد المسلمين "سرقسطة" كان فيها التجيبيون، وكانوا حكاماً منفصلين أصلاً عن العاصمة، قامت ثورة ضدهم يقودها "سليمان بن محمد بن هود"، وعزل التجيبيين وأبعدهم عن الحكم، وأخضع "سرقسطة" لسيطرة بني هود، ولقب نفسه بالمستعين بالله (لا يملك إلا مدينة وريفها)!!





قام حاكم مدينة "المرية" من بني"صمادح" على ساحل البحر الأبيض المتوسط، جنوب شرق الأندلس وهي العاصمة البحرية، فيها قاعدة أسطول الأندلس وسفنها، بإعلان استقلاله وانفصاله.

دفع الجزية للنصارى!!

أما في "إشبيلية" فقد تولى بعد وفاة حاكمها ابنه المعروف "بالمعتضد بالله أبي عمرو" سنة ٤٣٣هـ، وكان من أسوأ الرجال خلقاً وديناً فحاول أن يسيطر عليها منفصلاً عن حكم قرطبة، لذلك بدأ الصراع بينه وبين الحكم في العاصمة، فماذا فعل؟

عام ٤٣٨هـ ١٠٤٧م

بربشتر تنفصل عن دويلة سرقسطة

استعان بالنصارى في الشمال، وتوجه إليهم بنفسه، فعقد حلفاً معهم لما التقى "بفرِدْلند" ورضي أن يدفع له الجزية مقابل أن يحميه من سلطة قرطبة.

وفي ٤٣٨هـ مات حاكم "سرقسطة" المستعين بالله، وتوزعت دويلته إلى عدة دويلات، أما المدينة ذاتها فقد بقيت تحت سيطرة "أحمد بن سليمان" وكان أكثر إخوته طمعاً في الحكم، ومن بينهم "يوسف بن سليمان" الذي استقل بإحدى المناطق التابعة "لسرقسطة" تسمى "بربشتر" ولها قصة ستذكر.

قصر بناه أبو جعفر أحمد بن سليمان في سرقسطة، وهو أحد كبار رؤساء الطوائف وهو من سلالة بني هود كان يطلق على القصر في البداية لقب "دار السرور".

دول الطوائف

مرقمة حسب تاريخ انفصالها

مناطق الطوائف
نهر
مدينة
جبال

0 — 100 km

1 بلنسية
2 دانية
3 البرنت
4 اركش
5 قرطبة
6 ولبه
7 غرناطة
8 شنتمريه الشرق
9 مورور
10 مرسية
11 قرمونه
12 المرية
13 رنده
14 سرقسطة
15 بطليوس
16 أشبيلية
17 لبلة
18 باجه
19 طليطلة
20 بريشتر
21 شنتمريه الغرب

فرنســـا
جليقية
لـيـون
قشتالة
نافـار
أرغون
قطالونية
البحر الأبيض المتوسط
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
المغرب

طرف جليقية
شنتياجو
خيخون
صخرة بلاي
ليون
أشترقة
رنسسفال
أردونة
قرقشونة
جيرونه
برشلونة
طركونه
سرقسطة
كوره
بلد الوليد
مدريد
طلبيرة
طليطلة
قطلونة
بلنسية
لشبونة
بطليوس
ماردة
باجة
لفنت
شاطبة
دانية
اريوله
مرسية
قرطجنة
لبله
أشبيلية
قرمونه
ولبه
شدونه
غرناطة
المرية
مالقة
طريف
جبل طارق
سبتة

نهر مينه
نهر دويره
نهر تاجة
نهر الوادي الكبير
نهر الوادي
نهر سرقسطة
نهر شقورة
نهر ابره
وادي رامه
وادي الحجارة
جبال قنتبريه
جبال البرانس
جبال الشارات
جبال قرطبة
جبال الثلج

دويلات الطوائف

الرقم	الدويلة	الحاكم	سنة الانفصال
١	بلنسية	المبارك والمظفر	٤٠٠هـ
٢	دانية والبليار	مجاهد العامري	٤٠٠هـ
٣	البونت	عبدالله بن القاسم	٤٠٠هـ
٤	أركش	بنو خزرون	٤٠٠هـ
٥	قرطبة	تناوب على حكمها بالانقلاب الأمويون وبنو حمدون وبنو جهور	٤٠٣هـ
٦	وَلبة	بنو البكري	٤٠٣هـ
٧	غرناطة	زادي بن زيري	٤٠٣هـ
٨	شنتمرية (سانتاماريا)	هذيل بن عبد الملك	٤٠٣هـ
٩	مورور	بنو تزيري	٤٠٣هـ
١٠	مرسية	خيرون العامري ثم بنو طاهر	٤٠٣هـ
١١	قرمونة	أبو محمد بن برزال	٤٠٥هـ
١٢	المرية	خيرون العامري	٤٠٥هـ
١٣	رندة	بنو يفرون	٤٠٦هـ
١٤	سرقسطة	المنذر بن يحيى التجيبي ثم بنو هود	٤٠٨هـ
١٥	بطليوس	عبدالله بن محمد	٤١٣هـ
١٦	إشبيلية	محمد بن إسماعيل بن عباد	٤١٤هـ
١٧	(لبلة)	أحمد بن يحيى	٤١٤هـ
١٨	باجة	الحاجب بن محمد	٤٢٢هـ
١٩	طليطلة	بنو ذي النون	٤٢٢هـ
٢٠	بربشتر	يوسف بن سليمان	٤٣٨هـ
٢١	شنتمرية الغرب	بنو هارون	٤٠٧هـ





في عام ٤٤٠هـ، وصل عالم إلى الأندلس كان قد تركها قبل ثلاثة عشر عاماً ليأخذ العلم من المشرق الإسلامي، هذا العالم الجليل هو "أبو الوليد الباجي"، من أكبر علماء الأندلس والعاملين والمجاهدين، نذكره لعله يكون قدوة للعلماء وطلاب العلم في عصرنا.

العالم الجليل (الباجي)

أبو الوليد الباجي

فقيه كبير معروف له مصنفات كبيرة بعضها مطبوع وبعضها مخطوط، وضاع كثير منها بضياع الأندلس، له علم غزير حصله مع الفقر والتعفف، وكان يأكل بعمل يده، أما قال رسول الله ﷺ: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل بعمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» (رواه البخاري)، فقد كان يخرج إلى تلامذته ليعلمهم وفي يده أثر المطرقة من عمله اليدوي الذي كان يمتهنه، وكان يردّ على النصارى يفند مزاعمهم ويدعوهم إلى دين الإسلام عند إثارتهم الشبهات، كان جليلاً رفيع القدر والحظ، ولد في بطليوس" ٤٠٣هـ ودفن بالمرية ٤٧٤هـ.



درهم حديد بسرقسطة: أحمد بن سليمان

دعوة الباجي لوحدة الأندلس

فابتدر الأمر بالتطواف للقيام بمهمة عظيمة، دامت رحلته ثلاثين عاماً يدعو فيها إلى التوحد ونبذ الخلافات، والتجمع في قوة واحدة، لردّ مكائد النصارى في الشمال ومن يساندهم من أهل فرنسة، يتجول في الأندلس يدعو الجميع حكاماً ومحكومين متصلين أو منفصلين، جنوداً أو شعباً إلى الوحدة الإسلامية، وإلا فستضيع البلاد وتنتهك الأعراض، وتتبدد الأموال.

دعوة عظيمة في مبدئها، عظيمة في إعلانها، عظيمة في غايتها، ينتقل بها من بلدة إلى بلدة، ومن مدينة إلى أخرى، ومن دويلة إلى إمارة، بل من قرية إلى قرية: اتجهوا أيها الناس إلى الوحدة الإسلامية، وابتعدوا أيها الناس عن دواعي الفرقة والتعصب، واحذروا عدوكم، دعوة استمرت ثلاثين سنة من حياة العالم العظيم الباجي الذي نذر نفسه لقضية أمته.

ترحيب سياسي زائف

رحب به الأمراء أينما نزل، واحتفى به الحكام في كل مكان حلّ فيه، وأظهر الجميع سرورهم بدعوته والسعي لتلبية نداءاته، لكنْ كلام في كلام، إذ لم ينزل أحد من أولئك إلى سلم العمل، ولم يرتق درجة منه.



تحريك الأمة

لم يفقد الإمام الباجي الأمل، وكان يحدث العامة بالإضافة إلى المسؤولين في كل دويلة يبصرهم بالواقع المرير الذي يعيشونه، ويظهر لهم الحالة البائسة للأندلس في تلك الفترة، ويثير فيهم العزيمة لعلهم يتحركون، والقيام بواجبهم، وسنذكر أثر هذه الدعوة فيما بعد.



مالقة وجنوب الشرق

في ٤٤٩هـ كان بنو عباد قد استولواعلى "مالقة" ثم توسعوا على حساب المنطقة حولها، فسيطروا على "نبلة"، و"ولبة" وجزيرة "شنقيط"، و"شنتمرية المغرب" و"شَلْبة" حتى وصلوا إلى المحيط واحتلوا "مرسية"، وبدؤوا يتحرشون بغرناطة، وهذه إشارة واضحة إلى مدى الإسفاف والتدني، هذه الدويلات تتنازع فيما بينها.

ميناء مالقة وتبدو حركة البواخر التجارية للمدينة (المنظر تمت معالجته بالكمبيوتر)





صراع الدويلات

لم يكتف هؤلاء الحكام المتفرقون باستقلال دويلاتهم، بل أشعلوا نيران القتال والمنازعات بينهم، مما زاد الأمر سوءاً ومهد الأمر لأعداء الأمة مستغلين تمزقها وضعفها.

فاستغل النصارى، وقام "فرْدَلند" بعبور نهر "دويرة" وحاصر مدينة "بازو" جنوب نهر "دويرة" فدافع أهلها عن المدينة دفاعاً باسلاً، وطلبوا الاستعانة بالمسلمين من بقية المناطق فما قام أحد بتلبية استغاثة هؤلاء.

لأن القوم في خُلف شديد   وما في القوم معتصم إباء

حتى اقتحم "فردلند" هذه المدينة البائسة بصورة عنيفة، فقتل أهلها، وأخذ الأسرى وانتهك الأعراض، وذلك في عام ٤٤٩هـ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

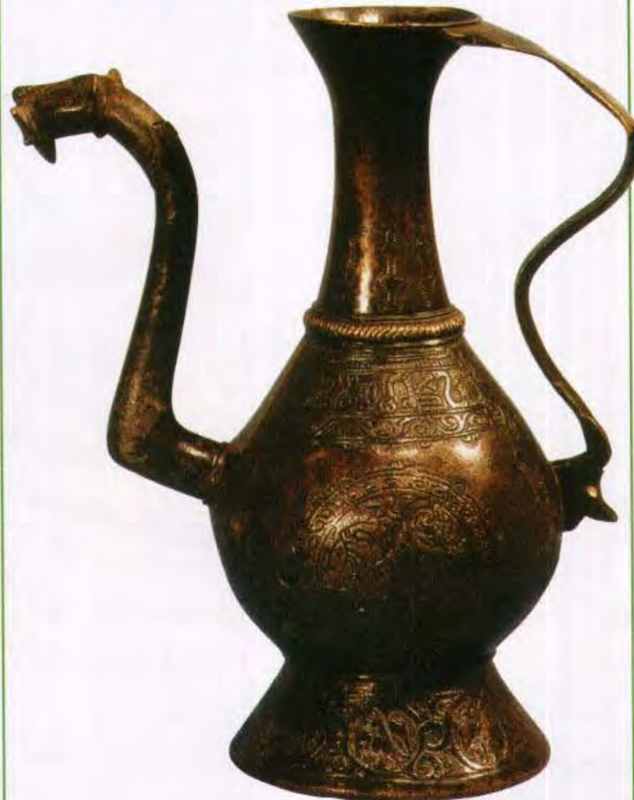
النصارى يتأهبون لقتال المسلمين


جيش «فردلند» يقتل المسلمين بوحشية



وحدة طليطلة وبلنسية بالزواج

مات في هذه الفترة في عام ٤٥٢هـ "عبد العزيز بن عبد الرحمن بن الحاجب المنصور" حاكم "بلنسية" وتولى من بعـــده ابنه "الملك المظفـر" وتزوج من ابنة المأمـون حاكم مدينة "طليطلة"، فتوحدت الدولتان، كما قيل أمة تتمزق من أجل الأطماع وتتوحد من أجل الزواج!!


إبريق، الأندلس ، نقش على النحاس



قلمرية تسقط

وتقـدم "فـردلند" نحـو "طليطلة" عـاصـمـة الوسط الأندلسي، وعـاث في ضواحيها فساداً كما فعل في القرى التابعة لإشبيلية، وسقطت بيده مدينة "قُلُمرية" في عام ٤٥٦هـ، وفعل في كل مكان أضعـاف مـا فـعله في مدينة "بازو".

ثانياً مأساة مدينة بربشتر

وقع حادث خطير، وحدث أمر مذهل جرّ الأندلس إلى أمور جسام هو سقوط مدينة "بربشتر"، وهو أمر من أبشع ما مرّللأندلس في تلك الفترة.

دويلة بني هود تتقسم

كانت "سرقسطة" من أكبر دول الطوائف، وهي مدينة قريبة من دول النصارى في الشمال، وكانت بيد التجيبين ثم سيطر عليها بنو هود، ولما مات "سليمان بن هود" الملقب بالمستعين بالله، توزعت مملكته إلى دويلات بين أبناء سليمان الخمسة، وبقيت المدينة بيد "أحمد بن سليمان" الملقب بالمقتدر بالله، ومدينة "بربشتر" تتبع "سرقسطة" وقد حكمها أخوه يوسف الملقب بالمظفر بالله.

النورمان يهجمون

تجمعت قبائل النورمان كرة أخرى عام ٤٥٦هـ مع قوات الفرنسيين واتجهوا من جنوب فرنسا وعددهم يربو على أربعين ألفاً فعبروا "البيرينية" وتقدموا نحو "سرقسطة" وكان على الطريق "بربشتر" حيث تقع شمال العاصمة حوالي ستين كيلومتراً، فحاصروها.



هجوم من الفايكنج يأخذون فيه الرقيق والأموال

الحصار والمأساة

أرسل المظفر بالله إلى أخيه المقتدر بالله يستعين به ويطلب المدد، فرفض المقتدر ذلك، وترك المسلمين محاصرين في هذه المدينة، فأرسل المظفر إلى كل الدويلات يستغيث بها، فما أجابه أحد، فتحرك العلماء في كل منطقة فما وجدوا آذاناً صاغية، فأصبح الناس في تلك الفترة أشواكاً لا ورق فيها، وكانوا أوراقاً لا شوك فيها، واشتد الحصار أربعين يوماً وجرت معارك عديدة وشديدة خارج المدينة، فلما قلت الأقوات واشتد الضيق بالمدينة، وبعد قتال شديد استطاع النورمان اقتحام القسم الخارجي من المدينة، وتحصن المسلمون بالمدينة الداخلية، مصممين على القتال والثبات، لكن أحد الخائنين دل الفرنسيين على مجرى الماء الأرضي الذي يأتي إلى المدينة ويرويها، فقطع الفرنسيون الماء، واشتد بالمدافعين العطش، وتقاتلوا من أجل الماء،

مخطوطة كتاب "طوق الحمامة عن الحب والمحبين" لابن حزم الأندلسي تاريخ هذه النسخة ٧٣٨ هـ تم اكتشافها في مكتبة جامعة ليدي

فعرض أهل "بربشتر" التسليم بشروط على النورمانديين، فرفضوا ثم اقتحموا المدينة بالقوة، واستباحوا ما فيها ومن فيها، فقتل من المسلمين على أقل تقدير أربعون ألف رجل، وعلى التقديرات العالية مائة ألف رجل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهتكوا الأعراض أمام المحارم، وقسمت المدينة إلى مناطق يديرها جندي من النورمان، إذ أصبح جميع من في تلك المنطقة عبيداً له، وكان الخطب أعظم من أن يوصف أو يذكر، واختاروا خمسة آلاف من أجمل فتيات تلك المدينة البائسة وقدموها هدية لملك القسطنطينية، وتركوا حامية من ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل فيها ثم رجعوا إلى فرنسة مثقلين بالغنائم والأسلاب.

أما يعيد التاريخ نفسه؟ أما تتذكرون صرخات بنات البوسنة، كم انتهك من الأعراض فعلى أقل تقدير خمسون ألفاً، وكم قتل من الرجال فعلى أقل تقدير مائتا ألف.

أيا أختَ سراييفوسلاماً	وان تبكي فما يجدي البكاء
يعزُّ علـــيَّ أختـــاه أنا	كثير كالحصى لكـــنْ غُثاءُ





العلماء يتحركون

هذا الحادث الأليم حرّك الباجي، فلم ينتظر أمراً من أحد أو توجيهاً من حاكم بل قام يحرض المسلمين وعامتهم، ويحث الناس للقيام بالجهاد في سبيل الله والمستضعفين إن لم يتحرك الحكام، وتحرك معه العلماء، من بينهم ابن حزم الفقيه المشهور: الحافظ، ولد عام ٣٨٤هـ، ونشأ في تنعم ورفاهية، ورزق ذكاء مفرطاً وذهناً سيالاً، وكان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وقد امتحن لتطويل لسانه في العلماء، وكان رأس أهل الظاهر في الأندلس، قيل عنه: لسان ابن حزم وسيف الحجاج قرينان وتحرك معهم جماعة من العلماء من أبرزهم:

"ابن عبد البر" الذي ولد عام ٣٦٨هـ في قرطبة، الملقب حافظ المغرب، شيخ الإسلام، صاحب التصانيف الفائقة، وله بسطة كبيرة في علم النسب والأخبار، جلا عن وطنه فكان في الغرب مدة، ثم تحول إلى شرق الأندلس فسكن "دانية"، و"بلنسية"، و"شاطبة" وبها توفي، قال عنه "ابن بشكوال": ابن عبد البر إمام عصره، وواحد دهره، وقال أبو الوليد الباجي: لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث، وهو أحفظ أهل المغرب.

و"ابن رشد الجد" (جد الفيلسوف ابن رشد): الإمام العلامة أبو الوليد، قال عنه "ابن بشكوال": كان فقيهاً عالماً، عارفاً بالفتوى، بصيراً بأقوال أئمة المالكية، سار في القضاء بأحسن سيرة، فقد كان قاضي الجماعة، ثم استعفى منه فأُعفي، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته، جميل العشرة لهم، عاش سبعين سنة، ومات في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ.

مخطوطة أندلسية قديمة للقرآن الكريم



العلماء المجاهدون

وتحركت النفوس، وتحرك المقتدر -الذي قُتل أخوه المظفر مع المقتولين من سكان بربشتر-، وأعان تجمع الباجي البالغ عددهم ستة آلاف بالسلاح والمدد، وارتفعت صيحات التكبير والتهليل متوجهة نحو بربشتر، وسار المتطوعون من الجهات إلى الثغر"بربشتر"، وحدثت معركة بعد تسعة أشهر عند أسوارها، معركة شديدة مزق فيها المعتدون، إذ لم يستشهد من المسلمين سوى خمسين شهيداً، بينما قتل من النورمان ألف وخمسمائة، وأسر الباقون، وعادت بربشتر إلى حكم المسلمين.

أربعون ألفاً يُقتلون حين تركوا التوحد وضعفت النفوس! فانظر إلى خيانات الحكام.

ستة آلاف يعيدون المدينة وينتصرون ولم يقتل سوى خمسين منهم. فانظر إلى دور العلماء.

حينما قامت إذاً دعوة الجهاد ورفعت راية الإسلام بندائه الخالد الله أكبر، وتردد صدى لا إله إلا الله محمد رسول الله في حنايا الصدور، لاقى الناس المسلمون النصر، ولما خفتَ هذا الحسّ في ثنايا النفوس واستكانت إلى الدعة لقيت ما لقيت من الأهوال والفظائع في الأبدان والأموال والأعراض.

لكن القائمين على أمور الدويلات لم يتعظوا، لقد أعمت الأحقاد أبصارهم وبصائرهم، وأماتت الشهوات الدنيئة عزائمهم.

المقتدر والباجي يتوجهون نحو «بربشتر»

ثالثاً الصراع الإسلامي النصراني في الأندلس



عام ٤٥٨هـ
١٠٦٦م

الصراع بين نصارى الشمال

مات "فردُلَند" (فرديناند) ملك النصارى الذي كان قد وحّد الدول النصرانية تحت حكمه، وتوزعت مملكته إلى أولاده الثلاثة:

سيطر "شانجة" أكبر أولاده على قشتالة، وسيطر الأوسط "ألفونسو" على ليون، بينما تفرد الأصغر "غرسية" بحكم "جيليقية" والبرتغال.

طمع الكبير في ملك أخويه، فهجم على مملكة ليون وأخضعها بينما فرّ حاكمها أخوه ملتجئاً إلى "طليطلة" التي يحكمها المأمون من بني ذي النون، فأحسن استقباله وأكرم وفادته ومن معه.

أتاح ذلك لألفونسو أن يطلع على عورات المسلمين ويتعرف إلى مداخل "طليطلة"، وقد مكث فيها تسعة شهور فعرف كل شيء عن طليطلة وهذه المعلومات كانت بداية لاحتلالها فيما بعد.

والله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم﴾ (آل عمران:١١٨)

وتلك سذاجة ما بعدها سذاجة من المأمون حاكم "طليطلة"، وغفلة أن يُدخل العدو بلاد المسلمين يجول ويصول فيها بحرية من باب الإكرام من أولي الأمر.





عام ٤٥٩هـ
١٠٦٧م

توحد دول النصارى

وتابع شانجة تقدمه بعد أن بسط سيطرته على ليون، نحو مملكة أخيه الأصغر وانتصر عليه وضمّ إلى مملكته جيليقية والبرتغال، فوحّد دولة النصارى كرة أخرى، بينما لا يزال حكام الطوائف في صراع لضم قرية أو لسلب منطقة من بعضهم بعضاً، ولا يزال القوي يعتلي على الضعيف، والكبير يبلع الصغير.

صراع بين دويلات الطوائف

قام ابن عباد فاستولى على مدن "قـرمـونـة"، "مـورو"، "أنكش"، و"رنده" حتى اضطر المظفر حاكم "بطليـوس" أن يدفع الجزية لشانجة مقابل أن يحميه.



إشبيلية تتوسع

لما توفي المظفر بن عباد، تولى الحكم من بعده ابنه الملقب بالمعتمد، وحكم إشبيلية عام ٤٦١هـ، وإشبيلية مدينة مهمة، وهي قريبة من قرطبة التي كانت العاصمة قبلها، فتحرك المعتمد عام ٤٦٣هـ بهجوم على قرطبة، واستطاع أن ينهي حكم بني جَهْور، وضم قرطبة إليه وصارت لذلك إشبيلية أكبر الدويلات في الأندلس.

صالة من صالات القصور الإسلامية الخالدة في إشبيلية

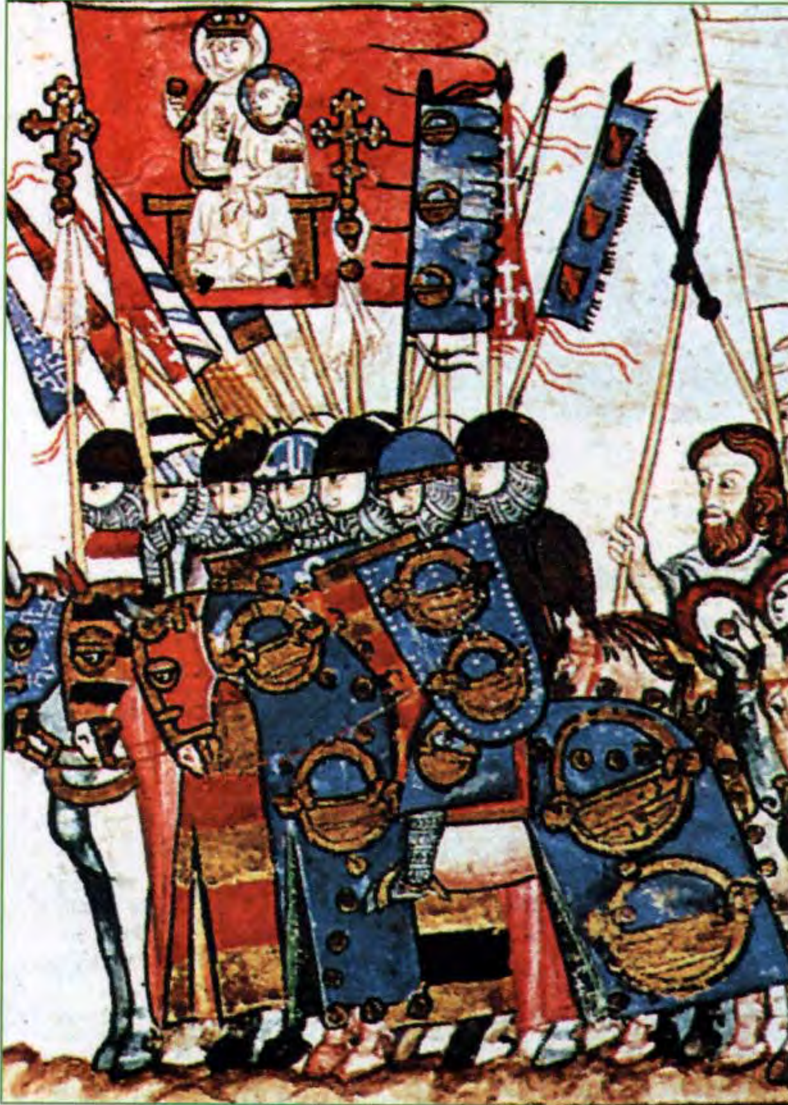




ألفونسو يتولى حكم النصارى

حادث صغير في مملكة النصارى يسبب أحداثاً جساماً فيما بعد، ومعظم النار من مستصغر الشرر، ذلك أن شانجة تحرك للاستيلاء على حصن سمورة التي كانت تحت إدارة أخته "أوراكة"، وبينما هو في الطريق وقعت عملية اغتيال له، ربما كانت بتدبير خصومه في عام ٤٦٥هـ، فقد اغتاله أحد الفرسان، فبقيت مملكة النصارى بدون ملك، فاستدعي ألفونسو الموجود في طليطلة لاجئاً لتولي الحكم، فرحل إلى طليطلة بالغبطة لما ناله وبالتكريم، ولم يطلب منه حاكمها المأمون إلا الصداقة، وقطع له ما شاء من العهود، ولكن﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ (التوبة:٧)، ولم يكن هذا كما قطع لنفسه.

أصبح ألفونسو الآن ملكاً لقشتالة وليون وجيليقية دولة واحدة، وبعد مدة قبض على أخيه الأصغر "غرسية" الذي دعاه للتباحث معه، وأودعه السجن، فقضى بقية عمره في السجن لمدة سبعة عشر عاماً.



النصارى يستعدون للقتال

الفونسو يخطط للهجوم

"ألفونسو" ذاك الطريد عن مملكته، اللاجئ في طليطلة أصبح حاكماً بأمره في دولة إسبانية النصرانية! ثم ازداد عتواً وجبروتاً في أرض الأندلس، وتظهر درجة طغيانه في حادثتين:

الأولى: الهجوم على إشبيلية.

الثانية: الهجوم على قرطبة.

كان ألفونسو قد أجل هجومه على طليطلة ولكنه أشغل نفسه بمهاجمة أريافها ومزارعها وذلك لمعرفته بقوة حصونها، وشدة بأس أهلها، يريد بعمله ذلك إضعاف طليطلة والتمهيد لاحتلالها وإسقاطها.



مطالب الفونسو من أشبيلية

أرسل ألفونسو وفداً إلى إشبيلية في عام ٤٦٥هـ يطلب إلى المعتمد بن عباد حاكمها أن يؤدي إليه الأموال التي تعهدها له، بالإضافة إلى زيادة الضرائب التي ينبغي أن تُجمع له وترسل فوراً.

سمح المعتمد لزوجة ألفونسو التي جاءت مع الوفد وهي حامل أن تستقر في قرطبة ثم تضع مولودها في جامع قرطبة الكبير لإشارة القساوسة والرهبان التي تقول: إنه إن وُلد وَلدٌ له في أكبر مسجد للمسلمين فسيبلغ ذاك الوليد شأناً كبيراً.

المفاوضات تفجر الوضع

جاء هذا الوفد وكان يرأسه وزير ألفونسو "ابن شاليب اليهودي"، ونزل خارج إشبيلية يطالب المعتمدَ بما سبق، فأرسل المعتمد إليهم وزيره "أبو بكر بن زيدون" (ابن الشاعر الشهير صاحب ولادة)، فأساء الوزير اليهودي أثناء المفاوضة والمداولة، واشتط في محادثاته، فما استطاع المعتمد أن يتقبلها إذ للذل درجةٌ وللهوان مرتبة، فغضب غضباً شديداً ورفض رفضاً قاطعاً، فأرسل سرية قتلت الوزير اليهودي فصلب في قرطبة، كذلك قتلت كل من معه -وكانوا خمسمائة رجل- إلا ثلاثة رجال ليبلغوا الخبر إلى ألفونسو بأن ابن عباد يرفض كل طلب لك وهذا جوابه: قتلُ الوزير اليهودي ومن معه.



وزراء المعتمد يخبرونه بمطالب النصارى وأسلوبهم المذل بالمفاوضات

ولعل هذا من حسنات ابن عباد إضافة إلى كرمه وشهامته فهو وإن أضاع ما أضاع وفعل ما فعل منعته العزة الإسلامية والعربية أن يلبي مطالب ألفونسو.

لا ترهقوا العرب فالعرب الكرام لهم — وإن أرهقوا وثبة الضرغام غضبانا

فتوى العلماء

ويروى أنه لما سكن غضبه، استفتى الفقهاء عن حكم ما فعل متذكراً معنى الحديث أن الرسل لا تقتل. فبادره أحد الفقهاء بالرخصة في ذلك لتعدي الرسولِ حدودَ الرسالة إلى ما استوجب به القتل، إذ ليس له ذلك، ثم التفت هذا الفقيه إلى بقية الفقهاء قائلاً: إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسلَ الرجل (ابن عباد) عما عزم عليه من منابذة العدو، وعسى الله أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجاً.

حصار إشبيلية

ولما وصل النبأ إلى ألفونسو أقسم أن ينتقم بشدة، فجهز جيشاً واحتشد عنده من جميع الممالك النصرانية، فأرسل السرايا تعيث فساداً في المقاطعات الأندلسية تحرق كل شيء، وتدمر كل بنيان حتى وصل إشبيلية، وضرب الحصار حولها، ثم أرسل رسالة إلى المعتمد يطلب منه أن يسلم إشبيلية.

فماذا يفعل ابن عباد؟ نعم ماذا يفعل؟ لم يتحرك أمير من أمراء الطوائف المتخاذلين -وهذه أكبر دويلة (إشبيلية) ستسقط أمام أعينهم، وسيحل الدمار بعدها على مدنهم هم ودويلاتهم، ولكن:

أهيبُ بقومي إلى المكرماتْ ... وما من ملبٍّ وما من مجيبْ



النصارى يطوقون ويحاصرون أشبيلية

مروحة المرابطين

أرسل إلفونسو إلى المعتمد برسالة يقول له فيها: كثر بطول مُقامي في مجلسي الذبان (الذباب)، واشتد عليّ الحرّ فألقِ إلي من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عني.

لكن الردّ الذي أرسله ابن عباد ما كان ببال ألفونسو، وجعله يفك الحصار وينسحب، فماذا كتب ابن عباد:

كتب على ظهر رسالة ألفونسو: قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية * في أيدي الجيوش المرابطية تروّح منك لا تروّح عليك إن شاء الله.

ولما ترجمت له الرسالة، أطرق ألفونسو برأسه وقد فهم إشارة ابن عباد: (أي أن ابن عباد سيطلب مروحة من المغرب العربي حيث توجد دولة المرابطين الإسلامية، أي أنه سيستنجد بالمرابطين إن لم يفك ألفونسو الحصار) فقرر الرحيل خوفاً من إدخال جيوش المرابطين على أرض الأندلس فتقلب الموازين لصالح المسلمين ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ (الأحزاب ٢٥).

* اللمطية: أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب كانوا يصنعون الجلود شديدة القساوة.

المرابطون يحصنون الثغور والوديان



استقلال بلنسية

توفي المأمون بن ذي النون في عام ٤٦٧هـ، وخلفه حفيده الملقب "بالقادر بالله" في حكم طليطلة، وكان من أسوأ الحكام الذين مرّوا بالأندلس من دويلات الطوائف، وكانت مدينة "بلنسية" تابعة لدويلة ذي النون في طليطلة، فلما مات المأمون أعلن حاكمها "ابن روبش" محمد بن عبد العزيز الذي كان وزيراً للمأمون هناك انفصاله عن القادر واستقل بها.





اتحاد سرقسطة ودانية وبلنسية

وفي العام التالي ضم بنو هود (الذين كانوا يحكمون دويلة في سرقسطة) دويلة "دانية"، واتصلوا "بابن روبش" لضم "بلنسية" إلى سرقسطة، إذ تزوج "أحمد المستعين بن المؤتمن" من ابنته، ولم يلبث أن توفي "ابن روبش"، واتفقت الدويلتان أو اتحدتا.



أدوات الكتابة للخط العربي، علم اشتهر به العرب فساعدهم في تدوين الكتب العلمية القيمة



تهديد طليطلة

بدأ ألفونسو شغله الشاغل للاستيلاء على طليطلة بدءاً من عام ٤٧٠هـ بالإغارة على أراضي مملكة طليطلة ومزارعها، فحرق ودمر محصولاتها، واستمر على ذلك سبع سنوات كاملات لينهك قواها، ويضعف إمكاناتها شيئاً فشيئاً.



خلع القادر حاكم طليطلة

شعر أهل طليطلة بإهمال القادر بالله للمدينة، وبعدم الاستعداد الكافي للدفاع عنها وإبعاد الأخطار من حولها، فتشاور الأعيان فيما بينهم وقرروا أن يستعينوا بالمتوكل على الله حاكم "بطليوس" وكان صالحاً قام بما يجب عليه، مثلاً في الغيرة والنجدة، من أهل الرأي والحزم، شهماً شجاعاً، فأعان هذا أهل طليطلة بحيث تخلصوا من سلطة القادر الذي استعان بألفونسو يطلب المدد، فخلعوه عام ٤٧٢هـ، وأعانه ألفونسو فأعاده إلى حكم طليطلة مرة أخرى بعد عشرة أشهر من خروجه.



الفونسو والمتوكل حاكم بطليوس

أرسل ألفونسو إلى المتوكل يطلب إليه دفع الجزية وبعض القلاع والحصون ويهدده تهديداً مروّعاً إن لم يقبل ما عرضه عليه، ومع أن بطليوس دويلة صغيرة وليس لديها من القوة ما تستطيع به دفع العدوان المتوجه إليها من ألفونسو، إلا أن هذا الحاكم الصالح (ولم يكن والٍ أفضل منه من حكام دويلات الطوائف) ردّ على تهديد ملك قشتالة وليون وجيليقية برسالة قوية رغم صعوبة موقفه قال فيها:

رسالة المتوكل

وصل إلينا من عظيم الروم كتابُ مُدّعٍ في المقادير وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ويفرّق، ويلبّد بجنوده الوافرة وأحواله المتظافرة، ولو علم أن لله جنوداً أعزّ بهم كلمةَ الإسلام، وأظهر بهم دينَ نبينا محمد عليه السلام، أعزّة على الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون، بالتقوى يُعرفون، وفي التوبة يتضرعون، ولئن لمعتْ من خلف الروم بارقةٌ فبإذن الله، وليعلم المؤمنين، وليَميزَ الخبيث من الطيب، ويعلم المنافقين.



أما تعييرك للمسلمين فيما وَهِيَ من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أيَّ مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك تتجرعه، وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام إليه، وأما نحن وإن قلّت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروّضه إلا السيوف تشهد بحدّها رقابُ قومك، وجلاد تبصره في ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسوّمين نتقوّى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما تتربصون بنا إلا إحدى الحسنيين، نصرٍ عليكم فيا لها من نعمة ومنة! أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة! وفي الله العوَض مما به هدّدت، وفرج يقتر بما مددت، ويقطع فيما أعددت.

الحركة التجارية ازدهرت ضمن الحكم الإسلامي

لم يكن عهد الطوائف يخلو من إشراقات وضاءة، والمتوكل نموذج مضيء.
رفض أن يستذلّ، على ضعف من دولته وقلة حيلته، ونزر أسلحته، وعدد رجاله، ولكن أبت شهامته أن يستخذي للطاغوت، وما كان من حكام الدويلات الطائفية مثله أحد .



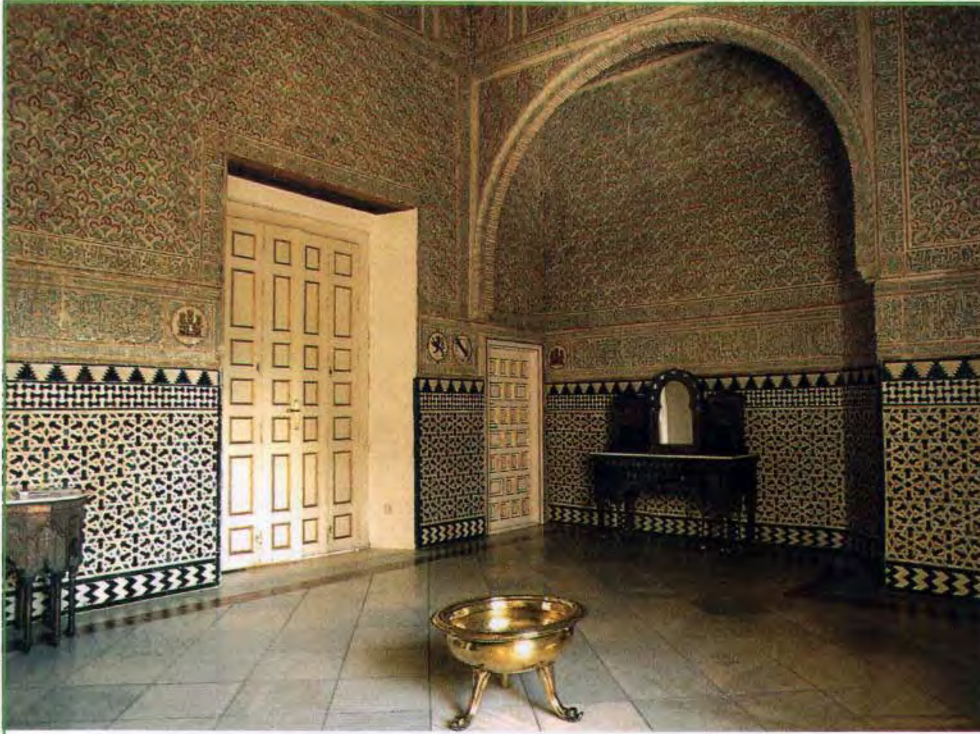


انقسام سرقسطة

وفي عالم ٤٧٤هـ يموت أحمد المقتدر بالله حاكم سرقسطة (عاصمة شمال الشرق) وهي دويلة صغيرة، فانقسمت إلى قسمين:

يوسف المؤتمن وأخوه المنذر حيث بدأ القتال بينهما كل يريد أن ينال منطقة أخيه، واستعان المؤتمن على أخيه بالنصارى لقاء مبلغ من المال يدفعه لهم أو تنازل عن حصون، وقد أعانه النصارى على ذلك، فاستطاع المؤتمن أن يسيطر على دويلة أخيه في النهاية.

ولا يتوانى النصارى من إضعاف الجبهة الإسلامية، وذا أمر مهم تسعى إليه السلطات النصرانية حثيثاً، فكيف به يتحقق دون بذل بل يُبذل له، فأيّ حماقة تلك؟ أم أي إسفاف في شؤون المسلمين؟



صالات من القصور الإسلامية الخالدة في إشبيلية





الباجي يودع

شعر الباجي في عام ٤٧٤هـ باقتراب وفاته، فدعا علماء المسلمين في الأندلس واجتمع معهم وبيّن لهم أن ثلاثين عاماً من الدعوة والاستعداد جعلته كأنه ييأس من هؤلاء الحكام والأمراء والسلاطين حسب تعدد ألقابهم وأسمائهم. وأنه خلص إلى نتيجة واحدة فيها الحل، وهي أن على أهل الأندلس أن يرسلوا إلى دولة المرابطين في الشمال الإفريقي (ويبدو أن الباجي كان السبب الأول في دعوة المرابطين والاستغاثة بهم) وكان ذلك في مدينة "المرية"، فتوفي رحمه الله قبل تمام غرضه، بأن يرى أمة الأندلس أمة واحدة، اجتمعت كلمتها كلها ضدّ العدو المتربص بهم في كل لحظة. رحم الله الإمام الباجي العظيم فهو ينصح للمسلمين حتى في آخر لحظات عمره، ويوجههم إلى الاستعانة بدولة إسلامية مجاهدة صادقة ففيها وحدها الأمل بعز الأمة والخلاص من أعدائها.

يقول حجة الإسلام: العلماء ثلاثة: إما مهلك نفسه وغيره، وهم المصرحون بطلب الدنيا المقبلون عليها.

وإما مسعد نفسه وغيره، وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً، وإما مهلك نفسه، مسعد غيره، وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق، وإقامة الجاه. (إحياء علوم الدين ج٣).

وإن محاسبة الأمراء بالإنكار على أعمالهم المخالفة للشرع، أو أقوالهم المتناقضة مع الإسلام، لا تعني مطلقاً الإساءة إلى أشخاصهم، وإنما تعني تقويم إعوجاجهم، والسعيد من اتعظ.

وقد حفلت الدولة الإسلامية في تاريخها الطويل بمآثر جليلة سجلها العلماء في مواقفهم الخالدة والفذة مع الحكام، أما في الجهاد ومقاتلة الأعداء فهم في مقدمة الجند وعلى رأس المتقدمين، فهم طلاب علم ومعلمين في السلم، جنود مقدامون في زمن الجهاد، أينما تبحث عنهم تجدهم.

والباجي من هؤلاء العلماء العاملين، جمع بين العلم الغزير والرجولة الحقة، من الصفوة الطيبة، من أهل المعرفة الحقة، والعالم الحق كما قال القائل:

إن الملوك لتحكم على الورى   وعلى الملوك تحكم العلماء

لقد قام الباجي بالذهاب إلى ملوك الطوائف من تلقاء نفسه، ورفع صوته فكان كمؤمن آل فرعون لو صادف أسماعاً واعية، لأن الذين مرّ عليهم يدعوهم فيها إلى جمع الكلمة والانتباه إلى المخاطر كانوا يجلّونه في الظاهر، ويستثقلونه في الباطن، ويستبردون نزعته، ولم يفد شيئاً (نفح الطيب ٢/٧٧).

لكن دعوته أثمرت من بعده، إذ أصبح أهل الأندلس آخذين بزمام المبادرة في التوجه إلى استدعاء المرابطين كما رأينا، وقد أثارت الغيارى من الناس ونبهتهم إلى الأخطار والأعداء المتربصين.

فالعالم قوام الأمة، ينذر ويبشر، يرشد ويعلم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصر المظلومين، ويمنع الظلم، ويبين طريق الفلاح والسعادة، يدعو إلى التوحيد والقوة، ويدعو إلى جمع الكلمة ومواجهة الكفار والأعداء قولاً وعملاً.

وما أحوج ما تكون الأمة اليوم إلى علماء يتحلون بصفة العلم والعمل، والتقى والزهد والجرأة في الحق والصلابة في التمسك بالعدل، وحمل الدعوة إلى الإسلام لتطبيق نهج السماء في الأرض.

رابعاً سقوط طليطلة وبعض دويلات الطوائف



خطة الفونسو

في شهر محرم الحرام سنة ٤٧٨هـ، كان إيواء طليطلة لألفونسو السادس بن فردلند -أيام هربه- نقمة عليها، وسبباً لسقوطها، إذ تذكر بعض الروايات: أن ألفونسو استمع ذات يوم وهو متظاهر بالنوم إلى حديث المأمون -الذي أعطاه ما أعطاه- مع وزرائه في كيفية الدفاع عن طليطلة واحتمال مهاجمة النصارى لها، واستيلائهم عليها، وكيف يمكن ذلك؟ وبأية وسيلة؟ وقد أجاب بعضهم أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء على مدينة بمثل هذه الحصانة إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل في تخريب أحوازها (أراضيها) وانتساف مؤنها.

الحصار والانهيار

وبعد أن عاث ألفونسو فساداً في ممتلكات طليطلة سبع سنوات كاملات قام بضرب الحصار على المدينة، وضيّق عليها الخناق حتى سقطت، بعد أن أعطى ألفونسو الأمان لأهلها بضمان حرياتهم واحترام شعائر دينهم وحقوقهم، وأنى يفي من يتصف بالطابع الصليبي؟ وكيف يتمسك بالعهود صليبي متعصب؟ فقد ارتكب بعد شهرين فقط بحق أهل طليطلة الأفاعيل، وحولت المساجد ومن بينها الجامع الكبير إلى كنائس.

جيش ألفونسو يقتحم طليطلة

دعوة الشعراء للانهزام

ولمعرفة المصيبة التي ألمت تكفي لو أجريت مقارنة بسقوط عاصمة من عواصم المسلمين بيد الأعداء في هذا الزمن، القدس مثلاً بيد الأعداء، فهذا الشاعر المشهور ابن العسّال يقول معبراً عما يجيش في النفوس:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المُقام بها إلا من الغلط
السلكُ يُنثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشرك لا يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيّات في سفط؟

أين العز؟!

أما قوله هذا دال على استكانة وخنوع؟ فهل تُهجر الأرض لمجرد سقوط منطقة أو مدينة منها؟ أم ينبغي أن يكون ذلك حافزاً لمزيد من الاستعداد والإصرار على الجهاد والمصابرة في اللقاء كما يقول الشاعر:

فؤادي يحسُ وقلبي معي ... وروحي تثور وعقلي يعي
وفي عزمتي عناد الجهاد ... أراه يقيناً ولا أدّعي

الألم بسقوط طليطلة

وقد نظمت أشعار كثيرة لما سقطت طليطلة، تبين الواقع المؤلم الذي أصاب المسلمين، وتلقي اللوم على تقصير ملوك الطوائف ومسؤوليتهم، إنما كان هذا سببه السياسات المنحرفة التي يمارسونها، فقد أورد المقري قصيدة طويلة لشاعر أغفل اسمه في المدينة المنكوبة:

لثكلك كيف تبتسم الثغور؟ ... سروراً بعدما سُبيتْ ثغورُ
لقد قُصمتْ ظهور حين قالوا ... أميرُ الكافرين له ظهورُ
طليطلة أباح الكفر منها ... حماها إنّ ذا نبأ كبيرُ
مساجدها كنائس، أيُ قلب ... على هذا يقَرُّ ولا يطيرُ
فيا أسفاه، يا أسفاهُ حزناً ... يكرّرُ ما تكررتِ الدهورُ
يطولُ عليَّ ليلي، ربَّ خطب ... يطول لهوله الليلُ القصيرُ
وقيل تجمّعوا لفراقِ شمل ... طليطلة تملكها الكَفورُ
ولا تجنحْ إلى سلم، وحارب ... عسى أن يُجبر العظمُ الكسيرُ
ونرجو أن يتيح الله نصراً ... عليهم، إنه نعمَ النصيرُ


مئذنة أثرية قديمة في شنتمرية (سانتا ماريا)





حصار سرقسطة

كان سقوط طليطلة في عام ٤٧٨هـ، ثم سقطت بيد ألفونسو عدد من أعمال المناطق التابعة لها فدخل "طلبيرة" وأعمال "شنتمرية" كلها، ثم تحرك إلى "سرقسطة" عاصمة الشمال فحاصرها.



سقوط بلنسية

وفي هذه الفترة تحرك القادر بالله الذي سلم طليطلة إلى ألفونسو ليضم "بلنسية" من قبل ألفونسو، وتمكن من أن يبسط السيطرة عليها، وبدأ يرهق سكانها بالضرائب التي ينبغي عليه أن يدفعها لألفونسو حتى يسكت عنه.

قبة المحراب والجمال الأندلسي البديع في مسجد قرطبة الكبير

مرتزقة القنبيطور

أراد المستعين بالله " أحمد بن يوسف" أخو القادر أن يستعين "بالقنبيطور" -زعيم عصابة تشكلت من الفرسان النصارى، تُباع وتُشترى خدماته من قبل الأمراء المسلمين أو النصارى سيان للمرتزقة من أين يأتي المال؟ من المسلمين أم من النصارى؟

تحرك "القنبيطور" وجماعته المرتزقة وعددهم أربعة آلاف فارس يدعم المستعين بالله الذي معه ثلاثة آلاف راجل لإعادة حكم بلنسية، لكنه اعتذر فجأة عن المتابعة، إذ راسله القادر بالله سراً وأرسل له أضعاف ما أمده بها أخوه بالتحف والهدايا، محتجاً بأن القادر حليف ألفونسو، وأنه لا يريد أن يزعجه!

ولم يكتف "القنبيطور" بذلك بل راسل المنذر -عم المستعين وخصمه- يعقد معه المودة ويتعهد بأن يتحالف معه ضده ولكن أرسلِ الأموال! ومن ثم أرسل "القنبيطور" إلى ألفونسو رسالة يقول فيها: أنا تابعٌ لك بشرط أن تكون أية منطقة أدخلها تحت تصرفي، وإدارة حكمي، فوافق ألفونسو على ذلك، يلعب على جميع الحبائل ويراسل للحصول على المال فقط.



منظر لكاتدرائية مسيحية بداخل المسجد

جمّع "القنبيطور" سبعة آلاف مرتزقة "مقاتل" فيأخذ ما يريد بقوة، ويحصل على ما يريد بالتهديد، ولما تحرك تجاه "بلنسية" أعلن القادر حاكمها أنه تحت تصرف "القنبيطور" وأنه سيرسل إليه الضرائب ويجمع الأموال، وأنه في بداية أمره سيعطيه كلّ مطالبه.

تصوّر هذا الطاغية أن أمراء الطوائف كافة غَدَواْ رهن إشارته، وأنه سيقضي عليهم الواحد بعد الآخر، فسقطَت تحت يده ثمانون منبراً من المدن والقرى لذلك علَتْ منزلته بين النصارى، فلقبوه: بالإمبراطور "ألفونسو".

لكن الأمور لم تجر على هواه كما قال الشاعر:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

فإنه لما طغى وبغى، ونشر عتوّه في الأرجاء الأندلسية دون التزام بعهد، أو حفاظٍ لخلق، أو مراعاة للإنسان، قدّر الله أن يرسل عليه من يطارده، ويثلم سيفه ويكسر من حدته، وحق على الله أنه ما ارتفع شيء من الدنيا إلا وضعه.





علماء المسلمين يستعينون بالمرابطين في المغرب

بعد هذه الأحداث المريرة التي جرت أهوالها في الأندلس عام ٤٧٨هـ، وبعد سقوط طليطلة فقد علماء المسلمين الأمل بأن يأتي العز وحماية المسلمين من الحكام والأمراء في دويلات الطوائف، وخشوا أن تضيع الأندلس برمتها، فشكلوا وفداً وذلك للتوجه نحو المغرب الأقصى الشمال الإفريقي حيث المرابطون، وجاءت دعوة المرابطين للتدخل وإنقاذ الأندلس من عدة جهات أهمها:

١-علماء الأندلس الذين تجمعوا على رأي الإمام الباجي.

٢-من مراسلات المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين بعد تهديد ألفونسو له.

٣-ومن مبادرة المتوكل (عمر بن محمد) أمير دويلة "بطليوس" الذي كان متأثراً بدعوة الباجي رحمه الله والقائمة على:

١- الدعوة إلى وحدة الأندلس وجمع كلمة أمرائها.

٢- الاستعانة بالقوة الإسلامية في المغرب (المرابطين).

اتجه الوفد الأندلسي عام ٤٧٤هـ أي قبل سقوط طليطلة، يستعطف قلب ابن تاشفين أمير المرابطين للتدخل لإنقاذ أهل الأندلس، وشكَوا إليه ما حل بهم من أعدائهم، فوعدهم بمرادهم، وبدأ بالاستعدادات اللازمة، وأعد العُدّة، ولكن لماذا تأخر هو؟ وما السبب الذي أخر المرابطين؟ ومن هم المرابطون؟ ومن هو يوسف بن تاشفين؟

المرابطون

قبيلة من البربر تدعى "لَمتونة" ويسمون لذلك باللمتونيين، ولأن البربر يتلثمون يقال لهم أحياناً "المتلثمون" قاموا بتأسيس دولة إسلامية عظيمة في المغرب كان لها دور عظيم في الأندلس، فإلى مرحلة وعهد المرابطين.



المسلمون ينتظرون العون من المرابطين

الباب الثالث

دويلات الطوائف وملوك المغرب



الفصل الثاني

عهد المرابطين

أولاً - يوسف بن تاشفين يعبر إلى الأندلس

ثانياً - معركة الزلاقة وحصار حسن لييط

ثالثاً - إنهاء دويلات الطوائف

رابعاً - علي بن يوسف بن تاشفين

خامساً - نهاية عهد المرابطين

أولاً يوسف بن تاشفين يعبر إلى الأندلس

نشأة دولة المرابطين

كان أمير قبيلة "جدالة" (بطن من لمتونة) يحيى بن عمر بن إبراهيم قد ذهب إلى الحج عام ٤٤٤هـ مع جماعة من قبيلته، وتوقف قليلاً أثناء عودته في القيروان عاصمة إفريقية في تونس في تلك الفترة، وأخذ يستمع إلى علمائها، واتصل بشيخ المذهب المالكي في تلك الفترة "موسى الفاسي"، وطلب إليه أن يرسل معهم عالماً يفقههم في الدين لانقطاعهم في الصحراء والبوادي، فأرسل معهم موسى عالماً يدعى "عبد لله بن ياسين الجزولي"، فأقام لهم هناك في بلادهم رباطاً (١) (أي مخيّماً) يتدرب فيه المتعلمون على أساليب الجهاد والقتال إضافة إلى تلقي العلم، وعلمهم هذا العالم الجليل أن الدين ليس في العبادة فقط، بل إنه منهج يصلح لجوانب حياة الفرد والجماعة كلها، ونظم المتطوعين ورتبهم، فكان أول مجموعة أنشئت للمرابطين عددها ألفاً، وانضم إلى هؤلاء زعيم قبيلة "لمتونة" الذي مر ذكره، وكذلك انضم إليهم أخو الزعيم "أبو بكر بن عمر".

شعار المرابطين وتدل أصابع اليد إلى أركان الإسلام الخمسة

فتعلما الفقه والعلم والجهاد، وكانا مثلين عظيمين في الإخلاص والتضحية.

توفي يحيى بن عمر فخلفه في قيادة هؤلاء المرابطين أخوه أبو بكر عام ٤٤٦هـ، الذي يعتبر أول مؤسس لدولة المرابطين، وبدأت تكبر وتتسع وما أعظمها دولةً يحكمها العلماء العاملون المجاهدون.



موسيقي ينفخ في بوق، تفصيل لزخرفة زجاجة من الخزف تم اكتشافها في قرطبة

---

(١) - رباط الخيل خمساً فما فوقها للاستعداد في سبيل الله وفي الحديث (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها) رواه الشيخان



يوسف بن تاشفين يتولى الحكم

حـــدث خـــلاف بســـيط بين "صنهاجة" إحدى قبائل البربر، فاستدعي أبو بكر اللمتوني إلى الصحــراء مــوضع الخــلاف، لتلافي الأمر، وكل أمر المرابطين إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين، ولما عاد أبو بكر بعد إتمام مهمته ولقي يوسف عام ٤٦٥هـ، ورأى من عظمـــة سلطانه وقــوته، وإدارة الأمـور في أثناء غـيابه؛ فأقدم على عمل قلّ نظيره بين الحكام، إذ تنازل ليوسف بإمارة المرابطين وقال: (هذا الفتى أفضل مني في الإدارة)، وهذا العمل يدل على ما كان عليه من فضل ووعي وبعد نظر وتقى رحمه الله تعالى.



واجهة بوابة العدالة وداخل البوابة

أين هذا التنازل؟ وهذا الوعي السياسي مما كان يفعله حكام الدويلات في الأندلس وأمراؤها؟ يتنازل الزعيم (اللمتوني) لمن هو أكفأ منه في إدارة الأمور وحسن السياسة في المغرب بينما يحارب الضعيف العاجز في الأندلس من هو أجدر بالإدارة وأكفأ في تنظيم الدولة.

يوسف بن تاشفين

٤٥٣ هـ	تولى إمارة المرابطين حينما تنازل له ابن عمه عنها !!
-	كان يتمتع بكثير من الذكاء والفطنة والعزم والشجاعة والحزم.
٤٥٤ هـ	بنى مدينة مراكش عاصمة للمرابطين.
٤٧٩هـ	عبر نحو الأندلس لأول مرة لمساندة أهلها.
٤٨٣هـ	بدأ توحيد الأندلس.
٥٠٠ هـ	توفي في مراكش وقد جاوز المائة سنة.

تأسيس مراكش

كانت عاصمة المرابطين "أغمات" جنوب شرق مراكش، لكن ابن تاشفين أراد بناء مدينة تكون قاعدة لهم، فأسس مدينة "مراكش" الحالية في المغرب، وكانت دولة المرابطين تقوم على الأسس الإسلامية، والحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، والفهم الصحيح للدين، وعلى النظام الإداري الذي كان من أرقى الأنظمة الإدارية في ذاك الزمان.

عظمة يوسف بن تاشفين

توسعت هذه الدولة، فشملت المغرب العربي، ثم امتدت إلى الشرق والجنوب، وبسطت سلطانها على السودان وغانا ومالي والنيجر.

وكان مسجد مراكش أولَ ما أُسّس من البناء، وكان ابن تاشفين يشارك العمال أثناء البناء فيحمل الطين، ويحفر الأساس، ذكروا عنه أنه لم يتأثر طوال حياته بأية نزعة من ترف القصور، ولا عيشها الناعم، ولا مغرياتها المفسدة، وقد كان يتمتع بكثير من الذكاء والفطنة، والعزم والشجاعة والحزم، وكان فضلاً عن ذلك كثير التقى والورع، خائفاً لربه، كتوماً لسره، كثيرَ الدعاء والاستخارة، مقبلاً على الصلاة، مُديماً للاستغفار، ويلحق بذلك كله شغفه للجهاد، فقد كان بطلاً مجاهداً حقاً، وقد صرف من عمره أعواماً طويلة في الجهاد في سبيل الله، ولم تكن انتصاراته إلى كثرة العدد ولا إلى قوة العتاد، وإنما لبراعته في تنسيق الخطط، وتنظيم الجيش وانتهاز الفرص السانحة، وكان حريصاً على استتباب الأمن وحفظ النظام في دولته المترامية الأطراف، دائم التفقد لشؤون رعيته، كثير الرجوع للعلماء والفقهاء، يصل الفقهاء ويعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها بآرائهم، ويقضي على نفسه وغيره بفُتياهم، يحض على العدل، ويصدع بالحق، ويعضد الشرع، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركُم ويثبت أقدامكم﴾ (محمد٧).

زوج من المناجل من الحديد المصنوع

هذا هو يوسف بن تاشفين، وذاك هو الحاكم التقي الورع، يضاهي صلاح الدين الأيوبي في الشرق وقد وجد في عصره، ولكن لا يكاد يذكره إلا القليل، ولا يعرفه إلا الأقل من أبناء المسلمين، فأين نحن من ذكراه؟ وأين نحن من إبرازه كقدوة للحكام والشباب؟

أسباب تأخير العبور إلى الأندلس

بدأ يعد العدة لإنقاذ الأندلس بلاداً وعباداً من طغيان ألفونسو السادس، لا لاحتلالها، فجهز جيشاً من قاعدته في المغرب، واتجه نحو سبتة، وهذه المدينة هي المنطلق الوحيد للعبور -عبور المضيق- إلى ناحية الأندلس، وكان يحكمها رجل يدعى "سقُوت بن محمد".

ما السبب لتأخير ابن تاشفين في إنجاد الأندلس؟



حاكم سبتة يرفض

أرسل يوسف بن تاشفين إلى حاكم سبتة، يستأذنه في عبور مدينته، واستعمال سفنه لاجتياز المضيق، فرفض الأخير رفضاً قاطعاً من السماح له بالعبور أو إعطائه أية سفينة!! فراسله عدة مرات ويرفض في كل مرة، لذلك رأى علماء المغرب بعد سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ قتال هذا الحاكم، وأحلوا دمه بفتوى أصدروها، فقاتله ابن تاشفين وهزمه، وبسط سيطرته على سبتة، وأخذ يعد لعبور المضيق؟

حكام جنوب الأندلس يرفضون

حدث أمر آخر أعجب من الأول، ذلك أن حكام الأندلس في المدن الجنوبية قد أصدروا أمراً إلى أنصارهم أن يمنعوا رسوَّ السفن التي تحمل المرابطين على الشاطئ الأندلسي، مع أن يوسف بن تاشفين قد أعطى لهم المواثيق والعهود بأنه لا يريد غزوهم ولا مملكتهم وإنما يريد أن يحدَّ امتداد نصارى ألفونسو، ويقلم أظافره التي استطالت على الأرض الأندلسية، فبقوا مصرين على المنع.



اجتماع العلماء

لذلك أقدم المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية على مراسلة حاكم "بطليوس" المتوكل، وحاكم غرناطة "عبد الله بن حبوس"،وطلب منهما إرسال القضاة إلى إشبيلية، فوصل قاضي بطليوس أبو إسحاق بن مُقانا، وقاضي غرناطة القليعي، واجتمعا بقاضي إشبيلية أبي بكر بن أدهم، وشارك معهم الوزير أبو بكر بن زيدون – ابن الشاعر المعروف-.

المعتمد بن عباد يوافق

وبعد مداولات قرروا إرسال وفدٍ إلى ابن تاشفين ليدرك أهل الأندلس، حتى وإن كان قدومه قد يسبب زوال سلطنة الدويلات الأندلسية، ولما أخبر المعتمد بن عباد بهذا الرأي قال جملته الشهيرة: (رعي الجمال خير لي من رعي الخنازير)، أي أن أرعى لابن تاشفين المسلم جماله أحبَّ إليَّ من أن أرعى خنازير ألفونسو السادس النصراني، فوافق على استدعاء المرابطين، وكذلك وافق المتوكل، وملك غرناطة.

وفد الأندلس

وجاء وفد الأندلس وجاوزوا الجزيرة الخضراء وعليها الراضي يزيد بن المعتمد، ثم جازوا البحر واجتمعوا بابن تاشفين مرة بعد مرة، وتفاوضوا في مكان إنزال المرابطين، فأشار ابن زيدون أن ينزل الجنود بجبل طارق.



واجهة بوابة العدالة وداخل البوابة



يوم العبور

وفي اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول عام ٤٧٩هـ أمر ابن تاشفين بالعبور جيشاً بعد جيش (على دفعات)، وكان أول دفعة للجيش بقيادة "داود بن عائشة" وبلغ تعدادها سبعة آلاف، وعبر هو مع آخر دفعة إذ قرر وهو ابن الثمانين أن يشارك في الجهاد لينال شرفه، وكان بإمكانه أن يرسل القوات ويديرها من هنا، إلا أنه أراد ألا تفوته هذه الفرصة، وأية فرصة؟ الخروج في الجهاد! ولما أراد العبور هبت عاصفة هوجاء على البحر، وعلا الموج وأرغى البحر وأزبد.

التفكير بالعودة

فقام ابن تاشفين يصلي مستخيراً ربه سبحانه وتعالى، ثم يبتهل داعياً: اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا (عبورنا) هذا خيرة للمسلمين، فسهّل علينا جواز هذا البحر (عبوره)، وإن كان غير ذلك فصعّبه حتى لا أجوزه، وما انتهى من دعائه إلا وكان البحر هادئاً ساكناً فعبر البحر، ونزل في الجزيرة الخضراء، ثم قصد ظاهر إشبيلية، وفي هذا المكان بلغه نبأ وفاة ابنه أبي بكر الذي استخلفه على إدارة الدولة في المغرب، فماذا يقرر؟

١-هل يعود إلى المغرب تحسباً لفتنٍ قد تظهر، ويدير أمر الدولة؟

٢-أم يستمر على ما هو عليه من متابعة الجهاد في أرض الأندلس؟

فآثر -رحمه الله- أن يتابع طريقه، وأي شيء يعدل الجهاد لدى المسلم الحق؟ وأرسل وزيره "مزدلي" ليقيم شؤون الدولة المرابطية في المغرب.

لقاء ابن تاشفين والمعتمد

نزلت دولة العلم والجهاد على أرض الأندلس، فسَرتَ الروح التي كانت للأجداد في نفوس الناس، وخرجوا لملاقاة جند المسلمين، وأقبلت أفواج المتطوعين للمشاركة معهم، وكان ابن تاشفين يكرم كلّ من يأتيه، ولما اقترب من إشبيلية ركض المعتمد لملاقاته والتقيا منفردين، وتصافحا وتعانقا، وأظهر كل منهما لصاحبه المودة، وتضرعا إلى الله تعالى أن يجعل عملهما خالصاً لوجهه الكريم.

الاجتماع بالمتوكل

وتقدم الجيش بعد استراحة قليلة إلى بطليوس، وكان أميرها المتوكل أفضل من حكم من ملوك الطوائف، فاستقبلهم ورحب بهم، وأمدّهم بكل ما يستطيع، وأعلن نفسه جندياً تحت إمرة ابن تاشفين، ولم يبق من ملوك الطوائف إلا من بادر وأعان وخرج أو أخرج، وأبى أهل الأندلس إلا أن يسيروا مقدمة للمرابطين بقيادة ابن عباد، وسار من بعدهم المرابطون في مؤخرة الجيش.

ابن عباد الشاعر

وكان ابن عباد شاعراً، فأنشد لنفسه متفائلاً أثناء مسيرته:

لا بد من فرج قريب ... يأتيك بالعجب العجيب
غزو عليك مبارك ... سيعود بالفتح القريب
لله سعدك إنه ... نكس على دين الصليب
لا بد من يوم يكو ... ن له أخا يوم القليب (١)

(١) يريد بالقليب هنا قليب بدر حيث كانت معركة أعز الله فيها المسلمين وقليب بدر هو الجب الذي دفن النبي ﷺ فيه قتلى المشركين.

ثانياً معركة الزلاقة وحصار حصن لييط



وسار الجيش إلى منطقة تدعى الزلاقة.

الزلاّقــة: لا تقل مكانة عن حطين وعين جالوت، وهي حَــدَثٌ فــاصل في تاريخ المسلمين.

استعداد الفرنجة

بدأ ابن تاشفين ينظم جنوده في الزلاقة، فلما بلغ نبأ قدوم المرابطين إلى الزلاقة ترك ألفونسو حصار سرقسطة وتوجه نحو الزلاقة، وكتب إلى ملك أرغون "شانجة" يطلب إليه المدد، وإلى ملك فرنسة ما وراء جبال البيرينية يسأله المدد والعون، وأرسل إلى جيليقية ونافارة، وأعلن البابا (حربه المقدسة) وأرسل كبار الرهبان والقساوسة لحض جيش ألفونسو على هذه المعركة الفاصلة، وأعلنت حرباً صليبية مقدسة، فجاء المتطوعون والجنود من فرنسة وإيطالية، وتجمع حول قائدهم ألفونسو حوالي ٥٠ألفاً، بينما لم يكن المسلمون يتجاوزون ٢٥ ألفاً، حتى قال ألفونسو: سأقاتل الجن والإنس وملائكة السماء ! وأرسل إلى ابن عباد وابن تاشفين رسائل يستهزئ بهما، فكان جواب ابن تاشفين:

ألفونسو يترك حصار سرقسطة ليتوجه نحو الزلاقة

مراسلات ابن تاشفين والفونسو

بلغنا يا أذفونش (ألفونسو) أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك، ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (غافر ٥٠).

فما ردّ ألفونسو إلا متوعداً ووصف ما معه من القوة والعُدد والعَدد، لكن جواب يوسف لم يكن إلا هذه الجملة: الذي سيكون ستراه، كتبها على ظهر رسالة ألفونسو.

ثم عرض عليه ابن تاشفين آخر الأمر واحدة من ثلاث:

١-إما أن يدخل في الإسلام يكون له أو عليه ما للمسلمين أو عليهم.

٢-أو أن يدفع الجزية صاغراً.

٣-أو الحرب.

الاستعداد للمعركة

كان ذلك يدعو للعجب والتكبر لدى ألفونسو، إذ أن جيشه ضعف المسلمين هناك، فحث جنوده وأتباعه على الاستعداد للمعركة الفاصلة، فبدؤوا يرفعون الصلبان، ويقرؤون الأناجيل، ويبايعون على الموت.

بينما المسلمون يحذر بعضهم بعضاً من التولي يوم الزحف، ويقرؤون سورة الأنفال (سورة القتال)، ويوصي بعضهم بعضاً بالصبر عند اللقاء.



التحام القتال في معركة الزلاقة

محاولة الغدر

أرسل ألفونسو يوم الخميس رسالة إلى المسلمين "ابن عباد وابن تاشفين" يقول فيها: لتكن الحرب معلومة بيننا وبينكم ليوم الاثنين مثلاً، أو يوم السبت حيث يقع بين عيد المسلمين الجمعة وعيد النصارى الأحد، إلا أن ابن تاشفين وابن عباد أمرا الجند بالاستعداد الدائم فقد ينشب القتال في أية لحظة! وكان ألفونسو يريد أن يأخذهم على غِرّة.

رؤيا صالحة

استيقظ رجل من المسلمين وقت السحر وهو فقيه المسلمين ابن رميلة، فطلب مقابلة ابن تاشفين فوراً ومن معه من القادة، وأخبرهم بشرى سارة، قال: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام يبشرني بالفتح والنصر ويبشرني بالشهادة في سبيل الله، وانتشر الخبر (رؤيا النبي ﷺ وبشارته) بين الجند ففرحوا وقويت عزائمهم، واغتسل ابن رميلة وتدهّن بالطيب يستعد للشهادة.



معركة الزلاقة

وفي الثاني عشر من رجب عام ٤٧٩هـ بدأت الزلاقة.

انزلاق الخيل

زحفت جيوش ألفونسو، وقاتل المسلمون قتالاً عجيباً بينهم ابن عباد وقد عقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما عقر فرس قدم آخر، واشتد النصارى في القتال حتى اختلت صفوف المسلمين، وسالت الدماء الغزيرة فانزلقت الخيول والناس ومن هنا جاء اسم المعركة: الزلاقة، وبدأت الهزيمة تظهر ملامحها لدى المسلمين، إلا أن ابن تاشفين ذلك الفذ الفريد، كان محتاطاً لمثل هذه الحالة، وكان قد عزل مجموعة من الجند احتياطاً في مكان قرب الساحة، أمر عند ذلك ابن تاشفين هذه القوة باقتحام ساحة المعركة على مجموعتين:

حركة مجموعتي الاحتياط والنصر العظيم

مجموعة هاجمت قلب جيش النصارى، وهي بكامل قوتها وراحتها، ومجموعة التفت التفافاً طويلاً حول جيش ألفونسو بقيادة ابن عائشة -أحد قواد ابن تاشفين- لتضرم النار في مؤخرة الجيش، فقامت هاتان المجموعتان بدوريهما خير قيام، هنا بدأ الاضطراب والخلل في صفوف جيش ألفونسو، ودب الانهزام في صفوفهم، حيث وقعوا بين قوات المعتمد وبين احتياطي المرابطين، كان ابن تاشفين -وهو ابن الثمانين- يقود بنفسه هذه المجموعة، فكان يتعرض للشهادة، واستمر القتال من الصباح إلى المغرب، واستطاعت المجموعة التي يقودها ابن تاشفين من اختراق قلب المشركين حتى تصل إلى ألفونسو وتصيبه بجراح خطيرة في ركبته ظل يعرج منها إلى آخر عمره، ففر ولحقه جيشه، وطاردهم المسلمون حتى حلول الظلام، إلا أن ابن تاشفين أصدر أوامره بالعودة خشية عليهم من أن يقتل واحد منهم، ولم يتوقف ألفونسو إلا في عاصمته طليطلة، ولم يكن معه سوى مائة فارس من خمسين ألفاً كانوا في ساحة الزلاقة.

جهاد العلماء

وكان العلماء من خيرة من قاموا بالثبات والصبر، وأبلوا بلاءً حسناً، واستشهد فقيه الناس وقاضيهم ابن رميلة، واستشهد قاضي مراكش المصمودي، والفقيه أبو رافع الفضل بن حزم: ابن الفقيه المعروف، وقد عفّت نفس ابن تاشفين عن أخذ أي شيء من الغنائم، فوزعت على أمراء الأندلس وجندها.

معركة الزلاقة





عودة ابن تاشفين إلى المغرب

كانت نية ابن تاشفين أن يتابع غزوته لإخضاع طليطلة وإنهاء ألفونسو وقوته، لكنه قدر الله، إذ وقعت أحداث خطيرة في المغرب، جعلت ابن تاشفين يعود إلى المغرب، فجمع قبل مغادرته أمراء المسلمين وحكامهم، ونصحهم بالاتفاق والتوحد، والاعتصام بحبل الله، وأنهم ما غُلبوا قبل الزلاقة إلا لتفككهم وانخذالهم وتنازعهم.

فأجابه كل من كان موجوداً، ورجع إلى المغرب عام ٤٧٩هـ بعد شهر واحد من معركة الزلاقة، أي في شهر شعبان، وقد ترك في الأندلس قوة من جنده لمتابعة الجهاد بقيادة سير بن أبي بكر، عاد إلى المغرب، وحبذا لو قاد الجيوش وأنهى ألفونسو وانتصر عليه انتصاراً استراتيجياً فحطم قوة عدوه وعاصمته، ولكن ذاك من قدر الله.


ابن تاشفين يحمل لواء المسلمين


قاموس لاتيني عربي، يطلق عليه معجم ليدي

تهنئة المعتمد بن عباد

رجع المعتمد إلى عاصمته إشبيلية، ورجع كل أمير إلى إمارته، وعاد كل حاكم إلى حكومته، وأقدم الشعراء والخطباء يقدمون ما جادت به قرائحهم، يهنئون المعتمد على هذا الظفر الميمون، وكان من بين الذين وفدوا شاعر يدعى عبد الجليل بن وهبون، الذي يقول: كنت قد نظمت قصيدة لألقيها بين يدي المعتمد، لكن المعتمد أمر القرّاء بتلاوة القرآن الكريم، فتغنى أولئك بتلاوته، وزينوا أصواتهم بمختلف القراءات بأجمل التراتيل والأصوات، وقرأ أحد هؤلاء قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله﴾ (التوبة ٤٠)، فأثرت في نفسي تأثيراً بليغاً، وقلت في نفسي أين ما نظمت من القصيدة ومن معانيها من معنى هذه الآية الكريمة؟ فلم أنشد ابن عباد شيئاً، وقلت: بُعداً لي ولشعري، والله ما أبقت هذه الآية معنى لي أقوله.

هكذا كان القرآن الكريم يترك أثراً جميلاً في نفس السامع، ولا يزال إن أحسن الاستماع إليه، وأنصت إليه لتدبر معانيه لا للاستمتاع بحسن الأصوات وأنغامها.

عاد الحكام للفرقة

وزالت نشوة النصر،وهدأت المعاني الجليلة المستفادة من معركة الزلاقة، وعادت شهوة الحكم إلى نفوس الأمراء أشدّ ما تكون من قبل، فأعمت بصائر الحكام، فما توجهوا للتوحد وإزالة التفرُّق، ولا استعدّوا أو أعدّوا القوى لمتابعة الجهاد لإنهاء سطوة النصارى، وما انتهزوا هذه الفرصة لإعادة طليطلة إلى الحكم الإسلامي حين لم يبق مع ألفونسو إلا قوة ضعيفة لا تتجاوز الخمسين فارساً.

عاد ألفونسو للهجوم من حصن لييط



عاد ألفونسو إلى طليطلة، وجمع المقاتلين الذين تشتتوا في شمال الأندلس بعد الزلاقة، وبدأ يستعد للانقضاض على دويلات الطوائف الواقعة في شرق الأندلس، ففي عام ٤٨٠هـ (أي بعد عام واحد من معركة الزلاقة) بنى حصناً جديداً ليكون منطلقاً وقاعدة لقواته التي سيسقط بها تلك الدول قرب مدينة "مرسية" اسمه حصن "لُيَيْط"، وحشد فيه المقاتلين حتى بلغ عددهم ثلاثة عشر ألفاً، وهذه قوة كافية لإسقاط دولة إثر دولة من دول الطوائف.

المعتمد يعبر لاستنجاد ابن تاشفين في المغرب



ومرة أخرى شعر أهل الأندلس بالخطر "خطر ألفونسو"، وأدركوا أنه لا يمكن لهم مجابهته إلا بالاعتماد على قوة ابن تاشفين، لذلك عبر المعتمد بن عباد بنفسه المضيق والتقى بابن تاشفين في المغرب وشرح له الأوضاع وبيّن له حالتهم المزرية مرة أخرى ورجاه أن يأتي ليصد الخطر عنهم، فوعده ابن تاشفين خيراً، واستجاب له فعبر بقواته المضيق عام ٤٨٢هـ، واجتمع إليه ملوك الطوائف، وتوجه بجيشه إلى حصن "لُيَيْط" فحاصره حصاراً شديداً، هُنا أدرك ألفونسو الخطر على مملكته، فجهز جيشاً جراراً توجه لإنقاذ الحصن ومن فيه، رأى ابن تاشفين أنه ليس بإمكانه التصدي لهم وللحصن معاً، فآثر الانسحاب ليراقب عدوّه ماذا سيفعل؟ حتى لا يقع بين قوتين معاديتين: قوة الحصن وقوة ألفونسو.


عام ٤٨٢هـ
١٠٨٩م

الفونسو يهدم حصن لييط

رأى ألفونسو بعد ذلك أن يخلي هذا الحصن، ثم أمر بهدمه، وانسحب إلى طليطلة ليدافع عنها، وبذلك زال الخطر عن دول الطوائف في الشرق الأندلسي.

جنود الفونسو ينتهون من تدمير حصن لييط

عودة ابن تاشفين للمغرب

عاد ابن تاشفين إلى المغرب فكانت دولته الواسعة الأطراف بحاجة إلى وجوده هناك وما يزال التوتر في بعض مناطقها مشتعلاً، فعاد وترك حامية في الأندلس.

كان ابن تاشفين مثالاً للمجاهد الصابر، لا يكاد يستريح من معركة حتى يتنقل إلى غيرها، لم يؤثر الراحة والقصور، بل كان همه أن ترتفع راية الله في البلاد.

وإذا كانت النفوس عظاماً   تعبت في مرادها الأجسام

ثالثاً إنهاء دويلات الطوائف

بدأ ألفونسو يعد العدة، ويجهز الجيوش للانقضاض على دويلات المسلمين المتفرقة، فهل اتعظ حكامها؟ وهل أخذوا درساً من الحوادث الماضية؟ الجواب: كلا! بل كانت المناصب والدنيا أحب إليهم.

صراع بين دويلات الأندلس

احتدت الخلافات بين حكام تلك الدول، ونشب القتال بينهم، ودامت النزاعات تتابع بعضها بعضاً وكأنه لا يوجد من يقول لهم:

إلامَ الخُلفُ بينكمُ إلاما	وهذي الضجة الكبرى علاما
وفيمَ يكيدُ بعضكم لبعضٍ	وتُبدون العداوة والخُصاما

لكنها شهوةُ الحكم، وحبُّ السلطة، وشغفُ الكرسي! وألفونسو شاهد يتفرج وعدوٌ يتربص!

الشعب المسلم يضج

ضجّ الشعب المسلم في الأندلس من حكامهم، وتيقظت أحاسيس الشعور بالخطر منهم ومن أعدائهم، فأرسلوا الكتب إلى أمير المسلمين، وهو لقب أطلق على ابن تاشفين من قبل ملوك الأندلس الذين شهدوا معركة الزلاقة،وكانوا ثلاثة عشر ملكاً! سلموا عليه "بأمير المسلمين"، وقد أكّد هذا اللقب من بعد الخليفة العباسي "المقتدي بأمر الله"، وقد اتفقت الروايات على أن ابن تاشفين كان يعترف بطاعته للخليفة العباسي، ويراه هو أمير المؤمنين، وكان يدعو له على المنابر.



حدائق بارتال - طبيعة تميز الأندلس



قرطبة، الواجهة الجنوبية للمسجد الكبير وآثار الجسر الروماني والطاحونة المائية

علماء الشرق يفتون بعزل أمراء الأندلس

كما وصل خبر سوء الأوضاع الأندلسية إلى المشرق الإسلامي، فاجتمع عالمان جليلان من أعظم علماء المسلمين: أبو حامد الغزالي، وأبو بكر الطرطوشي، مع أجلّة من علماء المسلمين.

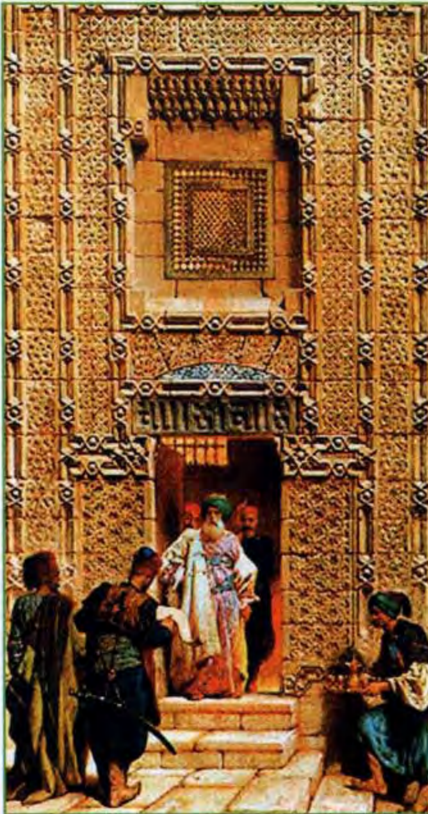
هؤلاء هم العلماء العاملون، يعلمون ما يجري حولهم، يدركون حقيقة الأوضاع وليسوا بغافلين عن الأعداء، يهتمون بأمور المسلمين، يتصرّفون ولا يتفرجون!

أصدروا فتوى، يأمرون بخلع ملوك الطوائف، وتوحيد الأندلس، ففي بقائهم خطر ماثل على المسلمين وأرض الإسلام، جاءت الفتوى من الشام، وأرسلت الفتوى إلى ابن تاشفين في المغرب، ومن نص هذه الفتوى:

فحوى الفتوى

أن يوسف على حق في إظهار شعار الإمامة للخليفة المستظهر (هو ابن المقتدي بالله)، وأن هذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين، وإذا نادى الملك المشمول بشعار الخلافة العباسية، وجبت طاعته على كل الرعايا والرؤساء ومخالفته مخالفة للإمام، وكل من تمرد واستعصى، فحكمه حكم الباغي، ومن حق الأمير أن يرده بالسيف، وأن يقاتل الفئة المتمردة على طاعته، لا سيما وقد استنجدوا بالنصارى وهم أعداء الله في مقاتلة المسلمين وهم أولياء الله...

كما أن الطرطوشي كتب إلى يوسف بالنصح وأن يحكم بالحق وفقاً لكتاب الله، وأن يكون شفيقاً على رعيته شفقة الرجل على أهله، وأن يعمل لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مصداق قوله تعالى: ﴿الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور﴾ (الحج ٤١).



قصور وخدم وحشم فيما بلاد المسلمين تتعرض للسلب والنهب والإغتصاب

المقارنة بين الخطر في الأندلس والمغرب

جاءت الفتوى، فتأمل ابن تاشفين وفكر ماذا عليه أن يقدم عليه؟

أيبقى في المغرب حيث إن إدارة الدولة هناك بحاجة إليه؟

أم يذهب إلى الأندلس؟

رأى أن أمور المغرب أهون بكثير مما يجري على ساحة الأندلس، فالخطر هناك قائم، لذلك رأى أن الواجب عليه أن يلبي نداءات أهل الأندلس، ويستجيب لأمر الفتوى.





حصار طليطلة

فعبر بجيشه مضيق جبل طارق للمرة الثالثة عام ٤٨٣هـ ، واجتمع إليه من أحب الجهاد من أهل الأندلس، وانضم إليه أيضاً بعض ملوك الطوائف، وكان ابن تاشفين قد عزم على توحيد الأندلس ولو بالقوة إذا اقتضى الأمر، فتوجه أولاً وقبل أية وجهة أخرى نحو طليطلة ليفتح مدينة الكفر ورأسها "مدينة ألفونسو"، وضرب عليها حصاراً شديداً، لكنها صمدت أمامه، فتعجب كثيراً وتساءل كيف سقطت هذه المدينة الحصينة، شديدة الأسوار، بيد ألفونسو؟ وكانت من أمنع المدن في ذلك العصر، وما ذاك التهاون من المسلمين الذي أدى إلى سقوط المدينة بيد النصارى؟

توحيد الأندلس بالقوة

فما وجد لسؤاله جواباً، ورأى أن القوة التي يملكها الآن ليست كافية لفتحها، فقرر أن يوحد الأندلس أولاً، ثم يعود بقوة أشد لفتحها ثانياً.



أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين

أرسل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين الرسل بالكتب إلى أمراء الأندلس، وكان قد توجه نحو غرناطة، فكان أن لبى دعوته "عبد الله بن بُلقّين" في رجب عام ٤٨٣هـ، وأعلن أنه جندي تحت إمرته، فسرّ أهلها بذلك، كما عم الأندلس فرح أهلها، لأنهم يعلمون أن ابن تاشفين والمرابطين مجاهدون مخلصون لله في أعمالهم لا يريدون جزاء و لا شكوراً من غيره سبحانه وتعالى.



ابن تاشفين يعود إلى المغرب

ولقد أجبرت الظروف بعد ذلك ابن تاشفين للعودة إلى المغرب، فعاد وقد ترك قوّاده ليتابعوا خطواته في توحيد الأندلس، وإنهاء حكم الطوائف وحكم ملوكها. قصد "سير بن أبي بكر" قائد القوة المرابطية التي بقيت في الأندلس عام ٤٨٤هـ متجهاً إلى قرطبة وهي من أهم مدن الجنوب التي تتبع إشبيلية أكبر دويلة في الأندلس، ويحكمها الفتح بن المعتمد بن عباد.



فتح قرطبة

رفض قائد قرطبة أن يسلم المدينة أو أن ينضم إلى المرابطي، بينما أصر القائد المرابطي على أن يدخل الفتح ضمن دولة التوحيد لجميع ملوك الطوائف، فنشب القتال بين الجيشين، واشتد القتال على حاكم قرطبة ثم فرّ جيشه بعد أن قُتل هو في ساحة المعركة، وفرّت زوجته "زائدة" إلى النصارى وإلى ملك قشتالة حيث تنصرت فيما يذكر! وربما أُجبرت أو حُملت على ذلك، لا ندري! ولكنْ كيف تلتجئ امرأة مسلمة إلى دولة النصارى؟ هذا هو السؤال!



قتال النصارى

فدخل "سير بن أبي بكر" قرطبة، ثم توجه بعد ذلك إلى إشبيلية (وهي أكبر دولة في الأندلس كما ذكرت).

أدرك ألفونسو السادس أن هذه فرصته فليمد جيشاً إلى دحر المرابطين، وليسعَ في إبقاء الأندلس كما هي ممزقة، فأرسل قوة بقيادة "البَرْهانش" من أعظم قواده، وجرت أحداث معركة عنيفة شمال إشبيلية، وهزم النصارى وأثخن القائد "البرَهانش" بجروح عديدة.

المسلمون يصدون جيوش النصارى



المعتمد يرفض الانظمام

ولما وصلت الأنباء بانتصار المسلمين أعلن حاكم دانية، وحاكم الجزر الشرقية "البليار" انضمامهما إلى قيادة المرابطين، ثم تقدم سير بن أبي بكر نحو إشبيلية يريد إخضاعها، فماذا فعل المعتمد؟ هذا الصديق القديم والذي شارك في القتال مع المرابطين في معركة الزلاقة الشهيرة، رفض رفضاً قاطعاً أن ينضم تحت لواء المرابطين، أو أن يرضى بتوحيد دويلته مع دولة المرابطين، وأصر على عدم تسليم المدينة، وحرض شعبه لمساعدته في القتال ضد المرابطين، لكن شعبه أبى، ورفض المسلمون هناك مؤازرته، فأُسقط في يده، واضطر للاستسلام بعد مقاومة منه ومن أتباعه في رجب عام ٤٨٤هـ.



ابن عباد.. أفضل ملوك الطوائف

كان المعتمد بن عباد من خيار ملوك الطوائف شأنا وأفسحهم ملكا، وكان يشبّه بهارون الرشيد زكاء نفس وغزارة أدب، ملك إشبيلية بين عامي ٤٦١ هـ - ٤٨٤ هـ فرفع شأنها ويكفيه أنه تبنى فكرة الاستعانة بالمرابطين للحفاظ على الأندلس.
ومما يدل على عظمة ملكه أن زوجته اعتماد - وكان لا يرد لها طلبا - رأت بدويات يبعن القرب وقد شمرن عن سوقهن يخضن في الطين، فقالت لابن عباد: أشتهي أن أفعل أنا وبناتي كفعل هؤلاء البدويات، فلبى طلبها ولكن بطريقة عجيبة: أمر بالعنبر والمسك والكافور فخلط بماء الورد ليكون في هيئة الطين وأحضر القرب والحبال لاعتماد وبناتها فحملنها ثم رفعن عن سوقهن وخضن في طين العنبر والمسك والكافور!!
هذه صورة من صور عظمة الملك، وهي أيضا صورة من صور البذخ والإسراف بين ملوك الأندلس، ويروى أن اعتماد غضبت منه ذات يوم فقالت له: مارأيت منك خيرا قط، فقال لها: ولا يوم الطين ؟! فخجلت وسكتت.
لكن يكاد يجمع الرواة على أن ابن عباد - وإن صدرت منه بعض الهنات والأخطاء - كان من أفضل ملوك الطوائف وأزكاهم نفسا وأعظمهم اعتزازا بإسلامه وعروبته.



محرقة العطر تستخدم لتعطير الهواء

نفي المعتمد

وأصبحت إشبيلية بعد ذلك مع مدن الجنوب كلّها خاضعة لسلطة المرابطين، وما نسي القائد ابن أبي بكر خذلان المعتمد، وموقفه العدائي، وقتاله العنيد ضد توحيد المسلمين، فقرر إخراجه من الأندلس كلها وطرده بعد أن صادر أملاكه وأمواله وأخذ أسيراً إلى أغمات في المغرب، فعاش فقيراً محروماً بعد أن كان ذا صولة وجاه وغنى، فدخلت بناته يوماً عليه في أطمار بالية (ألبسة عتيقة خلِقة) فثارت نفسه على أحواله وأحوالهن فقال:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا	فساءك العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتِك في الأطمار جائعةً	يغزلنَ للناس ما يملكن قِطميرا
يطأن في الطين والأقدامُ حافيةٌ	كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

ثم اتّعظ وبكى حاله!

قد كان دهرُك إن تأمرْه ممتثلاً	فردّك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسرُّ به	فإنما بات بالأحلام مغرورا



الصلاة على الغريب

ثم منّ عليه يوسف بن تاشفين فأطلق سراحه، فعاش غريباً، فقيراً لا يكاد يعرفه أحد إلى عام ٤٨٨هـ حيث مات ونودي عليه: الصلاة على الغريب، الصلاة على الغريب، وما اجتمع على صلاته إلا ثلاثة أشخاص، عرفه واحد منهم، ثم انتشر الخبر بأن هذا الميت هو المعتمد بن عباد رحمه الله.



أحد آثار المسلمين: عمود من المرمر منحوت موجود في سرقسطة

نهاية عهد الطوائف

ويعتبر انتهاء عصر الطوائف بموت المعتمد أو نفيه، وإن بقيت بعض الدويلات في الأندلس متفرقة منفصلة، لكن لم تكن لها مكانة تذكر.

نظرة عامة وموجزة إلى عهد الطوائف:

كانت حكومات الطوائف تحكم بالإسلام ولكنها كأشدّ ما يكون من الفرقة والخلاف، وكانت تنفذ الشريعةلكنها كانت ممزقة لا تتحد، فكأنها بل وهي الحقيقة تذهب البركات عن الجهود والأعمال إذا غلبت الشهوات الدنيوية، وتذهب هيبة الحكم عن النفوس إن لم تخلص توجهها إلى رب العباد، فأدت تلك النوازع الدنية إلى ضياع الأندلس، فقد أخذ النصارى ثلث الأندلس في الشمال، ثم زحفوا إلى وسطها وأخذوا أمنع حصن وأقوى مدينة في الوسط هي طليطلة، يقول أحد المؤرخون "ابن الكَرْدَبوس": ضاعت الأندلس في فترة دول الطوائف حين زالت من النفوس الأَنَفة الإسلامية، وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «يوشك أن تَداعى عليكم الأمم كما تداعى الأَكَلة إلى قصعتها، فقال قائل: من قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابةَ منكم، وليقذفنّ في قلوبكم الوهْنَ، قيل: وما الوهنُ يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» (رواه أبو داود).

نعم، كان من حكام الطوائف صالحون! وكان منهم من أراد إيقاف الضعف في كيان الأندلس! لكنّ في قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة﴾ (الأنفال ٢٥) عبرة، إذ أصابت الفتن عموم الأندلسيين سبب ظلم بعضهم.

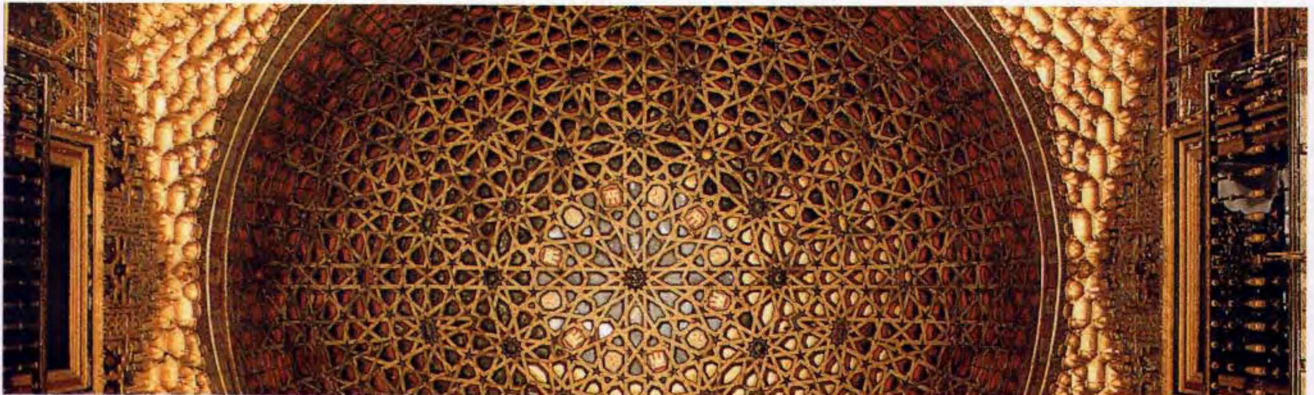
نعم، وقد حذر بعض العلماء ولكن تحذيرهم كان كصيحة في واد! من هؤلاء العلماء الأفاضل: ابن حزم، وابن حيان، وابن بسام مثلاً.

لو تأملتالتاريخ لوجدت تناسباً طردياً مستمراً، بين التمسك بالإسلام وبين ازدهار المجتمع في حياته وتطوره، فإذا تمسكنا بالإسلام حق التمسك، ونزعنا من صدورنا الغلّ والحقد والطمع، لا يأتينا النصر وحده، بل تنزل علينا بركات السماء وتخرج إلينا بركات الأرض.

كما قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (الأعراف ٩٦).

ملخص أحداث فترة دويلات الطوائف

٤٠٠ هـ	في عام هـ تمزقت الأندلس إلى ٢٢ دويلة !!
٤٠٣ هـ	قام سليمان بن الحكم الأموي بعزل هشام المؤيد بالله .
٤٢٢ هـ	إعلان سقوط الدولة الأموية في الأندلس .
٤٤٠ هـ	العالم الجليل أبو الوليد الباجي يدعو إلى توحيد الأندلس .
٤٥٦ هـ	مأساة بربشتر على يد الفرنسيين والنورمان.
٤٦٨ هـ	اتحاد سرقطة ودانية وبلنسية.
٤٧٥ هـ	سقوط طليطلة في يد ألفونسو السادس .
٤٧٨ هـ	سقوط بلنسية .
٤٧٩ هـ	عبور ابن تاشفين إلى الأندلس بعد أن استعان به أهلها .
٤٧٩ هـ	معركة (الزلاقة) التي كانت فتحاً عظيماً للمسلمين.
٤٨٣ هـ	ابن تاشفين يبدأ بتوحيد الأندلس.
٤٨٤ هـ	ابن عباد يرفض الانطواء تحت راية ابن تاشفين فيحاصر وينفى إلى المغرب.
٤٨٨ هـ	وفاة المعتمد بن عباد .



السقف المغشى بالذهب والفسيفساء والخيط العربي

ملوك الطوائف ... حقائق وعبر

شتات بعد جمع، وتفرق بعد وحدة، وهوان بعد عز.

هذا حال الأندلس بعد سقوط الخلافة وتفرقهم إلى اثنين وعشرين مملكة ودولة - كل مدينة مملكة - وغدا كل حاكم مدينة خليفةً يلقب بألقاب عظيمة، فأي سخرية أعظم من هذه ؟!... حتى قال فيهم القائل

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

قال ابن حزم رحمه الله تعالى (فضيحة لم يقع في الدهر مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين، ويخطب لهم في زمن واحد، أحدهم في إشبيلية والثاني بالجزيرة الخضراء والثالث بمالطة والرابع بسبتة)

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

أعماهم الطمع وران على قلوبهم حب الرئاسة والمناصب، فلم يعودوا قوة واحدة وأصبحت قلوبهم شتى، وأي عز يرجى مع هذا أم أي نصر ينتظر؟

ولو لم ينجدهم الله بابن تاشفين لضاعت الأندلس في أيامهم، وما حصل في الأندلس أمر خطير حيث تحالف بعضهم مع النصارى على بعض، وبدل أن تكون القوة موجهة ضد العدو أصبح بأسهم فيهم وقتالهم فيما بينهم - وكان هذا ما دعا العلماء والمصلحين إلى الاستعانة بابن تاشفين - فقال فيهم القائل

ناد الملوك وقل لهم ماذا الذي أحدثتم؟

أسلمتم الإسلام في أسر العدا وقعدتم

وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قمتم

لا تنكروا شق العصا فعصا النبي شققتم

وانظر إلى حال ملوك الطوائف في الأندلس وحالنا اليوم تجده شبيهاً له مقارباً لحالته، فها هم المسلمون اليوم بعد أن جمعتهم عهود من الخلافة - تضعف أحياناً وتقوى أخرى - ينقسمون إلى اثنتين وعشرين دولة تماماً مثل عدد دويلات الأندلس!! وضعفنا كما ضعفوا وذهبت هيبتنا كما حصل لهم، وطمع أعداؤنا بنا، وعزلنا عن صنع القرار العالمي بل حتى المحلي فأصبح أعداؤنا يتحكمون ويلعبون بنا، وهم في كل يوم يشتطون في مطالبهم وأوامرهم، وغابت عنا عبر التاريخ كأننا لا نتعلم حتى نقع من جديد، ورغم كل ذلك فما ينبغي أن نيأس أونستكين فمازال في الوقت متسع لإعادة حساباتنا ولترتيب وضعنا وعلاقاتنا وهي دعوة للحكام وللشعوب أن نأخذ العبر من التاريخ وندرك خطورة الوضع الحالي، وما أنا ممن يدعو إلى الإحباط واليأس ولكني أدل على مواطن الخلل لعل الله أن يمن علينا بإصلاحها.

. فيما مر قضية خطيرة ننبه إليها وهي خبث اليهود ومكرهم للإسلام وأهله من أي موقع، فهم يسعون إلى التغلغل في مراكز القوى الكبرى والدول العظمى والتأثير على سياستها تجاه الإسلام، دون أن يكونوا في الواجهة حتى لا يشعلوا حماسة المسلمين في مواجهتهم، ولأن الله ضرب عليهم الذل والمسكنة والهوان، ولعل هذه سياستهم منذ زمن بعيد فانظر كيف كان وزير ألفونسو يهودياً (ابن شاليب اليهودي) وكان يفاوض باسمه ويكيد للإسلام تحت حكمه، وكذلك هم اليوم يملكون الثقل الانتخابي الذي يضعه زعماء الغرب في الحسبان، فما ينبغي أن نغفل عن عدونا أو نجهله وهو يكيد لنا صباح مساء.

البركة في الجهاد

إن البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى بركات في الأشياء، وبركات في النفس، وبركات في المشاعر وبركات في طيبات الحياة، بركات تنمي الحياة وترفعها في آن، وليست مجرد وفرة مع السقوط والتردي والانحلال، فقد ضيع حكام الطوائف البركات، وأضاعوا البلاد وأهلها، وا انقطع الخير ولن ينقطع عن أمة محمدﷺ، إذ قال في الحديث الشريف: عن سلمة بن نفيل الكندي ﷺ، قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ، فقال رجل: يا رسول الله، أذال(*) الناس الخيل، ووضعوا السلاح، قالوا: لا جهاد، قد وضعت الحرب أوزارها، فأقبل رسول الله ﷺ بوجهه وقال: كذبوا، الآن.. الآن جاء القتال، ولا تزال من أمة أمتي يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم، حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد الله، والخيل مقعود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة» (رواه النسائي). فما استطاع الحكام منع الناس عن التوجه للتوحد بطائفة جاءت تنفذ أمر الله سبحانه، فكانت دولة المرابطين، التي بدأت من الجنوب، وإن كان قد بقي شيء من الطوائف في الأندلس.

وكانت فترة الضعف عند الطوائف لا تخلو من بروز قوة أو أخرى تضيء جوانب الأندلس بمآثر تبقى شاهدة على أن التمسك قوة وأن القلة المتمسكة بها سيكون لها شأن وأي شأن، وعهد المرابطين شاهد على ذلك. وماذا حدث بعد ذلك؟



عناصر منبر مسجد الأندلس، مع الزخرفة الرائعة

(*) أذال: أهان.

بلنسية في يد الخونة

كانت بلنسية بيد حاكم يدعى القادر بالله -وقد سبق ذكره- من أسوأ حكام الطوائف، كان قد أعطى ولاءه لألفونسو السادس، وكان يدفع له الأموال "الجزية"، بل كان يوالي "القنبيطور" الذي مرّ ذكره من المرتزقة القتلة، ورضي القنبيطور أن تبقى المدينة بيد هذا الحاكم السيء الذكر.

ساءت أحوال أهل بلنسية بسوء تدبير القادر بالله إذ لم يكن همه إلا إرضاء نفسه والتمكن لقضاء نزواته، والتمسك الشديد بمركزه ولو تحت حماية أشد الناس عداوةً للمسلمينَ وله، مما جعل الناس يضجون منه، وسرت فيهم رغبة للتخلص من سيطرته وفساده، كان على رأس المدبرين للخلاص قاضي المدينة المعروف "بابن جحّاف".

قاضي بلنسية يستعين بالمرابطين

اتصل القاضي بالمرابطين، فأمدوه بالمال والرجال، وتمكن بمعاونة الشعب من إلقاء القبض على القادر بالله الذي كان متخفياً يريد الهرب من حمام القصر، ويحمل معه صندوقاً من الحلي والجواهر، وتلك نهاية كل من أعماه حب الدنيا والجاه، فكانت نهايته، وبئس تلك النهاية!

حصار بلنسية

لم يتحمل "القنبيطور" ذهاب صديقه، ولم يرضَ أن تذهب بلنسية من تحت سيطرته، فقام على الفور وضرب الحصار الشديد حول المدينة، وأفسد ضواحيها وأحرق الأخضر واليابس، وما استطاع المرابطون أن يرسلوا المدد إليها لبعدهم عنها، ولانشغالهم مع بقية حكام الطوائف، وما أعان حاكم "سرقسطة" المستعين بالله أهلها، وكان قد طلب إليه القاضي المساعدة والعون، وطال الحصار الشديد، ولما طُلب إلى القنبيطور الصلح اشترط شرطين:

- أن يدفع أهل المدينة أموالاً لا استطاعة لهم بها.
- وأن يخرج من المدينة غير أهلها (المرابطون).



ديوان الإنشاء في عهد ملوك المغرب في القرن ١٣م

غدر الكمبيادور

فتم الاتفاق على ذلك وفك الحصار، ولكن "القنبيطور" وهو المعروف بارتزاقه وطغيانه وبسوء طويته طلب غير ما اتفق عليه سابقاً، وهو أن تدخل قواته بعض مناطق بلنسية، ففعل. ثم طلب من (القاضي) كل شيء يخص المدينة من مال وأعيان وأن يسلم إليه ابنه وقادة جنده، فرفض ابن جحاف هذه الشروط التعجيزية، وراسل المستعين الذي أبى أن يساعده، كما راسل المرابطين فما استطاعوا لانشغالهم، فقرر القاضي إغلاق أبواب المدينة، وأحكم الطاغية "القنبيطور" الحصار عليها، وطال الحصار عشرين شهراً لم يبق بين يدي الناس ما يأكلون أو يشربون حتى قال المؤرخون: إنهم أكلوا الفئران والقطط والجيف، ولما أقدم بعض المتخاذلين على الهرب من المدينة، قبض عليهم جنود الطاغية، فأمر بفقء أعين بعضهم، أو تقطيع أيدي بعضهم، أو بتر أقدام الآخرين، أو بقتلهم حسبما تشتهي وحشية الذئب.

ماذا يريدون آلافاً مؤلفةً
في نفس أرحمهم وحشيةُ الذئب



بلنسية تستسلم

وانتشر الوباء، وابتليت المدينة بأنواع المحن، وأذيقت بأبشع أنواع الرزايا، فأرسل أهل المدينة وفداً إلى القنبيطور يعرضون عليه استسلام المدينة على أن يبقى جيشه خارج المدينة، وأن يعطي الناس الأمان في النفس والمال والأهل، وألا يمس القاضي بسوء، فأعطى عهداً بذلك، ومتى كان العدو اللدود وفياً؟





الغدر والخيانة

فتحت المدينة أبوابها عام ٤٨٧هـ، فاحتل جنده أبراجها فوراً، ثم أصدر أمراً بالتجمع فقتل كل الشباب القادرين على القتال، ونفى بل أخرج من لم يستطع القتال منها من الشباب، وأصدر الحكم بالقتل لكل من توجد عنده قطعة حديد، فأخرجت المسامير والإبر والسكاكين، ونكّل بالشعب أي تنكيل، وحول المسجد الجامع إلى كنيسة، أما القاضي فقد حفر له حفرة في ميدان أمام الكنيسة -الجامع الذي تحول إلى كنيسة، وأدخل نصفه فيها، وأهيل عليه التراب، ثم أمر بإضرام النار حوله والقاضي لا يزيد أن يقول: لا إله إلا الله، بسم الله الرحمن الرحيم، فاحترق شهيداً رحمه الله سنة ٤٨٨م.

يذكر جزءاً مما حل ببلنسية الشاعر ابن خفاجة الذي عاصر مأساتها:

عاثت بساحتك الظُّبا(*) يا دارُ ... ومحا محاسنَكِ البلى والنارُ

فإذا تردَّد في جنابكِ ناظر ... طال اعتبار فيكِ واستِعبارُ

أرض تقاذفت الخطوبُ بأهلها ... وتمخضتْ بخرابها الأقدارُ

كتبتْ يدُ الحدثان في عَرَصاتِها ... لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ

(*) حد السيف القاطع ومفرده ظبية

مسجد إسلامي حول إلى كازينو لمعاقرة الخمرة

القنبيطور بطل النصارى

وماذا يقول الغرب عن القنبيطور: جعلوه بطلاً! إنه بطل أسطوري أضيفت له الأمجاد والبطولات، ونُظمتْ عنه الأناشيد الوطنية والحماسية والقومية، واعتبره بعض المستشرقين نموذجاً يُحتذى به في معاملة المسلمين، وأعماله قانوناً لا غبار على التعامل به.

وهكذا يفعلون! وهل يحتاج الأمر إلى شيء من المقارنة بمعاملة المسلمين مع أهل البلاد التي فتحوها في الأندلس أو في غيرها؟ وأرى أن مجرد المقارنة يسيء إلى العدل، وكأنك تقول:

ألم تر أن السيف ينقص قدرُه ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

أما فيه إساءة إلى مكانة السيف؟ فكيف نقارن عدل المسلمين بوحشية وهمجية أعدائهم؟!!

القنبيطور يواعد النصارى سراً لخيانة المسلمين



انضمام دويلات الطوائف للمرابطين

أدى سقوط بلنسية، وفتكُ الطاغية بأهلها وقاضيها إلى استعجال بقية حكام الطوائف للانضمام إلى المرابطين خشية أن يصيبهم ما أصابها!، فانضمت بطليوس وحكامها بنو الأفطس عام ٤٨٨هـ، كما انضمت أشبونة.



العبور الرابع لابن تاشفين

ولما استتب الأمر للمرابطين في الشمال الإفريقي، أقدم ابن تاشفين على العبور إلى الأندلس لإدارتها، وكانت من قبل بإدارة أمرائه.

وكان هذا العبور هو الرابع لابن تاشفين:

١-الأول في معركة الزلاقة والانتصار الحاسم على ألفونسو.

٢-تلاه الثاني لإزالة خطر حصن "لُييط" عن الشرق الأندلسي.

٣-وكان الثالث استجابة للفتوى الصادرة من الغزالي والطرطوشي وغيرهما لتوحيد الأندلس.

٤-هذا العبور الرابع الذي أشير إليه في عام ٤٩٠هـ.



معركة كنشرة

أعد جيشاً عظيماً وجهزه من جنوب الأندلس وسيَّره بقيادة أحد قواده "محمد بن الحاج" وأمره بالتوجه نحو طليطلة (عاصمة النصارى ومقر ألفونسو)، فبادر ألفونسو السادس بنفسه يقود جيشاً لمنعه وصده، والتقى الجيشان في منطقة تدعى "كَنْشرة" ودارت رحى معركة عنيفة، استطاع في النهاية ابن الحاج أن يقهر أعظم جيش للعدو ويدحره، ففروا إلى طليطلة للاحتماء بأسوارها المنيعة، فآثر ابن الحاج التوجه إلى بلنسية لإعادة فتحها، ويأتي بعد ذلك إلى طليطلة، إنه قدر الله سبحانه وتعالى.

ابن الحاج يحاصر طليطلة





المرابطون يحاصرون بلنسية

توجه المرابطون عام ٤٩٣هـ نحو بلنسية، وأطبقوا الحصار عليها بعد أن انهزم جيش القنبيطور في عدة معارك جانبية حولها، واستمر الحصار، وأرسل ابن تاشفين قوات مرابطية بقيادة "أبي محمد المَزْدلي" -ابن عم يوسف ابن تاشفين- عام ٤٩٥ لمساندة المسلمين هناك، وكان القنبيطور قد توفي عام ٤٩٣هـ همّاً وغمّاً، وتولت زوجته "شَيْمانة" إدارة المدينة، فحاولت الدفاع عنها، لكنها قررت الانسحاب بعد أن ترك النصارى تلك المدينة أطلالاً خربة، وأخذت معها رفات الطاغية والأموال التي جمعها في فترة طغيانه.

ودخلها المزدلي في رجب عام ٤٩٥هـ وفك أسر هذه المدينة الذي استمر ثماني سنوات.



علي ولي العهد

قرر ابن تاشفين -وكان قد تجاوز من العمر خمساً وتسعين سنة- أن يعود إلى المغرب، فأخذ البيعة لابنه علي قبل مغادرته الأندلس، ولم يكن علي أكبر أولاده، ولكنه فضّله على إخوته لما رأى فيه من الورع والذكاء والحزم، وأنه أفضل إخوته تقوى وجهاداً وديناً، وقد قال عنه المؤرخون: كان على سيرة أبيه في الورع والتقوى والدين والجهاد، فبويع بولاية العهد. واشترط على ابنه أن يكوّن جيشاً يوحده لإدارة الأندلس وحفظها، يوزع أجناده على مختلف الثغور والقواعد، وحدّد قوام هذا الجيش بسبعة عشر ألف فارس: يرابط منها بإشبيلية سبعة آلاف، وبقرطبة ألف، وبغرناطة ألف، وفي شرق الأندلس أربعة آلاف، وتوزع الأربعة آلاف الباقية على الثغور والحصون المتاخمة لأراضي العدو.


نشر العلم والثقافة رسالة حملها المسلمون معهم أينما حلوا



وفاة ابن تاشفين

رجع ابن تاشفين إلى المغرب، ونزل بقصره في مراكش، فمرض واشتد به المرض حتى وافاه الأجل في صبيحة الاثنين في الواحد من محرم الحرام عام ٥٠٠هـ، وقد جاوز المائة سنة، ودفن في العاصمة المرابطية مراكش، وألقيت قصائد على قبره، ورثاه جملة من الشعراء، منهم أبو بكر بن سوار، قال على قبره مرثية ومنها هذه الأبيات:

اسمع أميرَ المؤمنين وناصرَ الدين   الذي بنفوسنا نَفديه
جوزيتَ خيراً عن رعيّتك التي   لم ترضَ فيها غيرَ ما يُرضيه
وصلِ الجهاد إلى الجهاد موفَّقاً   حتمَ القضاءُ بكلّ ما تقضيه
متواضعاً لله مُظهرَ دينه   في كل ما يُبديه أو يُخفيه

أنشأ -رحمه الله- دولة الجهاد والعلم والإيمان، ووسّع حدودها من السودان ونهر النيجر إلى المحيط الأطلسي، ومن تونس إلى طنجة، وأوقف اعتداءات الأعداء على الأندلس، ثم ضمها إلى دولة واحدة بعد أن كادت تضيع، وكأنه نفخ فيها العزيمة الصادقة للبقاء أكثر من قرن، مثال يحتذى للحاكم المسلم! ونموذج للشباب المسلم في الهمة والعزيمة.

ما أجمل قول الشاعر:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإن فساد الرأي أن تترددا

وقد قامت بلاد الأندلس في عهده سعيدة حميدة، في رفاهية عيش وأحسن حال.

عهد بن تاشفين ... حقائق وعبر

بعد أن تمزقت الأندلس إلى دويلات وطوائف كان لا بد لها أن تتوحد حتى تقف في وجه الغزو الصليبي الاستعماري،،، فكان يوسف بن تاشفين - القائد البربري المسلم - محط الأنظار لتلك المهمة، أهله لذلك صلاحه وقوته، وتعاطف معه العلماء وكافة الشعب ليعلنوا ويحققوا المبدأ الإسلامي السامي أنه (لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) فكان فضل يوسف ابن تاشفين القائد البربري على ملوك الطوائف - وفيهم الكثير من العرب - أنه الأتقى والأقوى والأقدر على حمل الأمانة

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس ... وقد أوضع الشرك الشريف أبا لهب

وما النعرات الطائفية سواء القومية منها والعربية أو التي تقوم على تمييز جنسية على أخرى إلا تراكم ضعف جديد على ضعف المسلمين الحالي، وزيادة شتات على تفرقهم وضعف انتمائهم للإسلام، فالإسلام ملة واحدة وأتباعه إخوة لا تفرقهم البلاد ولا الحدود، فإن كان حكامنا أو كانت قوانينا تأبى أن تساوي بيننا كمسلمين فينبغي - وهو أقل ما يجب علينا - أن نزيل الفوارق النفسية والاجتماعية بين بعضنا فنكون كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وكونوا عباد الله إخوانا).

يا أخي في الهند أو في المغرب ... أنا منك، أنت مني، أنت بي

لا تسل عن عنصري أو نسبي ... إنه الإسلام أمي وأبي

إخوة نحن به مؤتلفون ... مسلمون مسلمون مسلمون



صندوق بالنسيا الذي نقش عليه تاريخ ٤٤١ من الهجرة ، وهو يمثل إحدى القطع النفيسة

• ونقف مع حادثة عجيبة وهي تنازل أبي بكر اللمتوني لابن عمه يوسف بن تاشفين عن حكم المرابطين لما رأى من قوته وحكمته في إدارة شؤون الدولة !! وهل يستطيع أحد أن يثبت عبر التاريخ أن ملكاً تنازل عن ملكه لمثل هذا السبب إلا في ظل الإسلام ؟

وقد سبقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين تنازل عن الخلافة، لكن الصحابة رضوان الله تعالى عنهم لم يرضوا باستقالته!! .

تلك نفوس صقلها الإيمان فترفعت عن زيف الدنيا وزخرفها ،،،

تلك نفوس كان همها أن تعلو كلمة الله - سيان بيدها أو بيد غيرها - فالغاية واحدة، لا أن تعلو هي على كلمة الله ،،،

تلك نفوس وفت بعهدها مع الله فوفى الله بعهده معها وجعلهم أئمة الدنيا ،،،

نقرأ تاريخ أولئك الرجال ثم نرى واقعاً أليماً في التكالب والاستماتة على المناصب من غير أهلية ولا كفاءة فلا نعجب للانحدارالذي بلغناه.

فحينما يتقاتل الإخوة أو يطرد الابن أباه أو يريق الحاكم أنهارا من الدماء لأجل منصب أو حكم فهل نرجو بعد ذلك النصر أو الرفعة ؟!!

إن مراعاة الأهلية والكفاءة في المناصب - بداية من الرئاسة إلى أصغر منصب في الدولة - أمر واجب وضروري لبناء دولة قوية منتجة وهو مطلب ديني قبل أن يكون قانوناً بشرياً فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول «من استعمل رجلا من عصابة (قبيلة أو مجموعة) وفيهم من هو أرضى لله تعالى منه فقد خان الله رسوله والمؤمنين» (رواه الحاكم في المستدرك وصححه السيوطي).

• لا أدري لم لا يعتبر القادة المسلمون اليوم بحوادث التاريخ ؟؟

وما فائدة التاريخ والبحث فيه إن لم نأخذ منه العبرة ونخلص منه إلى حقائق ونتائج ؟

وإذا فاتك التفات إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التأسي

لقد أعطى الكمبيادور العهد والمواثيق لأهل بلنسية ثم خان عهده ولم يرع فيهم إلاً ولا ذمة، وهذا حال أعداء المسلمين من زمن النبي صلى الله عليه وسلم حين خانه يهود المدنية، ولا تزال الخيانات تتوالى ويستمر نكث العهود بغض النظر عن تصنيفهم أو انتماءاتهم فالكفر ملة واحدة كلهم يريد أن يكيد للإسلام على طريقته.

والغريب أن بعض قادة المسلمين اليوم لم يفهم هذه الحقيقة أولا يريد أن يفهمها، فتراه يوالي أعداء الله ويطلعهم على سره وجهره، ويستشيرهم في جميع أمره، ويثق بعهودهم كأنه ما قرأ تاريخهم، ويعقد الحلف معهم على أنهم دعاة السلام والخير والحرية، وهم لا يفوتون فرصة أو يتركون ثغرة إلا ويكيدون للإسلام من خلالها وإن تظاهر بعضهم بالمحبة والصداقة، فما هي إلا أدوار يتقاسمونها ولعبة يحكمونها، والنتيجة واحدة معروفة : كره للإسلام وأهله، وهذه حقيقة قررها الخالق العالم حين قال: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ (سورة البقرة - آية١٢٠)

فمتى نصحو من غفلتنا ونتنبه لما يحاك ويدبر لنا ؟!!!

رابعاً علي بن يوسف بن تاشفين



الوضع في الأندلس

اختاره أبوه للصفات التي سبق ذكرها، وعقدت له البيعة في نفس اليوم الذي مات فيه والده قبل أن يُوارى جثمانه، وكان في الثالثة والعشرين من العمر لما بويع، وبايعه قبل كل الناس أخوه تميم حرمة لوصية والده، وكان كما أراد والده: فاقتفى أثر أبيه، وسلك سبيله في تعضيد الحق، وإنصاف المظلوم وتأمين الخائف، وقمع المظالم، وسدّ الثغور ونكاية العدو، فلم يعدم التوفيق في أعماله، والتسديد في حسن أفعاله، وذكر عنه المؤرخون بأنه كان عالي الهمة، فسيح المعرفة عظيم السياسة، يحب العلماء ويؤثر مجالسهم.

فجاوز المغرب وأتى إلى الأندلس لينظم أمورها في عام ٥٠٠هـ، وعين أخاه تميماً قائداً عاماً للجيش المرابطي في الأندلس، وأرشده إلى المبادرة لإتمام المساعدات اللازمة لمتابعة الجهاد، ثم عاد إلى المغرب.

منظر لفناء مسجد قرطبة وقد حول إلى مزار للسياح وأوقفت فيه الصلاة والعبادة منذ خروج المسلمين من الأندلس إلى الآن - فتراه يحن لصوت مؤذن الصلاة وقراءة القرآن وخشوع المصلين ...





معركة أقليش (معركة الأمراء السبعة)

وأرسل إلى أخيه تميم في عام ٥٠١هـ ليستأنف القتال باتجاه شرق الأندلس لتدمير الثغور الباقية لدى النصارى، فاتجه صوب مدينة "أُقليش" الواقعة شرق طليطلة وفيها حامية تقدر بعشرة آلاف فارس، لكن هؤلاء فرّوا منها تحت ضغط الجيش المرابطي، واحتموا بحصن منيع لهم قرب المدينة يدعى "أُقليش" أيضاً، فأرسل ألفونسو مدداً على عجل بقيادة ابنه الوحيد "شانجة"، وكان صغيراً لم يجاوز الأحد عشر عاماً، لكنه أرسله رمزاً، يعاونه سبعة أمراء من أمراء دولته، حتى سُمّيت هذه المعركة بمعركة الأمراء السبعة، وكسر جيش قشتالة، وقتل ولي العهد كما قتل معه أولئك الأمراء، فتأثر ألفونسو تأثراً بالغاً لضياع شرق الأندلس من سيطرته ولمقتل ولي عهده، ذلك أن الأمير الصبي هجم في قلب المعركة إلى جانب الأمير الذي يشرف عليه، فلم يلبث أن أحاطت به جماعة من فرسان المسلمين وتوالت عليهما الطعان، فسقط شانجة من فوق حصانه، وقد أصابته طعنة قاتلة وسقط فوقه مربيه، ولجأ كثير من القشتاليين إلى الفرار بعد مقتل الأمير ومربّيه، وارتد القائد الكبير "ألبَرهانش" صوب طليطلة، كما حاول الفرار الأمراء السبعة (الكونتات السبعة) الذين كانوا من أهم القادة في ذلك الجيش القشتالي، وتمت الهزيمة المخزية عليهم، وقتلوا كلهم أثناء هزيمتهم، لذلك أطلق على تلك المعركة: معركة الأمراء السبعة، وغنم المسلمون مغانم كثيرة، لكن المعركة سميت باسم المنطقة التي وقع القتال عليها: "معركة أقليش" وتضاهي معركة الزلاقة أهمية بنتائجها وآثارها، فكانت أعظم نصر أحرزه المرابطون على قوات ألفونسو السادس، ودعمت مركزهم في المناطق الشرقية والوسطى من الأندلس.

وقد وقع النبأ المحزن على ألفونسو وقع الصاعقة، فاستسلم للتأوه والنحيب بمحضر من أعضاء البلاط الملكي.

وقد استشهد من المسلمين جمع غفير، ذكر منهم الإمام العالم الجزولي رحمه الله.



معركة أقليش





انقسام دولة النصارى

وانقسمت دولة النصارى بعد ممات ألفونسو السادس إلى دولتين:

١- دولة في الشرق والشمال والوسط، وملكها ألفونسو المحارب.

٢- دولة في الغرب "البرتغال" و"جيليقية" شمال الغرب، ويحكمها ألفونسو السابع.



علي بن يوسف يعبر لحصار طليطلة

عزم أمير المسلمين علي بن يوسف على عبور المضيق والوصول إلى الأندلس لمتابعة الجهاد، فأعد جيشاً توجه نحو طليطلة للضغط عليها حتى تستسلم، وكان ألفونسو المحارب قد أعدّ نفسه، وجهّز قواته لتفادي ضغط المرابطين، والصمود إن هاجموا.



معركة القضاة

فتصدى النصارى للمرابطين على الطريق في منطقة "مجريط" (مدريد) في عام ٥٠٣هـ، فاقتحمها عليهم علي، ثم تابع فلحقهم في "طَلَبيرة" وجرت معركة كبرى عندها، وكانت تدعى معركة القضاة لكثرة ما وجد في الجيش من القضاة، إذ أرسلت كل مدينة أو بلدة قاضيها، وتمكن علي من إلحاق الهزيمة بالنصارى هناك أيضاً.



مخطوطة معالجة طبية لابن وافد



إنهاء دويلة سرقسطة

ثم توجه المرابطون إلى الشمال حيث سرقسطة ودويلتها في عام ٥٠٥هـ، وكان قد قرر علي أن يضرب طوقاً على طليطلة من أطرافها ثم يقتحمها، لذلك توجه إلى سرقسطة، فأنهوا هناك دويلة سرقسطة وضموها إلى دولتهم.

ألفونسو يستعين بأوربا

أدرك ألفونسو المحارب أن بقاءه في طليطلة يجعله في خطر إن لم يتدارك بجمع الجيوش وحشد الإمدادات إليها، فأرسل إلى نصارى أوربة يستصرخهم، ويستغيث بهم أن يرسلوا المدد رجالاً أو عتاداً، فأتته الإمدادات الأوربية من فرنسة وإيطالية بشكل خاص.

المرابطون يتوجهون نحو سرقسطة



حلف نصراني بحري

أما في عام ٥٠٨هـ فقد حدث تحالف ثلاثي بين حكومة برشلونة البحرية الذين كان لهم نفوذ كبير في البحر، وبين بيزا الإيطالية، وانضم إليها جنوة، وهما إمارتان إيطاليتان، شكل هذا الحلف الثلاثي أسطولاً من ثلاث مائة سفينة حربية، وتوجهوا بها نحو الجزر الشرقية (جزر البليار)، واستطاع هذا الحلف الثلاثي إسقاط أولى الجزر وأصغرها، وتدعى جزيرة "يابسة"، ثم تابع هذا الزحف البحري فحاصر الجزيرة التالية الوسطى جزيرة "مَيُورْقَة"، فاستنجد حاكمها عبد الله المرتضى مستصرخاً المرابطين، فلبّى أمير المسلمين علي بن يوسف نداءه وأرسل على الفور ثلاث مائة سفينة بقيادة أمير البحر "تاقِرْطاس"، وصل بأسطوله وطوق الحصار على السفن النصرانية التي استطاعت أن تنسحب، إلا أن هبوب العواصف في البحر قد أغرق بعض سفنهم، وأسر المسلمون ثلاثاً منها.

اتحاد النصارى في ٣٠٠ سفينة حربية لقتال المسلمين في الأندلس



فتح قلمرية عاصمة البرتغال

لم تبق دويلة من دول الطوائف إلا وقد ضمها المرابطون إلى سلطانهم، كما حاولوا استرداد الجزيرة الوسطى التي وقعت بيد الأسطول الثلاثي المتحالف، وليجعلوا خَطّة الحصار الاستراتيجي على طليطلة، وكان علي بن يوسف يتابع الانتقال من الأندلس إلى المغرب وبالعكس، فجاء إلى الأندلس في عام ٥١١هـ مرة أخرى، ووجه الجيوش نحو الغرب وتمكن من إخضاع مدينة "قلمرية" عاصمة البرتغال في الغرب.



أوربا تساند ألفونسو لإسقاط سرقسطة

شعر ألفونسو المحارب ملك النصارى بالخطر يداهمه، فأرسل إلى ملوك أوربة يستنجد بهم، ويطلب إليهم المدد والعون، فجاءته العُدد والعَدَد من فرنسة وإيطالية ومن مناطق أوربية أخرى، واحتشد حوله خمسون ألفاً، وتحرك ليكسر الطوق على مدينته طليطلة، وتوجه نحو عاصمة الشمال سرقسطة عام ٥١٢هـ وضرب الحصار عليها، واستمر الحصار تسعة أشهر، فهلك الناس جوعاً، وما استطاع أمير المسلمين أن يهيء قوة على عجل ليساعد أهل المدينة، وكذلك ما أحسن الجيش المرابطي الموجود في المدينة الدفاع عنها، وبعد مفاوضات جرت بين ألفونسو المحارب وحاكم سرقسطة بعد أن بلغ الهلاك أشدّه نتيجة الحصار، استسلمت سرقسطة وفتحت أبوابها في رمضان ٥١٢هـ، فغادرها معظم أهلها، إذ تركهم ألفونسو المحارب يسيرون إلى حيث شاؤوا بأمان، ثم حوّل الجامع إلى دَيْر للرهبان، وقد استولى بعد ذلك على الثغور الشمالية للمسلمين في الأندلس.

كان سقوط سرقسطة بعد سقوط طليطلة بثلاثين عاماً، وقد بقيت بيد المسلمين أربعة قرون، وكان لها دور كبير في ثغور شمال الأندلس، وبسقوطها كسر الطوق الذي كان أمير المسلمين يريد أن يضربه حول القشتاليين.



الهندسة المعمارية المحيّرة لمسجد في سرقسطة والمشابه في بنائها لمسجد قرطبة الكبير



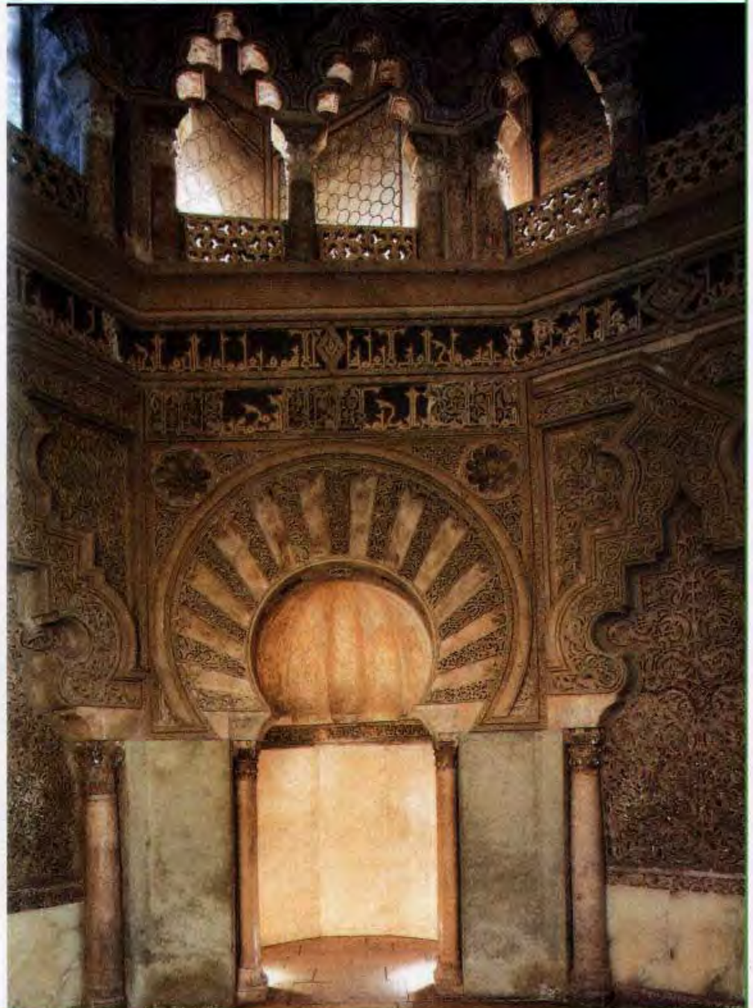


معركة قَتَنْدة لإعادة سرقسطة

اهتم علي بن يوسف لسقوط سرقسطة، فأرسل إلى أخيه إبراهيم بن يوسف والي إشبيلية يأمره بتجهيز الجيوش والمبادرة إلى السير لإعادة سرقسطة، ولوضع حد لعدوان ألفونسو المحارب، كما أرسل إلى بقية الأمراء أن يتجمعوا ويحتشدوا مع القائد العام للجيش، وكان النصارى قد اجتمعوا بأعداد غفيرة مع ألفونسو المحارب، وتصدى جيشهم لجيش المسلمين، حيث التقى الجيشان في قرية قريبة من "دَرقة" (مدينة تابعة لسرقسطة)، ودارت معركة هائلة شديدة، اقتتل فيها الخصمان اقتتالاً عنيفاً، ولكثرة العدو وقلة المسلمين أو لأمر آخر هزم المسلمون هزيمة منكرة، ودارت الدائرة عليهم، واستحرّ القتل فيهم، فقد بلغ عدد القتلى على بعض الروايات عشرين ألفاً، وكان من بين الشهداء عدد من العلماء الأفذاذ وعدد من القضاة الأفاضل، **منهم العالم الشهيد أبو علي الصدَفي** الذي ولد عام ٤٥٤هـ واستشهد عام ٥١٤هـ وهو من أبناء الستين، رحل إلى المشرق وأخذ من علمائه بالبصرة وبغداد ودمشق وغيرها، ورجع بعلم جمّ، وبرع في الحديث إسناداً ومتناً مع حسن الخط والضبط وحسن التأليف، والفقه والأدب مع الدين والتواضع، قال القاضي عياض عنه ممن سمع منه: قال له أبو علي الحافظ الصدفي: خذ الصحيح، فاذكر أيّ متن شئت منه، أذكر لك سنده، أو أيّ سند أذكر لك متنه.

وقاضي المرية محمد بن يحيى المعروف بابن الفرّاء، ويصف أبو بكر بن العربي القاضي المعروف في إشبيلية ومؤلف كتاب "العواصم من القواصم" أنه حضر تلك المعركة وشهد مقتل الآلاف من المسلمين.

يرى بعض المؤرخين أن سبب الانكسار كان لضعف الموارد والمدد ولقلة العدد لبعدهم عن أراضي المسلمين، بينما يأتي عدوهم المدد لا من الأندلس (المقاطعات النصرانية) فحسب، بل كانت أوربة تمدّهم تباعاً بكل الموارد البشرية والطبيعية، والبابا يحرض ملوكها وأمراءها لمحاربة الكفار (المسلمين).



محراب المسجد في سرقسطة



تزعزع المرابطين

وارتد الأمير إبراهيم بن يوسف في فلول الجيش المرابطي إلى بلنسية، وكأنّ هذه المعركة قد زحزحت شيئاً من هيبة المرابطين العسكرية.

وزاد من زعزعة المرابطين ما حدث من مؤامرة في المغرب عام ٥١٥هـ ضد المرابطين المعروفة بحركة ابن تومرت، سنتعرض لها فيما بعد.

الوضع العام كما يُرى، سقوط مدينة سرقسطة عاصمة الشمال، وانكسار جيش المرابطين في قتندة، وتربُص العدو بباقي المناطق الإسلامية، وحركات داخلية مريبة تجري في المغرب، ولا حول ولا قوة إلا بالله!



درهم ملوك ميورقة و موبشير بن سليمان

العالم الحق

رأينا استشهاد عدد من كبار العلماء في المعركة السابقة، واشتراك الآخرين، فأولئكم جند الله حقاً، وجند الإسلام والمسلمين، فالعالم الحق في حلقته إمام في العلم والفقه، وفي المجتمع خبير يعرف أحواله، ويتفقد أوضاعه، وفي ساحات المعارك يصول ويجول بالسيف أو الرمح وبصنوف الأسلحة.

يوصف العالم الحق بأنه رجل القلم والكتاب وبطل الحروب، يقوم بكل ما تتطلبه ظروف الحياة من حوله، ويدرك واقع أمة المسلمين، ويستنهض الهمم، وهو المقدم في كل ميادين الحياة، ألا أين العلماء في القرن الحادي والعشرين!



علي بن يوسف يعبر إلى الأندلس

عبر أمير المسلمين علي بن يوسف المضيق إلى الأندلس للمرة الرابعة، لوجود حوادث بين المسلمين أنفسهم، ونزاعات لا تهدأ في قرطبة، ولم تهدأ إلا بمجيء ابن يوسف وذلك بعد أن دامت أربع سنوات إلى عام ٥١٥هـ.



زخرفة أقواس إسلامية لقصر في سرقسطة



غدر أهل الذمة

لما سقطت سرقسطة في أيدي القشتاليين، وتوالت انتصارات ملكهم ألفونسو المحارب أخذت طوائف المعاهدين -أهل الذمة- في التحفز، وبدأت تعمل في الخفاء أحياناً وربما جهراً إذا ما سنحت الفرص لهم وما أكثرها في تلك الفترة، فقد توالت المحن على المسلمين، تحفزت تلك الطوائف لعمل شيء ما لضرب المسلمين وتوهينهم، وكان أكثر الطوائف النصرانية غلواً ونشاطاً في تدبير المؤامرة بالأندلس هم معاهدو مدينة غرناطة، مع أن المعاهدين جميعاً قد عاشوا في ظل الحكومات الإسلامية أياً كان اسمها متمتعين بكل شيء من تقاليدهم ودينهم وشعائرهم، آمنين من كل عنت أو مشقة تجاه أفرادهم أو معابدهم، في حرية تامة، وقد شغل بعضهم مناصب حكومية في الدولة الإسلامية، لكن هؤلاء قد عرفوا طوال التاريخ الأندلسي بنكران النعمة وجحودها، وما والَوا إلا أبناء ملتهم النصارى، وما توقفوا عن الكيد لهذا المجتمع المسلم الذي عاشوا فيه منعمين عقيدة واقتصاداً وأخلاقاً وتقاليد.


مرثية أبو حمامة بن أتشاح



حملة صليبية لأخذ الأندلس

راسل ألفونسو المحارب هؤلاء الخونة من جميع المدن، وأبدوا استعدادهم له بأن ينجدوه إذا قدم بالرجال، وأن يمدوه بالطعام والمؤن، كما دلّوه على عورات المسلمين -أماكن الضعف لديهم-، وأن كثيراً منهم مهيؤون للقتال جنباً إلى جنب معه، غرّ ألفونسو المحارب تلك المراسلات فخرج من سرقسطة سنة ٥١٩هـ بحملة تحمل الطابع الصليبي تماماً، فاتجه شرقاً وهو ينشر الفساد، ويعبث في الأراضي التي يجاوزها حرقاً وتدميراً، ثم دخل مملكة بلنسية ينسف الزروع ويحرق القرى، ولم تستطع القوات المرابطية القليلة إيقافه أو التصدي له، إذ كانت جموع المعاهدين تنضم إليه في كل منطقة يمرّ بها حتى احتشد حوله خمسون ألفاً.

تساقط المدن لألفونسو

ثم اتجه صوب "دانية" ومرّ بشاطبة حتى وصل إلى المرية جنوباً، وما كان يقف في مكان إلا أياماً، وكان المعاهدون الذين انضموا إليه يدلونه على الطرق والمسالك ويكشفون له أماكن الضعف لدى المسلمين، وتحرك حتى نزل غربي وادي "آش" القريب من غرناطة، فاشتد الخوف على أهل غرناطة، واستعدوا لمنعه ومحاربته.



حصار غرناطة

ووصل إلى غـرناطة عـام ٥٢٠هـ وضـرب الحصار حولها، ولله جند لا تقهر، إذ جـاء الجليد ونزلت الأمطار، وانتـشـر الوباء في جـيـشـه، كـمـا أن هجـمـات المسلمين المتعددة كعصابات متفرقة أجـبـرته على أن يفك الحـصـار لبـأس المدافعين عن مدينتهم غرناطة.

القوات الإسلامية تلاحق ألفونسو

فـانحـدر غـرباً، والـقـــوات الإسـلامـيـة تلاحق مؤخرته، ثم تحول باتجاه الجنوب الشرقي ثم انعطف غرباً حتى وصل قريباً من مدينة مالقة على المضـيق، وكـان فـرسـان المسلمين تضيق عليه بمناوشات عديدة.

القصبة (قلعة الحمراء)





عودة ألفونسو إلى طليطلة

ولما رأى انه لم يحقق أي شيء يذكر، قرر العودة إلى طليطلة، فاتجه شرقاً إلى مرسية فشاطبة فبلنسية، وتبعه عشرة آلاف من المعاهدين خشية انتقام المسلمين منهم لخيانتهم ولقتالهم إلى جانب ألفونسو المحارب، وقد ألقى الله عليهم الوباء حتى وصل إلى طليطلة بعد خمسة عشر شهراً قد حطمه الإعياء والوهن، وفرسان المسلمين يلاحقونه وجنده.

ناقوس نقش على العاج

كشفت هذه المغامرة -مغامرة ألفونسو المحارب- أن طريقة الدفاع المرابطي عن الأندلس لم تكن سليمة في تلك الفترة، وأن الذين يعيشون بين ظهراني المسلمين من المعاهدين لم يعرفوا -ولن يعرفوا- إلا بالولاء لأبناء ملتهم، وأنهم يمثلون خطراً حقيقياً إذا ما آتيحت لهم الفرص.



ابن رشد الجد يعبر إلى الأندلس

ولذلك قام القاضي أبو الوليد بن رشد الجد الأكبر بعبور البحر المضيق متوجهاً إلى المغرب وغايته أن يلتقي بأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وليشير عليه بأمور ثلاثة:

١-تغريب المعاهدين الذين يخونون العهد ويخرجون على الذمة، وأفتى بوجوب إخراجهم، وهذا أخف عقاب لهم، فأصدر الأمير أمراً بذلك، وأجلي الكثيرون إلى المغرب في سنة ٥٢١هـ.

٢-وأشار على الأمير أن يبني سوراً للعاصمة مراكش، فأمر الأمير بإنشاء السور وتم خلال فترة وجيزة، كذلك أمر ابن يوسف بإنشاء سور لكل مدينة لا سور لها، وتحصينها، وقال له: لا يحل لك أن تكون هذه المدينة دون سور.

٣-وبيّن ابن رشد الجد لأمير المسلمين خطورة الأوضاع في الأندلس، وأنها بحاجة إلى رجل قوي، حازم، عاقل، يعرف المجتمع وأحواله، وضروب السياسة وأخذَ الحيطة وجانبَ الحذر من العدو، وإن أخا الأمير "تميماً" لا يصلح في هذا الوقت لإدارتها لضعف إمكانياته الشخصية، ونصحه أن يعزله ويولي رجلاً كفئاً، فاستجاب له أمير المسلمين، وعزل أخاه وولى على الأندلس ابنه تاشفين بن علي بن يوسف بعد استشارة ابن رشد.



تفرق في دول النصارى

كانت حكومة النصارى في هذه الفترة منقسمة إلى مملكتين:

١-مملكة أراغون في الشمال والوسط، وملكها ألفونسو المحارب.

٢-مملكة ليون وجيليقية وتسمى أحياناً قشتالة، وملكها ألفونسو السابع.

٣-وقام رجل منهم في عام ٥٢٣هـ في منطقة البرتغال يدعى ابن الرّنْق أو "ابن الرِّنك" فأعلن استقلاله عن هذه المملكة، وأطلق على حكومته: مملكة البرتغال.



معركة إفراغة

كان أكبر هم لألفونسو المحارب ملك أراغون، وأعظم إصراره أن يعيد بلنسية ومرسية ويضمهما إلى مملكته، فبادر في عام ٥٢٨هـ وقد أعد جيشاً جراراً من الفرسان نحو بلنسية، وكان يطمع أيضاً أن يسقط ما بقي من الثغور الأندلسية في الشمال ويضمها إلى سلطته، وتمكن أثناء توجهه إلى بلنسية من أن يحتل بعض القرى والثغور، لذلك أسرع والي بلنسية ومرسية للتصدي لهذا الطاغية بجيشه القليل وتقابل الجيشان قرب مدينة صغيرة تدعى "إفراغة" جنوب غرب مدينة "لاردة".

القلة المسلمة أمام الكثرة الكافرة

وتقدر بعض الروايات عدد جيش ألفونسو المحارب باثني عشر ألف فارس، يقابلها من المسلمين ثلاثة آلاف فارس، وجرت بينهما معركة حامية، وقتال شديد، حيث أبدى كلٌ من الجيشين ضروباً من القتال العنيف، فكان المسلمون يقاتلون وهم قلة ولكن سلاح الإيمان أمضى، وقلب يثق بالله لا يمكن أن يتزعزع، وكان النصارى يقاتلون بشجاعة وعناد قائدهم المحارب لشهرته وغلظته.

وكانت النتيجة -بما جرت سنة الله سبحانه وتعالى- أن ينتصر جند الهداية على جند الضلال، واشتد الأمر على جيش العدو وكثر القتل فيهم، ومُزقت صفوفهم فلاذوا بالفرار، وأصيبوا بهزيمة منكرة بينما تركوا كبار قادتهم صرعى في الميدان، كما سقط ألفونسو المحارب قتيلاً ممزقاً، فصار لهذا النصر المؤزر في إفراغة صدى عميق في الأندلس وغيرها، إذ سُرَّ المسلمون بنصر الله، وأعادت هذه المعركة ذكريات الزلاقة وبَرباط وأقليش، فأعادت الأمل إلى وجوه الأندلسيين، وعادت سمعة المرابطين القتالية إلى مكانتها، وأثبتوا أنهم أهل السلاح والساحة والميدان، فزال الخطر عن بقية الثغور الأندلسية في الشمال.

كسر الجيش الصغير تكبّرَ ألفونسو المحارب، فقد كان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبراً، وكان ينام على طارقته بغير وطاء، وقد كان يظن أنه لن يُغلب، وأقسم أنه لا يغادر إفراغة إلا منتصراً، وتحقق الوعد الرباني في كتابه الكريم: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم ٤٧).

ولو تابع المرابطون تقدمهم إلى سرقسطة لما اعترضهم أحد، وما وجدوا مقاومة ولأعادوها إلى سلطة المسلمين، ولكن قدّر الله وما شاء فعل.





السليطين ألفونسو السابع

يستغل ألفونسو السابع مقتلَ ألفونسو المحارب ملكُ ليون وجيليقية، فيضم مملكة أرغون إلى مملكته ويوحدهما، فأصبح الحاكم للأندلس النصرانية ولقب نفسه بالسلطان بينما تذكره الروايات الإسلامية باسم السلَيطين (الملك الصغير)، أما البرتغال فقد بقيت تحت حكم ابن الرِّنق "الرِّنْك".

أراد السليطين أن يعزِّز مكانه، ويثبت وجوده فتقدم بجيش مهاجماً صوبَ بطليوس، فأسرع إليه تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين وصدَّه في مكان قرب معركة الزلاقة، وكسره وهزم جيشه كما هزمه في عدة معارك أخرى، وقتل وأسر من جنوده جموعاً كثيرة.

بناء يمثل مستشفى صحي للاستشفاء في مالقة (من معالم الحضارة التي اشتهرت به عموم الأندلس في العهد الإسلامي)



معركة البكار

خرج تاشفين في شهر ذي الحجة عام ٥٢٨هـ بقواته يريد الغزو، وكان أمامهم ممر لا بد للمرور فيه، فوضع العدو خطة كمين، وباغتوا المسلمين في جنح الظلام واستطاعوا أن يمزقوا صفوفهم، فدبَّ الخلل، وظهر الاضطراب بين المسلمين، عند ذلك فرّ معظمهم، وعلا الصياح للفرار حتى وصل بعض فرسان العدو إلى خيمة الأمير تاشفين، فنصحه بعضهم أن يفرّ ويسلمَ، لكن القائد العظيم أبى ذلك وقال مقالة عظيمة:: (لا أسلمُ وأسلِّم الأمة، ولا أبرح حتى تنجلي عما انجلت عليه هذه الكرّة، لن أهرب وأترك العامة لتضيع)، وكان معه أربعون فارساً فقط، وفضّل الثبات ولو أدى إلى استشهاده، إذ لولا ذلك لضاع المسلمون!



مرثية مقبرية

رباطة جأش تاشفين بن علي بن يوسف

يقول أحدهم في وصفه في ذاك الموقف: لم أرَ أربطَ منه جأشاً، ولا أشهم نفساً في مطلع ذلك الهول، وكأنه كما قال الشاعر:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ ... كأنك في جفن الردى وهو نائمُ

وظل يقاتل حتى انكسر السيف الذي بيده، وقاتل بالدرع من بعد، فلما وصل الخبر إلى باقي الأفراد بادروا بالتجمع إليه، وأحدق به فرسان المسلمين وأبطال المرابطين واستطاع أحد الجند أن يقضي على قائد النصارى المهاجمين بطعنة قاتلة، وولّى بذلك المهاجمون الأدبار، وانكشف الظلام بهزيمة القشتاليين، وقد تركوا مئات القتلى، وانتصر المسلمون بثبات تاشفين، إذ ذكرهم ببطولة جده يوسف بن تاشفين، ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ (آل عمران ٣٤)، وهذا الشبل من ذاك الأسد كما يقال.

أي نوع من الرجال هؤلاء؟ ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾ (الأحزاب ٢٣)، بهؤلاء كُتب مجد المسلمين، وبهؤلاء فُتحت البلدان، وبأمثالهم بُلِّغ الدين، فكان لتاشفين في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، في غزوة حنين.

ونذكر بعض أبيات من قصيدة وجهها إلى تاشفين كاتبه أبو بكر يحيى بن الصيرفي يمدحه، ويصف مشاهد من تلك المعركة ويشيد بثباته ويشير عليه أن يأخذ بالحذر:

يا أيها الملأ الذي يتقنَّعُ ... من منكم البطل الهمام الأورعُ؟
ومن الذي غدر العدو به دجىً ... فانفضَّ كلٌّ وهو لا يتزعزع
يا تاشفين أقم لجيشك عذره ... بالليل والقدر الذي لا ينفع
هجم العدو دجى فروّع مقبلا ... ومضى يُهَيْنِمُ(*) وهو منك مروع
لا ضيّع الرحمن سعيك إنه ... سعيٌ به الإسلام لا يضيع
نستودع الرحمن منك وديعة ... فهو الحفيظ لكل ما يستودع

(*) أخفى صوته.

خامساً نهاية عهد المرابطين



تاشفين بن علي بن يوسف

عاد الأمير تاشفين في عام ٥٣٣هـ إلى المغرب بناء على أوامر أبيه، حيث التقى بأبيه فعينه ولياً للعهد، وكان أهلاً لذلك بعد موت أخيه الأكبر، وأخذ لابنه ولاية العهد في حياته.

وتوفي علي بن يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى عام ٥٣٧ هـ، وتولى ابنه تاشفين الحكم، وذكر عنه الرواة أنه كان بطلاً شجاعاً، وأنه لم يشرب مسكراً ولا استمع إلى قينة (مغنّية) ولا اشتغل بلذة صيد، فكان تقياً ورعاً صائماً قائماً.



ظهور حركة ابن تومرت

وكانت قد ظهرت في المغرب تطورات وأحداث عظيمة، من ظهور دعوة المهدي بن تومرت، وتلتها قيام دولة الموحدين، وبدأت هذه التغيرات عام ٥٣٩هـ.

صراع المسلمين والنصارى

كما ظهرت عدة اشتباكات في الأندلس بين المسلمين والنصارى بعد مغادرة تاشفين لها، وكانت سجالاً بينهم، وكان قائد الجيوش المرابطية من قبل تاشفين: يحيى بن غانية، وبقي هناك، لكن معظم جهوده كانت لوقف هجوم الموحدين الذين عبروا الأندلس بعد أن تمكنوا في المغرب كما سيأتي.



وفاة تاشفين

لم تدم ولاية تاشفين كثيراً، فقد توفي عام ٥٣٩هـ، وكان في طريقه إلى وهران مع قلة من أصحابه ليلاً، فسقط من فرسه في حافة الوادي، وذلك في ليلة السابع والعشرين من رمضان، وقد تمكن الموحدون من جيشه ففرقوه.



انعكاس صورة القصر على الماء في قصر غرناطة

إبراهيم بن تاشفين

وتولى الحكم من بعد الأمير تاشفين ابنه، إذ بويع إبراهيم بن تاشفين، وكان صغيراً بلغ السادسة عشر من عمره وكانت الدولة المرابطية في نزاعها الأخير، لظهور الموحدين بقوة على الساحة في بلاد المغرب، كما ظهر الخطر النصراني واستفحل في الأندلس، فهل يكون إبراهيم الصغير نجماً كعبد الرحمن الناصر؟ أم تضيع الأندلس؟ وتضيع دولة المرابطين في المغرب؟



غليان الأندلس واضطراب المغرب

كانت الأندلس في غليان وهياج، وكانت منطقة الشمال الإفريقي، وبالأخص المغرب مضطربة الأوضاع، متشابكة الحوادث في كل بلدة، لتقوم دولة الموحدين، وتجمع قواتها وأنصارها للقضاء على المرابطين، وكانت قد استولت على مدينة فاس، وبسطت سلطانها على معظم المغرب ما عدا مراكش، فكانت الدولة المرابطية تنتظر مصيرها.

جيش النصارى يستعد لملاقاة جيش المرابطين



الوقيعة الكبرى

وفي عام ٥٤٠هـ وفي هذا الوضع الخطير، تجمع النصارى في الأندلس بجيش كثيف لإخراج المسلمين والمرابطين من الشرق حيث نشبت معركة عظيمة تسمى أحياناً الوقيعة الكبرى على المسلمين في منطقة "اللَّج" والبسيط قرب "جلنجاجة"، وأصيب المسلمون هناك بهزيمة نكراء، وكانت من أولى الإشارات بضعف إبراهيم وتهاوي دولته.



معركة البسيط ونهاية ابن هود

وكانت معركة البسيط التي دارت رحاها بين سيف الدولة بن هود وبين نصارى الشمال وقتل فيها ابن هود الذي كان ألعوبة لملك قشتالة، وآثر أن يعيش في حماه، وكم فرّق وشتت بين المسلمين في قرطبة وغرناطة وجيان ومرسية، ولكنه قتل آخر عمره في معركة لم تكن من تدبيره، وسقط دفاعاً عن أمته، وذهب للقاء ربه ليسأله عما جنت يداه، وآل الأمر من بعده لقائد جند الثغر في مرسية وبلنسية الذي نجا ببقية الجيش إلى بلنسية وهو: أبو محمد عبد الرحمن بن عياض المعروف بابن عياض.

مدّ هذا سلطانه على سائر الثغور من بلنسية، واستمر في حكمه عاماً وأشهراً إلى أن لقي مصرعه خلال حروبه مع القشتاليين، عام ٥٤٢ هـ وكان قد أوصى من بعده إلى صهره ونائبه في بلنسية "محمد بن سعيد بن مردنيش".

إمارة محمد بن سعيد بن مردنيش في شرق الأندلس

صفحة من الصراع المرير بين هذه الإمارة وبين الموحدين من بعد، فقد لبث أميرها المعروف بابن مردنيش عشرين عاماً.

النصارى يهاجمون ابن هود



أغرب شخصيات الأندلس

كان من أغرب الشخصيات في الأندلس، جمع خلال العصر ورذائله معاً، وبالغ جداً في خدمة النصارى "ألفونسو السابع"، وكذلك أمير برشلونة يدفع لكل منهما جزية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب، والراجح أنه كان من المولدين، فقد كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى في الزي والملابس، والسلاح والسروج، يؤثر اللغة القشتالية ويجيدها في الحديث بها، جمع حوله كثيراً من مرتزقة النصارى وقد بلغ عددهم اثني عشر ألفاً، ذكر المقري شجاعته في نفحه فيقول: إنه كان من أبطال عصره، وأنه كان يدفع في المواكب ويشقها شقاً، يميناً وشمالاً منشداً:

أكر على الكتيبة لا أبالي ... أحتفي كان فيها أم سواها؟

ومدّ سيطرته فاستولى على بسطة ووادي آش في الجنوب، وأصبحت حدوده على تخوم الدولة الموحدية، لذلك كان الصراع الحاد بينه وبينها.

ابن مردنيش هذا هو (الذئب) باللقب الذي عرف به بين النصارى في الأندلس، قارع الموحدين، واشتطّ في الضرائب التي فرضها وفي الإتاوات التي أرهق بها المسلمين الذين رزحوا تحت حكمه فترة من الزمن إرضاء لأسياده ملوك النصارى في الأندلس.

ابن هَمُشْك

وجمعت المصلحة وتلك الصفات بين ابن مردنيش وشخص آخر يشبهه يدعى إبراهيم بن محمد بن مفرج المعروف "بابن هَمُشْك": وهو مثله شخصية متميزة، وصار من أهم أعوان ابن مردنيش شجاعة وإقداماً، وتزوج ابن مردنيش ابنته بعد أن توطدت الصلة بينهما.
وستأتي بقية أخبارهما فيما بعد.



الموحدون ينهون حكم المرابطين

أما في المغرب فقد قام الموحدون في بداية المحرم عام ٥٤١هـ بضرب الحصار على مراكش العاصمة المرابطية، وسيأتي تفصيل ذلك، وكان الشعور العام بأن مصير الدولة باتت وشيكة السقوط، وبعد حصار طويل دام تسعة أشهر، استولى الموحدون على العاصمة، وأسر الأمير إبراهيم ومن معه فقتلوا جميعاً، وقتل إبراهيم الذي لم يدم حكمه إلا سنتين، وانتهى بذلك آخر من حكم من المرابطين، وانتهت دولتهم التي تأسست عام ٤٦٢هـ في مراكش وذلك في نهاية ٥٤١هـ، أي ما يقرب من ثمانين عاماً.



خلع إبراهيم بن تاشفين

وبعد تولي إبراهيم للحكم بنحو عامين خلعه المرابطون لما رأوا من ضعفه وعجزه وبويع عمه إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين.

نظرة عامة إلى دولة المرابطين

تأسست دولة المرابطين وقامت على خط الدعوة الإسلامية، فقد أسسها العلماء وأدارها العلماء، حكمت بالقرآن والسنة، وكان دولتهم دولة خير وجهاد و(عافية) كما قال ابن الخطيب، لم ينقطع الجهاد فيها خمسين عاماً، وحدت المغرب أولاً، ثم وحدت الأندلس فقضت على الجاهليات الممزقة، وجعلت المسلمين أعزةً، كما أزالت دول الطوائف، ولو لم يكن لهم -للمرابطين- فضيلة ولا خير إلا وقيعة الزلاقة لكان ذلك من أعظم فخرهم وأربح تجرهم كما قال ابن العربي.

وصف العالم الكبير والقاضي الشهير أبو بكر بن العربي المرابطين بأنهم قاموا بدعوة الحق ونصرة الدين، وكانت دولتهم أكثر الدول جرياً على السنة.

ولولا قدوم المرابطين على الأندلس لسقطت قبل أربعة قرون من سقوطها باتفاق المؤرخين على هذه المقولة، إن المرابطين أخروا سقوط الأندلس أربعة قرون.



ازدهرت التجارة وساد العدل في عهد المرابطين



ملخص أحداث عهد المرابطون

٤٨٥ هـ	أهل بلنسية يثورون بقيادة قاضيها على حاكمهم الخائن .
٤٨٧ هـ	سقوط بلنسية بعد حصار شديد ثم غدر الكمبيادور المرتزق بأهلها .
٤٨٨ هـ	تم توحيد الأندلس على يد يوسف ابن تاشفين .
٤٩٥ هـ	فتح بلنسية بعد حصار طويل .
٤٩٥ هـ	تعيين علي بن تاشفين ولياً للعهد .
٥٠٠ هـ	وفاة يوسف بن تاشفين رحمه الله تعالى وتولي ابنه علي للحكم .
٥٠١ هـ	انتصار المسلمين في معركة أقليش .
٥١٢ هـ	استسلام سرقسطة بعد حصار من تحالف ألفونسو وملوك أوروبا .
٥١٥ هـ	تزعزع المرابطين بعد هزيمتهم في معركة قتندة .
٥١٩ هـ	حملة صليبية لأخذ الأندلس .
٥٢٨ هـ	انتصار المسلمين في معركة إفراغه وعودة الأمل والعزة للجيش المرابطي .
٥٢٨ هـ	انتصار المسلمين في معركة البكار .
٥٣٧ هـ	وفاة علي بن تاشفين وتولي ابنه تاشفين .
٥٣٩ هـ	وفاة تاشفين بن علي .
٥٤٠ هـ	انهزام ابن هود في معركة البسيط وموته فيها .
٥٤١ هـ	نهاية حكم المرابطين في المغرب .

العلماء في عهد المرابطين

وانتشر فيها العلم والعلماء في جميع ميادين الحياة، وقد سبق ذكر بعضهم، وهؤلاء بعضهم:

١ الحجاري

أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري: أديب كبير وشاعر وعالم، مؤلف كتاب "المسهب"، أصله من وادي الحجارة، ولما سقطت بيد النصارى، طاف بالأندلس ثم استقر في قلعة "تحصب" قرب غرناطة، وقع أسيراً بيد النصارى مرة، فافتداه ابن سعيد صاحب يحصب، توفي سنة ٥٥٠هـ.



مسلمون يتدارسون علم الفلك

٢ ابن بشكوال

ابن بشكوال: خلف بن عبد الملك: محدث الأندلس، صاحب "تاريخ الأندلس"، متسع الرواية، شديد العناية بها، ولد عام ٤٩٤هـ، وتوفي ٥٧٨هـ.

كان حجة مقدماً على أهل وقته، حافظاً إخبارياً، تاريخياً، وصفوه بصلاح الدخلة (باطنه) وسلامة البسطة (أمين) وصدق الصبر للطلبة، وطول الاحتمال، ترك خمسين مؤلفاً في شتى أنواع العلوم.

٣ ابن باجه

ابن باجة الذي برز في الفلك والرياضيات والفلسفة، فيلسوف الأندلس، كان يضرب به المثل في الذكاء، وآراء الأوائل، والطب والموسيقا ودقائق الفلسفة، مات بمدينة فاس عام ٥٣٣هـ.

٤ الخزرجي

وبرز الخزرجي صاحب الفضل العظيم على الطب.

٥ ابن قزمان

وابن قزمان أمير الزجل الأندلسي، وهو أول من تكلم بالزجل، كان أديباً بارعاً حلو الكلام مليح النثر مبرزاً في نظم الزجل، والطريقة الزجلية بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع، وتنفسح لكثير مما يضيق على الشاعر سلوكه، وبلغ بها أبو بكر بن قزمان مبلغاً حجره الله عمن سواه، فهو آيتها المعجزة، وحجتها البالغة، وفارسها المُعْلم، كما قال المقري في نفح الطيب عنه.



انتشار العلم والعلماء والمفكرين المسلمين في الأندلس

قرطبة العاصمة ثم غرناطة

كما نقلوا العاصمة من طليطلة إلى قرطبة، ثم نقلوها إلى غرناطة، فكانت بداية نهضتها، ثم أعيدت إلى قرطبة.

عدل المرابطين

وكان المرابطون في منتهى العدل، لا يأخذون من الناس إلا ما أوجب الشرع عليهم من زكاة الأموال، وعشر الخراج، وقاموا بين الناس بالإنصاف والحق فكلّ يصل إلى مبتغاه من الطريق الطيب، لذلك فُقد قطاع الطرق، وفُقد السراق في مدن الأندلس وقراها.

يقول مؤلف كتاب "روض القرطاس" عن المرابطين:

كانت لمتونة (القبيلة التي منها المرابطون) أهل ديانة ونية صادقة خالصة، وصحة مذهب، ملكوا الأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربي المحيط، ومن مدينة بجاية من بلاد العدوة (المغرب) إلى جبال الذهب من بلاد السودان، لم يجر في عملهم طول أيامهم رسم مكروه، (ضريبة) ولا خراج في بادية ولا حاضرة، وخطب لهم على أزيد من ألفي منبر، وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل، وعافية وأمن.. وكثرت الخيرات في دولتهم، وعمرت البلاد، ووقعت الغبطة، ولم يكن في أيامهم سراق ولا قطاع طريق، ولا من يقوم عليهم، وأحبهم الناس إلى أن خرج عليهم محمد بن تومرت مهدي الموحدين سنة ٥١٥هـ.



رأس عمود مدون عليه: قرطبة

النهضة في عهد المرابطين

بدأت بالرباط في سبيل الله كما تقدم، ونهضت إلى العز بالعلم والجهاد، واهتمت كثيراً بالموارد الزراعية والعمرانية والصناعية، وأنشأت المدارس والصناعات الحربية، وأسست مصانع الأقمشة والحرير، وكذلك آلات النحاس والحديد، كما اهتمت كثيراً بخدمات المصلحة العامة.

القوة العسكرية

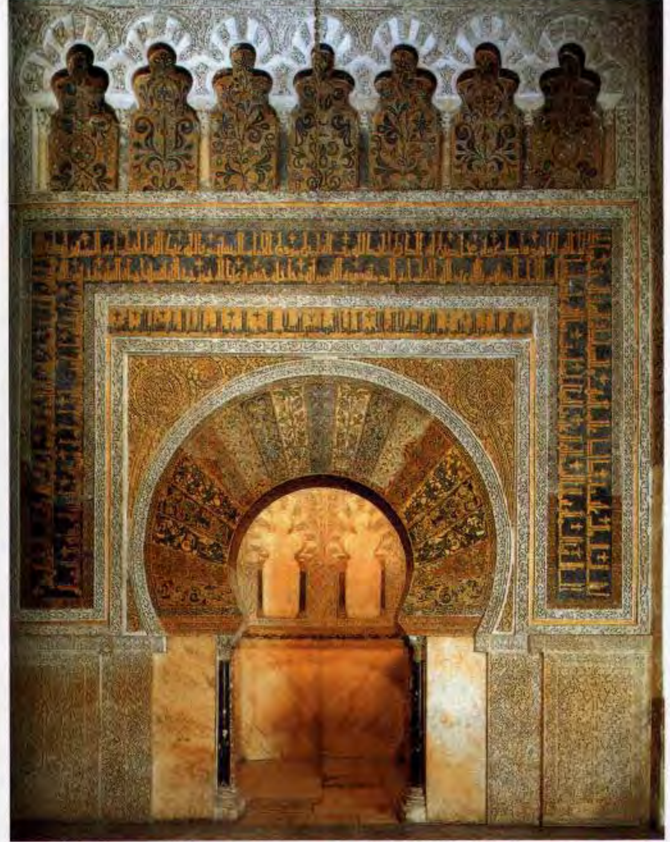
وكان السمة البارزة للدولة المرابطية هي الناحية العسكرية، وهذا أمر لا بد منه إذ أن الاستعداد لا بد منه تجاه أعداء لا يزالون يتربصون بها، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا﴾ (النساء ٧١).

فأنشئت فرق الصائفة والشاتية، واستمرت السرايا والغزوات طيلة خمسين عاماً في الأندلس في عهدهم، قال عنهم مؤلف "الحلل الموشية": قَدِم أشياخ المرابطين فيها، وكانوا أقواماً ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة، لم تفسدها الحضارة ومخالطة الأسافل.

الإدارة

أما عن الناحية الإدارية فقد كان للأندلس قائد عام يتبعه قواد المدن الأخرى، يقومون بما تتطلب الأوضاع الإدارية والعسكرية والاقتصادية، وكانوا يسمون أحياناً بالولاة، وهم مسؤولون أمام أمير المسلمين عن أعمالهم، فيحاسبون إن قصّروا أو يعزلون.

وقد كانت الأندلس مقسمة إلى عدة ولايات في زمانهم بلغت أحياناً ستاً.



قرطبة، المسجد الكبير، واجهة المحراب يظهر النقش في الفسيفساء الذهبية فوق قعر أزرق آيات قرآنية واسم الحكم الثاني



أحد أبواب مسجد قرطبة

القضاء

وكان القضاء مستقلاً لا سلطان لأحد عليه، وكان الأمراء يأخذون بحكم القضاة ويعملون بنصحهم كما رأينا حين جاء القاضي ابن رشد إلى علي بن يوسف ونصحه بأمور ثلاثة، فأخذ أمير المسلمين بذلك كله.

هذه الدولة القوية العتيدة، دولة العلم والإيمان، دولة الجهاد والغزو، دولة الاستعداد الدائم، ما بالها سقطت؟ وكيف سقطت؟ وما هي أسباب سقوطها؟

أسباب سقوط المرابطين

نرى أن العوامل التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين في ثلاثة أسباب:

ضعف القيادة:

١-تسليم الحكم أحياناً لمن لا يستحق -إذ يسند الأمر إلى غير أهله- فقد رأينا كيف وُسِّد الأمر إلى طفل في السادسة عشرة من عمره، وأوضاع المرابطين كانت في مهبِّ الريح، إذ قُلِّد إبراهيم بن تاشفين، مع أن الحالة تستدعي أن يتولى رجل قويّ الإرادة، عالمٌ بشؤون الدولة، مطّلع على أحوالها، خبيرٌ بمكائد الأعداء، آخذٌ بالوسائل والاستعدادات لحفظ الدولة وردّ خطط المتربصين.

الصراع السياسي الداخلي

٢-الصراع الحاد بين الفئة التي ظهرت في مجتمع المسلمين وقام بها ابن تومرت باسم الإسلام، وبين المرابطين في عقر دولتهم في المغرب، فقد استهلك هذا الصراع قوة المرابطين وأزال هيبتهم.

لعلّ هذا السبب هو من أخطر الأسباب التي أدت إلى انهيار دولة المرابطين، فالقوى الداخلية المعارضة تنخر في كيان الأمة وتمزق صفوفها والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال ٤٦).

انشغال العلماء

٣-انصراف العلماء من معرفة الواقع ومعايشة الأحوال العامة للناس وعدم مخالطتهم لهم، وبهذا يتركون المجال لأن يتصرف الجهال في واقع الناس وأحوالهم، ترك العلماء إلا أقلهم الساحة التي ينبغي أن يكونوا عليها وخلّوا الميدان الفسيح إلى أشباه العلماء أو من يتزيا بزيّهم.

وانصرفوا إلى المبالغة في الفروع والشروح في قضايا الفقه المذهبي، وذلك أدى إلى الانفصام بين العلماء والناس، كما أدى إلى ظهور جماعة العلماء إن صح التعبير، يلتقون على مسائل لا تمت إلى الواقع، وإلى بحث ما سيكون أو يُحتمل، وكان بالنتيجة الفراغ الهائل بين الناس وبين ما ينبغي أن يكونوا عليه من علم بأحوالهم وواقعهم في دنياهم، كما حدث ذلك في عصور عدة إذ كان هناك انفصام نكد بين المعاملات الجارية للناس وبين استنباط القضايا الشرعية لتلك المعاملات، وبذلك قد ينشأ النفور من أحكام الدين، أو تذهب الحكمة والأثر للأحكام الشرعية.



المقاتلون المغاربة في الأندلس (لوحة مرسومة في القرن الحادي عشر الميلادي)

المرابطون ... حقائق وعبر

دولة تأسست على التقوى فأنجبت رجالاً أعادوا سيرة الفاتحين الأوائل زهداً وتقوى وشجاعة وعلماً.
يكفيهم فخراً أن يكون فيهم أمثال يوسف بن تاشفين.
ويكفيهم عزاً أنهم وحدوا الأندلس بعد الفرقة وأعادوا لها شموخها وهيبتها.
وقد توقفنا مع واسطة عقدهم يوسف بن تاشفين في الفصل الماضي فلننتقل إلى بعض الأحداث بعده :

• حينما تولى علي بن يوسف بن تاشفين الحكم بعد أبيه كان عمره ثلاثاً وعشرين سنة !! فقام بأعباء الحكم خير قيام وأتم ما بدأه أبوه من الجهاد وكان خير خلف لخير سلف، وما كان ليتم له ذلك لولا أنه أعد لمثل هذه المهمة وغرست في نفسه صفاة القيادة منذ الصغر، وأنشئ على تحمل المسؤولية والقيام بأعبائها، وهكذا يخرج الإسلام شباباً طموحاً جلداً على مشاق الحياة قادراً على صنع القرار والنهوض بما يناط به من مسؤولية ومهام

شبـــاب ذللوا سبل المعالــي ... وما عرفوا سوى الإسلام ديناً
إذا شهدوا الوغى كانوا كماة ... يدكون المعاقـــل والحصونـا
وإن جن الظـلام فلا تراهـم ... من الإشفـاق إلا ساجدينـــا
كذلك أخرج الإسلام قومي ... شبابـاً طاهـراً حـراً أمينـا

فالشباب هم نبض الأمة، ويدها القوية الضاربة، ومستقبلها الذي تبنيه، فيجب أن تتلاقى الجهود لإصلاحهم وغرس روح القيادة والطموح فيهم، كما تتلاقى جهود أعدائنا لإفسادهم وإماتة عزيمتهم في الجهاد، وتعويدهم على التنعم والتخنث، فيبنون لهم بدل كل مسجد ملهى للفساد والرذيلة، وبدل أن يسمعوا صوت القرآن والأذان يسمعونهم أغاني خليعة ماجنة، ويحاولوا طمس تاريخهم البطولي المجيد واستبداله بأخبار نجوم ونجمات مائعين تافهين، ليخرجوا لنا شباباً بلا عزيمة أو طموح، حتى قال فيهم القائل:

لا تلوموني فقد عز الخطـاب ... وبكى القلب على حال الشبـاب
بين نشوان يهز الخصر جـذلاً ... يتثنـــى مثـل ربـات الحجـاب
أتميلون بأنغـــام السكـارى ... ويحيط القدس أبناء الكـلاب
يا شباب اللهو أين المجد منكم ... ولـه إن صح عـــزم ألـف بــاب

الموقف الذي وقفه تاشفين حفيد يوسف بن تاشفين في معركة البكار حيث أبى أن يفر من المعركة حتى بعدما فر جنده!!
لقد رأى مصير الأمة مرتبطاً به ماثلاً أمامه - لأنه القائد والرمز- فإما أن ينهزم فتسقط الأندلس وإما أن يثبت فلعل الله أن يثبت المسلمين وهذا ما كان.
وقال مقالة القائد المخلص المؤتمن (لا أسلم وأسلم الأمة)
سبحان الله !! هذا كلام رجل أحدق به الأعداء من كل جانب وفتح له الموت بابه،،،
سبحان الله !! ما كان همه إلا حال الأمة يخاف أن تضيع من بعده،،،

وتلاشت معزة الروح والحياة أمام معزة الدين،،،

سبحان الله !! لقد عرى موقفه العظيم مواقف قادة القصور والحسابات السرية الذين حسبوا على الأمة قادة، لا يشعرون بهمّ الأمة ولا يرون في شعوبهم إلا مجموعة عبيد لا تصلح لهم إلا العصا ولا يصلحون إلا للطاعة، همّ أحدهم إشباع نزواته وإرضاء غروره ولتمت شعوبهم من بعد ذلك

إنما دنياي نفسي فإذا — تلفت نفسي فلا عاش أحد

مما يؤلم ويحزن القلب أن تنتهي دولة المرابطين بعبث الصغار وتفريط الكبار بعد أن أشرقت شمسها وعلا ذكرها، وهذه آفة عامة لا تكاد تقوم دولة مسلمة على الحق والعدل والقوة وتكون محط آمال الناس حتى تبدأ بالذبول، ويفسد الأواخر ما أصلح الأوائل، ويضيع الأحفاد ما بنى الأجداد، واقرأ ما يقوله الشاعر والمفكر الإسلامي محمد إقبال في ذلك (أنا أحكي لك قصة الفتوح وقصة الحكومات ورجالها في لفظ وجيز: إنهم يبدؤون بالسيف والسلاح وينتهون إلى المزمار والغناء، تلك بدايتهم وهذه نهايتهم) صدق والله فهذا حقاً ما ابتليت به أمتنا - ولا أقولها إلا لائماً لا مبرراً- فكلما جاء قائد أو مجدد وبنى لنا عزاً أو مجداً جاء من بعده عابثون لاهون أضاعوا بغفلة ساعة جهد سنوات طوال، وما أسهل الهدم لكن ما أصعب البناء

متى يبلغ البنيـــان يومـاً تمامـه — إذا كنت تبنيه وغيـرك يهـدم

فلو كـان ألـف خلفهم هـادم كفى — فكيف ببان خلفـه ألـف هـادم



صورة من الحياة الرغيدة في الأندلس



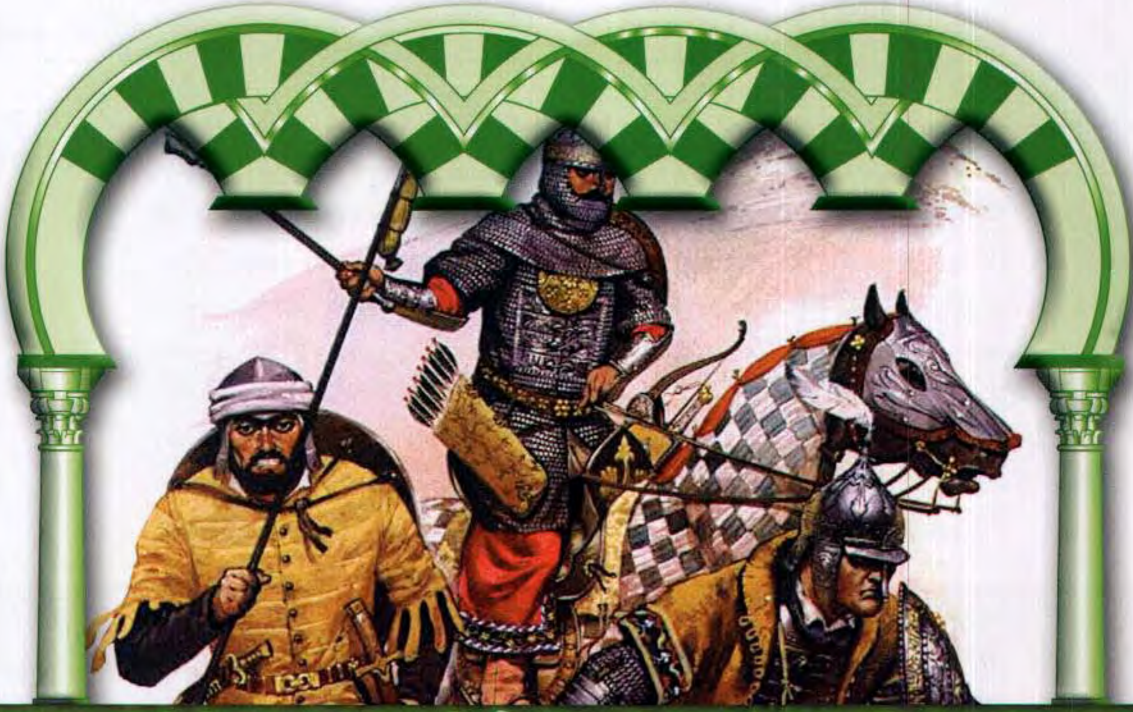
صفحة من القرآن الكريم من العهد الأندلسي



القرآن بالكتابة المغربية: الحبر الملون والأصباغ

الباب الثالث

دويلات الطوائف وملوك المغرب



الفصل الثالث

عهد الموحدين

أولاً - ابن تومرت ودعوة الموحدين

ثانياً - عبد المؤمن بن علي

ثالثاً - يوسف بن عبد المؤمن ومعركة فحص الجلاب

رابعاً - يعقوب المنصور بن يوسف ومعركة الأرك

خامساً - محمد الناصر بن يعقوب ومعركة العقاب

سادساً - نهاية الموحدين

أولاً ابن تومرت ودعوة الموحدين

في فترة انشغال المرابطين بالجهاد في الأندلس، وانشغالهم بإدارة الدولة المرابطية المترامية الأطراف في المغرب حيث كانت دولتهم دولة جهاد ودعوة، وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تحل وجهة سيرها من التقدم إلى الإدبار والانحلال، إذ وجدت نفسها أمام فئة تقوم على فورة دينية وثورة صغيرة يقوم بها فقيه مغمور وتضطرم هذه الفورة بسرعة مذهلة، فتحرق كل قوى المرابطين لتنتهي بعد صراع عنيف وتصير إلى الزوال.

دعوة الموحدين

هذه الفورة الدينية قام بها رجل، فأنشأ جماعة، تدعو إلى صفاء العقيدة، وتدعو إلى التوحيد الخالص من الشوائب، وترفض المذهبية والركون إلى التعصب المذهبي، وأظهرت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعت إلى إحياء السنة، وشددت على محاربة البدع والضلالات، وكم يتدخل الشيطان بالمداخل، فإن أي داع يرى أن جماعته فقط على الحق، وأن اتباع الحق يستوجب اتباع من يمثله، أي اتباعه هو، مع أنه لا يخلو هو من بعض الانحرافات، فقد ذكر ابن تيمية رحمه الله في عدة مواقع من فتاواه بعض انحرافات ابن تومرت وتخطيه لحدود الشرع في قتل المسلمين وإراقة الدماء وإدعاء العصمة، كما شهد له بطرف من الزهد والعبادة.

لاقت دعوة ابن تومرت رواجاً بين الناس، والجماهير تتجمع من أجل مبادئ الدين حول قيادة تدعو إليها، ولقد كان العلماء هم القيادة، فلما غاب العلماء عن ساحة الواقع، وانحسروا في داخل الدروس، أو كمنوا داخل أنفسهم (كما سبق ذكره أثناء البحث عن سقوط الدولة المرابطية) برزت إلى الساحة الأفكار التي فيها الصواب والانحراف، وبرز ابن تومرت: فمن هو؟ وما هي جماعته؟ ومن هم الموحدون؟.



قصور السلاطين في إشبيلية

ابن تومرت

هو أبو عبد الله المهدي محمد بن تومرت: بربري الجنس، ينتسب إلى قبيلة "هَرْغة" من مصمودة التي تسكن منطقة السوس جنوب المغرب، واختلف في سنة ولادته، فيجعلها ابن خلكان سنة ٤٨٥هـ، بينما يذكرها الغرناطي سنة ٤٧٠هـ، ولا نعرف بالتفصيل عن حياته الأولى في نشأته وصباه.

وهذا يدل على ما كان يكتنف الرجل من غموض يقابله غموض آخر في دعوته حيث ادعى في نهاية الأمر أنه المهدي المنتظر!!!.

أساتذة ابن تومرت

الطرطوشي

رحل ابن تومرت سنة ٥٠٠هـ إلى المشرق الإسلامي لينهل العلم ويتلقى عن علمائه، فأخذ العلم عن عدد من العلماء منهم أبو بكر الطرطوشي: أبو بكر محمد بن الوليد، الأندلسي الطرطوشي، (عالم الإسكندرية، ولد ٤٥١هـ في طرطوشة، وتوفي بالإسكندرية عام ٥٢٠هـ، قال عنه ابن بشكوال: كان إماماً عالماً، زاهداً ورعاً، ديناً متواضعاً، متقشفاً متقللاً من الدنيا، راضياً باليسير).

الشاشي

وقرأ على أبي بكر الشاشي (أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي (الشاش: مدينة إسلامية قريبة من سمرقند)، ولد ٤٢٩هـ ومات في ٥٠٧ هـ ، وكان يسمى الجنيد لدينه وورعه وزهده).

ابن الطيوري

ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار ابن الطيوري (ولد ٤١١هـ ومات ٥٠٠هـ، هو ثقة ثبت كثير الأصول، شُهد له بالطلب والصدق والأمانة، وكثرة السماع، ولم يشتغل قط بغير الحديث، وحصّل ما لم يحصله أحد من كتب التفاسير والقراءات واللغة، والمسانيد، والتواريخ، والعلل والأدبيات والشعر، كلُّها مسموعة، وكتب الحديث وهو ابن إحدى عشرة سنة).

الغزالي

وتذكر بعض الروايات أنه التقى بالغزالي وأخذ منه، وتنفي الروايات الأخرى لقاءه، كابن الأثير إذ يقول: والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (الغزالي) في معرض الحديث عنه، وكذلك ينفي ابن الخطيب التقاءه بالغزالي، ويبدو أنه كان قد تأثر بتعاليم الغزالي وعلومه من خلال كتبه، والله أعلم.



مصباح زيتي أندلسي رائع

دعوة ابن تومرت

ولما أتم دراسته، ونال مراده من العلوم عاد إلى المغرب، فبدأ بدعوته في منطقة السوس، إلى التمسك بالدين وتطبيق أصوله من الكتاب والسنة، ورفض كل قول أو عمل لا يرتضيه الإسلام وذلك بتغيير المنكر أو إنكاره، والأمر بالمعروف، ورائده في ذلك قول الله تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ (آل عمران ١٠٤)، وقوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (آل عمران ١١٠).

وأساس هذه الدعوة هو المبدأ الذي يدعو إلى الإصلاح الاجتماعي بين الناس، فالأصل أن كل إنسان مسؤول في المجتمع المسلم، وأن المسؤول الأول هو الحاكم، يأمر بالإحسان في حياة الفرد والمجتمع، وينكر الفساد بكل صوره وأشكاله.

نشر الدعوة

وانتقل ابن تومرت من بلد إلى آخر بل كان يخرج أحياناً غاوياً في الرياسة والظهور، ولما رأى ثمرة دعوته قد نضجت، بدأ يشرح لطلابه وأتباعه شأن المهدي المنتظر، ثم أعلن لهم أنه هو المهدي المنتظر، وقد أشار ابن القطان في نظم الجماعة في رسالة وجهها ابن تومرت إلى الفقيه القاضي علي بن أبي الحسن الجذامي يقول فيها بعد البسملة: أنا محمد بن عبد الله بن تومرت، وأنا مهدي آخر الزمان، فصار أتباعه وأنصاره يدعونه بالمهدي والإمام المعصوم، وسمي المهدي وأصحابه وأهل دعوته (بالموحدين)، فربط البربر بادعاء العصمة، وأقدم على الدماء إقدام الخوارج، وسيجد ما قدّم أمام الله تعالى.



ابن تومرت يدعي العصمة ويسمي نفسه بالمهدي

كتبه

ومن العجيب أنه كتب لجماعته كتاباً باللغة البربرية سماه "المرشدة" تحدث فيه عن التوحيد لكنه انحرف في بعض مسائله عن مذهب أهل السنة، ومن ثمّ وضع كتاباً بالعربية يفتتحه بقوله: "أعزّ ما يُطلب"، فأصبحت هذه الجملة عنواناً لكتابه، نقله عنه تلميذه الأول عبد المؤمن بن علي، واتهم من خالف المرشدة بالتجسيم وأباح دمه، ودخل في الدماء لنيل الرياسة المُردية.

وفاة ابن تومرت

كان عبد المؤمن بن علي من أوائل الرجال الذين دخلوا في طاعة المهدي، واعتنقوا مبدأه والتزموا عقيدته، فلما توفي ابن تومرت عام ٥٢٤هـ أوصى بالأمر من بعده لعبد المؤمن.

ثانياً عبد المؤمن بن علي

بربري الأصل من قبيلة " كومية" (بطن من بطون زناتة) وادعى أنه عربي النسب من قيس عيلان.
ولد عام ٤٨٧هـ في قرية قرب تلمسان، ونشأ محباً للقراءة والدرس، وحضور مجالس القرآن الكريم، توسم فيه الخير شيخه ابن تومرت، ويعتبر هو المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين، إذ عهد إليه ابن تومرت بالأمر قبيل وفاته، أو اتفق عليه الموحدون بعد وفاته.



محاربة المرابطين

قام لما أسند إليه الأمر بمحاربة المرابطين حوالي عشرة أعوام، وكانت حروبه منحصرة في جنوب المغرب، قرر عبد المؤمن بعد انتصارات له، وهزائم به -والحرب سجال- أن ينقل الصراع إلى قلب الدولة المرابطية، فاستطاع في عام ٥٤٠هـ اقتحام مدينة فاس، وكانت من أعظم مدن المرابطين، وبسط سيطرته عليها، وبعد عام واحد شدّد قبضته بحصار مراكش عاصمة المرابطين، في محرم سنة ٥٤١هـ، وبعد حصار دام تسعة أشهر قطع الاتصالات بين المدينة المحاصرة وخارجها، وعانى سكانها الويلات، فنضبت المؤن، ومات العديد من الناس جوعاً، وهلكت الحيوانات، ومع ذلك دافع أهل المدينة عنها دفاعاً مستميتاً ومريراً، ثم تمكن الموحدون من اقتحام المدينة وأثخنوا في أهلها قتلاً ثلاثة أيام، وأسر كثيرون، وكان إبراهيم أمير المرابطين السابق الفتى الذي لم يجاوز السادسة عشرة من عمره من بين الأسرى، ولما أُخذ إلى عبد المؤمن أشفق عليه، ورثا لمحنته وصغر سنه، ومال إلى العفو عنه، والإبقاء عليه بينما كان الأمير الصغير يتضرع إليه، والقائم عليه الوصي يؤنبه في ذلك.
تأثر عبد المؤمن من توسلات إبراهيم، فقال لأحد قواده يدعى أبا الحسن بن (واجّاج): اترك هؤلاء الصبيان، ما الذي تعمل بهم؟ فصاح به أبو الحسن: ارتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربي علينا فراخَ السبوعة (يترك الأشبال ليكبروا ثم يفتكوا بنا) فغضب عبد المؤمن وغادر مكانه، فتبعه زعماء الموحدين إلا أبو الحسن الذي اقتاد الأمير ثم قتله وأثناء ذلك تمكن الوصي على إبراهيم أن يستل خنجراً ويهجم على أبي الحسن فيقتله، وقد كان حرياً بعبد المؤمن أن يمنع أنصاره عملياً من قتل الأمير الصغير، ولكنه قدر الله، وإن المُلك لا يعرف الرحم، ولا رحم له.

تفكك دولة المرابطين

في هذه الفترة العصيبة حين ترنحت الدولة المرابطية ومالت إلى السقوط، كانت بعض المناطق تابعة لها، وإن سقطت العاصمة فهناك ولاة في الشمال الإفريقي، وفي السودان وفي الأندلس، لكن كل على حاله، إذ لا أمير له من آل تاشفين، وقد سقطت العاصمة.

الضعف في الأندلس

كذلك كان الضعف يسري في دولة الموحدين في بداية نشوئها وتطورها، والعدو في الشمال شمال الأندلس كان المستفيدَ الوحيد، إذ هزم المسلمين في المعركة الكبيرة: اللج والبسيط عام ٥٤٠هـ كما سبق ذكرها، وكانت ضربة كبيرة شديدة للمسلمين في شرق الأندلس.





النصارى يقتحمون المرية

أما في عام ٥٤٢هـ فقد تقدمت القوات النصرانية من شمال الأندلس يقودها ألفونسو السابع (السليطين) براً، وجاءت البحرية الإيطالية من جنوة والبندقية بحراً، حاصرت مدينة المرية في جنوب الأندلس، وكانت قاعدة بحرية للأسطول الأندلسي، وطال الحصار ولم يبق من المؤن شيء، وما أمدّها أحد بقوة من رجال أو أقوات من الطعام، ودام الحصار ثلاثة أشهر.

تمكنت الجيوش المعتدية من اقتحام المدينة وأسرت عشرات الآلاف بعد أن استشهد الآلاف أيضاً، وكان من بين الشهداء القاضي أبو محمد عبد الله الرشاطي: ولد عام ٤٦٦هـ في أوريولة شرقي الأندلس ودرس على أعلام عصره منهم أبو علي الصدفي، ثم انتقل إلى المرية، ونبغ في الحديث والرواية والتاريخ والأنساب وكتب كتابه الشهير: اقتباس الأنوار والتماس الأزهار، في أنساب الصحابة ورواة الآثار.

وأخذت السبايا من النساء وبلغ عدد الأبكار منهن أربعة عشر ألفاً، لم هذا التهاون والضعف؟ لم تُهاجم دولة المرابطين؟ كيف هوجمت وكانت من قبل تقلق مضاجع الأعداء؟

البحرية الإيطالية من جنوة والبندقية تحاصر مدينة المرية في جنوب الأندلس



البرتغال تستعين بالحملات الصليبية على القدس

أدت هذه الأحوال المتردية إلى أن اتجهت الأندلس نحو الهاوية، فكان من ذلك أن ابن الرُّنك الذي كان قد استقل بالبرتغال غرباً أراد أن يوسع حدود مملكته على حساب بلاد المسلمين في الأندلس فرأى أن الحملات الصليبية على بلاد المشرق الإسلامي تتابع، فلم لا يستفيد هو من إحدى هذه الحملات، ولما كانت السفن الإنكليزية والألمانية والهولندية تحمل الرجال والعتاد إلى فلسطين ومساندة النصارى هناك، فانتهز ابن الرنك هذه الفرصة، فأرسل يستنجد بها أن تتوجه الأساطيل لمناصرته في الأندلس وهي أقرب، فطلب إليهم النصرة والمدد.



تساقط المدن الإسلامية

توجه الأسطولان الإنكليزي والألماني لمساندة ابن الرنك، وحاصروا عاصمة الغرب "لشبونة" واقتحموها، ثم توجهوا إلى مدينة قريبة أخرى هي "شَنترين" وذلك في سنة ٥٤٢هـ أي بعد عام واحد من سقوط الدولة المرابطية، تمزقت الأرض الإسلامية في الأندلس، وسقطت مدينة تلو أخرى، وكأن عهد الطوائف قد عاد كرة أخرى، حيث سقطت منطقة المرية ومنطقة الغرب، والوسط والشمال في الأندلس ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

صورة للمسجد الأقصى في فلسطين



وفد الأندلس إلى الموحدين

حين سقطت دولة المرابطين في المغرب، وآلت مراكزهم إلى الضعف في الأندلس، جاءت الوفود الأندلسية إلى عبد المؤمن تسأله العون والمدد، وكان من أعظم الوفود وأجلها وفد كبير يضم مجموعة من علماء إشبيلية يرأسه القاضي أبو بكر بن العربي ليعلن ولاءه لعبد المؤمن ولمبايعته عام ٥٤٢هـ، ويسأله النجدة، والعون والمدد.

الموحدون يخلفون المرابطين

استجاب عبد المؤمن استغاثة الأندلسيين، فأرسل جيشاً قليل العدد إلى الأندلس، ومهمته الأولى بسط سيطرة الموحدين على ما بقي من مناطق بيد المرابطين، وبعد مناوئات جرت في كل المناطق التي كانت بيد المرابطين بين هؤلاء والموحدين، تمكن الموحدون من إخضاعها، وأعلن بعضها انضمامها معهم.



سقوط طرطوشة

وأثناء هذه الحوادث التي كانت فرصة للنصارى، تمكن القشتاليون من أن يسقطوا طُرطوشة في شمال شرق الأندلس، وإن كان أهلها قد دافعوا عنها دفاعاً جيداً، إلا أن الحصار الذي ضرب على المدينة براً وبحراً والذي دام أربعين يوماً أجبرهم على الاستسلام، وذلك في عام ٥٤٣هـ.



ضياع ثلثي الأندلس

ثم سقطت مدينة "لاردة" في شمال الشرق أيضاً، وبهذا السقوط تم للنصارى استرداد شمال الأندلس كله، وكذلك الغرب، وجزء من الشرق والوسط، ولم يبق للمسلمين إلا مناطق محدودة جداً في الجنوب والجنوب الشرقي.

ضاع ثلثا الأندلس، ولم يبق للمسلمين إلا الثلث الذي تمكن منه الموحدون في هذه الفترة، حيث تم دخولهم إلى الأندلس.



انقسام دولة النصارى

ولما سيطر الموحدون على ما بقي للمسلمين في الأندلس استطاعوا أن يوقفوا المد الذي قام به ملوك النصارى، فقد توفي ألفونسو السابع "السليطين" عام ٥٥٢هـ، وقَسمَ ولداه مملكته إلى شطرين:

١-مملكة ليون شمال غرب الأندلس وحكمها فرناندو.

٢-مملكة قشتالة: الشمال والوسط، وحكمها شانجة ابن ألفونسو السابع، وتوفي بعد عام وخلفه ابنه ألفونسو الثامن.



معركة المرية

ولما استقر الأمر للموحدين، وكانوا يتوقون إلى استعادة المرية العاصمة البحرية للمسلمين، شعروا أن الفرصة قد سنحت لتحقيق غايتهم، فقاموا بحملات استطلاعية وصلت إلى أسوارها، وقتلت من النصارى، وغنمت وأسرت، وعلمت أن الحالة في المدينة مهيأة لاستعادتها.

فقام والي غرناطة الموحدي السيد أبو سعيد بالتوجه إلى المرية بجيش ضخم من الموحدين، ومعهم قوة أندلسية من البر، بينما قام أسطول الموحدين بضرب الحصار البحري، وشدد الحصار براً وبحراً، ولم تستطع قوة النصارى التي تقدمت بقيادة السليطين من فك الحصار حيث قدرت باثني عشر ألف فارس، ويساندها حليفها ابن مردنيش أمير شرق الأندلس في ستة آلاف من المسلمين.

مشاركة هذا الخائن في هذا الموقف ليحارب إلى جانب السليطين أبناء دينه المسلمين، ووطنه الأندلسيين، من أسوأ ما يذكر في هذا التاريخ ذي الشجون.

واستمر حصار الموحدين سبعة أشهر، مما اضطر النصارى إلى طلب التسليم على الأمان، فدخل الموحدون المرية في أواخر سنة ٥٥٢هـ، وعاد الثغر إلى أهله بعد أن بقي تحت احتلال النصارى عشر سنوات.

وبدأت الأمور تبشر بخير، وكان الموحدون يوطدون أركان دولتهم في المغرب وشمال إفريقية والأندلس إلى عام ٥٥٥هـ.

طلعات استطلاعية على قلعة المرية





جبل الفتح (طارق)

أمر عبد المؤمن في هذا العام ببناء مدينة "جزيرة" في جبل طارق، واستمر العمل شهوراً وبسرعة لإنجاز مشروعه، فبنيت المدينة وبها جامع، وقصر له، ودور لأبنائه وحاشيته، وزينت بالحدائق وجلبت المياه إليها، كما جدد الحصن والأسوار، فسميت بأمر عبد المؤمن "جبل الفتح"، أو مدينة الفتح، ولما كملت المدينة، سار عبد المؤمن من مراكش إلى سبتة في جموع ضخمة، ثم عبر منها إلى شبه الجزيرة الأندلسية في ذي القعدة سنة ٥٥٥هـ، وكان في استقباله ابنه وجمع غفير من الناس يتقدمهم القضاة والعلماء والشعراء، وكان يوماً مشهوداً ألقيت فيه الكلمات والخطب وأنشد الشعراء قصائدهم، وكان من بينهم شاعر هو أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسي لم يكن معروفاً من قبل فألقى قصيدة حين جاء دوره بين يدي عبد المؤمن لفتت الأنظار إليها والى الشاعر بروعتها، ومنها:

تكلمْ فقد أصغى إلى قولك الدهرُ	وما لسواك اليومَ نهي ولا أمرُ
ورمْ كلَّ ما قد شئته فهو كائن	وحاولْ فلا برٌ يفوت ولا بحرُ
وحسبك هذا البحر فألاً فإنه	يقبل ترباً داسه جيشك الغمرُ
وما صوته إلا السلام مردَّد	عليكَ وعن بشر بقربك يغترُ
بجيش لكي يلقى أمامك من غدا	يعاند أمراً لا يقوم له أمرُ
أطلَّ على أرض الجزيرة سعدُها	وحدَّد فيها ذلك الخَبَرَ الخُبْرُ
فما طارقٌ (*) إلا لذلك مطرقٌ	ولابن نُصير ١٢ لم يكن ذلك النصرُ
هما مهّداها كي تحلَّ بأرضها	كما حلَّ عند التّم بالهالة البدر

فلقيت إعجاباً من عبد المؤمن والحاضرين، فأسند إلى الشاعر مكانة مهمة في ديوانه، على أن الشاعر شطح في آخر قصيدته فرفع عبدالمؤمن فوق طارق بن زياد وموسى بن نصير وجعلهما كالجند عنده.

(*) طارق بن زياد.

تحصين غرناطة

أمضى عبد المؤمن شهرين في مدينة الفتح، وأمر أن يهتم المسلمون بمدينة غرناطة وجعلها قاعدة ومركزاً للدفاع الرئيسي في جنوب الأندلس.

قرطبة العاصمة

وأمر كذلك بنقل عاصمة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة التي استردت أهميتها ومكانتها وعافيتها القديمة، ثم عاد عبد المؤمن إلى عاصمته مراكش.



سقوط أبي دانس

وسقطت مدينة "أبي دانس" التي كانت ثغراً مهماً للمسلمين في الغرب بيد "ابن الرّنك" ملك البرتغال عام ٥٥٥هـ، ويقع هذا الحصن جنوب شرق مدينة لشبونة.



وفاة عبد المؤمن

أمضى عبد المؤمن سنوات قليلة في مراكش، وعزم على العبور إلى منطقة الأندلس ليدير شؤونها، فخرج من العاصمة بجيش عظيم كثير العدد من الموحدين والبربر والأعراب حتى وصل إلى مدينة "سلا" مدينة رباط الفتح على الطرف الإفريقي من المضيق، فأصابه المرض الذي لازمه أياماً، ولم يدم به إذ توفي عام ٥٥٨هـ بعد أن دام حكمه ثلاثاً وثلاثين سنة وأشهراً، وتولى من بعده ابنه يوسف إذ كان قد عهد إليه من بين أبنائه العشرة، إذ جاء من قرطبة، ثم حمل جثمانه إلى "يتنملّل" فدفن إلى جانب شيخه وإمامه ابن تومرت حسب وصيته.

صفات عبد المؤمن

كان عبد المؤمن حازماً سديد الرأي، حسن السياسة، يعالج الأمور بالذكاء والفطنة، فألف بين القبائل المتناحرة، ووطد أركان دولة الموحدين، وأزال دولة المرابطين، وبقي متمسكاً بعلومه من علوم الدين، كثير التلاوة والخشوع، ومع هذا كان يتسم بالقسوة وسفك الدماء.

وأثنى عليه المؤرخون فقال عنه الحافظ الذهبي: إنه كان عادلاً سائساً عظيم الهيبة، عالي الهمة، كثير المحاسن، متين الديانة، قليل المثل، يصوم يوم الاثنين والخميس، ويهتم بالجهاد والنظر في الأمور، كأنما خلق للملك، رحمه الله.

مجمع للمياه داخل أحد القصور يعكس جمال وتناغم الفن الأندلسي

ثالثاً يوسف بن عبد المؤمن ومعركة فحص الجلاب



الصراع مع الخائن ابن مردنيش

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بويع له وكان عمره في الخامسة والعشرين، ولقب بالأمير إلى أن اكتملت له البيعة عام ٥٦٠هـ فلقب بأمير المؤمنين، صرف الجيوش التي كانت مجتمعة للجهاد مع والده، وعاد إلى مراكش، وكان حاجبه أخوه أبو حفص، وكان أول عمل بادر إليه هو محاربة ابن مردنيش في إمارته، وكان ابن مردنيش يكرر هجماته على بطليوس وقرطبة، فأرسل جيشاً يقوده أخوه أبو حفص بن عبد المؤمن من مراكش، وعبر البحر، ووصل هذا الجيش إلى إشبيلية في ذي القعدة سنة ٥٦٠هـ، وسار من بعد نحو الشمال الشرقي حتى وصل إلى حدود إمارة ابن مردنيش واستولى على عدد من معاقله، ثم اتجه أبو حفص مع جنده حتى وصل مشارف "لورقة" على الطريق إلى مرسية.



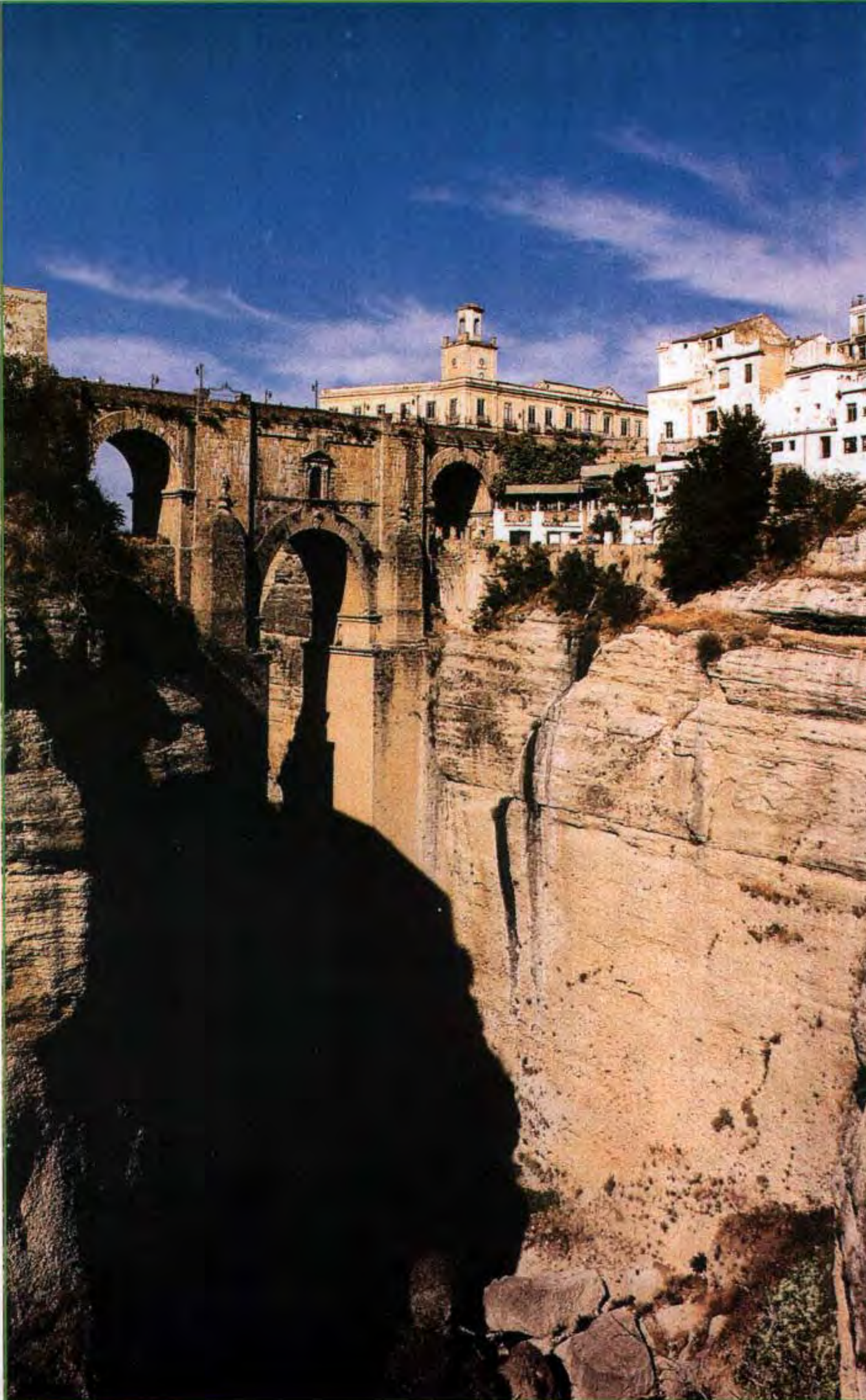
بحيرة رائعة داخل أحد القصور

معركة فحص الجلاب

كان ابن مردنيش قد حشد قواته وفيهم عدد كبير من مرتزقة النصارى ليصد الموحدين الذين غيروا وجهتهم قبل "لورقة" ووصلوا إلى فحص مرسية على بعد اثني عشر كيلومتراً جنوب المدينة يعرف باسم (فحص الجلاّب)، فالتقى الفريقان هناك، وتعاهد الموحدون على الثبات والصبر، والاستشهاد في سبيل الله، ونشبت بين الجيشين معركة هائلة ثم رجحت كفة الموحدين، وهزم ابن مردنيش في فلول قواته إلى مرسية ليلاً، وتحصن بأسوارها، وكانت هذه الهزيمة من أقسى الضربات التي أصابته، وكانت بداية انحسار إمارته وثورته.

واتجه اهتمام الموحدين بعد معركة فحص الجلاّب لتنظيم حكم الأندلس، وضبط أحوال الناس،ونشر العدل ورفع الظلم، وألا يعدم أحد إلا بعد إدانة صريحة وبيانٍ وافٍ، وأن يأخذ القضاة منتهى الحذر من ظلم أحد أو حيف يقع على أحد، وكذلك وضعوا حاميات متعددة في الأماكن التي أخذت من إمارة ابن مردنيش.

وبينهم وبين مملكة البرتغال حوادث تكاد تكون متواصلة ولكن دون حسم يذكر لأحد الفرقاء.



نهاية ابن مردنيش

أنشأ ابن مردنيش بعد معركة فحص الجلاب علاقات ودية متينة بينه وبين ألفونسو الثامن ملك قشتالة، ولذلك كانت توجد قوة ضخمة العدد من الجند النصراني في بلنسية يعبثون، ويزعجون ويظلمون، مما جعل المسلمين يخرجون منها إلى الأطراف، وزاد شعور الكره على ابن مردنيش في هذه السنوات.

وزاد موقفه ضعفاً خروج بعض قادته عليه والتحاقهم بالموحدين، وكان ممن خرج عليه صهره أبو امرأته "ابن هَمُشْك"، وكذلك صهره يوسف بن هلال وزوج أخته، وكان ابن مردنيش ينتقم بصورة وحشية إذا تمكن من مخالفيه، فقد فقأ عيني صهره ابن هلال لما أسرته بعض سراياه، ولما غضب على وزيريه هدم عليهما الحائط، أما إذا لم يتمكن منهم فينتقم من أقاربه، فقد أمر بقتل أخته وابنته انتقاماً من ابن عم له يدعى محمد بن مردنيش المعروف بصاحب البسيط.

واختل عقل ابن مردنيش وفقد صوابه، ولم تعد ترتاح نفسه إلا برؤية الدماء، وأحس بالظن السيء بكل إنسان حتى من أقرب المقربين إليه.

إحدى القناطر المنشأة على أحد الأنهار الأندلسية



وفاة ابن مردنيش

ولما قدم يوسف بن عبد المؤمن إلى الأندلس عام ٥٦٦هـ وكان سبب تأخره لهذا العام مرض ألم به، فلما شفي جاء للقيام بأعمال جهادية، ولمقاومة التمدد النصراني من الشمال والغرب، أيقن ابن مردنيش أن نهايته قد اقتربت، وتوقع أن تكون هذه النهاية مرعبة ورهيبة، كما تدين تُدان، فرفض أن يفكر بالاستسلام ولو مجرد تفكير إذ يعلم ما قدمت يداه، ثم طار صوابه نهائياً حين انضم أخوه يوسف بن سعيد بن مردنيش إلى الموحدين، جاءه الموت ينقذه من أن يقع بين يدي أعدائه، وكان ذلك في رجب سنة ٥٦٧هـ، فأعلن ابنه هلال الخضوع لأمير المؤمنين أبي يعقوب، وانتهت هذه الإمارة التي دامت أكثر من عشرين عاماً أقضت مضاجع المسلمين في الأندلس.

قصر مبني في عصر الموحدين



أعمال يوسف في الأندلس

أقام أبو يعقوب في الأندلس خمس سنوات، وقام بعدة محاولات حربية لدعم الوجود الموحدي لم تثمر بشيء يذكر، كما هاجمهم ملوك إسبانية النصرانية عدة مرات، وكان الموحدون يردونها، وقام بأعمال عمرانية جليلة منها بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادي الكبير تصل ما بين إشبيلية وطُربانة، وكذلك أمر بإنشاء الجامع الأعظم في إشبيلية إذ استقر فيها حوالي خمس سنوات، ثم عاد الخليفة إلى المغرب عام ٥٧١هـ.



كتاب عن طب الأعشاب وقد دونه وعمل به المسلمون في الأندلس قبل أوربا بعدة قرون

المواجهة مع النصارى

وقد نقض فرناندو العهد، وأغار على بلاد المسلمين في الأندلس، مما جعل ابن عبد المؤمن ينتقل مرة أخرى إلى الأندلس، لمتابعة القتال ليس على جهة حاكم ليون في شمال الغرب فحسب، لقد انقلب الوضع إلى أحداث خطيرة، فكان على الموحدين أن يقاتلوا على ثلاث جبهات: جبهة مملكة ليون، وجبهة مملكة البرتغال، وجبهة مملكة قشتالة، وذلك في عام ٥٨٠هـ، لقد كانت الحرب ضروساً مع كل الجبهات، وبخاصة على جبهة مملكة قشتالة وملكهم ألفونسو الثامن.



معركة شنترين

اتجه أمير المؤمنين بجيشه نحو مدينة شنترين وهي من أهم المدن التي تقع في غرب الأندلس شمال شرق لشبونة على بعد خمسين كيلومتراً منها، وكانت قد سقطت بيد البرتغاليين سنة ٥٤٢هـ، فأحكم الموحدون الحصار عليها، وكان البرتغاليون قد أعدوا إعداداً قوياً ومتيناً للدفاع عنها، فجرت عدة معارك عنيفة بين الموحدين وحاميتها، واستطاع الموحدون أن يحتلوا ريفها ومزارعها، ثم حاولوا اقتحامها عدة مرات، وقدموا خسائر كثيرة وشهداء، ولكن دفاع البرتغاليين منعهم من تحقيق هدفهم، واستمر القتال أياماً دون أن يستطيع الموحدون إنهاء المعركة لصالحهم، وإذا بأمر من أمير المؤمنين في اليوم السادس:



المفاجأة

مفاجأة مذهلة، وأمر غريب وشأن عجيب: أمر الخليفة أبو يعقوب بالكف عن القتال وترك الهجوم، ثم تلاه بأمر آخر بتغيير مكان تجمع الجيش وقواته من طرف إلى جهة أخرى من المدينة! ويا للعجب!

ما الذي حدث؟ ولم ترك الهجوم؟ ولم هذا التحول؟

مع أن هذا الجيش يزيد على مائة ألف كما ذكره المؤرخون، حتى قال أحدهم وكان في الحملة ذاتها:

(فتعجب الناس من هذا الرأي في الانتقال والارتحال! وتعطلت في النفوس جميع الآمال، وظهر الخلل في جميع الأحوال).

تلك التساؤلات السابقة لم تجد جواباً شافياً! وما تزال من خفايا التاريخ، ولم انسحب هذا الجيش اللجب بعد أن كادت شنترين تسقط.

الانسحاب

وانسحب معظم الجيش ليلاً بالضجيج والهرج، وعلا الصياح حول المدينة وابتعدوا عنها متوجهين نحو الداخل، وابن عبد المؤمن لا يدري من ذلك شيئاً، فلما أصبح الصباح وجدت حامية شنترين من النصارى الخليفة وحوله قلة من الجيش والحرس، فهجمت هجمة شرسة وبشدة، واستطاعت أن تصل إلى مقره وتجرحه جرحاً بليغاً، إلا أن مؤخرة الجيش الموحدي تمكنت من ردها على أدبارها.

حامية شنترين من النصارى في هجمة شرسة على مقر الخليفة



وفاة الأمير

حـمل أمـيـر المؤمنين على محفة وهو جريح مـريض، يشرف عليه الأطباء منهم ابن زهر وابن طفيل، وتم عبور نهر التاج، وبعد مدة وجيزة توفي متأثراً بجراحه في شهر ربيع الآخر عام ٥٨٠هـ، وذكر عنه معاصروه.

كان رحمه الله فاضلاً عدلاً، مستظهراً للقرآن، عالماً بالحديث، وكان أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم بأيامها ومآثرها، وكان يحب العمران ومشاريعه، وكان أجل شيء عرف به هو حبه للجهاد، وقد مات في طريقه.

المسجد الكبير في قرطبة : ويبدو منظر المحراب واضحاً بين أعمدته والأقواس المتشابكة في منظر هندسي رائع ليدل على مدى الوعي الفني

الفيلسوف اليهودي العربي موسى بن ميمون

في هذه الفترة لمع نجم الفيلسوف اليهودي العربي أبو عمران موسى بن ميمون واسمه العبري موشيه بن ميمون وكان لقبه المختصر عند اليهود (رامبام) كما عرف عند الغرب باسم موسى مايمونيديس والعلماء يختصرون اسمه (مويسيس).
تأثر فكره بآراء ابن الفارابي الفلسفية بل إن البعض يجعله ناقلا لآراء ابن الفارابي.

كما أنه كان بارعا في الطب حيث استفاد الغرب منه كثيرا وكذلك العرب والمسلمون.
ولد ابن ميمون في قرطبة عام ٥٢٩ هـ الموافق ١١٣٥ م وعاش بها في الحي اليهودي هناك حيث استفاد كغيره من الحرية والمساواة التي انتشرت في ظل الحكم الإسلامي للأندلس، ونشر آراءه في الفلسفة والطب واشتهر بهما.
لكنه تعرض لضغوطات في ظل حكم الموحدين جعلته يغادر الأندلس إلى مدينة فاس المغربية، لكن بعض الروايات تقول إن هجرته إلى المغرب كانت بطلب من أمير الموحدين الذي كان يدني العلماء حتى يكونوا قريبين من دار الخلافة، ثم بعد ذلك توجه إلى مصر حيث أصبح الطبيب الخاص للقائد العظيم صلاح الدين الأيوبي، وقد توفي ابن ميمون في القاهرة سنة ٦٠٠ هـ الموافق ١٢٠٤م.

اشتهر ابن ميمون في هذه الفترة التي كانت عصرا ذهبيا بالنسبة لليهود والتي ضمنها لهم العدل الإسلامي ولكن السؤال: كيف كانت معاملة اليهود للمسلمين حين احتلوا فلسطين؟!.



تمثال من الحجر في اسبانيا للفيلسوف والعالم العربي اليهودي موسى بن ميمون

معرض عن الفيلسوف ابن ميمون

أقام المتحف اليهودي في فرانكفورت معرضا صغيرا عن حياة ابن ميمون وأعماله بمناسبة الذكرى الثمانمائة لوفاته، وذلك في معرض الكتاب في فرانكفورت لعام ٢٠٠٤ ، وقد أُظهرت فيه يهودية ابن ميمون وطُمست استفادته من ذلك العصر الإسلامي، الذي كان نقلة عظيمة في تاريخ الحضارة الغربية خصوصاً والعالمية عموماً.



رسم تقريبي للفيلسوف العربي اليهودي موسى بن ميمون



معبد يهودي في الأندلس في فترة تواجد المسلمين فيها مما يدل على سماحة وعدل الإسلام مع الديانات الأخرى



قصر أندلسي في إشبيلية

رابعاً يعقوب المنصور بن يوسف ومعركة الأرك

بعد وفاة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، بويع لولي عهده وأكبر أبنائه أبي يوسف يعقوب الذي لقب بالمنصور في إشبيلية ثم في المغرب إذ رحل إلى مراكش، كان في الخامسة والعشرين من عمره لما بويع، فبدأ حياته بعد توليه إمارة المؤمنين بتوزيع المال على المحتاجين، وبسط العدل، ورد المظالم، واتخذ لنفسه مجلساً يجلس فيه للاستماع إلى المتظلمين، وبنى ضاحية له ولحاشيته قرب العاصمة مراكش سميت الصالحة.



صلاح الدين واسترجاع بيت المقدس

ويموت في هذه الفترة ٥٨١هـ ابن الرّنك ملك البرتغال ويأتي ابنه شانجة من بعده، وكذلك حدثت أمور عظيمة في المشرق الإسلامي حيث تمكن صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ أن يسترد بيت المقدس بالمجاهدين بعد أن رزحت ٩٠ عاماً في الأسر، ونرجو الله سائلين أن يعيد إلى المسلمين فلسطين وبيت المقدس والمسجد الأقصى برجال مثل أولئك وبقائد مثله في هذا العصر.

المسجد الأقصى والقدس الشريف



عام ٥٨٥هـ
١١٨٩م

اضطرابات في حكم الموحدين

ووقعت أحداث في المغرب بين الموحدين والثائرين عليهم من بقايا المرابطين في الجزر الشرقية والشاطئ الشمالي المجاور للشمال الإفريقي كأسرة ابن غانية، وكذلك بعض الحكام الذين ادعوا أنهم من قبل الخليفة العباسي في بغداد، وكذلك من بعض أقارب المنصور كعمه وأخيه، أخرت هذه الأحداث اهتمام أمير المؤمنين بالأندلس إلى سنة ٥٨٥هـ، وما كاد المنصور يتغلب على تلك الاضطرابات ويستقر في عاصمة ملكه، وبعد أن اطمأن إلى بسط السيطرة كاملة على أرجاء مملكته حتى بدأ يهتم بأمور الأندلس، كانت الأخبار التي جاءت من الأندلس تدعو أن يبادر المنصور ليهتم بها، وتأخذ من تدبيره حيزاً كاملاً لتفادي وقوع المزيد منها، فقد زاد عدوان البرتغاليين من جهة على مناطق جنوب غرب الأندلس، وانتهى بالاستيلاء على مدينة شلب وذلك بمساعدة السفن الصليبية التي بلغ عددها أربعين سفينة، وضرب على المدينة الحصار، وثبتت بقوة، ولما قطعوا المياه عنها طلب أهلها التسليم، فدخلها البرتغاليون والصليبيون بعد حصار دام ثلاثة أشهر، فخرجوا في أنفسهم فقط مع أن الصليبيين طلبوا إبادتهم.

أداتان جراحيتان طبيتان تدلان على التطور العلمي للمسلمين في الأندلس

عام ٥٨٦هـ
١١٩٠م

عبور الأمير

كما وصلت غارات مملكة قشتالة على حدود مدينة إشبيلية، فبدأ يعد الجنود والمؤن، واعتمد على المتطوعة فقط، وحين تجمعت الحشود وهو يتكفل لها بتوفير العتاد والسلاح والمؤن خرج من العاصمة مراكش متوجهاً إلى رباط الفتح على المضيق، وعبر المضيق بقواته في أواخر ٥٨٦هـ، ووصل إلى قرطبة واجتمع بالقوات الموحدية وسائر المتطوعين والمجاهدين من الأندلس.

حصار شلب

واتجه بها جميعاً نحو مدينة شلب فحاصرها وشدد الحصار عليها وعلى حصن قريب منها يدعى طومار، وقام بأعمال عسكرية، لكنه رأى أن يفك الحصار ويعود إلى إشبيلية ليعيد الكرة، وقد شدّد بالأوامر الصارمة على عملية الانسحاب مستفيداً من عملية الانسحاب الفاشل من شنترين زمن والده.

الهدنة مع النصارى

وأثناء وجوده في قرطبة جاءته رسل من ملك قشتالة لعقد الهدنة معه والتحالف على قتال النصارى غيرهم، فرأى في ذلك مصلحة للمسلمين، فعقد الهدنة معهم لمدة خمس سنوات، وكذلك عقد مع ملك ليون الهدنة إذ طلب إليه الأخير ذلك.



الاهتمام بالناس

ونظر في شؤون الناس، وحارب المنكرات، ودقق في سجلات الموقوفين فأطلق سراح من يستحق ذلك، وأعدم من حكم عليه بحق، ولكنه لم ينس تحقيق هدفه وهو استرداد شلب، وضرب قوة البرتغال وإيقاف خطرها.



فتح أبي دانس

ولما اكتملت استعداداته خرج من إشبيلية سنة ٥٨٧هـ متوجهاً نحو الشمال الغربي للأندلس، وضرب الحصار على قصر أبي دانس، وحاولت قواته اقتحام الأسوار إلا أن البرتغاليين أمطروهم بالنبال والحجارة، لذلك أوقف المنصور القتال ثلاثة أيام للاستعداد بهجوم أقوى، وجاءت سفنه من النهر فحاصرت المدينة، وأمر الخليفة بالهجوم الذي وصل إلى ذروته، فطلب أهلها الأمان، فدخلها الجيش الموحدي.



فتح شلب

ثم سار الموحدون نحو الجنوب تجاه مدينة شلب فضربوا حولها حصاراً محكماً، ونصبوا المجانيق وأمطروها بوابل من الحجارة ليلاً ونهاراً، وكان حراسها نائمين فتسلق بعض الجنود الأسوار ونصبوا الرايات وكبروا، فلما أصبح الصباح كانت المدينة مستسلمة، وعادت إلى المسلمين بعد سقوطها بعامين، وبعد أن أمضى المنصور أياماً يستريح فيها عاد إلى إشبيلية، وبقي فيها حوالي شهرين يقف على ما تابع من قبل في إدارة الأندلس، وتنظيم الإدارة والجيش والثغور، ثم عاد إلى المغرب "مراكش العاصمة" في رمضان ٥٨٧هـ.

إقرار الأمور في المغرب

مكث المنصور في مراكش عدة سنوات، مرض وعوفي ثم أخذ البيعة لابنه أبي عبد الله الناصر وكان عمره عشر سنين، واهتم بعمران ضاحية رباط الفتح التي سميت بالمهدية، وكان يحب البناء والعمران، ويستكمل الاستعداد الدائم لمجابهة الحوادث التي ظهرت في إفريقية وفي طرابلس وغيرها تتمرد على حكم الموحدين، فقرر أن يتوجه إليها لتهدئة الأحوال المضطربة، ولإعادة السلام والأمن، ولبسط سيطرة الموحدين.



خيانة النصارى

لكن قدوم ولاة الأندلس عليه وهو في رباط الفتح عام ٥٩٠ هـ، وبيانهم له أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة قد أصبح في حلّ من عهده، وأنه بدأ يرسل الغارات والسرايا التي تعيث فساداً في بلاد المسلمين حتى إنها وصلت إلى أطراف إشبيلية، شغله عن المتمردين ورأى أنه من الأولى به أن يتوجه إلى الأندلس.

عبور الأمير

فعبرت قواته والمتطوعون، ومنهم العلماء والفقهاء في سنة ٥٩١هـ، ثم عبر هو المضيق ونزل "طريف"، ثم إلى إشبيلية.



معركة الأرك

لما وصلت إلى ألفونسو الثامن (ملك قشتالة) أخبار تقدم الجيوش الموحدية نحو إشبيلية فقرطبة حشد الجيوش، وأرسل يطلب إلى النصارى "ليون، والبرتغال" مساعدات ومدداً، وأرسل إلى البابا الذي أعلن الغفران ودخول الجنة لكل من يبادر ويتطوع مع ألفونسو الثامن، فاجتمع حوله من نصارى أوربة الكثير، وكان واثقاً من نصره على الموحدين، فبادر حيث نزل بحصن أنشأه من قبل في منطقة تدعى "الأَرَك"، وانتظر لقاء الموحدين هناك على حدود مملكته، وتوجه الموحدون نحو المنطقة، وعندما نزلوا قريباً منها، حدثت اشتباكات بين قوات الاستطلاع من الطرفين، وكان المسلمون هم المنتصرون غالباً، وكان المنصور يأخذ آراء القادة ومشايخ القبائل، وأصحاب الرأي فأشار عليه أبو عبد الله من صناديد قادته برأيه وخلاصته:


مناوشات معركة الأرك

خطة المعركة

أنه يجب أن تبدأ المعركة باشتباك أهل الأندلس والمتطوعين، وكذلك القوات التي أتت من المغرب والمتطوعين، وأن يبقى الخليفة في المؤخرة ومعه جيوش الموحدين في موضع مستور، فإن أسفرت النتيجة عن انتصار المسلمين فبها، وإن أسفرت عن هزيمتهم، فعندئذ يبادر الخليفة في قواته إلى لقاء العدو وليحمي ظهور المسلمين، ويكون العدو عندئذ قد خبت قواه، فيكون النصر للمسلمين، وأعجب الخليفة بهذا الرأي وقرر أن يجري المعركة به.

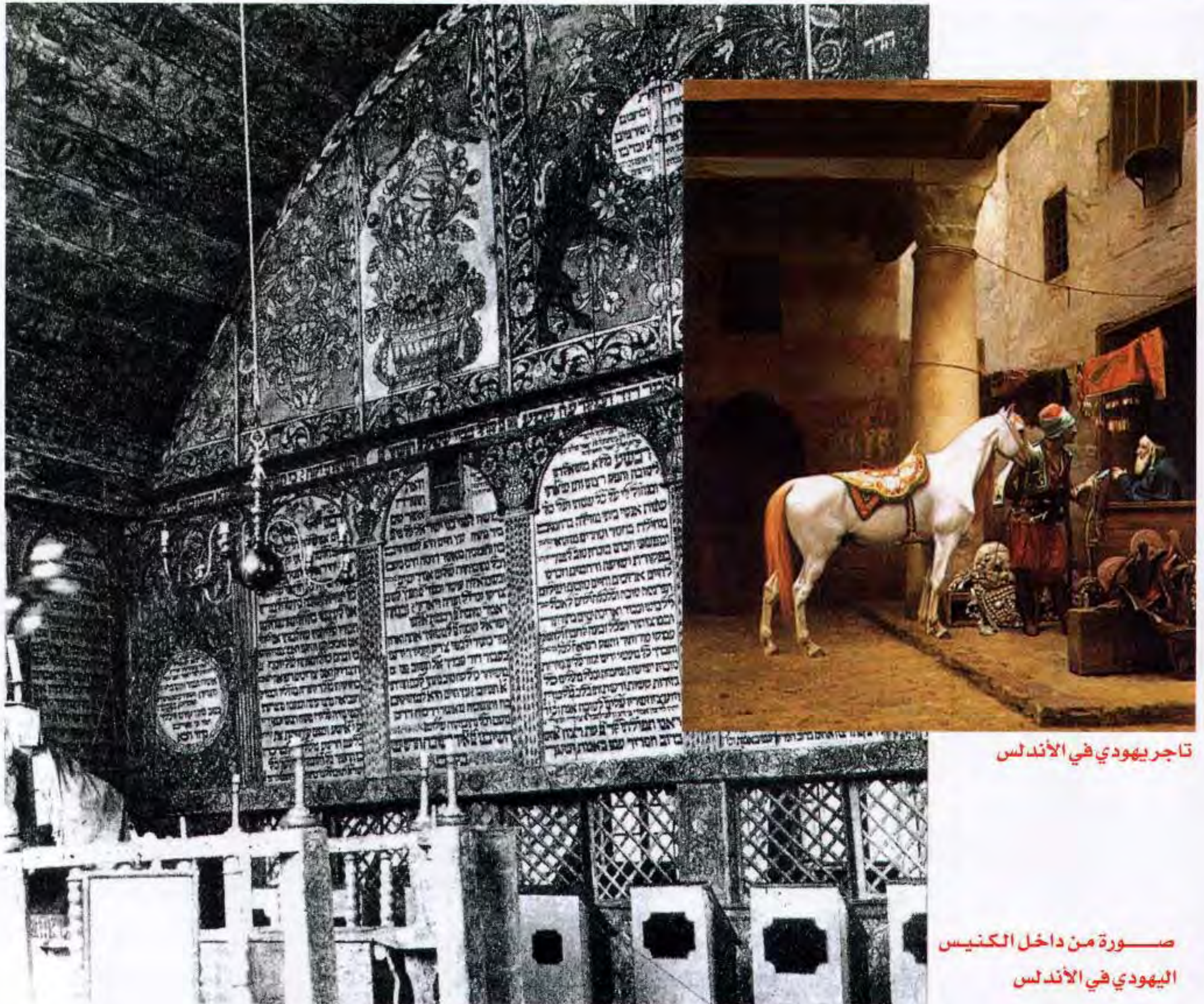
معركة الأرك لا تقل أهمية عن معركة حطين بنتائجها وحوادثها، يجهلها كثير من المسلمين. فمن ينتصر؟
جيش المنصور مائتا ألف ما بين فارس وراجل.
جيش ألفونسو الثامن مائتا ألف راجل وخمسة وعشرون ألف فارس.
فالجيشان متكافئان ويلتقيان في وسط الأندلس. فلمن النصر؟

التجار اليهود

ومن عجيب ما رواه المؤرخون أن تجاراً من اليهود صحبوا ألفونسو الثامن وجيشه وكانوا على يقين أنه هو المنتصر، وجاؤوا بالأموال اللازمة لشراء أسرى المسلمين، ومثلهم كمثل جوارح الطير، إذ يمدح النابغة ملكاً جاهلياً (عمرو بن حارث الغساني):

إذا ما غزا بالجيش حلّق فوقه	عصائب طير تهتدي بعصائب
جوانح قد أيقنّ أن قبيله	إذا ما التقى الجيشان أولُ غالب

ثم هو الغرور غرور الطاغية وأعوانه كما كان في غزوة الزلاقة.



تاجر يهودي في الأندلس

صورة من داخل الكنيس اليهودي في الأندلس

دعاء الصالحين

ولما تقابل الجيشان؛ ساءت بعض النفوس،وظنت بعض الظنون لأنهم يرون للمرة الأولى جيشاً للعدو بهذا العدد الكبير، وكتلته الضخمة:

تجمّع فيه كلُ لُسْنٍ وأمة فما يُفهم الحداث إلا التراجمُ

فاتجه هؤلاء يطلبون ممن يظنون بهم الصلاح، ويتوسمون فيهم الخير أن يدعوا بالنصر للمسلمين، وأن يجأروا إلى الله ليعز جيشه، ويهزم هؤلاء وحده، وكان المنصور يتضرع إلى الله، وقد بلّغ القائد أن يقول للجند: إنه يقول لكم اغفروا لأمير المؤمنين فإن هذا موضع غفران وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم، وأخلصوا لله نياتكم، فبكى الناس،وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم، وما جرى عليه من حسن معاملتهم، وصاحوا من جانبهم يطلبون الغفران من الخليفة، وأنهم بيمن نيته، وصدق طويته، يرجون الخير من الرحمن.

الخطبة

ثم قام القاضي ابن حجاج وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبياناً في الحث على الجهاد، وفضله ومكانه،وقدره عند الله سبحانه وتعالى، فكان لهذا القول آثاره في إنعاش النفوس، وتنبيه الضمائر، وإذكاء العزائم.

القائد

أعطى المنصور القيادة العامة للقائد يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص، بينما بقي هو ومن معه في موضع يكمن فيه للخروج عند الحاجة.

الضجيج

وتقدم المسلمون ببطء، واندفع النصارى القشتاليون ومن معهم يصدرون أصواتاً مرعبة، وضوضاء وضجيج يريدون إلقاء الرعب والوهن في صفوف المسلمين، فقد كان موقع النصارى أعلى الربوة بينما موقع المسلمين كان أسفلها.

الهجوم النصراني

والتحم الجيشان، وبدأ الضغط النصراني، واشتد زخم الهجوم على ميسرة الجيش الإسلامي، مما جعل المنصور يتجه بنفسه نحو الميسرة ليثبت الصفوف، وليحض على الصبر والمصابرة، وليذكرهم أن أهل الأندلس أمانة في أعناقهم، وإن كان يعرض نفسه للخطر.

في مثل هذه المواقف تظهر عبقرية القائد، وبها يستطيع أن يترك أثراً طيباً في نفوس المقاتلين، إنها الشهامة! وانها النجدة! وهو الإقدام.

ثم اشتد الهجوم النصراني العنيف على قلب الجيش الإسلامي ظاناً أنه مكان تواجد الخليفة، وقد استشهد كثير من المسلمين هنا حتى إن القائد العام وقع شهيداً مع من حوله من الجند.

اشتداد القتال

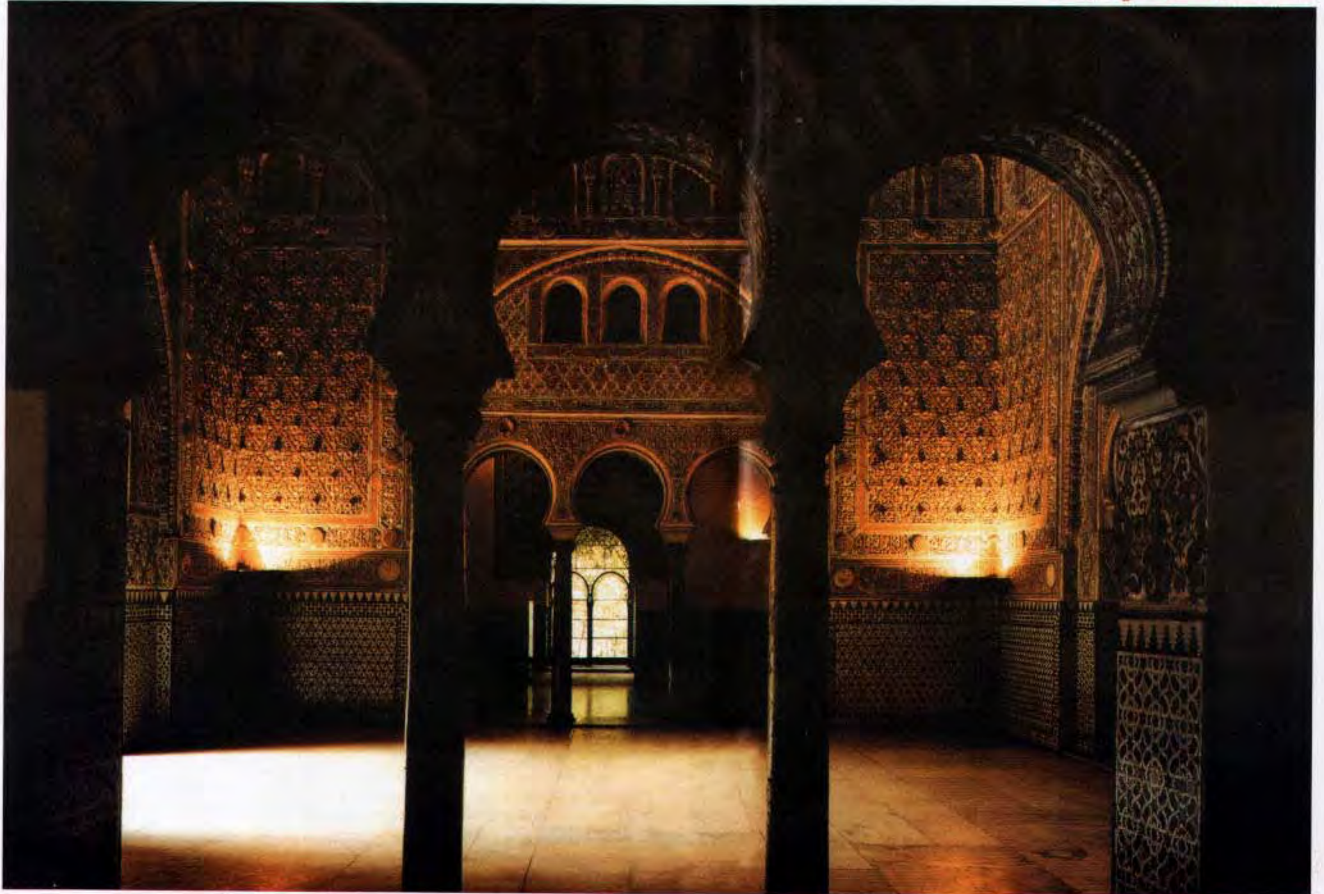
واشتد القتال بين الفريقين، وسالت الدماء بغزارة، وكثر القتلى في مقدمة جيش النصارى، وما زال المنصور يحث جنده على مزيد من الثبات والهجوم وردّه، وقد استشهد الكثير منهم.

النصر العظيم

وجاء النصر ولاح البشرُ، إذ بدأت الهزيمة في جيش العدو، وتقهقر الجند القشتالي بجموعه نحو الربوة التي عليها القلعة "الأرك" وولوا الأدبار، وولى ألفونسو الثامن في نحو عشرين فارساً من أصحابه تحت جنح الليل لا يلوي على شيء، فلم يتوقف إلا في طليطلة.

كانت حصيلة القتلى من القشتاليين زهاء ثلاثين ألفاً، واستشهد من المسلمين اقل مما ذكروه كثيراً.
وأحاط المسلمون بحصن الأرك يظنون أن ألفونسو الثامن محتمٍ به، فدخلوه عنوة، وأضرموا النار في أبوابه، وأخذوا كل ما فيه.

قاعة قصر السفراء في أشبيلية





تطوير الأندلس

عاد المنصور إلى إشبيلية يشرف على تنظيم أمور المسلمين، ويدعو كل من له مظلمة أن يرفعها لأمير المؤمنين، ويقسم الغنائم مما استولى عليها جنده، ليستغني الناس وتتحسن أوضاعهم المعيشية، وأتم بناء مسجدها ومئذنته الشهيرة (لاغيرالدا) الباقية إلى اليوم، كما بعث عدداً من السرايا نحو جيوب العدو، كما بعث جنداً ليخضعوا قلعة رباح، وقد وصلت قوة منهم إلى طليطلة وأقامت بها أياماً ولم يجربوا فتحها.

إشبيلية. خرلدا: حولت صومعة مسجد الجمعة الموحدي إلى قبة جرس للكاتدرائية ولقد حافظ على هيأته الفريدة حتى في نوافذه المزدوجة.



الهدنة

ثم أثناء مكوثه هناك وقعت هدنة بين الموحدين وبين مملكة قشتالة مدتها عشر سنوات.

كان ذلك عام ٥٩٤هـ، حيث رأى المنصور أن الحرب معها تحتاج إلى إعداد أكثر.

وحين استقرت الأحوال في الأندلس، عاد المنصور عام ٥٩٥هـ إلى المغرب، فمراكش، وثمة سؤال يجول في الخاطر: لم لم يقم باستعادة طليطلة القريبة منها، ومعه هذا العدد الهائل من الموحدين والمتطوعة؟



استفاد التجار الأندلسيون من الهدنة واستقرار الأوضاع في الأندلس



وفاة المنصور

ولما استقر في العاصمة جدّد البيعة لابنه محمد الملقب بالناصر.

ومرض المنصور، ولما شعر بدنو أجله استدعى أكابر الدولة وشيوخها وأكد البيعة السابقة لابنه، ودمعت عيناه تذرفان، وقال: أوصيكم بتقوى الله تعالى، وبالأيتام واليتيمة، فسأله أحد المشايخ: يا أمير المؤمنين، من الأيتام واليتيمة؟ قال: اليتيمة جزيرة الأندلس، والأيتام سكانها المسلمون، وإياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها، وحماية ثغورها.

وتوفي رحمه الله ليلة الجمعة سنة ٥٩٥هـ، ودفن بالصالحة "ضاحية مراكش" ثم نقل رفاته إلى "يتنملّل" حيث قبور المهدي وعبد المؤمن.

كان حاكماً عادلاً، يعمل على إقامة العدل بنفسه، ويراقب العمال ويحاسب المقصرين، ويعنى بإنشاء العمران من المدن والحصون والجوامع وغيرها، وكان ورعاً تقياً، إدارياً يشرف بنفسه على إدارة شؤون المغرب والأندلس، مجاهداً رحمه الله.

خامساً محمد الناصر بن يعقوب ومعركة العقاب

بويع له صبيحة اليوم التالي لوفاة والده المنصور،
وكانت سنه دون العشرين، ثم جاءت البيعة له من عامة المغرب والأندلس، ومرت البيعة بسلام.
ومكث الناصر في مراكش ينظم إدارة المغرب ويدير أمورها، ويسعى لتهدئة الأوضاع والحوادث الخطيرة التي وقعت في الجزر الشرقية، أو في إفريقية (تونس) ويحاول إخضاع الثائرين بإرسال قوات موحدية.



ألفونسو الثامن يهاجم الأندلس

وفي هذه الأثناء وصلته الأخبار بأن ألفونسو الثامن قد بدأ بمهاجمة بلاد المسلمين في الأندلس عام ٦٠٦هـ ، كأنه يتوق ليأخذ الثأر من الهزيمة التي لحقت به، فاستولى على عدة حصون، كما أغار على أرياف المدن يخرب البيوت ويحرق المزارع ويسوق الأنعام، ويقتل ويسبي، ثم يعود إلى طليطلة، ولم تتمكن وحدات الحماية الموحدية الصغيرة من إيقاف عدوانه وغاراته، ثم جاءت الوفود الأندلسية تستنجد بالناصر وخاصة من شرق الأندلس، لأن ملك أرغون هاجمهم هو الآخر يجاري حليفه ألفونسو الثامن.



مقدمات معركة العقاب

عزم الناصر على أن يعبر إلى الأندلس بعد أن دعا إلى الاستعداد والتهيئة، ولم يلتفت إلى نصيحة والي إفريقية (تونس) الشيخ محمد بن أبي حفص (وكان أخبر منه بمعرفة العدو وإمكاناته، وكذلك وضع المسلمين وأحوالهم) بأن الوقت غير ملائم، وأن الوضع العام ليس لصالح المسلمين في الوقت الراهن، فعبر الناصر بجيشه الزاخر الذي ازداد بالمتطوعة والمجاهدين سنة ٦٠٧هـ، وكان قد أرسل إلى جهات المغرب والأندلس لأخذ الأهبة والانطلاق للجهاد، واستقر في إشبيلية لحلول فصل الشتاء، ووصل عدد قواته بعد التحاق أهل الأندلس والمجاهدين إلى مائتي ألف بين فارس وراجل، أما عدوه ألفونسو فكان قد أخذ استعداداته من قبل أن يأتي الناصر، فقد تحالف النصارى كلهم في الأندلس وفي أوربة معه، إذ كان على كرسي البابوية "أنوصان الثالث" يغذي بالحقد الصليبي كل أهل ملته، فأرسل مواعظه إلى أرجاء أوربة وإلى نصارى الأندلس للمرة الثانية، يحثهم على الالتحاق بالأندلس وبجيش ألفونسو والتحالف معه، حتى إنه هدد ملك "نبارة" شانجة إن لم يبادر بنقض العهد مع الموحدين بالحرمان، وما زال به حتى نقض العهد وأمد التحالف بالجنود وهو يقودهم، وقد بلغ عدد هذا الجيش الذي اتسم بالطابع الصليبي على أقل تقدير مائة ألف مقاتل بين راجل وفارس وأعلنو شعارهم المشهور (كلنا صليبيون).

معركة العقاب

المسلمون يتقدمون في معركة العقاب



انشقاق بين النصارى بسبب النصر

نزلت جموع النصارى من طليطلة حتى وصلت إلى قلعة رباح، وكان المنصور قد افتتحها كما سبق، فحاصرتها، ثم استسلمت حاميتها القليلة، بعد أن أخذت الأمان على نفسها فتسبب ذلك بالانشقاق في صفوف النصارى، فالصليبيون القادمون من أوربة متعطشون لدماء المسلمين، أما ألفونسو الثامن فلا يريد قتلهم، إذ ينظر إلى الموضوع نظراً حربياً استراتيجياً، فلو غدر بهذه الحامية فسوف يمتنع كثير من الحاميات التسليم من بعدهم وستظل تقاتل حتى الموت.

فقال الصليبيون لملك قشتالة: إنما جئتَ بنا لتفتح بنا البلاد، والآن تمنعنا من قتل المسلمين؟ ما لنا في صحبتك من حاجة، فانصرفوا إلى ديارهم في أوربة، وغادروا الصفوف المتجهة نحو الجنوب نحو ديار المسلمين.

التوجه جنوباً

ثم اتجهت جيوش التحالف النصراني (قشتالة، أرغون، نبارة، وفرسان النصارى، ومتطوعون من أوربة) نحو الجنوب، فأشرفت طلائعها على المرتفعات المطلة على السهل القريب من حصن العقاب.



الناصر يخرج للمواجهة

وخرج الناصر في جيوشه من إشبيلية في العشرين من محرم ٦٠٩هـ متجهاً صوب جيّان إلى الشمال، واحتل موقعاً في موضع السهل الواقع على أحد ممرات جبال الشارات، وكان واثقاً من النصر، مغتراً بضخامة حشوده، وتفوقه العددي؟!

المراسلات والصلح

بدأت المراسلات بينه وبين ألفونسو الثامن للتشاور في أمر الصلح، ووجد ألفونسو أن ذلك خير للفريقين، وكان الناصر يعلم أنه بحاجة لتوطيد سلطانه في دولته، وتم الصلح ولكن على غدر مبيت من الصليبيين.



الغدر والقتال

إذ بدأ الهجوم المباغت في الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩هـ وبشكل شديد على مجنبتي الجيش الموحدي، فرد المسلمون زخمة الهجوم، ولاح على الأفق ارتداد النصارى للفرار، هنا تدفق القشتاليون بقيادة ألفونسو الثامن وكان قد أعد فرقة احتياطية لهذا الهجوم، وارتدت المجنبتان للهجوم بمنتهى العنف والشدة في كل الأطراف، فولى المسلمون بالمجنبتين الفرار، وتركز الهجوم النصراني على قلب الجيش حيث خيمة الناصر، واشتبك الفريقان بقتال عنيف وسقطت عشرات الألوف من القتلى، وثبت الناصر حتى آخر لحظة يحث على الصبر، ولولا ثباته على هذا النحو لاستؤصل الجيش كله، ثم اضطر الناصر أن يمتطي صهوة فرس قدمها إليه أعرابي كان إلى جانبه، وأن يفر مع نفر من خاصته على جناح السرعة جنوباً نحو بياسة ثم إلى جيان، وتمزق الجيش الموحدي إلى كل الجهات، والعدو يطارده حتى دخل الليل.

هزيمة نكراء

فكانت هذه المعركة من أكبر الهزائم التي مني بها المسلمون في الأندلس، وكانت خسائرهم كثيرة جداً، وفادحة جداً إذ لم تقم للموحدين بعدها قائمة.



استشهاد العلماء

واستشهد جلة من العلماء، وذلك دأب العلماء العاملين إذ لا يتخلفون عن ساحات الجهاد، فهم في ميدان الجوامع، وساحات المصلى، وساحات القتال، ومنهم:

إسحاق بن إبراهيم بن يعمر الجابري:

من مدينة فاس، رحل إلى الأندلس وولي قضاء بلنسية ثم جيان، وفقد في موقعة العقاب في شهر صفر سنة ٦٠٩هـ.

أبو عمر أحمد بن هارون النفزي:

من أهل شاطبة، يغلب عليه الزهد والورع، وكان موصوفاً بالدراية والرواية، وكان آية في الحفظ، فقد يوم العقاب ولم يوجد حياً ولا ميتاً.

أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي:

من أهل اليُسّالة (قرب قرطبة) ولي قضاء بلدته مدة طويلة، مضافاً إلى ذلك الصلاة والخطبة بجامعه، وله تأليف في رجال الموطأ، واستشهد في وقيعة العقاب في منتصف صفر سنة ٦٠٩هـ.

آثار مئذنة مسجد موحدي قرب اشبيلية وقد حول المسجد مع مئذنته إلى كنيسة ورفع عليها الصليب.

السبب في الهزيمة

نعم، أخذ ألفونسو ثأراً غالياً من المسلمين، وأخذ النصارى الغنائم الكثيرة ومنها العلم الموحدي الذي ما زال محفوظاً في متحف إسباني (الدير الملكي بمدينة برغش).

وكان السبب في انكسار المسلمين:

- سوء تنظيم الإدارة العسكرية لهذا العدد الكبير.
- عدم وجود قادة أكفاء يقدرون الموقف حق التقدير.
- سوء التموين وقلة الموارد لبعد القوات عن قاعدتها.
- وجود نفور حصل بين أهل الأندلس والموحدين لتصرفات طائشة.
- اغترار الناصر بكثرة عدد قواته.
- عقاب من الله تعالى نتيجة التفرق والتخاذل، وللمجون والفسق الذي ساد المجتمع الأندلسي، ﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ (محمد:٣٨).



قتال المسلمين والنصارى في معركة العقاب



آثار هزيمة العقاب

وكانت نتائجها أنها كانت كقاصمة الظهر للموحدين أولاً، حيث ضعف شأنهم في الأندلس والمغرب بعد ذلك. وكانت سبب هلاك الأندلس وخرابها، يقول بذلك أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي:

وقـائلة أراكَ تطيل فكراً — كأنك قد وقفتَ لدى الحسابِ
فقلت لها: أفكّر في عقاب — غدا سبباً لمعركة العقابِ
فما في أرض أندلس مُقامٌ — وقد دخل البلا من كل بابِ

وصل الخليفة بعد ذلك، بعد الهزيمة النكراء إلى إشبيلية، عاصمة الأندلس ، ووجه كتابه إلى الجهات بالاعتذار المنمّق! عن الكارثة، وبقي فيها حتى رمضان، ولم يستعد لشيء بأن يجمع قواته أو يحشدها مرة أخرى.

وكانت العقاب مقدمة لنهاية الدولة الموحدية، المعركة الفاصلة التي كسرت المسلمين وأدت إلى تراكم الأحداث، والكم الهائل من التساقطات في منطقة الأندلس.

فن إسلامي إشبيلي ضائع من أيدي أصحابه

النصارى يخربون الأندلس

أراد ألفونسو الثامن أن يحصل على نتائج أعظم مما أخذها، فأخذ يستولي على الحصون الإسلامية يخرب ويدمر حتى المساجد فما ترك مسجداً إلا دمره، وما ترك الأسرى حتى النساء والأطفال والشيوخ إلا وأعمل السيف بهم يتفنن بالقتل.



الغدر بأهل أبدة

فحاصر "أبدة" بعد أن مر على مدينة "بياسة" خالية من سكانها، فأحرق الدور وقتل من وجد بها من الجرحى والضعاف والأطفال، فدافع أهله أبدة دفاعاً مستميتاً ثلاثة عشر يوماً، وصمد المسلمون، لكن جيش الصليبيين كثير العدد يقدر بمائة ألف فماذا عسى أن يفعل أهل أبدة؟

اتصلوا يعرضون الصلح والأمان على دينهم وأنفسهم مقابل أن يدفعوا ألف ألف دينار "مليوناً"، فوافق ملوك النصارى (ألفونسو الثامن، شانجة، بيدرو الثاني)، على ذلك لكن القساوسة والرهبان عارضوا تنفيذ العهد وأصروا على الاستسلام دون قيد أو شرط، والمسلمون لا يعلمون من ذلك شيئاً، ففتحوا الأبواب لعهد الملوك، و﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾ (النمل:٣٤).

مأساة أبدة

فكان الغدر وهذه سمة غالبة على الروح الصليبية، واستباح الجند الصليبي المدينة، وحاول أهلها الدفاع فقتل منهم ستون ألفاً -أكثر مما قتل في معركة العقاب- وأسر منهم ستون ألفاً أرسلوا إلى ممالك أوربة يُباعون في كل أرجائها، حتى إن الرواية النصرانية تزيد العدد إلى مائة ألف وخربت المدينة حتى أصبحت قاعاً صفصفاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



وفاة الناصر

عاد الناصر بعد ذلك إلى المغرب، واستقر في مراكش، وأخذ البيعة لابنه أبي يعقوب الذي لقب بالمستنصر، ثم لزم قصره لا يكلم أحداً ولا يخرج إلى أحد إلى أوائل شهر شعبان سنة ٦١٠هـ، حيث توفي متحرقاً، همّاً وغمّاً لما أصاب المسلمين في عهده، على الأغلب، وإن كانت هناك روايات تذكر غير هذا السبب، رحمه الله تعالى.



بعض الخدم في احدى القصور وظيفتهم هي الطرب للسيد وضيوفه.

سادساً نهاية الموحدين

عام ٦١٠هـ
١٢١٤م

حكم المستنصر

بويع أبو يعقوب يوسف المستنصر في اليوم التالي لوفاة والده سنة ٦١٠هـ، وكان فتى في السادسة عشرة من عمره، وكان ميالاً إلى حياة الدعة والبطالة منشغلاً عن تدبير الأمور بما تتطلبه نزعات الشباب، ولا يعنيه شيء من مهام الملك.

عام ٦١٢هـ
١٢١٦م

الهدنة مع النصارى

وصل إليه سنة ٦١٢هـ رسول من مملكة قشتالة التي بدأ فيها الاضطرابات والصراع على الحكم نتيجة وفاة ألفونسو الثامن سنة ٦١١هـ، تطلب المملكة تجديد العهد مع الموحدين فرضي بذلك المستنصر، وأقر بالهدنة والمسالمة، فمضى للأندلس شيء من الهدوء والأمن.

عام ٦١٤هـ
١٢١٧م

حصار النصارى لقلعة أبي دانس

ولكن السلم لم يدم مع بقية الممالك النصرانية في الأندلس، إذ أقدم ملك البرتغال سنة ٦١٤هـ يريد أن يضم مدينة "قصر أبي دانس" الثغر الإسلامي الذي كان الموحدون قد استعادوه سنة ٥٨٧هـ، فضرب الحصار براً على المدينة، وساعده الأسطول الصليبي- الألماني الذي نزل في مياه لشبونة، وكان متوجهاً إلى فلسطين للمشاركة في الحروب الصليبية، طلب إليه ملك البرتغال مساعدته، فأطبق الحصار بحراً.

بقي أهل المدينة صامدين، يدافعون عنها وحدهم، فما من أحد يمد يداً، وما من مدد يأتي! أين الموحدون؟ أقصم العقاب ظهورهم؟ أم أصيبوا بالوهن؟ وكلهم العجز؟ والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران:١٣٩).

دام الحصار شهرين ونصفاً، وأيقن أهل المدينة أنهم لا يستطيعون الصمود بعده طويلاً، فاتصلوا بالبرتغاليين يعرضون عليهم الصلح على أن يتركوا المدينة بأموالهم وأنفسهم، ورفض النصارى ترك المدينة بالأموال، وإنما بالأنفس فقط ومع ذلك رضي المسلمون!

الغدر النصراني يتكرر

فتحت المدينةُ أبوابها، ودخل جيش النصارى وتمكنوا من مداخلها وأبراجها فكان ما يعجز عنه الوصف منهم، لم يرقبوا في واحد من المسلمين عهداً، ولم يراعوا قولاً فقتلوا كل من كان موجوداً ضمن المدينة، وبالضياع المجاورة من المسلمين.

الخليفة اللاهي

وفي بلاط الحكم الموحدي فتى مكب على حياة اللهو والمرح، والأشياخ المعاصرون له أناس لا خبرة لهم بالسياسة ولا بالإدارة، أما قال المتنبي:

الناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل!

تهاون عام، وخور يزداد ضعفاً في كيان الدولة.



دولة بني مرين في المغرب

هذا من طرف، ومن طرف آخر ظهرت دولة جديدة في المغرب إذ أعلن بنو مرين دولتهم، وأصبحت الدولة الموحدية بين ضربتين قويتين: الأولى في الشمال من النصارى في الأندلس، والثانية من بني مرين في الجنوب (في المغرب).



وفاة الخليفة المستنصر فجأة

وفجأة، وبقدر من الله، يموت المستنصر بالله سنة ٦٢٠هـ دون أن يكون له وريث للملك أو ولي عهد معين، فنشب الصراع بين الموحدين من أجل الحكم في هذه الفترة، إذ ولّى بعضهم عبدَ الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، وكان شيخاً قد جاوز الستين من العمر، ولم يدم حكمه سوى شهرين، فقد خلعه عبد الله بن يعقوب، لذلك يعرف باسم (عبد الواحد المخلوع) لأنه أول من خلع من الموحدين، ثم قتل في ظروف غامضة، ووثب عبد الله بن يعقوب على الحكم ولقب نفسه بالعادل.

الخليفة الجديد فتى صغير يلهو بلعبة الشطرنج بينما تتوالى هزائم المسلمين وتستباح أراضيهم

اضطراب الخلافة

ولم تمض أشهر حتى صرع العادل، وجلس الفتى يحيى المعتصم على كرسي الخلافة مكانه سنة ٦٢٤هـ، واضطرب أمر الخلافة فكل واحد من بني عبد المؤمن يريدها لنفسه، حتى قام أبو العلى إدريس بن المنصور بالمطالبة بأحقيته في الأندلس، وكانت الأندلس في حالة يُرثى لها، تضطرم فيها ثورات، وتموج بها فتن، ويلحقها هجوم إثر هجوم للأعداء، فأحضر أبو العلي هذا معه مدداً من جند النصارى القشتاليين أمده بهم ملك قشتالة، واجتاز البحر إلى المغرب ليقاتل ابن أخيه يحيى بن المعتصم، ويصبح هو الخليفة وذلك في أوائل ٦٢٦هـ.



استقلال بنو حفص وحكم المأمون

واستقل بنو حفص بإدارة إفريقية (تونس)، وكان استقلالهم عن الموحدين، قد قام به أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبد الواحد (المخلوع) بن أبي حفص عمر بن يحيى من الأصحاب المقربين للمهدي بن تومرت، ولقب نفسه بالأمير في أوائل سنة ٦٢٧هـ، كان أبو العلى المأمون شجاعاً صارماً فأصدر سنة ٦٢٧هـ مرسومه إلى البلاد الخاضعة له بإزالة اسم المهدي من الخطبة، ومن العملة.



النصارى يهاجمون

أدى هذا الانهيار بين الموحدين للتنازع على الكرسي، وتتابع الثورات والفتن في الأندلس، إلى أن يغتنم النصارى هذه الفرصة، وأن يبادر كل ملك ليقتطع ما يتيسر له من ممالك الأندلس وحصونها، وكان يحكم مملكة أرغون في شمال شرق الأندلس في هذه الفترة ملك يدعى "خايمي" (ويسميه المسلمون جايميش)، الذي كان يطمع أن يحتل الجزر الشرقية المتاخمة لشواطئ الأندلس "جزر البليار" ولا أحد غيره أولى بها! فجهز أسطولاً ضخماً سنة ٦٢٧هـ يساعده الفرنسيون والإيطاليون قدر عدده بمائة وخمس وخمسين سفينة حربية على متنها أعداد ضخمة من المقاتلين الفرسان والمشاة.

احتلال الجزر الإسلامية

تمكنت هذه الحملة البحرية أن تحاصر عاصمة الجزيرة الكبرى "ميورقة" وتخترق الأسوار، ولم ينفع دفاع أهلها اليائس أن يوقف تقدم الجيش الأراغوني والإيطاليين والفرنسيين، فدارت رحى معارك طاحنة في الساحات والشوارع وتمزق المسلمون، فقتل في يوم واحد أربعة وعشرون ألفاً، وأسر الوالي أبو يحيى بن أبي عمران، وتفنن ملك أراغون بتعذيبه الذي اشتد عليه خمسة وأربعين يوماً حتى توفي تحت العذاب الشديد.

وتلك نتيجة كأنها حتمية للنزاع المستمر المتواصل الذي ألهى الموحدين بدماء المسلمين، وبدماء بعضهم بعضاً، وكأنهم يفرحون بمزيد من دماء المسلمين لا دماء غيرهم، ثم نلوم ونلام!

ولحق بالجزر الأخرى ما لحق بهذه، فقد سقطت جزيرة "يابسة" بعد سنوات، أما منورقة فقد سقطت سنة ٦٨٦هـ.



وفاة المأمون

كان المأمون يتصف بصفات أبيـه الخليفـة يعقـوب المنصور، ولو وجد الظروف الملائمة لربما كان قد أعاد الدولة الموحدية إلى عزها، ولكن أشـغلتـه الفتن والانقسامات، فقد كان في حملة في شـمال المغرب لتهدئة الأوضاع وثار عليه في العاصمة مراكش ابن أخيه يحيى المعتصم، الذي أخذ منه الخلافة كما سبق، فاضطر أن يتوجه إلى مراكش العاصمة، وفي الطريق في شـهـر ذي الحجة سنة ٦٢٩هـ مرض وتوفي فجأة (انتهى أجله قدراً)، فاتفق القادة والمشايخ على بيعة ابنه أبي محمد بن عبد الواحد الذي كان فتى في الرابعة عشرة من عمره ولقب بالرشيد.

قرطبة، المسجد الكبير، ويرجع توسع هذا الجانب من البناية ذات الأقواس المتعددة والهائلة والبسيطة والمتشابكة إلى الحكم الثاني في الخلف نرى المحراب





الرشيد يسيطر

سار الرشيد بجنده حتى وصل إلى أسوار مراكش فخرج المعتصم لقتاله، ثم هزم، وبايع أهل العاصمة الرشيد الفتى في أول المحرم سنة ٦٣٠هـ، وكانت بيعته آخر بيعة للموحدين في المغرب.



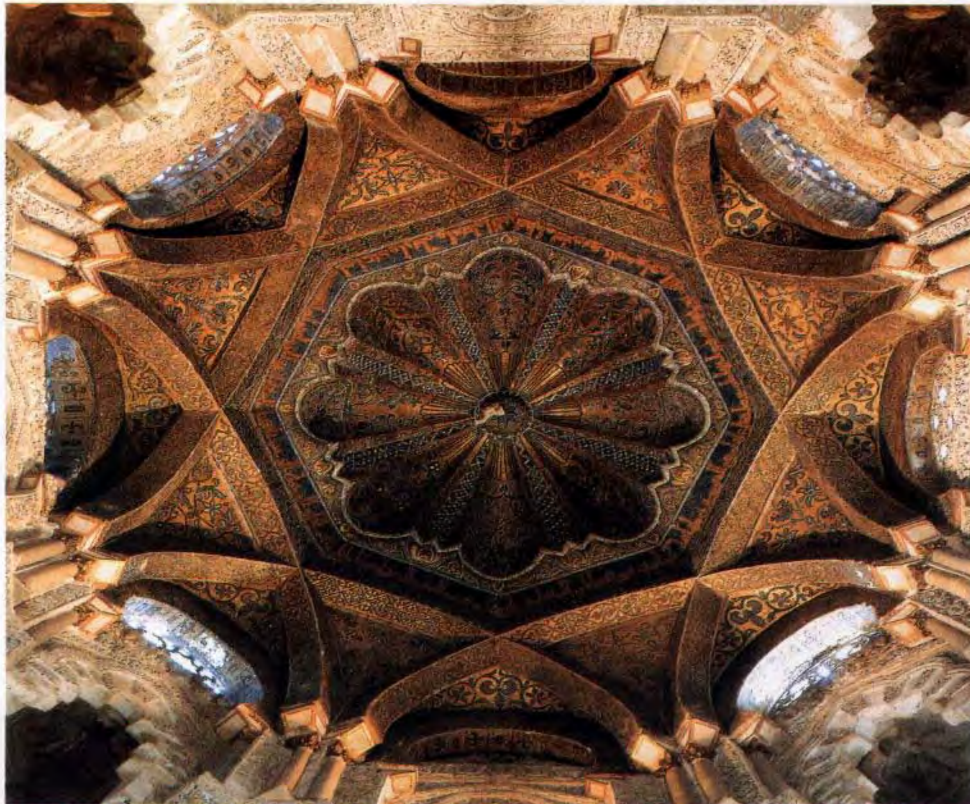
البابا يعلن الحرب الصليبية لاسترداد بلنسية

هذه الحالة المزرية، وهذا التمزق الفاتك في دولة الموحدين، ثم سقوط الجزر الشرقية تباعاً كانت من أهم العوامل التي دعت البابا ليعلنها حرباً صليبية مقدسة لاسترداد بلنسية في الشرق، وهي المدينة التي سقطت بأيديهم مرة ثم أعادها المسلمون كما سبقت الإشارة إليها، فقام ملك أراغون والفرسان الصليبيون بهجوم إثر هجوم بدءاً من عام ٦٣١هـ يخربون القرى، ويدمرون الزروع والمحاصيل، ويحتلون بعض الحصون حتى وصلوا إلى ضواحي بلنسية، ولكن ملك أراغون رأى أن يكتفي بما غنم وبما احتل وعاد إلى بلاده ليدير شؤونها وليستعد لاحقاً لاسترداد هذه المدينة، وكانت هذه المرحلة الأولى لهجماته.



بنو زيان يستقلون بالجزائر

وزاد التمزق في دولة الموحدين إذ أعلن بنو زيّان استقلالهم في الجزائر عام ٦٣٣هـ، وكانت تونس قد خرجت من أيديهم من قبل، حين استقل بها بنو حفص كما سبق.



قرطبة، المسجد الكبير، قبة المعزية أمام المحراب، فيها من دقة الصنعة والهندسة الرائعة ما عجز المؤرخون عن وصفه

سقوط قرطبة



الهجوم على شرق قرطبة

استطاع الفرسان القشتاليون المجاورون في حصون متاخمة لمنطقة قرطبة اقتحام شرق مدينة قرطبة، إذ كانت مقسمة إلى عدة مناطق في ذاك الحين، لضعف أسوارها، وبطرق المباغتة سحراً، وقد أرشد إلى أماكن الضعف والثغرات متنصر من أهل قرطبة! سنة ٦٣٣هـ، فأرسل هؤلاء إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة يستنجدون به أولاً، ويحثونه ثانياً على دخول قرطبة واستردادها.

فرناندو يحاصر قرطبة

بادر فرناندو الثالث بقواته التي تضخمت بمن يصل إليها من متطوعة قشتالة وأراغون، وازدادت عدداً وعُدّة، فأطبق الحصار على المدينة، وعزم أهل قرطبة على الدفاع عنها، فلم يكن بينهم قائد ذو كفاءة لإدارة القتال، وجرت مقاومة شديدة عن المدينة قام بها أهلها فقط، إذ لم يقم لإغاثتهم أحد من الموحدين الذي كانوا هم يعانون أضعف حالة مرت عليهم، كذلك لم يبادر ابن هود أحد زعماء الأندلس وأمير إشبيلية في تلك الفترة لإنجادهم، وكأنه تركهم لمصيرهم المؤلم!

شدد فرناندو الثالث الحصار على قرطبة، وقطع كل صلة لها عن جهة البر، وعن جهة الوادي الكبير فلم يستطع أن يدخلها أحد أو يخرج منها.

الاتفاق على الاستسلام

ودام الحصار القاسي بضعة شهور حتى قلت الموارد وانتهت الأقوات أو كادت، فاتصل أهل قرطبة بالملك القشتالي، وعرضوا عليه تسليم المدينة على أن يخرجوا هم بأنفسهم وأموالهم، فوافق على ذلك، مع أن الأحبار والرهبان والقسيسين الذين كانوا معه قد رفضوا مثل هذا العرض، وكانوا يريدون الدماء وألا يخرج من المدينة أحد حياً، إلا أن الملك وافق على ذلك -لا رحمة بالمسلمين- وإنما خوفاً أن يعمد المسلمون إذا يئسوا إلى تخريب المدينة وهدم دورها وأبنيتها، ثم إنهم قد يقاتلون، وقتال اليائس فيه مشقة وكيد على المهاجمين.



الجلاء

أقر على أن يكون الجلاءُ التام عن المدينة، خرج أهل قرطبة، وتركوا دورهم ومدينتهم متفرقين في المناطق الأندلسية الباقية بيد المسلمين، وكان ذلك في شوال سنة ٦٣٣هـ.



تحويل المسجد كنيسة

ودخل النصارى وحولوا المسجد الجامع العظيم إلى كنيسة حالاً، وهكذا.

كان السقوط - سقوط عاصمة الخلافة- بعد أن بقيت بيد المسلمين أكثر من خمسة قرون، وكان سقوطها إيذاناً بأن أيام المسلمين باتت معدودة في الأندلس وستؤول المناطق الأخرى الباقية إلى ما آلت إليه قرطبة.

المسجد الأعظم في قرطبة حول إلى كنيسة للنصارى وضاعت المئذنة مع مسجدها الخالد ووضعت فيها أجراس الكنيسة وفي أعلاها تجد تمثال الملك رافائيل

سقوط العاصمة

سقطت عاصمة الأندلس، وعاصمة الإسلام وحاضرته التي كانت مركزاً للعلم والعلماء، صدّرت الخير والنور والبركة، لا إلى المسلمين فحسب، بل إلى أوربة في العصور الوسطى، فقد جاء إليها علماء كثر من أوربة لتعلم الطب والعلوم والفلك.

سقطت بسهولة، فلا معركة لها دويّ، ولا قائد محنّك يذكر، مع أنها كانت ثغر جهاد بل أم الثغور، سقطت وكان لهذا السقوط دوي كما لو قيل سقطت عاصمة من عواصم المسلمين اليوم!

وأين قرطبة دار العلوم فكم　　　من عالم قد علا فيها له شان

بدون قتال، بدون مساندة، بدون مدد، أما يشير هذا الحدث إلى مدى الضعف المهين الذي أدرك الموحدين أولاً في المغرب، وإلى مدى التمزق الحاصل في الكيان الأندلسي؟!

أصبحت طريقة الحصار "حرب الجوع والعطش والحاجة" الوسيلة القوية للأعداء من النصارى في استردادهم المدن الإسلامية في الأندلس الواحدة تلو الأخرى، وإشارة إلى مدى البؤس الذي لحق المسلمين.!

سقطت قرطبة وهو أمر خطير وجلل، فاهتزت الأندلس.

مخطوط لمعالجة الارض الجبلية







معركة أنيشة

وقام أبو جميل زيّان أمير إشبيلية من قبل الموحدين، الذي أدرك أن الدورآت لمدينته إشبيلية إذ هي أقرب إلى قرطبة من غيرها، ومن ثم رأى الخطر أقرب من جهات بلنسية، فقد كان حصن أنيشة أقوى الحصون بيد قوات أرغون التي تتربص بها وببلنسية، وكانت تقوم فيها غارات تعيث فساداً في أراضي بلنسية، فقرر أن يأخذ هذا الحصن من النصارى، وسار بقواته بعد أن أعلن الجهاد فاحتشد حوله المسلمون من الأندلس فقط إذ إن الموحدين في المغرب منشغلون، وهم في الأندلس مشتتون، ونشب بين المسلمين وبين قوات حصن "أنيشة" معركة طاحنة قتل فيها خلق كثير، وانتهت بهزيمة المسلمين، واستشهد منهم جمع كبير، وكان من بين الشهداء عدد من علماء بلنسية وأشرافها، وفي مقدمتهم محدث الأندلس أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، وهو من أهل بلنسية، وكان إماماً في صناعة الحديث، بصيراً، حافظاً، حافلاً عارفاً بالجرح والتعديل مع الاستبحار في الأدب، كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً له عدة مصنفات في الحديث والسير والآداب، وكان جندياً وافر الشجاعة، مقداماً، حمل الراية، وقاتل بشجاعة، وحث على الثبات.

وكان محدث الأندلس الكلاعي يصيح: أعن الجنة تفرون؟ حتى سقط شهيداً، واستشهد معه سبعون رجلاً ممن كانوا يقفون في الصف الأول في المسجد الجامع، نفعهم الله بالشهادة وجمعنا وإياهم في مستقر رحمته.



ميزان مع مقياس الذرة من النحاس والحديد

جيش صغير لا يأتيه المدد، وجيش كبير العدد والعُدد، ويأتيه المدد إذ يردفه البابا بالمتطوعة من النصارى من شتى أرجاء أوربة، فغلبت الكثرةُ الشجاعةَ، كان ذلك في العشرين من ذي الحجة سنة ٦٣٤هـ.

المعركة الأخيرة

فكانت المعركة الفاصلة، والمقاومة الأخيرة، ورثى ابن الأبار تلميذ الكلاعي شيخه والعلماء والشعراء شهداء هذه المعركة بقصيدة معبرة ، نختار منها هذه الأبيات:

هم القومُ راحوا للشهادة فاغتدَوْا ... وما لهم في فوزهم من مقاوم
تساقوا كؤوسَ الموت في حوْمة الوغى ... فمالت بهم ميلَ الغصون النواعم
مضوا في سبيل الله قُدْماً كأنما ... يطيرون من أقدامهم بقوادم
يروْنَ جوارَ الله أكبرَ مغنم ... كذاك جوارُ الله، أسنى المغانم
فلن يبعدَ اللهُ الذين تقربوا ... إليه بإهداء النفوس الكرائم
مواقفُ أبرار قضوا من جهادهم ... حقوقاً عليهم كالفروض اللوازم
أصيبوا، وكانوا في العبادة أسوةً ... شباباً وشيباً بالعواشي الغواشم[1]
لقد صبروا فيها كراماً وصابروا ... فلا غَرْوَ أن فازوا بصفو المكارم
منادٍ إلى دار السلام منادمٌ ... بها الحورُ، واهاً للمنادي المنادم
أتاهُ الردى مقبلاً غير مدبر ... ليحظى بإقبال من الله دائم
إماماً لدينٍ أو قواماً لدولة ... تولى، ولم تلحقه لومةُ لائم
ويا أيها المختومُ بالفوز سعيُه ... ألا إنما الأعمال حسنُ الخواتم
هنيئاً لك الحسنى من الله إنها ... لكل تقيَ خيمُه غير خائم[3]
تبوأتَ جنات النعيم، ولم تزلْ ... نزيلَ الثريا قبلَها والنعائم



نهاية الموحدين وظهور بني الأحمر

كانت معركة حصن أنيشة آخر مقاومة حقيقية للمسلمين مع نهايات دولة الموحدين، وبدأت تتطور الأحداث إلى سيء فأسوأ، فلم يعد ينتظر أهل الأندلس حماية من الموحدين، وأيقنوا أن عليهم حماية أنفسهم ومدنهم بأنفسهم ، لذلك أعلن بنو الأحمر استقلالهم في غرناطة.

---

(١) بالعواشي الغواشم: يتعبدون في الليالي المظلمة، كالإبل التي ترعى ليلاً.
(٢) لا غرو: لا عجب.
(٣) غير خائم: غير ناكص، غير مدبر.



ملخص أحداث عهد الموحدين

التاريخ	الحدث
٥٢٤ هـ	وفاة ابن تومرت بعد أن أوصى بالأمر لتلميذه عبد المؤمن بن علي.
٥٤١ هـ	قيام دولة الموحدين في المغرب بعد تغلبهم على المرابطين .
٥٤٢ هـ	اقتحم النصارى المرية وقتلوا أهلها .
٥٤٢ هـ	الموحدون يخلفون المرابطين في الأندلس .
٥٥٢ هـ	الموحدون يستعيدون المرية بعد حصار طويل .
٥٥٢ هـ	بناء مدينة جبل طارق .
٥٥٨ هـ	وفاة عبد المؤمن بن علي قائد الموحدين .
٥٦٠ هـ	تولي يوسف بن عبد المؤمن للحكم .
٥٦٠ هـ	انتصار الموحدين في معركة فحص الجلاب .
٥٨٠ هـ	انسحاب الموحدين من مدينة شنترين بعد حصارها .
٥٨٠ هـ	وفاة يوسف وتولي ابنه يعقوب المنصور.
٥٨٦ هـ	هدنة مع ملك قشتالة وليون .
٥٨٧ هـ	فتح أبي دانس وشلب .
٥٩١ هـ	انتصار عظيم للمسلمين في معركة (الأرك) .
٥٩٥ هـ	وفاة المنصور وتولي ابنه محمد الناصر .
٦٠٩ هـ	هزيمة أليمة للمسلمين في معركة (العقاب) .
٦٠٩ هـ	مذبحة عظيمة في أهل أبدة على يد ألفونسو الثامن بعد غدره بهم .
٦١٠ هـ	وفاة الناصر وتولي ابنه يوسف المنتصر .
٦١٤ هـ	قيام دولة بني مرين في المغرب .
٦٢٠ هـ	وفاة المنتصر .
٦٢٣ هـ	استقلال بني حفص بإفريقيا (تونس)
٦٣٣ هـ	سقوط قرطبة عاصمة الخلافة .
٦٣٥ هـ	نهاية حكم الموحدين في الأندلس فعلياً .

الموحدون ... حقائق وعبر

لم يكن فكر الموحدين في نشأته وبدايته لتطمئن له النفس أو يُفتح له القلب، فابن تومرت - مؤسس دولة الموحدين - كان صاحب فكر غامض، وإن في القلب شكوكاً أنهُ كان صاحب دعوة باطنية بدأ ثورته بالدعوة إلى صفاء العقيدة ومحاربة البدع فلما تم له الأمر ووثقت به العامة ادعى أنه المهدي المنتظر!!!

وهذا يذكرنا بحكام قبله وبعده كانت لهم نفس الطريقة في التستر والخداع كالفاطميين في مصر ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا.

وقد ذمه ابن تيمية رحمه الله وانتقده مرات عدة في كتبه وقال عنه أنه أقام دولته على الكذب والمحال وقتل المسلمين واستحلال الدماء والأموال فعل الخوارج السارقين ولكنه شهد له ببعض الأمور الحسنة وقال: جمع بين خير وشر. (١)

ومهما يكن فإن من جاء بعده من الموحدين كانوا على ما يبدو أصلح حالاً منه، ولا نستطيع أن ننكر ما حصل في زمانهم من الجهاد والدفاع عن الأندلس والذب عن حياض الإسلام.

ونتناول في كلامنا عنهم بعض المواقف:

- ما كان عليه المنصور (أبو يوسف يعقوب) من تضرع لله وتذلل بين يديه في بداية معركة الأَرَك موقف يرجى معه النصر وينبعث منه الأمل، فحينما يقر القادة بضعفهم ويصلون رجاءهم بقوة العزيز الذي لا يقهر، حينها يحق للمسلم أن يستبشر، فإذا خضع جبار الأرض رحم واستجاب جبار السماء.

وكذلك ينبغي أن يكون حال المسلمين - قادةً وجنداً - في كل ملمة بل في كل أمر من أمورهم، يأخذون بأسباب الدنيا ثم يتبرؤون من حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته، ويلتجؤون إلى المحرك الحقيقي الذي لا يكون شيء إلا بأمره

والله مالك غير الله من أحد   ارجع لربك في كل لك الله

وموقف المنصور يذكرنا بموقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر وقد انقطع عن أسباب الدنيا ووصل حبله بحبل الله يلتجئ إليه ويتضرع ويتذلل بين يديه (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض أبداً) حتى كان النصر الذي وعد الله عز وجل.

وما أحوجنا اليوم أن نلتجئ إلى الله لجوء المضطرين الذين يرون مأساة إخوانهم في فلسطين فلا يستطيعون حراكاً ولا مساعدة.

ما أحوجنا اليوم بدل أن نرفع صور الرؤساء والحكام ونهتف بحياتهم أن ننادي بتضرع وصدق: يا رب يا رب.

لعل الله بدمعة صادقة تهطل بسحر، أو عبرة خانقة تسكب بليل أن يفتح لنا باباً من النجاة أو ييسر لنا طريقاً لتصحيح أمورنا وأحوالنا.

- ابن مردنيش الحاكم الخائن الذي كان هواه تبعاً لأعداء الله وأرهق المسلمين بالضرائب والظلم - وبين كل فترة يبتلى المسلمون بمثله ومن على شاكلته - وكان همه أن يتشبه بالنصارى في زيهم ولباسهم وسلاحهم وكان يؤثر لغتهم على لغة المسلمين، وهنا أود أن أركز على نقطة هامة وهي الحفاظ على الهوية الإسلامية وعدم ذوبانها بما يصدره لنا الغرب من عادات وأفكار ونهج.

فحينما نرى بعض شبابنا الحائر اليوم - وهذا إشفاق لا تعريض - وهو يلبس آخر صرعات الغرب ويقلدهم في المشية والتسريحة والعادات ويتصيد أخبار مشاهيرهم وحمقاهم فهل نرجو منه أن يكون حاملاً لفكر الأمة أو مدافعاً عنه ؟

أي انتماء للإسلام يحمله أمثال هؤلاء الشباب أم أي إسلام سيقوم على سواعدهم ؟

إنها مسؤولية عظيمة يتحمل الآباء القسم الأكبر منها وهي تربية النشء على الاعتزاز بالإسلام والمحافظة على هويته، وإن استيرادنا لصناعات وتكنولوجيا الغرب لا يعنى أن نلغي كياننا وهويتنا.

فنحن جند الإسلام وأبناؤه وحاملوا رايته نعتز بكل ما فيه ولا يشرفنا إلا الانتماء إليه.

(١) بغية المرتاد ص ٤٩٤


فرنســـا
البحر الأبيض المتوسط
أهم المعارك والأحداث
جليقية
ليون
قشتالة
نافار
أرغون
قطالونية
سرقسطة
طليطلة
بلنسية
الغرب
دانية
مرسية
غرناطة
قرطبة
أشبيلية
٤٥٦هـ بربشتر
٥٢٨هـ إفراغة
٥١٤هـ قتندة
٥٠٣هـ معركة القضاة
٥٠١هـ أقليش
٤٩١هـ كنشرة
٤٧٩هـ الزلاقة
٥٨٠هـ شنترين
٦٤٣هـ أنيشة
٥٩١هـ الأرك
٥٤٠هـ اللبج واليسيط
٦٠٩هـ العقاب
٥٦٠هـ فحص الجلاب
٥٥٢هـ المرية
الخندق
شنتياجو
خيخون
صخرة بلاي
ليون
أشترقة
رنسسفال
جبال قنتبريه
جبال البرانس
أردونة
قرقشونة
جيرونه
برشلونة
طركونة
سرقسطة
بلد الوليد
كوره
نهر دويره
وادي رامه
وادي الحجارة
جبال الشارات
مدريد
نهر تاجة
طلبيرة
طليطلة
لشبونة
بطليوس
ماردة
باجة
لقنت
نهر الوادي الكبير
جبال قرطبة
قلعة رباح
نهر سرقسطة
اريوله
شاطبة
دانية
قطلونة
بلنسية
نهر شقورة
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
لبله
أشبيلية
قرمونه
نهر الوادي
غرناطة
جبال الثلج
مرسية
قرطجنة
المرية
مالقة
شدونه
ولبه
طريف
جبل طارق
سبتة
المغرب
حدود المعارك والأحداث
لون مسمى منطقة النفوذ
نهر
مدينة
جبال
0
100 km

الباب الرابع

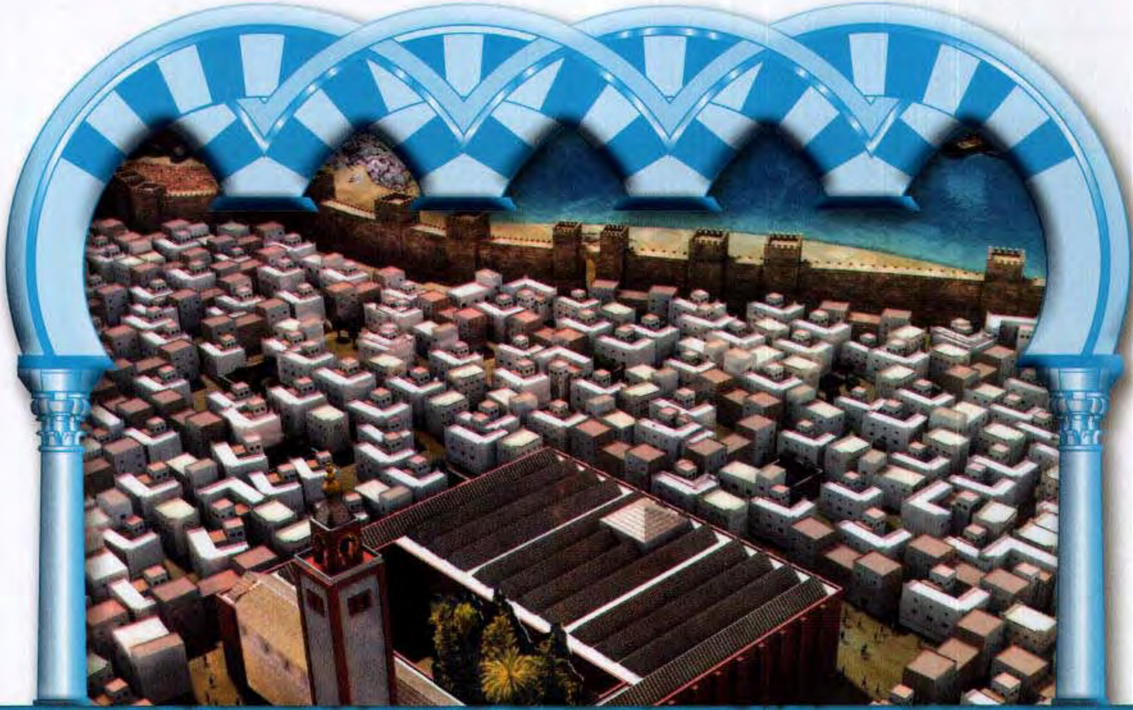
نهاية الأندلس





الباب الرابع

نهاية الأندلس



الفصل الأول

تفكك الأندلس

أولاً - تساقط المدن

ثانياً - مملكة غرناطة والمدجنون

ثالثاً - نهاية الموحدين

أولاً تساقط المدن

ظهور بني الأحمر

أبو عبد الله، الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس بن سعد بن عبادة، (والأخير من سادات الخزرج، ومن الذين بايعوا النبي ﷺ (في بيعة العقبة، وكان أحد النقباء الإثني عشر) كان يقيم في وسط الأندلس في حصن يدعى "أرجونة" على مقربة من الوادي الكبير، وقد عرف بتواضعه، وبكثير من الشجاعة والإقدام، ويتمتع بالروية والدهاء وحسن السياسة، وانتقل من حصن أرجونة إلى مدينة جيان، وبدأ يدعو للموحدين ثم لبني حفص ثم للخليفة العباسي المستنصر بالله، واشتهر باسم ابن الأحمر.



كان المسجد مكاناً للعبادة ومجلساً لإدارة شؤون الأمة

ابن هود في مرسية

في هذه الأثناء ظهر أمر ابن هود، وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف (سليل بني هود ملوك مدينة سرقسطة أيام الطوائف) وقد ظهر أمره على مقربة من مدينة مرسية، ثم بسط سيطرته على مرسية، وبويع له سنة ٦٢٢هـ وأرسل إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله يقرّ له، وانضوى اسمياً تحت راية العباسيين، وخلع طاعة الموحدين، ثم امتدت دولته إلى إشبيلية إذ راسله أهلها كما انضمت إليه مدن أخرى، ولقب نفسه (أمير المسلمين) سيف الدولة والمتوكل على الله، ولم يكن ذا صفات تؤهله للقيام بدور حماية الأندلس، فقد هزم في عدة معارك ضد مملكة قشتالة، فقد سقطت قرطبة كما رأينا، ولم ينصر به جيش، ولا وفق له رأي لغلبة الخفة عليه، واستعجاله الحركات، ونشاطه إلى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد، كما ذكر عنه ابن الخطيب، ولم يكن في وفاق مع بني الأحمر أحياناً، ثم توفي في مدينة المرية سنة ٦٣٥هـ.



توسع حكم بني الأحمر

أرسل أهل غرناطة إلى ابن الأحمر يستدعونه، وهنا أعلن أنه أمير يدعو للعباسيين، وبويع بذلك أميراً لمملكة غرناطة، وذلك في يوم الجمعة ٢٦رمضان سنة ٦٣٥هـ، ومدَّ سلطانه على المرية، ودخلت مدينة مالقة تحت طاعته سنة ٦٣٦هـ.

دولة بني الأحمر (الأندلس الصغرى)

وهكذا بدأت الدولة الجديدة (الأندلس الصغرى) دولة بني الأحمر في جنوب الأندلس، واجتمع في ظلالها مجموعات أهل الأندلس النازحين من المدن التي تتساقط بيد النصارى الصليبيين.



سقوط بلنسية

علم ملك أرغون "خايمي" (أو جايميس الأول) أن معركة أنيشة قد ثبطت همم المسلمين في بلنسية، وأن مؤونتهم قلت، ونقصت أعدادهم، وأن حاكم مرسية أو غيره من أمراء المسلمين لن يستطيعون أن يمدوهم بقوة، وخشي أن يسبقه إليها فرناندو الثالث ملك قشتالة التي ضمّت قرطبة قبل عام، كما حرض البابا من قبل أن تكون معركة بلنسية حرباً صليبية، لذلك كله بدأ بإتمام المرحلة الأخيرة لإسقاط بلنسية، ولم يكن قد بقي سواها للمسلمين في شرق الأندلس، فأقسم خايمي أنه لن يرجع قبل أن تسقط، ولذلك سيصحب معه زوجته الملكة وابنته الأميرة.



الأدوات الجراحية الطبية التي اخترعها المسلمون

خايمي يحاصر بلنسية

فسار بقواته قاصداً إياها، ودانت الحصون والقرى الإسلامية في الطريق إليها، وتوالت الإمدادات والأعداد وهو يقترب منها حتى بلغ عدد جنده من الفرسان عشرة آلاف، ومن المشاة ستين ألفاً، فأحكم الحصار على المدينة، وكان أهلها قد عزموا للدفاع عنها حتى آخر رمق بالرغم من قلة عددهم وضعف مؤونتهم، ووجه أميرها رسله إلى المواقع الإسلامية القريبة في طلب النجدة والمدد، كذلك أرسل كاتبه ووزيره أبو بكر بن الأبار إلى إفريقية إلى بني حفص، وأميرهم أبو زكريا الحفصي" فألقى في مجلسه قصيدة تعد من أروع القصائد الأندلسية تستثير الهمم، وتحرك الشجون:



استنهاض بني حفص في المغرب

أدرك بخيلك خيلَ الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للنائبات، وأمسى جدّها تعسا

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلّها الإشراك مبتسماً ... جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا

يا للمساجد عادت للعدا بيَعاً ... وللنداء غدا أثناءها جرسا

صلْ حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلاً ولا مَرَسا

هذي رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجوٍّ لمن يئسا

واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسا

الحفصي يرسل الإمدادات

هذه بعض أبيات من قصيدة طويلة تصف حال الأندلس في تلك الفترة العصيبة، فتأثر الأمير الحفصي وجهز أسطولاً من ثماني عشرة سفينة محملة بالإمدادات، ولكن حال الحصار الشديد من وصولها إلى أهل المدينة، وقد أرهق الحصار أهل المدينة، واشتد البلاء، فراسلوا ملك أراغون، واتفقوا على أن تسلم المدينة بعد خمسة أيام صلحاً، وينتقل أهلها إلى مدينة دانية.



الأدوات الجراحية الطبية التي استعملها المسلمون

هجرة أهل بلنسية

وانتقل أهلها (خمسون ألفاً من المهاجرين) يأخذون المدد والقوت في دانية من السفن التي وصلت إليها والتي بعث بها بنو حفص.

احتلال بلنسية



عام ٦٣٦هـ
١٢٣٩م

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر سنة ٦٣٦هـ، دخل الملك الأراغوني وحاشيته وجنده المدينة، فحولت المساجد في الحال إلى كنائس بعد أن بقيت بيد المسلمين خمسة قرون أو أكثر. وكانت مصيبة كبيرة فادحة نزلت بأهلها أولاً ثم بالأندلس، وبسقوطها لم يعد من قواعد الشرق شيء بيد المسلمين، إذ توالت سقوط المدن الإسلامية وكأنه قد فرط العقد الضّام لها.

سقوط جزيرة شقر

فسقطت جزيرة شقر سنة ٦٣٩هـ الواقعة جنوب بلنسية.



انفراط أمر الأندلس

وفي سنة ٦٤٠هـ مات الرشيد آخر حاكم من حكام الموحدين، فبقيت الأندلس بدون قيادة ولو اسماً، فلا الموحدون باقون، ولا بنو مرين في طور نشوئهم يستطيعون، ولا بنو حفص في إفريقية يتمكنون، ولا بنو زيان قادرون.

ويا لها من فرصة، فترة كغنيمة باردة أو لقمة سائغة للنصارى القشتاليين أولاً (وهي أقوى مملكة للنصارى في الأندلس)، وللنصارى الأراغونيين ثانياً: (وهي المملكة التي تلي قشتالة قوة)، وكلتاهما تنهشان الجسد الذي بدا عليه الضعف والخور.

توالي التساقط

سقطت دانية سنة ٦٤١هـ.

وتلتها مدينة جيان فسقطت سنة ٦٤٣هـ من أهم مدن الأندلس الشرقية.

فشاطبة التي سقطت بعدها في سنة ٦٤٤هـ.



سقوط مرسية

كان المسلمون في مرسية سنة ٦٣٦هـ يدفعون الجزية للقشتاليين ليحموهم، واستمر ذلك إلى أن تم الاتفاق بين مملكة أراغون وملك قشتالة على أن يأخذوها ويقتحموها، يقول ابن عذاري:

بدأ الضغط الأراغوني، واشتد على أهل مرسية حصار العدو وتألبه، فأعطوا مرسية للنصارى سنة ٦٤٤هـ وتركوها وخرجوا منها بالأمان إلى "الرشاقة"، إلى أن أخرجهم بالأمان بعد عشرة سنوات، ولكنهم غدروا بهم بموضع يعرف "ببوركال"، فقتلوا الرجال، وسبوا النساء والأطفال، وتحكموا فيهم كيف شاؤوا بالسيوف وبالرماح.

ضاع الشرق الأندلسي، وتوالت التساقطات، وماذا عسى أن يفعل أهل الأندلس، فانتهت سيادة الإسلام في تلك البقعة الكبيرة.



النصارى يدخلون المدن الأندلسية

سقوط إشبيلية



حصار اشبيلية

كانت إشبيلية تجلب أنظار ملك قشتالة فرناندو الثالث، وكذلك أطماع الرهبان والقسيسين والفرسان من متطوعة النصرى، فقد كانت عاصمة الموحدين، وكانت تتمتع بنوع من الاستقلال الخاص بها، فبدأ فرناندو الثالث بحصار إشبيلية سنة ٦٤٥هـ، وكانت قد فقدت معظم أعمالها وحصونها، وكذلك خطوطها الدفاعية الأولى من الحصون الأمامية منذ سنة ٦٤٤هـ.

بدأ القشتاليون بحصار إشبيلية، ولم يكن حصارها سهلاً إذ لا بد لحصارها من القوات البحرية والبرية، كما أن أهل إشبيلية قد تهيؤوا للدفاع عنها وقد جهزوا الطعام والمؤن، وقد سجل التاريخ دفاعهم المستميت عن المدينة.

إشبيلية، الأسوار: جهات السور المغربي بجدرانها المسننة وبروجه ومقدم داره مبينة بالآجر الذي ظل حاله محفوظاً بشكل مذهل



جلاء أهل إشبيلية

كانت تقع بعض المناورات بين أهل إشبيلية والمهاجمين، مرة لهؤلاء ومرة لأولئك، ولكن أين من يأتيه المدد ممن لا يأتيه مدد، فقد كانت جحافل النصارى من الأندلس، وجماعات المتطوعة من الفرسان تفد إلى القشتاليين من بقية الممالك النصرانية، ومع ذلك بقيت إشبيلية صامدة طوال تسعة أشهر، حتى بدأت تدب إليها ويلات الجوع، وشحت الموارد، وقلت المؤن، فراسل أهلها فرناندو الثالث على أن يخرجوا آمنين فرضي بذلك، وأعطاهم الأمان فخرج منها أهلها (ما يقدر بأربعمائة ألفاً)، فتفرقوا أشتاتاً إلى الأندلس أو إلى المغرب، يقول ابن عذارى: تجرع أهل إشبيلية كثيراً من الأذى، ونالهم الأسى أشدّ منه، وأدى رحيلهم عنها وقلوبهم حزنى، يجللهم النكد، ويفريهم (يقطعهم) فراق البلد، وذلك في السابع والعشرين من رمضان سنة ٦٤٦هـ، حيث جُرع أهلها كأس الحمام من كثرة المجاعة، وعدم الطعام، فكل منهم في بحر المنايا غائص وعام، مما حل بهم من الأوجاع والآلام.

رسم تذكاري يرثي لنا إشبيلية بعد ضياعها من أيدي المسلمين



بعض الأبراج الإسلامية في إشبيلية الباقية حتى اليوم

ضاعت إشبيلية

ضاعت إشبيلية لضياع أهل الأندلس، وإنما البلاد بالرجال، فإذا ولّوا ولّت، أو ليس من الأحداث المؤلمة التي تنفطر لها النفس، أن يكون أمير غرناطة المسلم على رأس قوة من فرسانه يقاتل إلى جانب القوات النصرانية المحاصرة؟

ضاعت إشبيلية ذات التاريخ العظيم، موطن العلم والعلماء، وسقطت عروس الأندلس تبكي على فرقة المسلمين وتمزقهم وتشكو قلوباً ميتة لم تعد تصحو من غفلتها.

بقيت إشبيلية بيد المسلمين أكثر من خمسة قرون، وتلا سقوطها سقوط الحصون التابعة لها، فلم يعد للأندلس من يحميها أو يدافع عنها!

ثانياً مملكة غرناطة والمدجنون



رسم لغرناطة تظهر فيه الحمراء بأسوارها

ولم تبق إلا مدينة غرناطة عاصمة الجنوب الشرقي التي أنشأها وزاد من أهميتها ابن الأحمر كما مر سابقاً، فما الذي جعل غرناطة تمتنع؟.

١- قربها من جبل طارق إذ يمكن نجدتها بسرعة حين الطلب.

٢- بعد المناطق النصرانية عنها.

٣- انحياز كثير من أهل الأندلس ممن لهم الفضل والعلوم إلى غرناطة بعد سقوط المدن، فكان منهم الطبيب والمهندس والبحار وقارئ القرآن العالم.

٤-لكن السبب الأخير وهو الأهم هو الحمية الإسلامية التي أثارها العلماء فتحرك الناس مع العلماء وبالنخوة الشرعية وحماية الأعراض حفظوا ما بقي من الأندلس. ولم يكن قد بقي في أقصى الجنوب الأندلسي إلا غرناطة، المرية، مالقة.



عام ٦٥٠هـ
١٢٥٢م

وفاة فرناندو الثالث

أوقف النصارى هجومهم بعد دخول إشبيلية تحت سيطرتهم، حيث أرادوا أن يوطدوا المناطق التي استردوها، وكان ابن الأحمر في تلك الفترة يؤسس مملكته ويريد أن ينهض بها، ومات فرناندو الثالث سنة ٦٥٠هـ، (هذا الملك الذي تعده الروايات النصرانية من القديسين)، ويعتبر أكبر ملك استطاع أن ينتزع من المسلمين مناطق وحصوناً ومدناً عديدة، وإنه قد بلغ في حروب الاسترداد هذه التي يطلقها النصارى على معاركهم، ذروتها حين أسقط قرطبة ثم أخضع إشبيلية، ووضع حداً نهائياً لوجود المسلمين في وسط الأندلس وغربها.



الممالك النصرانية

وكـانت الممـالك النصـرانيـة في تلك الفترة:

- مملـكة ليـــون وأرغون.
- مملكة قشتالة.
- والبـرتغـال في الغرب.

وتشكلت فيما بعد إسبانية الحالية من اتحاد مملكتي ليون وقشتالة، أما البـرتغـال فـقـد بقـيت منفـصلة عنهما إلى اليوم.

جندي نصراني مدجج بالسلاح الذي أصبح يمتلكه بسهولة وكثرة

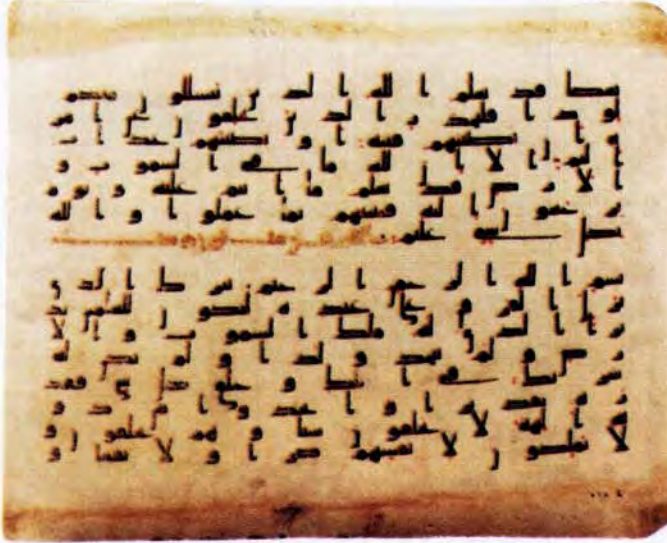
المدجنون

كانت المدن الإسلامية التي سقطت بيد الممالك النصرانية قد خلت من سكانها لهجرة الكثيرين من المسلمين إلى شتى أرجاء المغرب أو إلى المناطق التي ما زالت باقية بيد المسلمين، أما المسلمون الذين بقوا تحت حكم النصارى فقد أطلق عليهم اسم المدجَّنين، ويا له من اسم غريب عجيب! له علاقة بالدواجن والتدجين.



ثورة المدجنين في بلنسية

المدجّنون، اسم أطلق على المسلمين الذين آثروا البقاء بأوطانهم القديمة، واستسلموا إلى العيش في ظل حكم النصارى، تعصف بهم إرادة حكام النصارى وقساوستهم، فتسلب منهم الحقوق، وكانت بلنسية مثوى لكثير من هؤلاء الذين أتوا من البلدان الأخرى، حيث تجمع فيها ما يقرب من ثلاثين ألفاً، ورأوا أن يقوموا بثورة لاكتساب بعض الحقوق الإنسانية لهم، كحق الحرية، أو حرية العقيدة، واحتلوا بعض الحصون من منطقة بلنسية، وتقدموا نحوها حتى كادوا يدخلونها وذلك عام ٦٥٢هـ بعد أن شكلوا جيشاً، وكانت منطقة بلنسية تابعة لمملكة أراغون وليون ويحكمها ملك يدعى "جقّوم" (جايميش)، فأمر هذا الملك أن يخرج كل (مدجّن) من مملكته، فخرج الجميع نحو غرناطة تاركين ديارهم وأموالهم.





مخطوطة لصفحة من القرآن؛ بخط عربي شرقي

تقدم المدجنين

لكن الثوار استمروا في التقدم، ووقع الرعب في قلب جقوم والنصارى، الذين ظنوا أن المسلمين قد انتهوا وإذا بالثورة الكبيرة بينهم، وإذا هم قريبون، فأصيب جقوم الطاغية بغمّ وهم شديدين أديا إلى وفاته.

القضاء على ثورة المدجنين بالغدر والكذب

وجاء من بعده ابنه: بطره (بدرو)، الذي اتصل بالمسلمين وفاوضهم ومنّاهم وقطع لهم العهود، حتى عقد هدنة أمان معهم، ورفع عنهم الظلم، حتى إذا تفرقوا، نقض العهود والمواثيق وضربهم قبل أن يتجمعوا، فولّى المسلمون الأدبار، وفرّوا إلى مدينة "مونتزيه"، فحاصرهم حتى استسلموا له، وأسرهم جميعاً، ووزعهم عبيداً إلى قرى مدينة بلنسية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



وفاة فرناندو الثالث

أوقف النصارى هجومهم بعد دخول إشبيلية تحت سيطرتهم، حيث أرادوا أن يوطدوا المناطق التي استردوها، وكان ابن الأحمر في تلك الفترة يؤسس مملكته ويريد أن ينهض بها، ومات فرناندو الثالث سنة ٦٥٠هـ، (هذا الملك الذي تعده الروايات النصرانية من القديسين)، ويعتبر أكبر ملك استطاع أن ينتزع من المسلمين مناطق وحصوناً ومدناً عديدة، وإنه قد بلغ في حروب الاسترداد هذه التي يطلقها النصارى على معاركهم، ذروتها حين أسقط قرطبة ثم أخضع إشبيلية، ووضع حداً نهائياً لوجود المسلمين في وسط الأندلس وغربها.



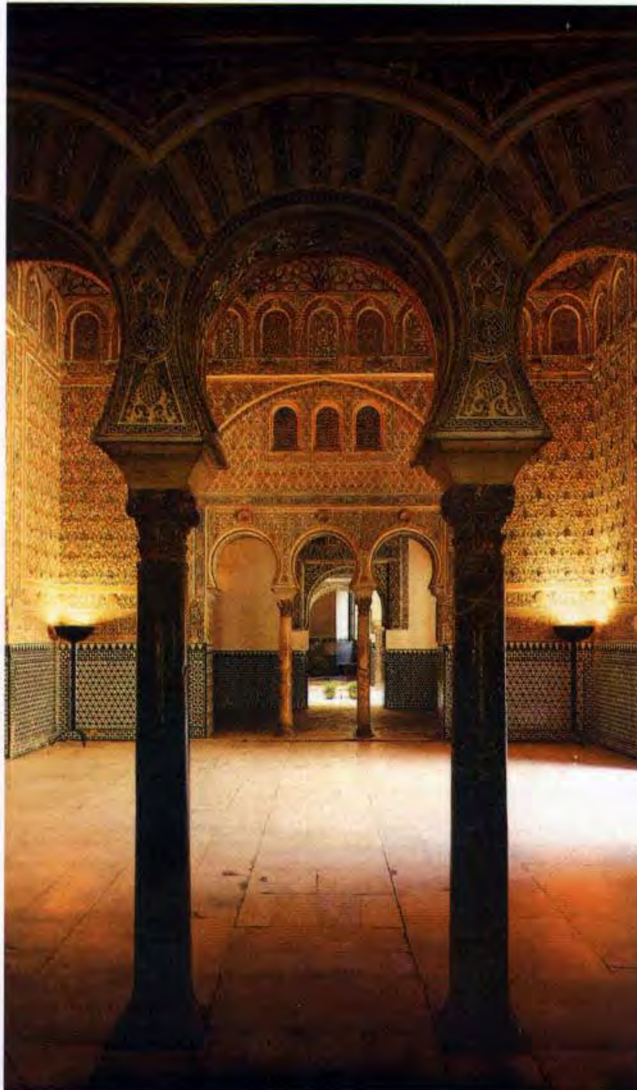
ألفونسو العاشر يهاجم غرناطة

كان قد خلف فرناندو الثالث بعد موته ابنه ألفونسو العاشر على مملكة قشتالة، وكان ابن الأحمر يعاصره، ففي سنة ٦٦٠هـ قام ألفونسو بغارات وحملات على المناطق الخاضعة لحكم غرناطة، حتى وصل في هجومه قريباً منها، مما جعل ابن الأحمر يطلب المدد من الشمال الإفريقي فجاء المتطوعون المجاهدون الذين عبروا المضيق، واستطاعوا مع جند ابن الأحمر درء الخطر، ثم كرر المحاولة سنة ٦٦١هـ.



تنازل غرناطة عن شذونة

دولة صغيرة مثل غرناطة مهددة دوماً من قبل دولة كبيرة هي قشتالة! فلا بد أن يطلب ابن الأحمر الصلح والمهادنة من ألفونسو العاشر الذي وافق على أن تسلم له عدة حصون سماها، ومدن أرادها، وتم الصلح وتنازل ابن الأحمر عن عدد كبير من الحصون والمناطق منها "شريش" ومدينة "شذونة" سنة ٦٦٤هـ.



من أجمل القاعات في قصر الزهراء

لكل شيء إذا ما تم نقصان

تتابعت هذه الأحوال المزرية، وساءت الظروف والأخطار على الأندلس، ففقدت خلال ربع قرن من الزمان تقريباً (ما بين ٦٤٠ إلى ٦٦٤هـ). كثيراً من المدن، وسقطت أشهر العواصم الأندلسية في الشرق والوسط والغرب، مما جعل الشاعر صالح بن شريف الرندي يقول مرثيته التي تفيض أسىً وحزناً، مطلعها:

لكل شيء إذا ما تم نقصان	فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان
يا راتعين وراء البحر في دعة	لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
دهى الجزيرة أمر لا مرد له	هوى له أحد وانهد ثهلان(*)
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية	أم أين شاطبة بل أين جيّان
وأين قرطبة دار العلوم فكم	من عالم قد علا له فيها شان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر تبكي وهي عيدان
كم يستغيث صناديد الرجال وهم	قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ألا نفوس أبيات لها همم	أما على الحق أنصار وأعوان

(*) أحد وثهلان: جبلان في جزيرة العرب.



ثالثاً نهاية الموحدين



وفي سنة ٦٦٨هـ أعلن بنو مرين رسمياً إنهاء دولة الموحدين في المغرب وقوّضوا أركانها وأزالوها، وكان بنو مرين قد ظهروا في قرى فاس ٦١٣هـ، وهم بطن من بطون زناتة، يدعون أنهم من العرب أيضاً، قبائل من البدو الرحل، وكان أول من قام بشأنهم أبو محمد عبد الحق بن محيو - الذي أصيب في معركة الأرك - ثم بزغ نجمهم، وأصبحوا قوة في عهد أبي سعيد عثمان بن عبد الحق، وكان بينهم وبين الموحدين مواقع وأيام من قبل، وتم استيلاؤهم على مراكش عام ٦٦٨هـ، وانتهى هذا الصراع المؤلم.

المحراب، مميز بزخارفه الدقيقة على الجدران

نظرة عامة إلى دولة الموحدين

بدأت دولة الموحدين في رمضان سنة ٥١٥هـ حين أعلن ابن تومرت قيامها في المغرب، وسقطت عاصمتها في يد أبي يوسف يعقوب المريني في محرم ٦٦٨هـ. ونذكر جملاً كنظرة عامة لهذه الدولة التي استمرت حوالي قرنين ونصف كان معظمها في الجهاد والاضطرابات، ولم تهدأ إلا أيام خلفائها الأقوياء، وتهمنا الفترة التي كانت الأندلس تحت حكمها.



التجارة الإسلامية تزدهر في عهد الموحدين

البيئة الطبيعية، كان هناك نتاج بشكل ملحوظ في الحدائق وكانت مصدر إلهام لشعراء الأندلس



الموحدون عسكرياً

-فمن الناحية العسكرية: كانت الأندلس تابعة للأمراء الذين يعينهم الخليفة الموحدي المستقر في مراكش، وكان على هؤلاء تثبيت دعائم الحكم الموحدي، وتنظيم إدارة الأندلس والحفاظ بشكل مستمر على وحدة الأندلس تجاه الخطر النصراني الذي كان يتربص بها من ثلاثة محاور كما مرّ، ولم يكن الواقع (أو الجو العام كما يقولون) دائماً ليسمح بحفظ النظام والأمن والرخاء، أو بالدفاع عن مختلف أقطار الأندلس، فقد تمددت مملكتا قشتالة وأراغون في الشمال والشرق، وكذلك مملكة البرتغال في الغرب، وما استطاعت القوات الموحدية التي قدمت من المغرب ولا الحاميات الموجودة في الأندلس إيقاف العدوان المستمر، ولم تكن للموحدين إلا غزوة واحدة هي الأرك، وما استطاعوا الاستفادة منها على الوجه الأكمل، إذ تلتها معركة العقاب، فكانت النذير الأول لانحلال قوى الأندلس والموحدين.

بوابة النصر في قلعة الحمراء

العلم في دولة الموحدين

من الناحية العلمية: نشط العلم والعلماء في عصر الموحدين، وازدهرت الأندلس بشتى أنواع العلوم والمعارف، فقد كانت مدن الأندلس مركزاً للمعاهد العلمية :إشبيلية، وقرطبة وبلنسية، وكان العلماء يلاقون بالترحيب والتشجيع، لوجود النزعة العلمية لدى الموحدين، وكان من بين الخلفاء علماء أيضاً، في علوم الدين كالحديث والأصول والتفسير والفقه، وقد مرّ خروج كثير من العلماء للجهاد واستشهاد عدد منهم في معارك عديدة من المعارك التي دارت أيام الموحدين، وظهر عدد كبير من العلماء في فروع اللغة والأدب والنحو، كما برز عدد من الشعراء في رثاء المدن والممالك كأبي البقاء الرندي، وابن خفاجة وابن الأبار الذي يعد مؤرخاً أيضاً، ومن المؤرخين ابن عذارى الذي أرّخ لهذه الفترة في كتابه البيان المغرب، ومحمد بن عبد الملك صاحب الموسوعة الكبيرة الذيل والتكملة لكتابيْ الموصول (لابن الفرضي) والصلة (لابن بشكوال)، وكذلك أبو مروان عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة مؤلف كتاب المن بالإمامة.

وبرع ابن زهر في الطب، وكذلك ابن الطفيل، وابن رشد (الحفيد)، والأخيران قد برعا في الطب والفلسفة، فابن الطفيل برع في كتابه (حي بن يقظان)، وابن رشد في كتابه (تهافت التهافت).

ويذكر أيضاً هنا الرحالة الأندلسي الشهير ابن جبير وهو من أهل بلنسية.



سماء الكون: كما صورها عالم مسلم



العمران لدى الموحدين

ومن الناحية الحضارية والعمران: فقد اهتم الموحدون بإنشاء المساجد والقناطر وشق الترع (السواقي)، وإرساء المدن، وإنشاء الحدائق العامة والخاصة، ولا تزال أطلال مدنهم وحصونهم شاهدة، بل بعضها قائمة كالمئذنة الشهيرة -وإن تغير شكلها- في إشبيلية.

الاهتمام العمراني من قبل الأمراء المسلمين في الأندلس

الاقتصاد في دولة الموحدين

من الناحية الاقتصادية: وهي تابعة للجو العام لسيادة الدولة ففي ظلال الأمن والرخاء تنشط، و الضيق والفوضى تضعف فتغلو الأسعار وتنعدم الثقة، ويسود الضيق ومشقة العيش على الحياة العامة، فكانت كما كانت حياة الموحدين تختلف بحسب قوة الشخصية الحاكمة في الأندلس.



قصر تم بناؤه في عصر الموحدين ما بين ١٣٦٣-١٣٦٦م

التمسك بالشريعة

وكانت تستمد وجودها من الإسلام رغم بعض الأخطاء، وقد أكد الخلفاء والولاة إقامة العدل والضرب على العيث (الفساد) والتمسك بشريعة الإسلام، ووجوب التزام الدقة في تطبيق أحكام الشريعة، ووجوب الكف عن تحصيل أية مغارم أو مكوس (ضرائب) لا تبيحها الشريعة ولا تتفق مع قواعد العدل... وأنه يجب تحريم الخمر، ومطاردتها في سائر أنحاء الدولة، ويجب صيانة بيت المال.



ملخص أحداث فترة تفكك الأندلس

٦٣٥ هـ	استقلال بني الأحمر في غرناطة ثم امتداد سلطانهم للمرية ومالقة.
٦٣٥ هـ	وفاة ابن هود في المرية.
٦٣٦هـ	سقوط بلنسية على يد ملك أرغون.
٦٤١ هـ	سقوط دانية.
٦٤٣ هـ	سقوط جيان.
٦٤٤ هـ	سقوط شاطبة ومرسية.
٦٤٦ هـ	سقوط إشبيلية بعد الحصار.
٦٥٢ هـ	ثورة المدجنين في بلنسية والقضاء عليها.
٦٥٠ هـ	وفاة فرناندو الثالث.
٦٦٤هـ	ابن الأحمر يهادن ملك قشتالة ويتنازل عن شذونة.
٦٦٨ هـ	إعلان إنهاء دولة الموحدين رسمياً في المغرب.



نقش جنائزي على الصخر يعود لعام ٤١٣هـ



ملخص غزل شعري لابن ليون: كتابة مغربية أندلسية

الباب الرابع

نهاية الأندلس



الفصل الثاني

بنو مرين

أولاً - بنو مرين في الأندلس

ثانياً - الخيانات تعصف بالأندلس

ثالثاً - أبو يعقوب يوسف المريني في الأندلس

رابعاً - تقلص الأندلس الإسلامية

أولاً بنو مرين في الأندلس



وفاة ابن الأحمر

وفي ٦٧١هـ جدد ألفونسو العاشر هجومه على مناطق تابعة لغرناطة، ونسي العهود والمواثيق والحصون التي ابتلعها نتيجة رضائه بإجراء المهادنة والسلام، فأرسل ابن الأحمر يستنجد بسلطان بني مرين (يعقوب بن عبد الحق) الملقب بالمنصور، يستعجله المدد والنصرة، فلبّى، وتمكن الغرناطيون (بنو الأحمر) مع قوة بني مرين صدَّ الهجوم، إلا أن ابن الأحمر توفي في نفس العام ٦٧١هـ.

محمد الفقيه يتولى الحكم

ورِث ابن الأحمر ابنه محمد بن محمد بن الأحمر المعروف بالفقيه، لأنه كان قد تلقى العلوم من كبار علماء عصره.

إحدى حدائق قصور الأمراء المدهشة



الفقيه يستنجد بالمغرب

ولما توالى تهديد النصارى على غرناطة طلب الفقيه من بني مرين وأميرهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور (يطابق اسمه ولقبه الخليفة الموحدي بطل معركة الأرك) النجدة والمدد، فأرسل هذا جيشاً بقيادة ابنه يوسف تعداده خمسة آلاف سنة ٦٧٣هـ، وبعد شهرين لحق به بعد أن هدأت الأحوال في المغرب، وتوحد جيش ابن الأحمر والمدد وجيش المنصور، وتقدمت هذه القوة من جبل طارق باتجاه الشمال، تتوجه نحو قرطبة عاصمة مملكة قشتالة في تلك الفترة، حيث خرجت قواتها بقيادة أشهر قوادها: الدون (نونيو دي لارا)، وكان عدد جيش النصارى تسعين ألفاً، ضخم العَدد والعُدد، متمكناً من القوة، كثير التجربة في خطط الحرب، ولم يكن عدد المسلمين يزيد عن عشرة آلاف، فوقعت معركة هائلة بينهما قريباً من مدينة أستجة تعرف باسم:

فناء مسجد المهدي القديم في إشبيلية مزروع بشجر البرتقال ومزين بنافورة، يعتبر من الأماكن الرائعة الفاتنة



الغزوة الدنونية

الغزوة الدونونية (نسبة إلى قائد القشتاليين)، وذلك في الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ، كانت غزوة خطيرة سيتحدد بها مصير المسلمين، ومصير مملكة غرناطة.





أحد القصور الذي زين داخله بجنة من الطبيعة الباهرة

المنصور قائد الجيش يخطب

قاد أبو يوسف المنصور الجيش بنفسه وأدار المعركة، فجعل على مقدمته ابنه، كذلك حدد لابن الأحمر وجيش غرناطة مكاناً، أما هو فقد أقدم قبل أن يلتحم الجيشان، فترجل عن حصانه، وتوضأ، ثم صلى ركعتين، ورفع يديه إلى السماء يدعو، والمسلمون يؤمنون على دعائه، وكان من دعائه آخر ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر: اللهم انصر هذه العصابة (جيشه وجيش ابن الأحمر) وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها، ثم قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال، ونادى على المسلمين فقال: يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين، أنتم أنصار الدين، الذابون عن حماه، والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها! وزينت حورها وأترابها -كأنه يتذكر قول الشاعر-:

لهفاً إلى حورية نزلت ... في قصرها وللمؤمن تهفو
وتقول هل من خاطبٍ فطنٍ ... يأتي سليم القلب يصفو

فبادروا إليها، وجدّوا في طِلابها، وابذلوا ما بذل أسلافكم في أثمانها، وكأنه يتمثل المعنى:

المهر دمع أو دم سُكبا ... لله حقاً، يُرفض الزيفُ

ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف! و﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ (التوبة:١١١) فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً، ومن عاش رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، فـ﴿اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (آل عمران:٢٠٠).

النصر العظيم

حركت هذه المقالة نفوسهم، وأثارت فيها حب القتال والإقدام، فاسترخصوها في سبيل الله، وعانق بعضهم بعضاً، وارتفعت أصواتهم بالشهادة وبالتكبير، وكلهم يقول لبعضهم: إياكم والتقصير، وتسابق أبطال المسلمين نحو جيش الروم (القشتاليين) معتمدين على الحي القيوم.

ودارت رحى المعركة، وأنشبت أظفارها الضروس، وكانت هائلة شديدة وثبت الله قلوب المؤمنين، وألقى الرعب في قلوب النصارى فولّوا مدبرين، ينهزمون لا يلوون على شيء، بعد أن قتل منهم ستة آلاف، وقتل قائدهم، وأسر منهم سبعة آلاف وثمانمائة.

كان قتلى القشتاليين وأسراهم أكثر من عدد الجيش الإسلامي كله.
وكثرت الغنائم حتى بيعت الشاة بدرهم واحد، وكان نصراً مؤزراً أعاد ذكرى الأرك، إذ ما كان المسلمون قد انتصروا بعد العقاب مثله، وحفظ المسلمين في الأندلس إلى زمن، فقد كادوا يسقطون غداً، لأن الانحسار كان قد بدأ منذ زمن على الأندلس.

وانقسم المسلمون بعد هذه المعركة إلى قسمين:



حصن بانوس في (جيان)، عند سلاسل جبال مورينا



إحدى القلاع القديمة في مدينة جيان





جبل وسهل في جيان



معركة جيان

القسم الأول توجه به ابن الأحمر نحو مدينة جيان ليحاصرها، وقد بسط سيطرته على بعض المناطق القريبة منها، فخرج ابن الملك للتصدي، وإيقاف هجوم الجيش الغرناطي، لكن كانت الغلبة للمسلمين، وانتصر المسلمون في جيان، وقتل "بطره بن جشّوم"، ثم وقعت معركة ثانية في اليوم التالي، إذ قاد جيش أراغون "دون لوك" الذي أدركه الخوف فراسل المسلمين ليعقدوا بينهم معاهدة سلم وأمان، ورجوهم أن يرسلوا جثة المقتول مقابل افتداء الأسرى من المسلمين، فاتفق الطرفان على هذا الشرط، فأخذوا جثته ودفنوها في وسط مسجد طليطلة الذي كان قد حول إلى كنيسة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



جيش النصارى بقيادة ابن الملك يحاولون صد هجوم الجيش الغرناطي بقيادة ابن الاحمر



حصار إشبيلية

أما القسم الثاني من الجيش فقد توجه به المنصور نحو مدينة إشبيلية، فضرب الحصار، فطلب أهلها الصلح على أن يدفعوا له الجزية فرضي بذلك أبو يوسف المريني.

وتجددت آمال المسلمين فقد أصبح لهم شأن، حين نزل بنو مرين إلى الجهاد يتابعون خطى المرابطين والموحدين الأوائل، ولكن قد ضاع الوقت، وفات الكثير إذ سقطت أمهات المدن في الأندلس، وقلت مواردها، ومع هذا فإن مناصرة بني مرين لمملكة غرناطة أخرت سقوطها قرنين من الزمان.

أمضى المنصور المريني خمسة أشهر في الأندلس، ثم عاد إلى المغرب بعد أن ترك حامية من بني مرين عددها ثلاثة آلاف فارس في الجزيرة الخضراء، تحسباً لمساعدة الأندلسيين إذا وقع العدوان الصليبي عليهم.

قصر في أشبيلية وتبدو ملامح الفن الإسلامي ظاهرة





حصار قرطبة

وعاد مرة أخرى إلى الأندلس عام ٦٧٧هـ والتقى بابن الأحمر الفقيه، وانضم جيشاهما معاً إلى حصار إشبيلية التي نقضت العهد، ففتحا عدة حصون للنصارى، ثم أرسل المنصور ابنه بجيش لحصار قرطبة التي اتخذها القشتاليون عاصمة بعد سقوطها فحاصرها، ثم جاء أبو يوسف بجيش معه.

أرسل ملك النصارى يعرض صلحاً، فأخذ المنصور برأي ابن الأحمر الذي يرى أن الصلح أحسن له، إذ خاف على جنده من الهلاك لتعبهم، وقلتهم، فرضي بذلك على أن يدفع النصارى جزية له.

المنصور المريني في غرناطة

رجع المنصور وابن الأحمر الفقيه معاً إلى غرناطة، وهذه أول مرة يدخل فيها المنصور هذه المدينة، فاستقبل استقبالاً حافلاً، والألسنة تلهج بالدعاء له وبالنصر.

ترك المنصور المريني الغنائم كلها لأهل الأندلس، فليس له إلا الأجر من الله، وما يريد من جهاده سوى رضا ربه، فأحبه أهل الأندلس، وبالغوا في إكرامه.

الاهتمام العمراني من قبل الأمراء المسلمين في الأندلس



مالقة تنضم لبني مرين

وفي هذه الفترة مات حاكم مالقة التي كانت مستقلة، وكانت تعدّ من مملكة غرناطة اسماً، فتنازل ابن الحاكم لبني مرين، وأرسل إلى أبي يوسف يعلن ولاءه له، فعين المنصور ابنه أبا زيّان أميراً على مدينة مالقة، وأصبح لبني مرين قاعدة في الأندلس بذلك.

جعلت هذه الأحداث الفقيهَ ابن الأحمر يتوجس خيفةً من أبي يوسف، فخاف أن يسلبه ملكه، وهو فقيه مطلع يتذكر قصة المعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين (حين استعان به ضد النصارى، ثم استولى على الأندلس، ولكنه نسي أن ابن تاشفين ما طلب حكم الأندلس إلا برجاء من أهلها) فقال ابن الأحمر كلمة ليست في موضعها: (إن في التاريخ لعبراً). والعلم دون تقوىً من الله لا ينفع صاحبه، وربما يُرديه، وهكذا كان شأن الفقيه ابن الأحمر.

رسم يظهر فيه أسوار مالقة ومسجد مالقة الكبير

ثانياً الخيانات تعصف بالأندلس

خيانة ابن الأحمر

فكّر ماذا يفعل؟ ومن سينصره ضد بني مرين؟ ليس من المسلمين أحد ينجده؟

ليس دون النصارى من أحد! وبئس ما قاده إليه تفكيره! يتحالف مع الشيطان من أجل كرسيّه!

تحالف مع قشتالة، ليستعين بالنصارى على إخراج بني مرين من الأندلس، كان يوجد في منطقة الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس سبق ذكرهم، فتقدم الحلف الغرناطي القشتالي لإخراج الجند المريني، واستنجد هؤلاء بالمغرب واتصلوا بأبي يوسف فأرسل ابنه مباشرة على أسطول ضخم كان عداده أربعمائة سفينة، ولما علم النصارى بذلك أرسلوا أسطولهم القشتالي ليصد أسطول المسلمين في بحر المضيق، ودارت رحى معركة بحرية هائلة عند جبل طارق، ثم ولت سفن النصارى الأدبار، وتبعها جند البر يتسابقون في الهزيمة، وترك النصارى ابن الأحمر وحده ليجابه الموقف، فأسقط في يده، وندم على ما فعلته يداه، وأظهر الندم الشديد، والاعتذار تلو الاعتذار عن فعلته النكراء، فقبل منه المنصور الذي عاد إلى المغرب، بينما أبقى ابنه يوسف والياً على الجزيرة الخضراء. وفي مالقة فكر يوسف بن المنصور! كيف يحاسب ابن الأحمر على خيانته هذه؟ وكيف يؤاخذه على جريمته حين استعان بالنصارى لطعن المسلمين الذين اشتركوا معهم في مناصرتهم سابقاً؟ وبينما كان المنصور منشغلاً بإخماد ثورة قامت ضد بني مرين في منطقة تلمسان بالجزائر، قرر يوسف بن المنصور أن يستعين بالقشتاليين (وهذا يدل على قلة الوعي والدين).



ستار من قصر ابن الأحمر في غرناطة يدل على تطور صناعة الحرير



ابن الاحمر سجله التاريخ خائناً



خيانة مقابل خيانة

عجباً! يستعين بالنصارى على من سبق أن استعان بهم، ويرتكب السوء ذاته؟ فأرسل إليه ألفونسو رهباناً وأحباراً للتفاوض معه، لكن يوسف خشي من غضب أبيه فتردد وأخبرهم بضرورة استئذان أبيه، فاتفق الطرفان أن يأتي الأحبار والرهبان إلى المنصور ليأخذوا رأيه في مهاجمة غرناطة، إذ خاف يوسف من والده في هذا الاجتهاد الخاطئ، فما كان من المنصور إلا أن أرسل إلى ابنه يعاتبه عتاباً شديداً كأنه يقول له:

أتعالج خيانة بخيانة؟ أتريد جريمة تمحو جريمة؟ وكان تأنيبه لولده تأنيباً شديداً، واستطاع إخماد هذه الفتنة بحكمته، وكأنه يقول:

لا تنهَ عن خلق وتأتي مثلَه ... عار عليك إذا فعلتَ عظيم

وهدأت الأحوال، وساد الأمن وعمّ السلام فترة على مملكة غرناطة، وتم التفاهم، وصفا الجو بين بني الأحمر وبين بني مرين.



حديقة داخل أحد القصور الأندلسية



ابن يطرد أباه

وقد حدث في تلك الفترة في مملكة النصارى، أن ثار في قشتالة -أعظم دولة نصرانية- شانجة على والده ألفونسو العاشر، يريد مملكة أبيه سنة ٦٨١هـ، فاستولى الابن على المملكة وطرد أباه.

توجه ألفونسو العاشر نحو أوربة، وقصد ملوكها وأمراءها، ليعيد مملكته التي اغتصبها منه ابنه، فلم يرض أحد منهم أن يمد له يد العون والمساعدة، فذهب إلى البابا يستنصره، فأبى أن يتدخل في قضية رآها داخلية، ولو كان الصراع بين المسلمين والنصارى لما توانى لحظة!

الأب يستعين بالمنصور

رجع ألفونسو خائباً إلى الأندلس، يتحرق حسرة على ملكه الذي سلب منه، فقام وقد اهتدى إلى أن يعبر البحر المضيق إلى المغرب، ويتوجه إلى أبي يوسف المنصور ملك بني مرين وقبل يده -غسل السلطان يده من تقبيله بالماء، وكأنه يتمثل رأي المذهب الظاهري في قوله تعالى: ﴿إنما المشركون نجس﴾ (التوبة:٢٨)، ومن أنجس من هذا الملك الطاغية؟- ورجاه مساعدته لاستعادة ملكه بمدد منه، وأعطى تاجه رهينة لديه، فاستجاب له المنصور وأمدّه بجيش، فعبر بنو مرين البحر، واجتمع حولهم أنصار الملك في الأندلس، وتوجهوا جميعاً نحو مناطق إشبيلية وقرطبة، فأثخنوا فيها واحتلوا بعض المناطق والحصون، وغنموا غنائم كثيرة.



وفاة ألفونسو

ودام الهجوم والغارات سنتين كاملتين على مملكة قشتالة، وشاء القدر أن يموت ألفونسو العاشر طريداً سنة ٦٨٣هـ، فانفرد ابنه الغاصب بحكم قشتالة، وعاد المنصور إلى المغرب، وتفرق جيش ألفونسو بعد وفاته، إذ لم يعد هناك طالب للحكم من غاصبه.

مخطوطة كتاب الأجزاء للزهراوي



النصارى يطلبون الصلح

عبر أبو يعقوب المنصور إلى الأندلس بعد عام واحد، أي سنة ٦٨٤هـ ليوقف تجاوزات مملكة قشتالة بإثارة الاضطرابات والإخلال بالأمن على حدود مملكة غرناطة، ودام القتال براً وبحراً، وكانت دوائر القتال الرهيب تقع على القشتاليين، حتى اضطر ملكهم شانجة لطلب الصلح، وأرسل وفداً من القساوسة والأحبار يطلب المهادنة فرضي المنصور بذلك على شروط أهمها:

١-أن يتعهد ملك النصارى شانجة بعدم الاعتداء على المسلمين المقيمين في الأندلس أينما كانوا، وأن يعيش أولئك في أمان بأموالهم وأنفسهم ودينهم.

٢-وأن يرسل شانجة الكتب العلمية التي بقيت في المدن التي سقطت بيده كطليطلة وإشبيلية وسائر المدن، والتي تركها المسلمون أثناء محنتهم وهجرتهم إلى بلاد المغرب.

رضي شانجة بذلك، فما في المغرب اليوم من تراث المسلمين معظمه من تراث الأندلس.



وفاة المنصور المريني

توفي أبو يوسف المنصور سنة ٦٨٥هـ بعد أن اشترك في الجهاد

وقضى معظم حياته بالانتقال من المغرب إلى الأندلس، ومن الأندلس إلى المغرب ليعز الإسلام والمسلمين، وبعد حياة حافلة بالفتوح في المغرب حيث أنهى الدولة الموحدية، ثم قام بأعمال الجهاد الجليلة في الأندلس.



مخطوطة كتاب: معالجة فن استخدام الاسطرلاب لابن الصفار بخط يد غير مؤرخ، مكتوب بالعربية المغربية

ثالثاً أبو يعقوب يوسف المريني في الأندلس

وورث من بعد المنصور ابنه أبو يعقوب يوسف، وكان له شأن في جهاد الأندلس، لكنه كان يسلك مسلكاً شائناً شاذاً عندما يستنصر بالنصارى على المسلمين، ورأيناه قد عاد إلى الصواب بعد تأنيب والده له.

الثقة تعود بين الأحمر وبني مرين

عبر ابن الأحمر الفقيه بنفسه إلى المغرب ليهنئه، ويعلن له توبته وندمه، على ما بدر منه سابقاً بحقه، وعرض له ما يشاء من أرض مملكة غرناطة.

صفح عنه يوسف، واستأذنه أن يجعل له مدينة طريف على الخليج قرب جبل طارق قاعدة لحشود بني مرين في طرف الأندلس، فأذن له، وعادت الثقة من جديد بين الزعيمين وتحسنت الأحوال، وانعدمت القلاقل، إلى عام ٦٩٠هـ.



مخطوطة باللغة اللاتينية في القرن الحادي عشر تحتوي على أجزاء من القوانين العربية الإسبانية



المعركة البحرية

نقض النصارى ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، وذلك بعد أن استفادوا من فترة الهدنة فأعادوا نشاطهم وقوتهم، فأراد أبو يعقوب يوسف أن يعبر إلى الأندلس، وكانت القوات القشتالية في البر قد استعدت لمنعه، وكذلك كان أسطول القشتاليين مستعداً لصده، ومنعه من العبور إلى جهة الأندلس، فنشبت معركة بحرية قرب مضيق جبل طارق، وبدا الانكسار والضعف على السفن الإسلامية التي بدأت بالهروب من ساحة القتال، إلا أن يوسف رفض أن يولي الأدبار ﴿ومن يولهم يومئذ دبره فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (الأنفال:١٦)، بل اقتحم بسفينته، يريد الانقضاض على سفن النصارى فلما رآه جند السفن الأخرى ورأوا إقدامه خجلوا من أنفسهم وبادروا إلى مؤازرته والعودة إليه، وما هي إلا ساعات وانقلبت النتيجة لصالح المسلمين، وفرت سفن النصارى، وولت الأدبار.



الاسطرلاب: جهاز قياس مواقع النجوم وحركتها. من روائع اختراعات المسلمين في الأندلس في القرنين العاشر والحادي عشر



اسطول القشتاليين يتجمع لصد أبي يعقوب يوسف



حصار اشبيلية

عبر أبو يعقوب البحر ونزل بالجزيرة الخضراء، ثم تقدم نحو إشبيلية لحصارها وإعادتها، إلا أن الشتاء القارص والبرد الشديد، جعله يعود بجنوده إلى الجزيرة الخضراء ويفك الحصار عن إشبيلية.

علم القشتاليون أن هذا الحاكم أبا يعقوب ليس كمن سبقه من الضعاف، وليس كابن الأحمر في الخيانة، وأنهم يواجهون قوة غير عادية من قوات المسلمين.



رأس عمود في اشبيلية



الكاتدرائية في إشبيلية ثالث أكبر بناء مسيحي في العالم، والمئذنة الإسلامية خلفها شاهد على أنها كانت مسجداً إسلامياً قد أسسه المسلمون في الأندلس



خيانة الفقيه

عاد الفقيه إلى خيانته، وظن ببني مرين الظنون، وخاف على عرشه، وبئس العرش إن كان من أجله السعي لتفريق المسلمين، وإيقاد نار العداوة والشحناء بين أهل الأندلس.

فأرسل إلى النصارى يتحالف معهم، ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ (الإسراء:٥٨).

وقام جيش التحالف الغرناطي القشتالي بالهجوم نحو مدينة طريف التي كانت ثغراً بيد بني مرين، وفيها جيشهم وحاميتهم، لكن بنو مرين رغم أنهم كانوا مشغولين بحوادث المغرب ومع ذلك أرسل أبو يعقوب أسطوله مصراً على مساعدة أهل طريف.

سقوط مدينة طريف

سدّ النصارى مداخل البحر بأسطولهم الذي كانوا قد هيؤوه، ودارت معارك هائلة بين جيش غرناطة والنصارى من طرف، وبين قوات المرينيين براً وبحراً إلى أن استطاع القشتاليون ومن يساندهم من ابن الأحمر وأضرابه أن يسقطوا مدينة طريف بعد حصار مرير دام أربعة أشهر.

وكان الاتفاق بين الفقيه والنصارى أن يعطي هؤلاء الأماكن التي أسقطوها إلى بني الأحمر!! ورفض هؤلاء إعطاء أي شيء لابن الأحمر، وهذا جزاء الخيانة السريع.

ندم ابن الأحمر

ندم ابن الأحمر (الفقيه) أشد الندم، فعبر إلى المغرب من الأندلس واتصل بأبي يعقوب يستعطفه ويقر بذنبه، ويستغفر عن فعلته، فصفح عنه أبو يعقوب صفحاً جميلاً، وذلك من الخلق الإسلامي الرفيع، وأهداه مصحفاً يقال إنه أحد مصاحف عثمان بن عفان (الذي كان قد أرسله بعد نسخ المصاحف، وتنازل ابن الأحمر الفقيه عن كل الحصون الموجودة في الجزيرة الخضراء، وتنازل أيضاً عن مدينة رنده.

حصار طريف

ثم قام الحليفان بجيشيهما الغرناطي والمريني لاسترجاع طريف، وذلك بعد أن تضاعفت قوات النصارى وحصنت المدينة، ولولا خيانة ابن الأحمر لما استفاد النصارى شيئاً، ولما استطاعوا أن يسقطوا مدينة طريف، ولكن النصارى صمدوا وبقيت طريف بيد النصارى، وهذا من جزاء الخيانة العاجل، وكان قائد جيش ابن الأحمر وزيره عمر بن السعود الجشمي.



مخطوطة كتاب الاستكمال ليوسف المؤتمن (معالجة الهندسة)

رابعاً تقلص الأندلس الإسلامية



وفاة الفقيه وحكم الأعمش

توفي الفقيه محمد الثاني سنة ٧٠١هـ، فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الثالث بن محمد بن محمد بن الأحمر، وكان يلقب بالأعمش، وكان ضعيف الشخصية مهلهلاً لا يصلح للحكم، فقد تسلط عليه وزيره أبو عبد الله الحكيم، وأصبح يدير هو شؤون المملكة، وليس للأعمش إلا صورة الحكم.

خيانة الوزير

وسعى هذا الوزير للإيقاع بين بني الأحمر وبين بني مرين، فراسل النصارى وقد ظهرت خيانة جديدة في سماء غرناطة، أما يقول الشاعر؟:

لا يلام الذئب في عدوانه ... إن يك الراعي عدوَّ الغنم

ثم ازداد سوءاً إلى سوء خيانته التي سبقت حين انتهز انشغال بني مرين بإخماد الثورة التي قامت عليهم في الجزائر بمنطقة تلمسان، فأرسل جيشاً من الأندلس بقيادة ابن عمه فرج بن أبي الوليد إسماعيل، وصل هذا الجيش إلى المغرب وسيطر على مدينة سبتة، والمسلمون يتقاتلون (بنو الأحمر وبنو مرين)، والنصارى يتحدون (قشتالة، وأراغون، والبرتغال).



حدائق قصر أندلسي

الوزير يشعل الفتنة

ثم أقدم هذا الوزير على ما هو أسوأ في عصره حين أعلن الثورة على بني مرين، وفرق شأنهم بينهم، إذ جعل الحكم لواحد من بني مرين يدعى عثمان بن أبي العلاء، حيث بدأت نار الفتنة تشب بين بني مرين في المغرب، أشعلها أهل الأندلس واحترق بنارها طالبو الحكم من بني مرين، فاغتم لذلك السلطان المريني ومات مهموماً، وتولى من بعده أبو ثابت بن أبي عامر من بني مرين، لكنَّ عمَّ هذا الأخير رفض الاعتراف به، بل ثار عليه فانقسم بنو مرين إلى ثلاث فرق متناحرة:

انقسام بني مرين

١-عثمان بن أبي العلاء وأنصاره. ٢-أبو ثابت بن أبي عامر وجنده. ٣-أبو سالم (عم أبي ثابت بن أبي عامر) ومؤيدوه، وجرت منازعات تمكن من بعدها أبو ثابت أن يخضع عمه، ثم توجه يحاصر مدينة سبتة وتوفي أثناء حصاره لها، واستلم من بعده السلطان أبو الربيع، وشدّد الحصار على المدينة حتى اضطر عثمان إلى الهرب نحو الأندلس، وترك سبتة.

أهذا الزمن زمن الصراع على الحكم؟ وما هذا التنازع الممقوت من أجل السلطة؟ لكنه الطمع، وقلة الوعي والأنانية المفرطة.



حصار المرية وجبل طارق

استقرت أوضاع النصارى في تلك الفترة، وكانوا قد سيطروا على معظم أراضي الأندلس ومدنها، كما أنهم كانوا قد سيطروا على مدينة طريف همزة الوصل بينها وبين المغرب.

توجه فرناندو الرابع عام ٧٠٨هـ بجيشه الكثيف نحو مدينة المرية، وهي من أهم المدن الخاضعة لملكة غرناطة، وهي المدينة البحرية العسكرية، كما زحف جيش آخر يقوده جايمش الثاني (جيمز) ملك أراغون لمحاصرة مدينة جبل طارق، من جهة أخرى.

كانت هناك معاهدات! ومتى احترمت المعاهدات حين يكون شأن المسلمين في ضعف؟ وبدأ الحصار على المرية، وعلى جبل طارق معاً بآن واحد.



سقوط مدينة طارق

كان ملك غرناطة في تلك الفترة محمد بن محمد بن محمد بن الأحمر، وكان يلقب بالأعمش كما مرّ ذكره، ولا عجب أن يقوم صراع بين بني الأحمر أنفسهم حتى أثناء الصراع النصراني معهم، فقام أخوه نصر بن محمد بن محمد بن الأحمر بثورة على أخيه، وخلعه عن المملكة لذلك لقب أحياناً محمد الثاني المخلوع، وتلقب نصر بأبي الجيوش! ولهذا الخلاف ما استطاعت غرناطة أن تساعد المرية، ولا جبل طارق، حتى سقطت مدينة طارق بيد النصارى عام ٧٠٩هـ.


إحدى القلاع في المرية

أبو الجيوش يستعين ببني مرين

رأى أبو الجيوش أن ملكه إلى زوال، فقد ضاع جبل طارق، والحصار مستمر على المرية منذ سنة، فأرسل إلى سلطان بني مرين في إفريقية يستصرخه مستغيثاً ويستعطفه راجياً أن يقبل من بني الأحمر أعذارهم حتى تم الصلح بين بني الأحمر وبين بني مرين، فأمده بالمال والرجال.



حصار المرية ومعركة تحت الأرض

واشتد الحصار على المرية وطال، براً وبحراً، وما استطاع النصارى أن يقتحموا المدينة، وما استطاع أهل غرناطة ردهم.

وبدأت معركة الأقنية -إن صح التعبير- فقد حفر النصارى أقنية تحت الأرض ليدخلوا بها إلى المدينة من تحت الأسوار، وقد كانت القناة الواحدة تسع عشرين رجلاً، ولما شعر أهل المرية بذلك بدؤوا أيضاً بحفرها من جهتهم، والتقى الفريقان تحت الأرض ودارت الحرب الضروس في الأقنية شبيهة بحرب الخنادق.



معركة المرية



النصارى يشنون هجوماً يائساً

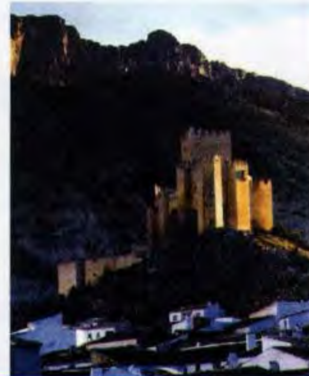
أدرك عثمان بن أبي العلاء ذاك الذي فرّ من سبتة إلى الأندلس أن الوضع خطير فجهز جيشاً على وجه السرعة، وعجل به لينجد أهل المرية، واحتدمت المعارك حول المرية وفي داخل أرضها لما وصل سعيد بجيشه، وكانت النتيجة أن هزم النصارى هزيمة شعواء، وردّ الله كيدهم عليهم، ورفع الحصار عن المرية، وغنم المسلمون الغنائم الكثيرة.

عندما نفترق ونتنازع نضيع، وتضيع مدينة طريف وجبل طارق.
وعندما نتحد ونتفق ننقذ أنفسنا وننقذ المرية ونفك الحصار عنها.
ولكن أين أولو التقى والألباب؟
هل استمرت هذه الانتصارات؟
وهل أعاد المسلمون ما قد ضاع من المدن؟

لم تبق إلا غرناطة (دويلة صغيرة في أقصى جنوب الأندلس، وقد ضاع منها نتيجة الخيانات التي سبق ذكرها كثير من حصونها وأطرافها، فسلخ منها مدينة طريف، كما سقطت قاعدة جبل طارق).



منظر لمدينة المرية الحديثة



حصن من حصون المرية

معركة طريف



تعاون المغرب وغرناطة

في ٧٤١هـ، حكم في هذه الفترة في المغرب السلطان أبو الحسن المريني، وكان من عظماء الحكام الذين ظهروا في بني مرين، كما ظهر في تلك الفترة ملك اسمه أبو الحجاج حكم غرناطة.

استعادة جبل طارق

اتفق هذان الحاكمان على توحيد جهودهما لمجابهة خطر النصارى، إذ كانا من الحكماء الأقوياء، كما تعاهدا على بذل الجهود لاسترجاع ما يمكن استرجاعه من ثغور الأندلس أو حصونها، وقاما فعلاً بعملية عسكرية جهادية استعادا بها قاعدة جبل طارق.


الشكل الثاني والعشرون

مخطوطة كتاب الأسرار للمراضي

الجيوش النصرانية تتحد

عبر أبو الحسن المريني بنفسه البحر (مضيق جبل طارق) يقود جيشاً محاولاً استعادة مدينة طريف، وساعده أبو الحجاج حاكم غرناطة بالجنود والأموال، لكن النصارى تحالفوا جميعاً وجاء المدد من الإنكليز بأمر البابا الذي يعلنها صليبية دائماً، حيث وصل الأسطول الإنكليزي حاملاً المتطوعين إلى المضيق، وحال دون وصول الإمدادات من المغرب إلى جيش بني مرين في الأندلس، فاضطربت أوضاع المسلمين، فلا مدد من الجنوب، والعدو يهاجم من الشمال فقلّ الطعام، ونفدت المؤن، وبالرغم من ذلك فقد صمد المسلمون بقيادة أبي الحسن وأبي الحجاج، إلى أن فاجأهم قدوم الجيش البرتغالي وكان البابا قد أصدر أوامره بوجوب إنجاد النصارى، فكان على المسلمين أن يجابهوا ثلاثة جيوش نصرانية بالرغم من تردي أوضاعهم.



نجاة السلطان

وتمكن البرتغاليون من أن يقتحموا صفوف المسلمين من الغرب حتى وصلوا إلى خيمة أبي الحسن، ودافع الحراس عنه دفاعاً مميتاً أذ أصبح الوضع يتطلب الدفاع عن السلطان، وتمكن الهجوم البرتغالي من قتل حراس كثر، ومن أسر ابن أبي الحسن، ونجا السلطان بأعجوبة إذ انحاز إلى مجموعة من الأبطال، فنجوا به إلى الجزيرة الخضراء فإلى جبل طارق ثم إلى سبتة في المغرب، كذلك نجا أبو الحجاج ملك غرناطة، واستحرّ القتل بين المسلمين، ومن بينهم العلماء الأجلاء، نذكر منهم:



جانب من معركة طريف

العلماء والشهداء

- أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني والد لسان الدين بن الخطيب وأخوه.
- القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر المالقي أحد أشياخ ابن الخطيب، ولي القضاء والخطابة بغرناطة، لم يرد أن يولي هارباً من المعركة وقال لمن أراد أن ينهزم: انصرفْ هذا يوم الفرح -إشارة إلى قوله تعالى:﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ (آل عمران:١٧٠).
- محمد بن جزي مؤلف كتاب التسهيل في التفسير، وكان يحرض الناس على الثبات.

وعدد غيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى. وأسرت عائلة أبي الحسن، وذبحوا جميعاً بوحشية مروعة.



سقوط الجزيرة الخضراء

وكانت هزيمة كبيرة للمسلمين، ذكّرتهم بهزيمة العقاب، ثم تقدم الأسطول النصراني فحاصر عدداً من القلاع والحصون منها قلعة أبي سعيد، فلما رجع الملك أبو الحجاج إلى غرناطة حرّك أسطوله لحماية مدن الجزيرة الخضراء، إلا أنه هزم أيضاً لأنه قد أعدّ على عجل، وضرب الأسطول المعادي حصاراً على مدن الجزيرة كلها من البحر، وكان البابا قد أصدر أمراً إلى الإنكليز لإرسال أسطولهم ليشترك مع أسطول النصارى هناك، ودام الحصار ثلاث سنوات ونصف، وما استطاع الجيش الذي جاء من غرناطة فك الحصار عنها، فطلب أهلها الأمان عام ٧٤٣هـ، وخرجوا مشتتين إلى غرناطة والمغرب، ولم تبق للمسلمين إلا مدينة غرناطة (منطقة صغيرة جنوب شرق الأندلس) وكذلك بقي جبل طارق لمملكة غرناطة.



الحصار على جبل طارق

توجه حاكم قشتالة ألفونسو الحادي عشر عام ٧٥٠هـ نحو جبل طارق، وتحصن المسلمون إذ أن وضعهم لا يسمح لهم بالقتال خارج الحصن، وكان الطاعون ذلك الوباء العجيب قد انتشر في أوربة وعلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط وقتل الملايين، وقدر الله سبحانه وتعالى أن يتفشى في جيش الصليبيين فيموت معظم هذا الجيش، ومات ألفونسو الحادي عشر نفسه، لذلك فك الحصار عن جبل طارق، وعاد بقية الجيش القشتالي إلى قرطبة بعد حصار دام سنة واحدة.


منظر عند جبل طارق

ثورة لدى النصارى

ثم جاء من بعد ابنه بُطره (بدرو) الذي لقب بالقاسي أو العاتي لجبروته، وكان في السادسة عشرة من عمره، وزوجة أبيه كانت المتسلطة على الحكم فقتلها، وثار عليه شعبه فبطش بهم.


حجر وجد في الأندلس وقد دون عليه رسم في علم الرياضيات

فهذه الثورة وأمثالها التي حدثت في بلاد النصارى هي التي أعطت فرصة ما للمسلمين أن يحسنوا أوضاعهم، ويطمئنوا شيئاً ما على مناطقهم! أو أن يأخذوا شيئاً من الاستعداد للحفاظ على أموالهم وأنفسهم.



ملخص أحداث عهد بنو مرين في الأندلس

٦٧١ هـ	وفاة ابن الأحمر وتولي ابنه محمد الفقيه .
٦٧٤ هـ	انتصار المسلمين في الغزوة الدنونية .
٦٧٤ هـ	انتصار المسلمين في جيان واشبيلية.
٦٧٧ هـ	تحالف غرناطة والمغرب يحاصر قرطبة ويصالح أهلها .
٦٧٧ هـ	محمد الفقيه يستعين بالقشتاليين على المنصور المريني .
٦٨١ هـ	شانجه يطرد والده ألفونسو العاشر ملك قشتالة .
٦٨٣ هـ	وفاة ألفونسو العاشر .
٦٨٥ هـ	وفاة المنصور المريني وتولي ابنه يوسف مكانه .
٦٩١ هـ	الفقيه يعود إلى الخيانة مع النصارى وتسقط مدينة طريف بسببه .
٧٠١ هـ	وفاة الفقيه وتولي ابنه أبو عبد الله الأعمش مكانه .
٧٠١ هـ	الوزير أبو عبد الله الحكيم يشعل الفتنة بين بني الأحمر وبني مرين .
٧٠٩ هـ	سقوط جبل طارق بعد الحصار .
٧٠٩ هـ	انتصار المسلمين في معركة المرية .
٧٤١ هـ	تحالف غرناطة والمغرب يستعيدون جبل طارق .
٧٤١ هـ	تحالف غرناطة والمغرب يحاصر مدينة طريف لكنهم يمنون بهزيمة نكراء .



الباب الرابع

نهاية الأندلس



الفصل الثالث

مملكة غرناطة

أولاً الصراعات الداخلية في الأندلس



اغتيال أبي الحجاج

مات الغالب بالله أبو الحجاج غيلة، اغتاله مجنون أثناء صلاة عيد الفطر، وذلك عام ٧٥٥هـ، وكان من أعظم ملوك بني الأحمر، فرثاه أهل غرناطة تأثراً بفقده.



مؤامرة ضد محمد الخامس

تولى الحكم بعده محمد الخامس الملقب بالغني بالله، وبعد خمس سنين، يشترك عام٧٦٠ هـ إسماعيل الثاني بن يوسف، مع زوج أخته محمد السادس وهما من بني الأحمر، في مؤامرة، حيث قادا مائة رجل من أنصارهما واحتلا قصر غرناطة، وسيطرا على حكم غرناطة، وفرّ محمد الخامس على حصانه إلى مدينة في وادي آش.



حكم محمد السادس

تم عام ٧٦١هـ اغتيال إسماعيل الثاني، فتولى الأمر محمد السادس رسمياً.

ساد الهرج والمرج والنقاش والإختلاف بين العلماء والعامة في الأندلس



عودة محمد الخامس

في ٧٦٣هـ بعد عامين من تولي محمد السادس استطاع محمد الخامس الذي كان قد فر من قبل أن يسترد مُلكَ غرناطة، عاونه سلطان المغرب بقوة أمدّه بها، فدخل غرناطة، وفرَّ السادس ومعه سبعة وثلاثون فارساً إلى النصارى في (مملكة قشتالة)! إلى من؟ إلى بُطره (بدرو) العاتي! إنه لشيء عجيب في شؤون الراغبين في الحكم، فيمن أعمت بصائرهم شهوة الحكم، فماذا فعل بطره به وبفرسانه؟. قتله بيده وقتلهم جميعاً، وأرسل رؤوسهم إلى الخامس كأنه يستميل بهذه الفعلة الشنيعة جانبه، أتلك خيانة؟ أم شهوة عمياء ورغبة دنيئة للحكم؟ أن يفر طالب حكم إلى الظالم الذي يذيق شعبه صنوف العذاب! فهل يظن أنه سيتلقاه بالترحيب؟

أمثال هذا السادس والخامس... أضاعوا المسلمين وضيّعوا الأندلس.

محمد الخامس يدخل غرناطة بعد استردادها

أحوال مملكة قشتالة النصرانية



هنري الثاني يسيطر

تطورت الأحداث في هذه المملكة، فقد ثار في سنة ٧٦٩هـ هنري الثاني (أخو بطره) على أخيه الملك بطره، وحشد حوله الأنصار، وأعانه ملك فرنسة بمدد من الفرسان.

غرناطة الحمراء، ساحة الأسود: أسسها محمد الخامس في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، حيث أن بناء هذا القصر نتاج تفكير محكم يعطي لصحن القصر مظهره الفخم والمنسجم

بطره يستعين بجيليقية

وفرّ بطره إلى البرتغال، يرجو من الملك المساعدة، فرفض مساندته، وطرده، والتجأ بعد ذلك إلى جيليقية، وكان بينها وبين قشتالة تنافس وصراع، فأمده مطران جيليقية بجيش صغير من ألف ومائتي فارس، لكن! قبل أن يتحرك هذا المدد معه غدر بطره بالمطران وأخذ أمواله الكثيرة، وفرّ إلى جزيرة تابعة للإنكليز تدعى (بيون) واستطاع أن يسيطر عليها.

بطره يعود

ثم استعان بأحد المتنفذين في أوربة ويدعى "البرنس دوغال" الذي أمده بقوة، تمكن بها أن يدخل مملكة قشتالة منتصراً، وفرّ أخوه هنري الثاني إلى فرنسة، وعاد بُطره إلى طبيعته الظالمة فبغى وتجبر، واشتدّ طغياناً على أهل مملكته، فقتل أعيان قشتالة، وأراد أن يقتل الأسرى، فمنعه البرنس دوغال، ثم تركه غاضباً وانصرف إلى منطقته.

هنري الثاني يعود

عاد هنري الثاني إلى مملكة قشتالة وقد أعانه الفرنسيون بالمال والرجال، حتى حاصر مدينة قرطبة، وأعانه ابن الأحمر ملك غرناطة أيضاً بمدد، وحدث الصراع بين أهل قشتالة، يؤيد قسم منهم هنري، والآخر بطره، كانت أمثال هذه الحوادث من الصراعات بين النصارى هي التي تؤخر سقوط غرناطة، وتمد في عمرها شيئاً من البقاء، لم يكن أهل غرناطة من القوة بمكان وما كانوا متمسكين بالدين! بل إنهم كانوا في خلاف وانحلال!

- **هل بقي النصارى في صراع أم اتحدوا؟**
- **هل استفاد الغرناطيون -وليس لمملكة غرناطة إلا أقل من عشرة بالمائة من أرض الأندلس-؟**
- **هل أدركوا الخطر المحدق بهم؟ أم بقوا متفرقين يكيد بعضهم لبعض؟**

لقد ضاعت طليطلة، إشبيلية، بلنسية، سرقسطة، وسقطت ماردة، وكثير من المدن الأخرى التي سقطت نتيجة البعد عن قيم الدين الإسلامي، ونتيجة الفرقة والاختلاف.

سنة ٧٦٩هـ
١٣٦٨م

معركة بين الأخوين

استمر الصراع في قشتالة، فمرة لهنري الغلبة، وأخرى لبطره، وفي الرابع عشر من نيسان سنة ٧٦٩هـ، نشبت معركة عظيمة قرب العاصمة بين الأخوين، وفرّ بطره ثم قتل في قصة صراع طويلة، واستتب الأمر لهنري الثاني.



قصيدة لابن زمرك يمدح فيها الخليفة محمد الخامس لانتصاره في معركة الجزيرة، القصيدة منقوشة على الحائط الشمالي من قصر الشهداء



انقسام النصارى

في هذه الفترة من الصراع بين النصارى لم يحدث أي هجوم على المسلمين لانشغال النصارى بأوضاعهم، وكانت فترة هدوء، وكانت دول النصارى حين ذاك ثلاثاً:

١-مملكة قشتالة: في شمال الأندلس ووسطها وشرقها، وعاصمتها قرطبة.

٢-مملكة أراغون: في الشمال الغربي من الأندلس ووسطها، وعاصمتها ليون.

٣-مملكة البرتغال: في غرب الأندلس وعاصمتها لشبونة.



ملك البرتغال يتدخل

طمع ملك البرتغال بالتدخل في شؤون قشتالة، فنتيجة لهذا الصراع الذي نشب بين أهلها، أعلن أن هنري الثاني ملكٌ غير شرعي وذلك سنة ٧٧٠هـ، وأنه هو - أي ملك البرتغال- الوريث الشرعي لحكم قشتالة، فنشبت الحرب بين المملكتين النصرانيتين، تمكن هنري من الانتصار على عدوه، وكاد أن يستولي على البرتغال، ثم عاد إلى مملكته.



الناسك يحرك النصارى

-كانت الأحوال هادئة على حدود غرناطة إلى سنة ٧٩٣هـ حين ظهر رجل يدعى "سُيو"، ولقب بالناسك، فادعى النبوءات، وأنه يخبر عما سيكون، وقد وقعت بعض تنبؤاته، وأظهر النسك والرهبانية، وعاش متقشفاً يرضى باليسير من الزاد والملبس والمأوى، فتبعه خلق كثير، وتعلقوا به وأحبوه، واتبعوه، ذكر هذا الناسك من تنبؤاته أن النصارى سيفتحون غرناطة، كما فتحوا بلنسية من قبل، وقابل أمير مدينة القنطرة وهي مدينة في الجنوب، فأرسل أميرها تهديدات إلى أهل غرناطة يقول لهم استسلموا فالأمر متعلق بتنبؤ يقيني عندنا، فلم يأخذ أهل غرناطة الأمر على محمل الجد، لذلك قام سيو" وأمير القنطرة بتحرك نحو غرناطة وبتجمع ضم خمسة آلاف رجل، مع أن هنري منعهم (اسماً) من هذا التصرف مدعياً بوجود معاهدة بينه وبين غرناطة.

مقتل الناسك

فأصر "سيو" وجماعته على الهجوم فتركهم هنري الثاني وشأنهم ونقض عهده، وكان سيو يدعي أنه لن يقتل نصراني واحد في هذه المعركة لتنبئه وتوقعاته!

فوصلت العامة إلى أسوار غرناطة، ولما قتل بعض أنصار "سيو" جاؤوا إليه قائلين: لقد قلت أنه لن يقتل أحد! فقال: لم أقل في الحصار، بل في المعركة، فاستمروا! عند ذلك هجم المسلمون على تلك الجماعة، وكادوا أن يبيدوهم فقتل منهم ثلاث آلاف وخمسمائة رجل، وقتل "سيو" أيضاً ولاذ الباقون بالفرار.

كان هجوم "سيو" وجماعته هو الحدث الوحيد في تلك الفترة على غرناطة.

هدأت الأمور عامة، وجددت المعاهدات بين غرناطة ونصارى "قشتالة" مرة أخرى بعد تلك الحادثة.



صراع بين بني الأحمر

توفي أبو الحجاج يوسف الثاني الذي تولى بعد وفاة والده محمد الخامس، وجاء من بعده محمد السابع عام ٧٩٧هـ، ولم يكن الابن الأكبر لوالده، فسجن أخاه الكبير يوسف إذ نشب الصراع بين الإخوة، وكان هذا مما أدى إلى نشوب النزاع كرة أخرى مع مملكة قشتالة.

تردت أحوال غرناطة إلى الأسوأ، وقد حدث عام ٨١١هـ أن ثارت الهواجس لدى محمد السابع الذي كان يخشى على ملكه الذي يفكر فيه أكثر من اهتمامه بأحوال المسلمين وبأهل مملكته، خشي على ملكه من أخيه الذي كان قد أودعه السجن، فأرسل كتاباً إلى قائد السجن: أن إذا جاءه الكتاب فليبادر إلى قتل أخيه يوسف.

انتشار مظاهر التدين الخاطىء وافتتان الناس بها



أكمل لعبة الشطرنج

وكان قائد السجن يلعب الشطرنج مع يوسف لما جاءه الكتاب، وتغير وجهه لما اطلع على مضمونه، فأدرك يوسف أن في الكتاب أمراً غير سار، فخطف الكتاب من يد قائد السجن وقرأه، ثم قال له (أي للقائد): أتم اللعب!، تعجب قائد السجن منه، وسأله: أقرأتَ ما في الكتاب؟ إنه الأمر بقتلك! فطلب إليه يوسف قائلاً: أكمل اللعب، أكمل اللعب.

فتابعا معاً يتمان لعبة الشطرنج تلك، فإذا بالخبر يأتي وهما يلعبان: مات محمد السابع! أمر مقدر عجيب!، إن إصرار يوسف أن يتابع مع قائد السجن لعب الشطرنج، يُذكّر معنى قول القائل:

دع المقادير تجري في أعنتها ... ولا تبيتنَّ إلا خاليَ البالِ
ما بينَ طرفةِ عينٍ وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حالِ

خرج يوسف من السجن، وتولى ملك غرناطة وعرف بالثالث، وكانت أيامه خير ورخاء كما ذكر عنه المؤرخون.



كاترينا تحرك زوجها

في عام ٨١٥هـ استمر يوحنا الثاني وكان قد أخذ من أبيه هنري الثالث مملكة قشتالة، وكانت زوجته "كاترينا" ذات حقد وضغينة على المسلمين، ويسيِّرها حقد أسود، وعصبية هوجاء، وما زالت بزوجها تحرضه على مملكة غرناطة وتزيّن له، حتى أمر الملك بنقض العهود، فأرسل الغارات في حكمه الطويل على أراضي غرناطة، يعيث فيها الفساد، وينشر الدمار.



سقوط النقيرة

فهجم على بلدة "النقيرة"، فتصدى له يوسف الثالث بجيشه، لكن الغلبة كانت للنصارى، وسقطت "النقيرة" بأيديهم.

لقد كانت أحوال الجميع في الأندلس تتخللها القلاقل، ويظهر فيها الصراع من أجل الحكم، إلا أن وضع المسلمين كان دائماً ينحدر إلى الضعف.



محمد الثامن الأيسر حاكم غرناطة

جاء إلى حكم غرناطة محمد الثامن الملقب بالأيسر، وهو ابن يوسف الثالث، ولنحفظ اسمه، ففي عصره بدأ الهبوط إلى الدركات، وبدأت دركات السقوط، فقد ثارت الاضطرابات، وذلك في عام ٨٢٠هـ.



ثورة محمد التاسع على أبيه

وبعد حكم استمر عشر سنوات تقريباً ثار عليه ابنه "محمد التاسع" لضعفه وخوره تجاه الأعداء، فرّ الأيسر إلى تونس لاجئاً، فأمده حاكم تونس بألف وخمسمائة مقاتل، ورجع بهم إلى غرناطة، حيث نشب القتال بين الأب وابنه، ولكل منهما جنود وأنصار، صراع بين الأب وابنه، والدماء تنزف في بني الأحمر، والنذر تتلاحق على غرناطة، لماذا؟ ولماذا هذا النزاع؟



الأيسر إلى الحكم من جديد

إلى عام ٨٣٥هـ حيث استطاع الأيسر أن ينهي الصراع لصالحه بعد أن انحاز جيش محمد التاسع إليه، فهزم، ورجع الأيسر إلى حكمه مرة ثانية.



يوسف الرابع يثور

لم يصفُ له الحكم، فثار عليه يوسف الرابع بن المول، يريد انتزاع الملك منه، فقام ملك قشتالة ينتهز هذه الفرصة (صراع بني الأحمر من أجل الملك) وناصرَ يوسف الرابع في ثورته طمعاً في مزيد من الضعف بين المسلمين، واستطاع يوسف الرابع أن ينهي الصراع لصالحه، ويعزل الأيسر عن الحكم عام ٨٣٥هـ.



عودة الأيسر إلى الحكم

- في سنة ٨٣٦هـ بعد عام فقط، مات يوسف الرابع بن المول.
- فعاد محمد الأيسر إلى الحكم للمرة الثالثة، وتم حكمه، والناس في ظنون من قدرته وإدارته.



مدينة ماردة ويظهر السور القديم للحرس



المصلى في قاعة ميكسوار الذي حول إلى كنيسة ويظهر شعار بني الأحمر (لا غالب إلا الله)



صراع بين النصارى

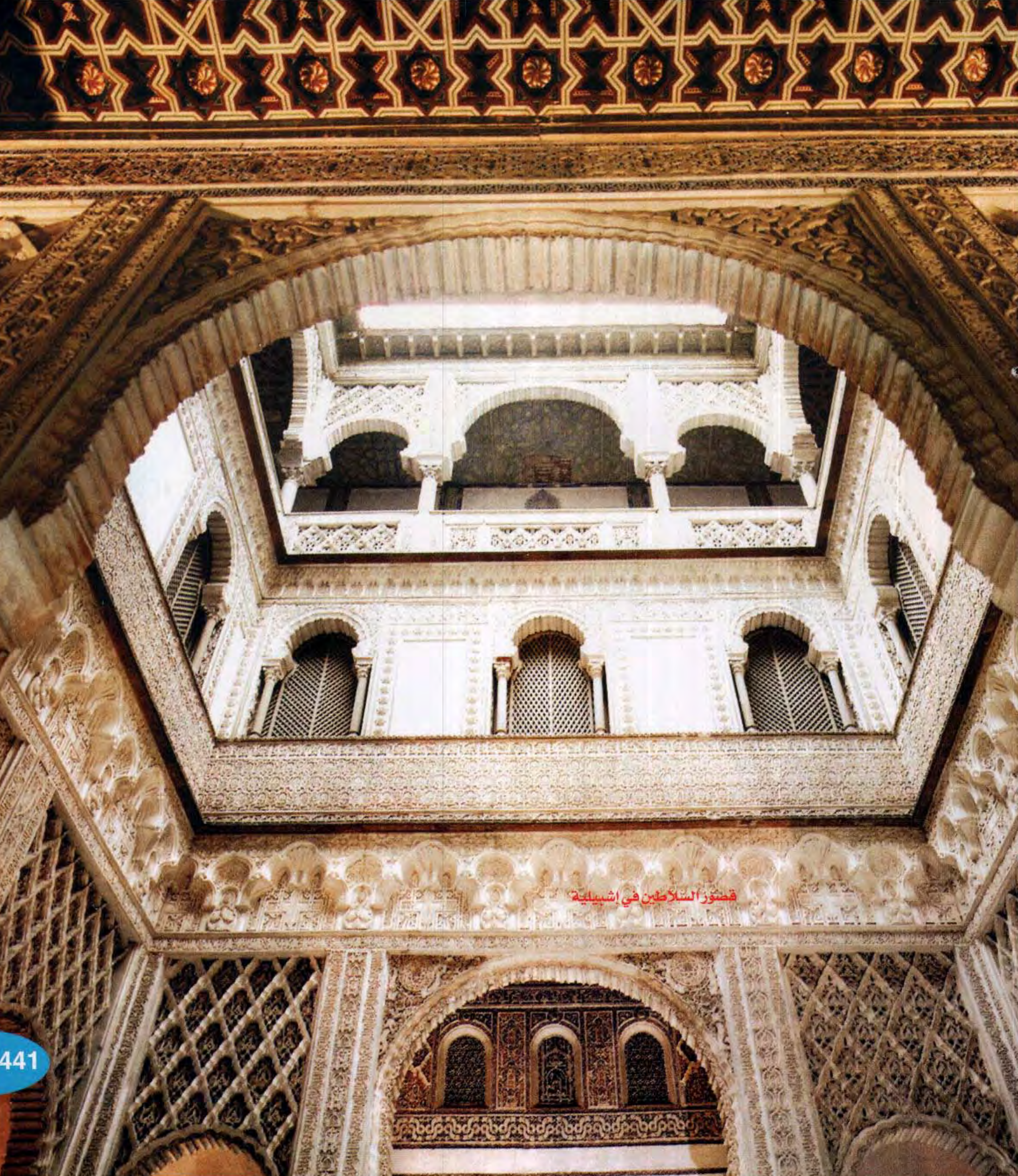
إلى عام ٨٤٥هـ، إذ حدث صراع شديد بين ملوك النصارى بل تقاتلوا من أجل الحكم، وكانت للمسلمين فرصة، فلم يستغل الأيسر الموقف لضعفه وقلة تدبيره، وسوء تقديره للمواقف، فلم يحركْ ساكناً، في وقت كان يمكنه فيه أن يعيد قوة غرناطة، أو أن يستعيد ما قد سقط من قبل بيد النصارى.



خلع الأيسر وحكم محمد العاشر الأعرج

اجتمع أولو الرأي في غرناطة، واجتمعت قيادات المملكة في مجلس، وقرروا بعد البحث والبيان: أن يخلعوا الأيسر، فخلعوه.

وتولى مُلكَ غرناطة محمد الأحنف (الأعرج) العاشر، وأراد أن يعيد شيئاً من المجد الذي ولى في الفترة التي سبقت عهده لعله يفيد مملكته، فأغار سنة ٨٤٨هـ على عدة مواقع من مملكة قشتالة، ولكنه كان يهزم في كل غارة يقوم بها، وكلما أراد الإيقاع بالعدو يوقع به هو، فأرسل سرية عام ٨٤٩هـ تغير على مملكة قشتالة، فهزمت أيضاً.



قصور السلاطين في إشبيلية



غرناطة الحمراء: حولت قاعة المجلس للملك العربي إلى كنيسة

خلع الأعرج

غضب أولو الرأي وخواص المملكة من هذا الملك الذي ينهزم، ولم يظهر مرة واحدة على العدو لا بقيادته ولا بقيادة قواده، فقرروا خلعه، وخلعوه.



يوسف الخامس

في أوائل العام ٨٤٩هـ عُيّن يوسف الخامس وهو ابن عم محمد الأيسر وبقي حكمه بضعة أشهر فقط.

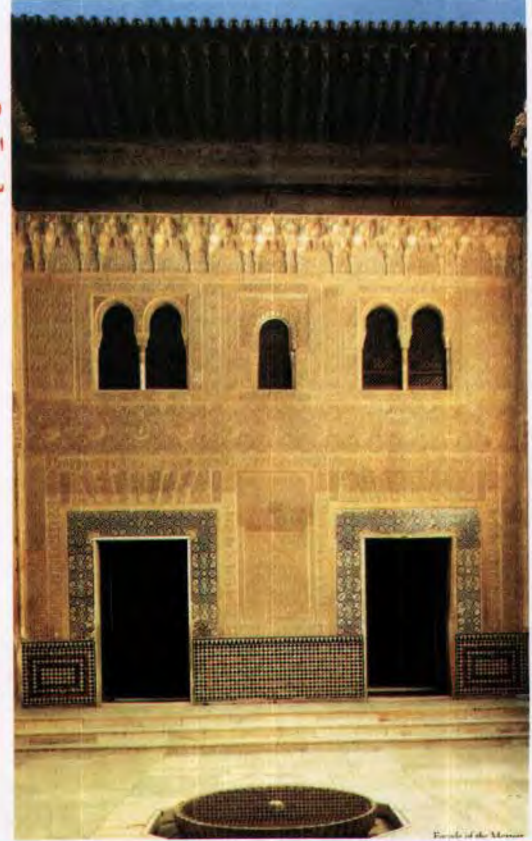


الأعرج يعود

وكذلك في عام ٨٤٩ هـ استطاع الأعرج أن يقوم بثورة ضد يوسف الخامس وينتزع الحكم منه، وتولّى الحكم للمرة الثانية، كانت للمسلمين فرص عديدة في تلك الفترة لاستعادة عدد من المدن التي سقطت بيد ممالك النصارى، لأن الوضع العام كان لصالحهم، وكان النصارى في فرقة ونزاع وقتال، أو أن يعينوا المسلمين الذين كانوا يرزحون تحت حكم النصارى ولكنهم انشغلوا بصراعاتهم الداخلية فضيعوا المسلمين.

انقسام النصارى رحمة للمسلمين

كانت الممالك النصرانية في الأندلس تعامل بلا استثناء من بقي من المسلمين في ممالكها وأراضيها بروح العداء السافر، وإعلان الحرب الدينية عليهم، حرب الإفناء الجسدي وحرب الإفناء في العقيدة، وحرب وجود الحياة للمسلم على أراضيها، ولولا انشغالها ببعضها بعضاً، لكانت أنهت وجود المسلمين قاطبة على أرض الأندلس الباقية لمملكة غرناطة في الجزء الجنوبي الشرقي، وكان على مملكة غرناطة أن تقاتل على جبهات ثلاثة: جبهة القشتاليين، وجبهة الأراغونيين، وجبهة البرتغاليين، بالرغم من ضعفها.



واجهة القصر الإسلامي الذي سمي ميكسوار



سقف البناء الإسلامي في قصور السلاطين

انشغال بني الأحمر بصراعاتهم

مرت على غرناطة في تلك الفترة ملوك لهم الاسم فقط، يشغل بعضهم بعضاً، وبأس بعضهم بين بعض، لا يخرج من حدود بني الأحمر، همهم القصر الملكي في غرناطة، يصف أحد الشعراء بعض القادة في هذا العصر وينطبق وصفه على ملوك بني الأحمر أيضاً وكأنه يخاطب امرأة:

حتى النجوم على كتفيه قد صدئتْ ... ومـا يـؤرِّقـه هـمٌّ ولا وطـرُ!

قد جاء يختالُ مزهواً ببزته ... قومي اسأليه: أأنثى أنت أم ذكر؟

فلا يهتم أحد منهم باسترداد قرية سلخت، أو مدينة سقطت، بل ولا يفكر أن يمدَّ يدَ عون للمسلمين المستضعفين في تلك الممالك النصرانية المتشبعة بالروح الصليبية، فما عسى أن يكون حال المسلمين هناك؟



ثانياً أحوال المسلمين في الدولة النصرانية

ازدياد الظلم على المسلمين

زاد الظلم بكل صوره وأشكاله، ولم يعرف المسلمون شيئاً سوى الظلم الذي يقع عليهم، بل أصدر المشرّع الصليبي هناك (ملوكهم) القوانين والأوامر التي تعطي الظلم حقاً مكتسباً! وتجعل الحيف والجور عدلاً! وليس من المنطق أن يقارن عمل المسلمين في البلاد المفتوحة في الأندلس أو غيرها تجاه غير المسلمين، وبين عمل النصارى في الأندلس أو غيرها تجاه المسلمين.

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إن السيف أمضى من العصا؟

فكيف تقارن الرحمة بالبطش والعدل بالظلم

ملكنا فكان العفو منا سجيّةً ... ولما ملكتم سال بالدم أبطَحُ

فحسبك من هذا التفاوت بيننا ... وكلُّ إناء بالذي فيه ينضَحُ

إذ كانت ردة الفعل النصراني عكساً لما كانوا يُعاملون به، أما كانوا في أمن وأمان في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم؟ أما كانت لهم الحقوق الإنسانية التي أقرتها الشرائع السماوية، وتدعو إليها القوانين البشرية؟ ولكن من يجترئ على الله ويخونه في شرعه، سهلٌ عليه الاجتراءُ على خلق الله، وهان عليه أن يصب جام غضبه على المخالفين، وإن كانوا مسالمين إذا كان له العلو في الأرض .

أزدياد الظلم مما أجبر العديد من سكان الأندلس المسلمين إلى الرحيل إلى المغرب العربي

القوانين لإذلال المسلمين

فقد أصدرت ممالك النصارى القرارات والقوانين لإيقاع الظلم على المسلمين، وهذه بعضها:

١-يجوز لأي نصراني أن يؤدب المسلم بالسياط بسبب أو بلا سبب، ولا يُسأل: لم؟

٢-لا يحق لأي مسلم أن يدخل بيت نصراني بأية حال من الأحوال، إلا الطبيب، والأطباء في ذاك الزمان مسلمون كلهم، لغلبة الجهل على النصارى بشكل عام.

٣-يلتزم المسلم بدفع غرامة نقدية فوراً إذا خالط النصارى سكناً أو عملاً، وعليه أن يسكن المناطق الخاصة بالمسلمين.

٤-تلغى كل محكمة كانت تحكم بين المسلمين، وعليهم التحاكم بالمحاكم النصرانية.

٥-إذا قبض على مسلم في طريق الهجرة إلى غرناطة أو غيرها يصبح عبداً يباع ويشترى ويفقد حريته.

٦-لا يحق لمسلم أن يعارض أولاده إذا تنصروا، ويعذب عذاباً شديداً إذا مانع في ذلك.

٧-تلغى جميع ديون المسلمين المستحقة على النصارى دون استثناء، ولو استحق الدين في البيع.

٨-يقتل كل مسلم يجهر بالشهادتين أو ينطق بها بين الناس.

٩-يجب على المسلمين أن يتحدثوا بلغة (الخميادو) وهي الإسبانية مكتوبة بالأحرف العربية، ولا يجوز التكلم باللغة العربية.

١٠-لا يُسمون المسلمين وإنما بالمدجّنين.



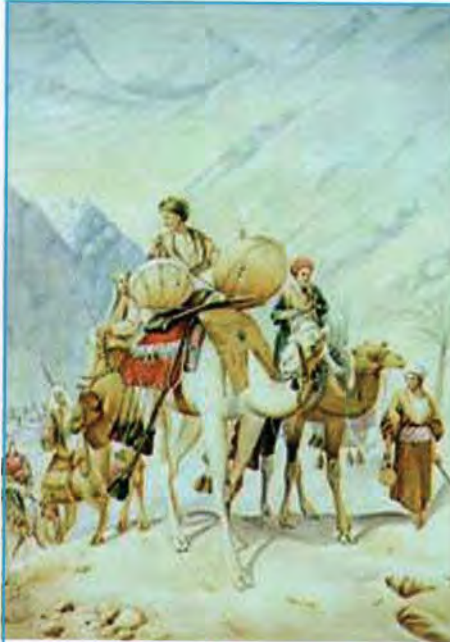
غرناطة الحمراء: قصر محمد الثالث أقدم قصر محفوظ في غرناطة الحمراء

العلماء يفتون بالهجرة

ولهذه الأسباب وغيرها أصدر العلماء الذين عاصروا تلك الفترة الفتاوى التي تحث أولئك المسلمين على الهجرة، إذ إنها تجب على المسلم الذي يعيش في حالة لا يستطيع معها القيام بدينه وأوامره.

وهذا مدلول الآية الكريمة ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفورا﴾ (النساء:٩٧-٩٩).

فالذين تمسك بهم أموالهم ومصالحهم، أو يمسك بهم



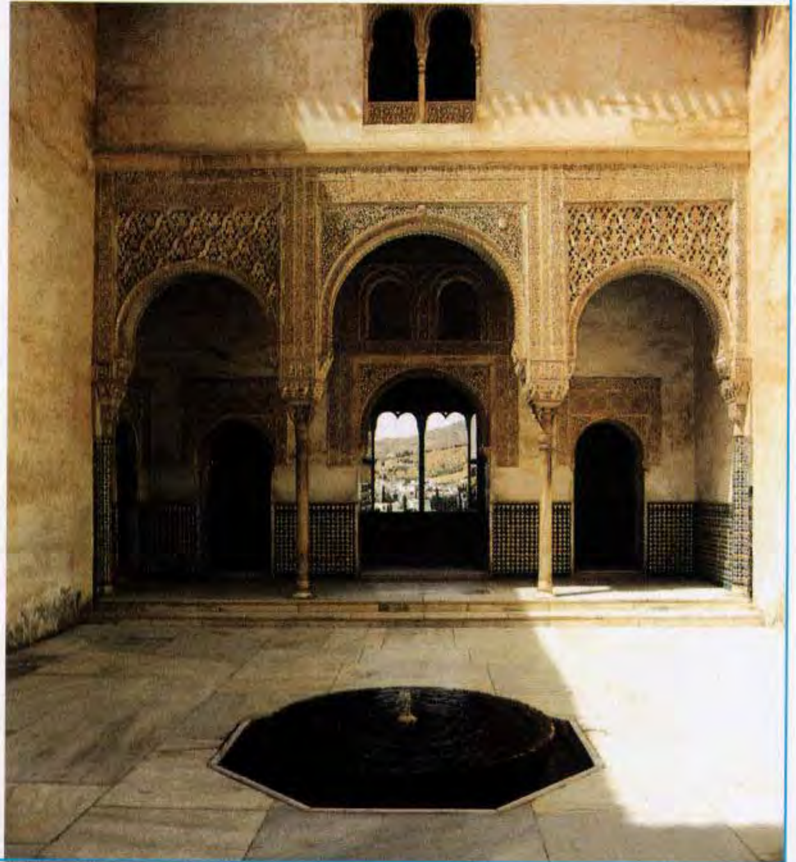
قوافل المسلمين تخرج من الأندلس

تهاونهم عن الرحيل من بلاد لا يتمكنون من عبادة الله فها، وهم قادرون -لو أرادوا واعتزموا التضحية- أن يهاجروا.

تتحدث الآيات عنهم وتصورهم بصورة مزرية منكرة، تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته، وتخبر عن مصيره إن لم يهاجر.

لذلك أصدر أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني في كتابه: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، فكان قسم ممن يستطيع الهجرة يهاجرون سراً، لأن من يقبض عليه كان يباع عبداً.

ولم تكن غرناطة مهتمة بالأمر! بل كان رجالاتها مشغولين بالصراع للوصول إلى السلطة والملك!



القاعة الرئيسية لميكسور، تم نقلها خلال القرن السابع عشر إلى الكنيسة المسيحية

لماذا لم يطردهم النصارى؟

وهنا يخطر على البال سؤال ملح، لمَ لمْ تعمد السلطات النصرانية لإخراج هؤلاء المدجنين من مناطقها؟ فيكون الجواب: لعل تمتع هؤلاء بمهارات وخبرات في أمور الحياة الاقتصادية (الزراعية، والإدارية، والعمرانية، والصناعية، والتجارية) والمجموعات النصرانية محرومة منها، لذلك أبقي هؤلاء للاستفادة منهم، ولما همت السلطات الملكية يوماً بإخراجهم، قامت جماعات من النصارى بمعارضة ذلك، لا حباً بأولئك المدجّنين، وإنما حرصاً على مصالحهم وأحوالهم، فعدلت الممالك النصرانية عن إخراجهم عند ذلك.



الجنود النصارى يحافظون على بعض المسلمين المدجنين أصحاب الخبرة ويقرؤون عليهم حقوقهم



ثالثاً انقسام غرناطة وتمزقها



خلع الأعرج

خلع الأعرج في عام ٨٦٣هـ، وسيطر على الحكم سعد بن محمد بن يوسف الثاني، واستمر على الملك أربع سنوات.



النصارى يتوسعون

وهل من فرصة أجمل من هذه الفترة للنصارى؟ استفاد النصارى منها وبخاصة تلك الصراعات المتتالية التي كانت لها أسوأ الأثر على أوضاع غرناطة، فعند احتدامها، قام القشتاليون بهجوم مباغت على حصن جبل طارق، وهو من أقوى الحصون الأندلسية، وبسطوا سيطرتهم عليه في عام ٨٦٧هـ.

سقط هذا الحصن بسهولة! نتيجة الفرقة والتنازع المستمر كما ذكر.

فكانت ضربة مؤلمة، لقد انقطع الطريق بين الأندلس وبين المغرب، ولم يعد بالإمكان وصول أي مدد إلى مملكة غرناطة! هذا إذا جاء المدد! وأصبح التهديد النصراني لمدينة غرناطة مباشراً!



222 ADBVCASIS CHIRVR

C

Forma alia ad simile illius, subtilior, & leuior.

Fiat ex ligno ebani, aut bossi, secundum similitudinem forcipum. Verumtamen in extremitate eius sint duo additamenta, sicut uides hic supra: & longitudo omnis additamenti ex eis est quasi palmus: & latitudo utriusque est, duo digiti. Cum ergo uis aperire matricem cum eo, tunc fac sedere mulierem super lectum, pendentibus pedibus eius, aperto quod est inter crura eius. Deinde intromitte ista duo additamenta coniuncta in matricem: & tu es tenens extremitatem instrumenti inferius inter coxas eius. Deinde aperi manum tuam cum instrumento, sicut facis cum forficibus, æqualiter secundum quantitatem quam uis ex apertione oris matricis, donec faciat Obstetrix quod uult.

Matricis apertio.

Forma Veruginis alterius quam dixerunt antiqui

D

Forma Impellentis quo impellitur foetus.

Forma Almisdac, qua conteritur caput magnum: & assimilatur forcipi, cui sunt dentes in extremitate, sicut uides. Et quandoque fit oblungum, sicut forcipes secundum hanc formam, sicut uides, cui sunt dentes sicut dentes serræ, quo inciditur & conteritur.



GIAE PARS SECVNDA. 223

A

Forma Almisdac quo conteritur caput paruum.

Forma Vncini habentis spinam unam.

Forma Vncini habentis spinas duas.

Forma forcipis cui sunt dentes serræ, cum quo conterit caput foetus.

B

Forma Spatumilis habentis duas extremitates ad abscindendum caput.

Forma duorum Spatumilium etiam latorum.

مخطوطة كتاب المعالجة الأساسية للزهراوي



خلع سعد بن محمد

وفي عام ٨٦٧هـ ثار يوسف الخامس على سعد بن محمد ويستلم الملك منه بعد أن خلعه.



سعد يعود

وبعد عام واحد أي في أواخر سنة ٨٦٨هـ استطاع سعد بن محمد أن يخلع يوسف الخامس ويعود للحكم مرة ثانية.
يذهب واحد ويأتي آخر، ثم يأتي الذي ذهب، ويعود الآخر وهكذا...

صراع بين النصارى

وكان من قدر الله سبحانه أن جرى صراع حاد بين أبناء الأسرة المالكة أنفسهم في مملكة قشتالة، فتفرق شملهم فترة ما، لكنه يعود فيجتمع على المسلمين، فاستفادت غرناطة من هذا التنازع، فقد بقيت على الوجود فترة ما إذ نسيها المتصارعون النصارى.

نار الفتنة تشتعل بين النصارى







ألفونسو يثور على أخيه

ثار في عام ٨٦٨هـ ألفونسو على أخيه هنري الرابع (ابنان ليوحنا الثاني)، فجمع هذا أتباعه وذاك جنوده، ونشبت المعركة الطاحنة بينهما، ثم افترقا دون أن يتمكن أحدهما من إنهاء النزاع لصالحه.



قصيدة رثاء لسلمون بن جابيرول

إيزابيلا تعيد هنري الثاني

ثم كان قدر الله سبحانه أيضاً أن ينتهي الصراع بين الأخوين بموت ألفونسو الثائر على أخيه، ويأتي أتباعه يناصرون أخته "إيزابيلا" واحفظوا هذا الاسم، ويحثونها على الاستمرار بالثورة، لكن هذه المرأة أبت أن تستمر على القتال، ورفضت الثورة على أخيها الملك هنري الرابع، الذي يعرف في المصادر الأجنبية بالملك هنري العاجز، بل أجرت معه صلحاً واتفقا على أن تكون هي ولية العهد، وتتولى الملك بعد وفاته.

هدوء الثورات

تهدأ الأمور عندهم وتخمد الثورات، وتسكن النار التي اشتعلت بينهم، وكأن الأمل يدب في نفوسهم ويحثهم على أن يأخذوا وجهة معينة من إخفاء العداوة الكامنة في نفوسهم تجاه بعضهم بعضاً، أما يقول ربنا: ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ (المائدة:١٤)، بلى وإن هذه الحقيقة قد سجلها التاريخ، ولكن تفرق شملهم إلا علينا!

تثور الاضطرابات، وتحتدم الخلافات لدى المسلمين في زمن الضعف المزري في مملكة غرناطة، وفي الأندلس قبلها حتى حلّ بهم ما حلّ، فقد تركوا معنى الآية الكريمة: ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ (المائدة:٥٤)، وجعلوا بأسهم بينهم شديداً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



سقوط دولة بني مرين

ثم جاءت ضربة أخرى لحال المسلمين في غرناطة، فقد سقطت دولة بني مرين عام ٨٦٩هـ، وتلتها دولة وطّاس التي لم تكن كالدول السابقة تجاه الأندلس، كأن التمزق لم يكتف بما حدث بالأندلس، فسرى عدواه إلى المغرب.

سقطت دولة بني مرين التي كانت لها يد في الدفاع عن الأندلس، وجهادٌ مضيءٌ أبقى نوره ردحاً من الزمن على سماء الأندلس.



فرديناند وإيزابيلا يوحدان النصارى

وفي عام ٨٧٤هـ تزوج ولي عهد أراغون فرديناند الذي عرف بفرديناند الخامس من ابنة عمه ولية عهد قشتالة إيزابيلا، فقد كان هذا الزواج ابتداء توحيد المملكتين، وبعد خمس سنوات في عام ٨٧٩هـ توفي هنري الرابع، وأصبحت ولية العهد إيزابيلا ملكة على قشتالة. وبعد عشر سنوات في سنة ٨٨٤هـ تنازل يوحنا الثاني الحكيم ملك أراغون لابنه فرديناند فأصبح ملكاً على أراغون.

ثم أعلنت الوحدة بين المملكتين القشتالية والأراغونية بهذا الزواج الميمون للنصارى، والمشؤوم على مملكة غرناطة.

فأصبحت الأندلس مقسمة على:

١-مملكة إسبانية: من اتحاد قشتالة وأراغون، وتضم أكثر الأندلس.

٢-مملكة البرتغال: وتضم معظم غرب الأندلس.

٣-مملكة غرناطة: منطقة في أقصى الجنوب الغربي لا تتجاوز عشرة بالمائة من أرض الأندلس.

فوطد هذان الملكان شؤون مملكة إسبانية، فساد الأمن وعم الرخاء، وقضي على قطاع الطرق واللصوص، وتوسعت حيث انضمت إليها الجزر الشرقية، وبعض الجزر الأخرى كصقلية، فتقوّت، وازدادت قواتها العسكرية وقدراتها.



الملكة إيزابيلا والملك فيرناند



سقوط مدينة الحامة

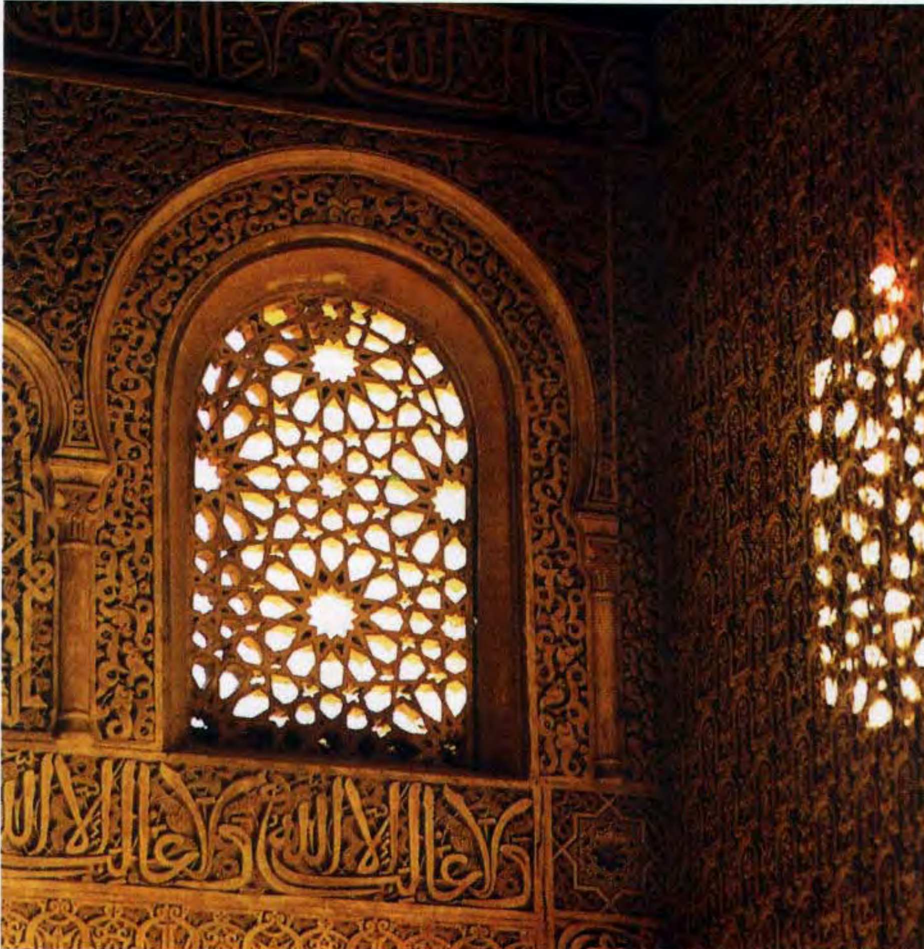
قام هذان الملكان معاً بهجوم سريع وشديد عام ٨٨٧هـ على مدينة الحامة، وهي ذات حصن عظيم قوي للمسلمين، تقع جنوب غرب غرناطة وقد قام أهلها بالدفاع عنها لكنهم لم يستطيعوا حمايتها من تلك القوة الطاغية، فاستولت عليها جيوشهما، وأمعنوا في أهلها قتلاً وذبحاً وتلك عادتهم، فالمجازر طبيعتهم، والدماء تروي أحقادهم.


النصارى يستعدون للقتال

حصار حصن لوشه

ثم زحف ملك إسبانية على حصن قوي مهم للمسلمين يدعى "لَوْشة" شمال مدينة الحامة، وغرب غرناطة، وكان فيه حامية قوية يقودها أميرها الشيخ علي العطار، الذي دافع دفاع المستميت، وأبلى بلاء حسناً وهو ابن الثمانين، وقد تمكنت الحامية من ردّ الهجوم النصراني على أعقابه، فحفظ الله الحصن، وغرناطة من بعده.

وما يزال سيف الشيخ علي العطار ابن الثمانين محفوظاً في المتحف الحربي بمدريد.


الزخرفة والنحت والنجوم وكتابات المجد الإسلامي تراها خالدة في القصور الأندلسية



الملك الصغير يحكم غرناطة

وفي نفس العام أي في سنة ٨٨٧هـ الموافق ١٤٨٢م خلع ابن حاكم غرناطة أباه الحسن علي، وتولى من بعده إدارة المملكة، وهذا الابن يعرف باسم الملك الصغير محمد الحادي عشر بن علي، أبي عبد الله الصغير، الغالب بالله، كل هذه الألقاب له، ويعرف بها، أو بأي لقب منها.

احفظوا الملك الصغير: هو محمد الحادي عشر بن علي بن سعد الملقب بالغالب بالله، وكان شعار بني الأحمر: لا غالب إلا الله، وهذا الشعار منحوت على قصورهم في غرناطة، تولى الحكم سنة ٨٨٧هـ، وبه تبدأ النهاية.

عبدالله الصغير: آخر الخلفاء المسلمين في الأندلس:
ابك كالنساء ملكاً مضاعاً
لم تحافظ عليه مثل الرجال



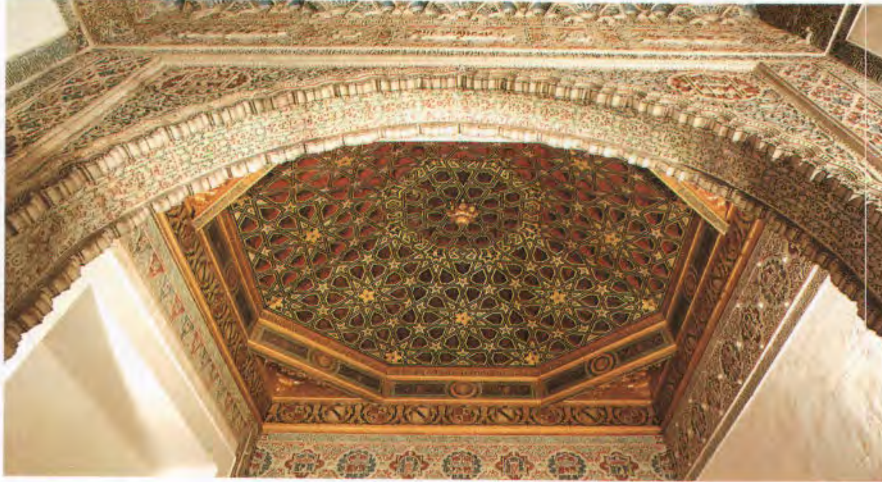
الملك يقع في الأسر

أخذته القوة والحمية بداية ملكه واعتلائه للحكم، فخاض في السنة التالية ٨٨٨هـ معركة يقود جيشاً نحو قلعة اللّسّانة جنوب شرق قرطبة، واستطاع أن ينتصر في بعض المواقع قبلها، لكن الجيوش التي أرسلها ملك إسبانية أسرته عند اللّسّانة.



محمد الزغل يتولى الحكم

أصبحت غرناطة بدون ملك، فقد أسر الملك الصغير لدى النصارى، فقام بالحكم عمه محمد بن سعد الملقب بالزَغل (الشجاع الباسل) واحفظوا اسمه أيضاً، لأنه شارك في النهاية مثل ابن أخيه.



قوس مع قبة في أبهر ألوان الفن الإسلامي في إشبيلية



إطلاق الملك الصغير

أحب النصارى أن يفتوا في عضد المسلمين بمؤامرة حاكوها بإتقان للإيقاع بين الأسرة الحاكمة في غرناطة، ففاوضوا الملك الذي هو أسير عندهم، فقال له فرديناند الخامس: إذا أطلقنا سراحك، وساعدناك للوصول إلى ملكك هل تعترف بسلطان النصارى؟ وتطلق أسراهم؟ وتعطي بعض الحصون التابعة لغرناطة لنا؟

نعم، طمع في الملك فوافق على كل الشروط والعروض، وانحنى وقبل يد فرديناند!

ونسي أنفة الشاعر المسلم الذي أوقف بين يدي طاغية والناس يتبادرون لتقبيل يده، فأنشده قصيدة قال فيها:

أنا لا أختار تقبيل يد قطعُها أجمل من تلك القُبل



سقوط حصن لوشه

فأطلق النصارى سراحه، وساعدوه للوصول إلى غرناطة، رفض عمه أن يستقبله قائلاً: أنا الملك، واحتدم الصراع بين العم وابن أخيه، وهذا ما كان ينتظره حكام إسبانية، فتقدموا بقواتهم عام ٨٩١هـ نحو حصن لَوْشة الذي استعصى عليهم من قبل أيام الشيخ علي العطار، واستعان النصارى بالإنكليز مع أن عدد جيشهم كان اثني عشر ألفاً من الفرسان وأربعين ألفاً من المشاة، فخرج أهل لوشة يقاتلونهم، وفي مقدمتهم ابن الثمانين العطار، وقد فوجئ المسلمون بالأسلوب الجديد الذي قاتلهم الإنكليز به، فالقتال كان بالسيف والقوس والرمح والترس سابقاً، لكن الإنكليز كانوا يستخدمون الفؤوس في قتالهم هذه المرة معهم، وتمكنوا من أن يضربوا الشيخ علي العطار بفأس أرداه شهيداً، وعلى إثر ذلك فاوض أهل لوشة النصارى على أن يخرجوا منها آمنين.

فهل أدرك الزغل وابن أخيه الصغير أن العصي تتكسر آحاداً، وأن في الفرقة والتنازع ضعفاً ما بعده ضعف؟! الجواب كلا!

رابعاً ضياع نصف غرناطة



انقسام غرناطة بين الصغير والزغل

تقدم في عام ٨٩٢هـ الملك الصغير نحو غرناطة، يقاتل عمه المتشبث بملكه، وهنا أسرع النصارى بالتوجه نحو غرناطة، فلما وصلت أنباء الهجوم النصراني وتوجهه نحو المدينة سارع أولو الأمر في غرناطة وخواصها، وتوسطوا بين العم وابن أخيه على أن يعقدا صلحاً ويتفقا على أمر ما، ويتركا القتال على الأقل بينهما. نعم وصلا إلى اتفاق، لكن على تقسيم غرناطة إلى قسمين!


بقايا وآثار القنوات المسؤولة عن نقل المياه الى مدينة الزهراء

القسم الأول: عاصمته غرناطة وما يتبعها من تلك الجهة من أراض وحصون.

والقسم الثاني: عاصمته مدينة بسطة وما يتبعها في جهتها من المناطق.

العجيب أن النصارى توحدوا بزواج فرديناند وإيزابيلا، بينما أهل غرناطة ينقسمون إلى قسمين.

رجع النصارى يتأملون ما قد يحدث بين هاتين المنطقتين المنفصلتين من مدينة غرناطة وضواحيها، لقد ازداد النزاع ونشب القتال، واحتدم الصراع مرة أخرى بين الزغل والصغير.



سقوط حصن بلش

فانتهز فرديناند الخامس هذه الفرصة، عودة القتال بين طرفي مملكة غرناطة، فتقدم بجيش قوامه خمسة وعشرون ألفاً من الفرسان، وخمسون ألفاً من المشاة نحو حصن مدينة "بلش" وهي من المناطق التابعة للزغل، وكان جيش النصارى يتعرض للهجوم والغارات من المسلمين لدى مسيرهم نحو حصن بلش، ويغنمون منهم الغنائم الكثيرة، ومن جملتها قافلة السلاح التي كانت مدداً لهم خلفهم، ومع هذا استمر فرديناند الخامس في تقدمه، فلما رأى الزغل ذلك خرج ليلاً من مملكته بألف فارس وعشرين ألفاً من المشاة يبادر إلى الدفاع عن حصن بلش، وكان قد ترك حامية له في غرناطة (القسم الذي تحت إدارته)، وأرسل الزغل كتاباً إلى قائد بلش يبين خطته بأن يهجم في ساعة معينة هو وقائد الحصن، إلا أن الكتاب وقع بين يدي فرديناند، فاستعدّ له، ولما حان موعد الهجوم هجم الزغل بجنده، دون أن يهجم أهل الحصن، فتولى الزغل وجيشه منهزماً نحو وادي آش.

وصلت أنباء هزيمته إلى أهل غرناطة، فسيطر الصغير على الجزء الآخر من المدينة وبدأ يفتك بأنصار عمه، وفي خضم هذا الصراع تمكن النصارى من إسقاط حصن بلش والمدينة بيد فرديناند، كما استسلمت للنصارى القرى الصغيرة المحيطة بمدينة بلش، بشرط أن يخرجوا منها سالمين.

ولم يبق للمسلمين إلا مدينة غرناطة، ومدينتان في الجنوب على البحر هما مالقة وبسطة.

فما هي الأحوال؟ وإلامَ صارت؟







حصار مالقة

ثم تقدم فرديناند ليحاصر مدينة مالقة في أقصى الجنوب على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتعد من أهم المدن الجنوبية، وذلك في عام ٨٩٣هـ، وضيق على أهلها، واشتد الحصار عليهم، فتشاور القوم وفي مقدمتهم قائد الحصن وكبير التجار واسمه علي دردوق ووصلوا إلى اتفاق على تسليم المدينة، حين أيقنوا أنه لا جدوى من المقاومة، حيث طوقت المدينة من البر والبحر بقوات النصارى الكثيرة، ومنعت عنها المؤن والطعام والمدد، فذهب كبير التجار واتفق على تسليم المدينة، هنا يظهر قائد من عامة الشعب من المدافعين عن المدينة وهو غير معروف لدى الغالبية العظمى من المسلمين في التاريخ، وينبغي أن يخلد اسمه في التاريخ، وأن تُسمّى باسمه الأماكن العامة من المدارس والمستشفيات والشوارع والثكنات، أتعرفونه؟



سيطرة جنود النصارى على المدن الإسلامية

مالقة البر مع البحر وتبدو التحصينات المنيعة للمدينة



أحد حصون مالقة

حامد الزغبي يصمد

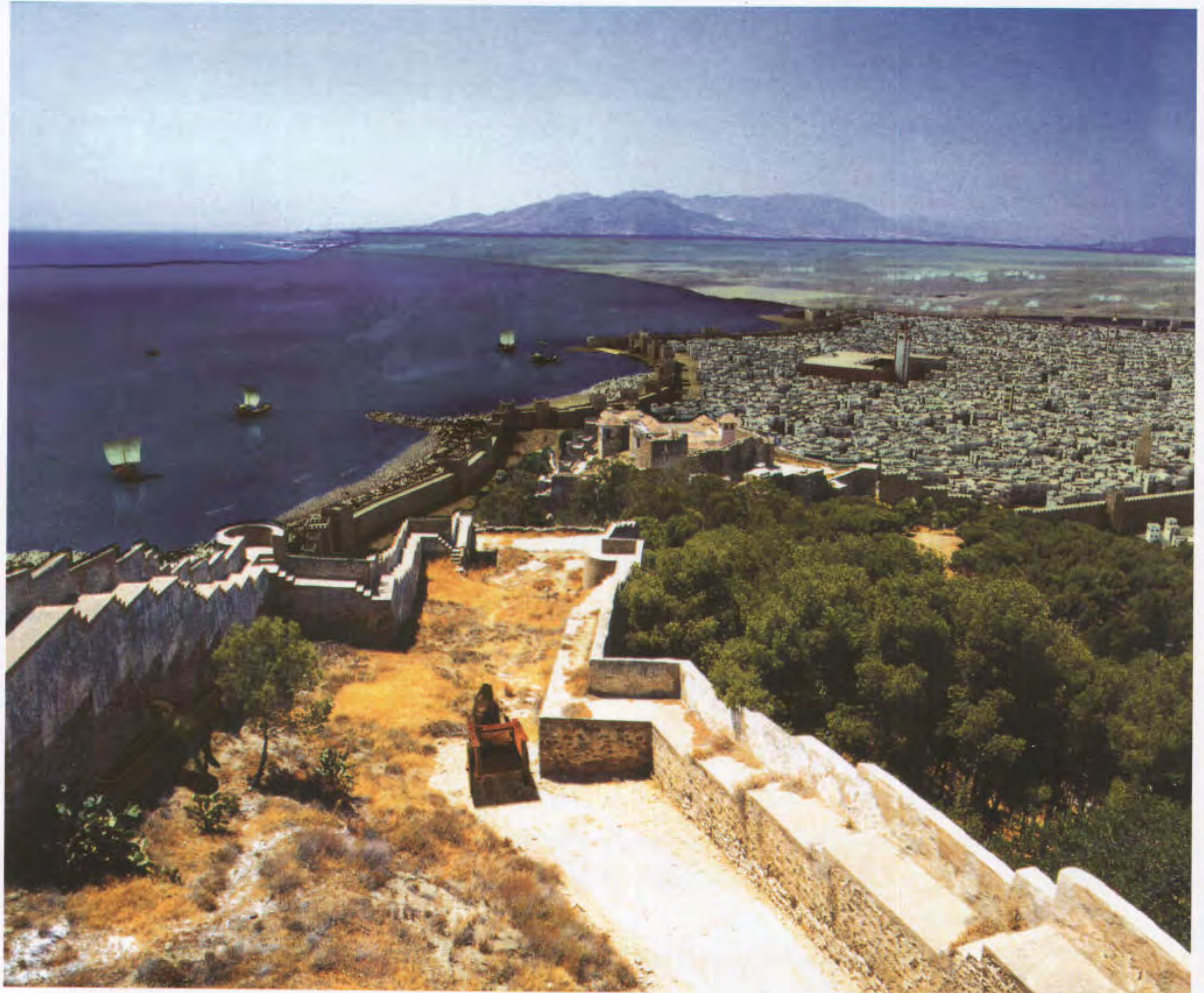
إنه حامد الزُّغبي المعروف بحامد الثغري، من المقاتلين الذين دافعوا عن مدينة مالقة، رفض أن يستسلم هو أو أن تستسلم المدينة للقشتاليين، فأعلن مقاومته واستجاب له فرسان كثيرون ورجال أبدوا استعدادهم للمقاومة، فأرسل المفاوضون إليه تاجراً ليُغريَهُ ويقبل كما قبل القوم والتجار بالاستسلام، مقابل أن يدفعوا له أربعة آلاف دينار، فقال جملته وهكذا ينبغي أن تكون نفسية المقاتل.

إني تسلّمت المدينة لأحميَها لا لأسلِّمها. هكذا ثبات البطل حامد الزغبي

سلاح النفط

ودانت له أسباب المقاومة وسيطر على الموقف، وبدأ العدو بإرسال القذائف بواسطة النيران، وكانت تسمى الأنفاط (قطع الصخر النفطية).

ما هي الأنفاط: ذكر مؤرخ أندلسي يصفها: وكان له (أي لملك قشتالة فرديناند الخامس) أنفاط يرمي بها صخوراً من نار، فتصعد في الهواء، وتنزل على الموضع، وهي تشتعل ناراً، فتهلك من نزلت عليه وتحرقه، ولم يكن هو أول من استخدمها، فقد ورد أن المسلمين استخدموها في تلك الفترة -قبل معركة مالقة- في معركة طريف مثلاً، وكانت تشبه المدافع، أو تشبه إلى حدٍّ ما الصورة البدائية لظهور المدافع فيما بعد.



سور مالقة الحصين حيث شقت على أطرافه الممرات والشوارع

معركة البرج

واشتد هجوم القشتاليين على أبراج المدينة، فصدهم المسلمون، واستطاعوا في النهاية أن يحتلوا برجاً، فحفر المسلمون تحته وأشعلوا النيران، فسقط البرج، وبدأ شيء من اختلال الأمور من مكان البرج المتهدم، وقيادة غرناطة ترسل إليهم وإلى حامد أن استسلموا.

فرفض حامد الاستسلام، وظل يقاوم ويقاتل، وكان الجيش القشتالي قد صنعوا أبراجاً يقربونها ليعتلوا السور، فيمنعهم المسلمون، فيحفرون الخنادق فيمنعونها، ووقع قتل كثير في صفوف النصارى، ولكن قلت المؤن، ونفد الطعام، واشتد الجوع بالمسلمين المحاصرين، فأرسل كبير التجار (يفت في عضد المسلمين) رسولاً إلى فرديناند، فأعلن أن الأمان لهم إذا سلموا المدينة، فمنع المقاومون الرسول الذي جاء بهذا الأمر من دخول المدينة، وأرسل الزغل يحضهم على الثبات وأخبرهم أنه قادم مع جيشه مدداً لأهل مالقة.



منظر للقصبة من الميناء (قصبة الناصر) في مالقة

الخيانة الكبرى

فحدثت الخيانة الكبرى حين شعر الصغير بأن انتصار مالقة خطر عليه، وأن شأن خصمه عمه الزغل سيعلو، وسيهدد ملكه - بئست النية هذه، وبئس التصرف الذي أقدم عليه الصغير حيث رأى أن من مصلحته السياسية أن تسقط مالقة، عندئذ أرسل الصغير جيشه لمنع المتطوعين وجيش الزغل من الوصول إلى مالقة لإعانتها، فينشب القتال بين المسلمين، ما أبأس هذا الملك، وما أبأس تصرفه!



النصارى يحمون الملك الخائن

وكان القدر أن أنهى هذا القتال لصالحه، فأرسل رسالة إلى فرديناند بالبشرى! وانتشر الخبر وذاع، فانصرف عن الصغير كثير من الناس، عندئذ أرسل الملكان فرديناند وإيزابيلا ألف فارس لحماية الملك الصغير من غضب الناس وبطشهم، وهنا بادر عالم من علماء مدينة آش ويعرف باسم "إبراهيم السانتو" ومعه أربعمائة رجل لمساعدة أهل مالقة، واقتحموا جنود قشتالة المحاصِرين، واستطاع مائتان منهم اقتحام الحصار ودخول المدينة.



جزء من أسوار مالقة

عملية استشهادية من عالم

ولما أقدم النصارى على الهجوم، أقدم السانتو على حيلة، إذ سجد ومكث على سجوده حتى أسره المهاجمون وجاؤوا به إلى أميرهم (قائدهم)، فقال له القائد القشتالي: اسألوه ما شأنه؟ فأجاب: أنه ولي من أولياء الله وعنده سرٌ يريد أن يبوح به للملك، وهو يظن أن هذا القائد هو الملك، فلما قربوه منه هجم عليه بخنجر معه كان يخفيه، فقتله، ثم هجم على زوجته وهو يظنها إيزابيلا، فهجم عليه الحراس فقتلوه، ثم رموا بجثته على المسلمين فدفنوه.



القائد القشتالي يقتله أحد العلماء المسلمين

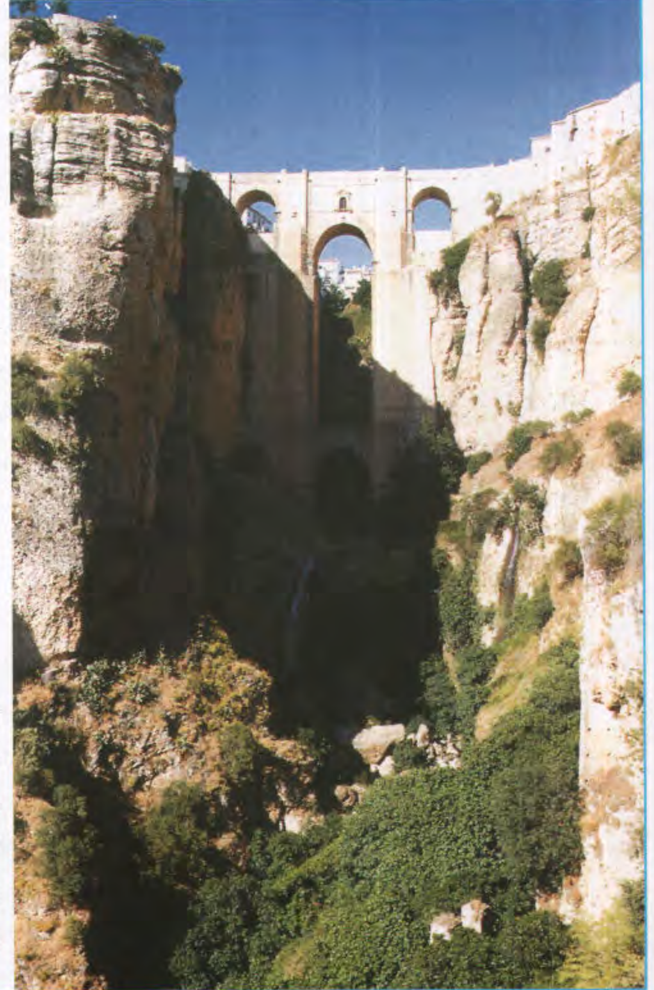
اشتداد الحصار

ضيق المهاجمون النصارى على المدينة أشد فأشد، وأحرقوا جسراً على أهم طريق للمدينة وبدؤوا يقذفونهم بالحمم بواسطة البارود الذي أخذوه من المسلمين، وقد قتل من الحامية المدافعة عدد كبير، مما جعل معظم التجار وكبيرهم يتوسلون لحامد أن يستسلم حفاظاً على دماء الناس.

بعض المسلمين يبذلون دمائهم لحماية المسلمين وأعراضهم، وبعضهم يرون الاستسلام فكرّ النصارى هجوماً إثر هجوم، والمسلمون يردّون الهجوم، ويصدونه.

سقوط مالقة

وتمكن جند النصارى من اقتحام المدينة، ولكنهم ولّوا الأدبار بعد أن أثخن المسلمون الصامدون فيهم القتل، فأمر حامد الزغبي بمطاردتهم، فخرج المسلمون يطاردونهم، وكان بعض النصارى يقذفون المسلمين بالحجارة عن طريق المنجنيق والأنفاط، فأصيب الزغبي بحجر منها وسقطت الراية من يده، وظن أهل مالقة أن الأمر قد انتهى فعادوا إلى مدينتهم، لكن القشتاليين كروا بهجوم آخر، فطلب أهل مالقة عند ذلك التسليم بشرط الأمان، أصر فرديناند أن يكون الاستسلام بدون شروط، وهذا يعني أن أهل مالقة سيقتلون جميعاً، فأرسل أهل مالقة إلى فرديناند خبراً مفاده أنه يوجد لدينا ألف وخمسمائة أسير، فإن لم ترض بالشرط الذي نريده، سنقتل هؤلاء فوراً على الأبراج، ونحرق المدينة، ونأتيك بالسيوف، عند ذلك قبل فرديناند تسليمهم بشرط الأمان، لكن الزغبي تحصّن بالمنارة مع نفر معه يرفضون الاستسلام، ثم خذل أولئك أصحابهم، وبقي وحيداً إذ هجم القشتاليون بكثافة على المنارة، فأسر الزغبي، وأخذ إلى فرديناند الخامس، فاتخذه عبداً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



قناطرة منشأة على أحد الأنهار الأندلسية

لم يبق إلا وحده، ظل يقاتل، ويقاوم إلى نهاية المعركة، رحمه الله وكثّر من أمثاله، ولو كانوا كثيرين في تلك الفترة لتغير التاريخ، ولكن قدر الله وما شاء فعل.

وسقطت المدينة الباسلة مدينة مالقة، ودخل النصارى المدينة دخول الفاتحين، وعاثوا فيها وفسدوا وسبوا النساء والأطفال، ونهبوا الأموال والمتاع، واسترق الملك كل أهلها وكان على كل واحد أن يفتدي نفسه، فكان مصاب المسلمين عظيماً في مالقة وغيرها وكذلك دأب القشتاليين وأمثالهم نكثُ العهود والمواثيق، فقطعوا بذلك طريق الإمداد من المغرب إلى غرناطة.



سقوط المرية والمنكب

وفي أواخر عام ٨٩٤ هـ سقط ثغر المنكب والمرية بيد النصارى فلم يبق للزغل من مملكته إلا عاصمتها وبعض الحصون الصغيرة التابعة لها.





الهجوم على بسطة عاصمة الزغل

وتحرك فرديناند الخامس وملكته بقواته شمال شرق غرناطة يقصد مدينة "بسطة"، والسؤال: هنا لمَ لمْ يتقدم باتجاه غرناطة؟

رأينا أن مملكة غرناطة كانت قسمين: نصف للزغل، ونصف للملك الصغير، وكان هذا الملك يحاول أن يسقط ما تضمه مملكة الزغل، وعاصمتها بسطة.

تحرك فرديناند الخامس بجيش تعداده ثلاثة عشر ألف فارس وأربعون ألفاً من المشاة، وقرر الزغل أن يترك المدينة بعد أن رتّب سبل الدفاع عنها، هكذا يتركها ملكها لمصيرها، لأنه خشي أن يقع هو في الأسر.

شتان بين قادة يتقدمون جيوشهم، ويبذلون أنفسهم لحماية الآخرين وبين هذا الذي يترك الجنود والناس والمدينة ويفر خوف الوقوع بالأسر.

قال الشاعر:

شتان بين الذي في الحرب موقعه   وبين الذي همه الأمعاء والبزِّ[1]

(١) البز: الثياب واللباس

حصن إسلامي في الأندلس قد حول إلى كنيسة وضعت أعلاها الأجراس



حصار بسطة

واستعد أهل بسطة للدفاع عن مدينتهم، وكانوا قد استعدوا للحصار، لكن هذا الحصار قد طال، وكان ملك العدو يأمر بحرق البساتين والحقول، فيخرج الناس لإطفاء النيران، وتنتشر الفوضى فيحتدم القتال هنا ويدوم حتى الليل إذ تنفصل الجنود عن بعضها.

فلا تبقى إلا الجثث التي تتعفن، وما للمسلمين من قيادة، ودام الحصار أربعة أشهر وكان ذلك في عام ٨٩٥ هـ، وبالرغم من المقاومة الباسلة ورد العدوان أكثر من مرة، ضاق أهلها بالحصار، وقرروا المفاوضة في التسليم، وتم الصلح حين جاءت الملكة لاستلام المدينة، على أن أهل بسطة مخيرون بين البقاء وبين المغادرة، ودخلت بسطة كالتي سبقتها في قبضة الملكين، ولكن بعد معركة وثبات حيث أوقعوا بجيش فرديناند ثلاثة آلاف قتيل، ومات من الوباء أثناء الحصار من جيشه سبعة عشر ألفاً.

بناء على الطراز الإسلامي في مالقة



الاستسلام

ثم جاء قادة الحصون التي تتبع مدينة بسطة ليسلموا الحصون إلى هذا الملك الطاغية، وماذا يستطيعون أن يفعلوا سوى ذلك؟ لقد سقطت العواصم عنها.

قال الشاعر:

قواعد كن أركان البلاد فما — عسى البقاء إذا لم تبق أركان



أقواس إسلامية في مالقة

عزة علي بن الفخار

فأخذوا يسلمون مفاتيح الحصون التي بين أيديهم، وكان كل واحد يأخذ من الأموال والعطايا والخِلع التي يعطيها لهم الملك القشتالي! وكان من بين هؤلاء القادة قائد اسمه: علي بن الفخار، بيده عدد من المواقع والحصون، فلما جاء دوره: وصفه المؤرخون حين دخوله على فرديناند وإيزابيلا: كان شامخ الأنف، شديدَ الوقار، وخاطب الملكين بحرية الرجل العسكري وشخصيته: أنا رجل مسلم، قائد لحصن طَبَرْنَة، وبَرَشْنَة، قد تسلمت هذه الحصون للمحافظة عليها، لكن الذي عهدوا لي بقيادتهم، فقدوا كل نهضة (قوة)، وعادوا لا يطلبون سوى الأمان، وأصبحت هذه الحصون لكم، فابعثوا من يستلمها، أمر فرديناند بإعطائه الأموال والعطايا كما أُعطي للسابقين، فامتنع من ذلك منكراً أشد الإنكار، وقال للملكين:

أنا لم آت لأبيع ما ليس مُلكي، بل لأسلم ما جعلته الأقدار الإلهية ملكاً لكما، وليكن يقيناً عندكما أنه لو وجد من يسعفني كما يجب، لكان الموت ثمناً لهذه الحصون بدلاً من الذهب الذي يُعرض عليّ.

نعم، إنه نموذج من أولئك الرجال الذين يقلون في التاريخ، حتى في انهيار السلطة وضياع المدن وضعف القوة، وقلة الحيلة، نموذج يعلو بخُلُقه وأنفته وسمو هدفه على متاع الحياة الدنيا ومغرياتها، ذكر المؤرخون عنه:

مطالب علي بن الفخار

فأعجب الملكان بشهامة هذا النموذج، وتمنيا أن يكون منتظماً كالآخرين في خدمتهما، فقالت له الملكة: وهل توجد لك حاجة نأمر لك بقضائها؟ قال: نعم، حاجتي أني تركت في الحصون التي سلمتها كثيراً من المسلمين البائسين، الذين لا يتيسر لهم الرحيل بنسائهم وأولادهم، فأرجو أن تعطيا لي وعداً ملوكياً بحمايتهم، وإطلاق الحرية لهم في دينهم وأغراضهم، فازداد الملكان إعجاباً بعزة هذا القائد وشموخه المتميز، ووعداه بذلك.

ثم قالت الملكة: وهلا تطلب أنت شيئاً لك؟، قال: كلا، سوى الإذن لي بالعبور بخيلي وبناتي -يرفض حتى الهدية منهما- فسمحا له بالعبور إلى المغرب.

نعم توجد في أمتي -أمة الإسلام- في كل عصر وفي كل مكان رجال لهم عزة وشموخ يطلبون العزة بدين الإسلام، لا بالرتب والألقاب والأموال، ولو كانت الأحوال بائسة، وفي واقعنا المعاصر نماذج لو فُقدت لانتهت الأمة، ولتُودِّع منها.



الفن المعماري لقصر في مالقة



مئذنة أثرية قديمة في شنتمرية (سانتا ماريا)





عام ٨٩٥ هـ
١٤٩٠م

بيع باقي مملكة الزغل

ولم يبق بيد الزغل بعد سقوط بسطة إلا حصون وقرى حول مدينة وادي آش، فعزم الخائن بعد ذلك -أو أجبرته الظروف، إن أحسنّا الظن به- أن يبيع ما تحت يديه لملكيْ قشتالة، وتم التفاوض، وباع الزغل بلاد المسلمين مقابل ثلاثة ملايين دينار، ثم جاء إلى ملك النصارى فأكرمه! وفرح به فرحاً عظيماً ورفعه مكانة عظيمة! وقيل إنه أبقاه حاكماً على المدينة لكن بحماية من القشتاليين وتحت إمرتهم.

وهكذا فُقد نصف المملكة، وضاع نصف المناطق التابعة لغرناطة! ودخل الإسبان مدينة وادي آش سنة ٨٩٥ هـ، مقابل منح وامتيازاتٍ قدمها الملكان القشتاليان للزغل! وهكذا قبض هو وقواده ثمن المناطق التي كانت تحت حكمه.



بلطة وفؤوس حديدية من العهد الأندلسي

منظران لساحة الأسود في الحمراء

ملخص أحداث مملكة غرناطة

٧٥٥ هـ	اغتيال أبي الحجاج ملك غرناطة .
-	حدثت انقلابات عدة في حكم غرناطة .
-	كما حدثت انقلابات مماثلة في قشتالة النصرانية .
٧٩٣ هـ	الناسك (سيو) يقود هجوماً على غرناطة ينتهي بالفشل ومقتل (سيو) .
٨١٥ هـ	سقوط بلدة النقيرة بيد النصارى .
٨٢٠ هـ	تولي محمد الثامن (الأيسر) لإمارة غرناطة .
٨٤٥ هـ	خلع الأيسر وحكم محمد العاشر (الأعرج)
-	تردي حال المسلمين في الأندلس وصدور قوانين نصرانية تذل المسلمين وتظلمهم .
٨٦٣ هـ	خلع الأعرج وتولي سعد بن محمد مكانه .
٨٦٧ هـ	سقوط حصن جبل طارق بيد النصارى.
٨٦٩ هـ	سقوط دولة بني مرين .
٨٧٤ هـ	زواج فرديناند (ولي عهد مملكة أراغون) بإيزابيلا (ولية عهد قشتالة) .
٨٨٧ هـ	سقوط مدينة الحامة (جنوب غرناطة) .
٨٨٧ هـ	خلع أبو عبدالله محمد الصغير أباه وتولى مكانه .
٨٨٨ هـ	محمد الصغير يقع في الأسر ويتولى عمه (الزغل) مكانه ثم يطلق محمد الصغير بعد سنة.
٨٩١ هـ	سقوط حصن لوشه .
٨٩٢ هـ	سقوط حصن بلش .
٨٩٣ هـ	سقوط مالقة .
٨٩٥ هـ	استسلام بسطة وما حولها من الحصون.



تفكك الأندلس ... حقائق وعبر

هذا حصاد ما زرعوا من الفرقة وعقاب ما قدموا من الخيانة ...

إن بداية النهاية في الأندلس يوم أن تمزقت إلى دويلات وطوائف، واستقلت كل مدينة بشؤونها، وأعمى الطمع حكامها فلم يعودوا يبصروا غير مصالحهم وشهواتهم، فذهبت هيبتهم وسهل على القوط والنصارى افتراسهم، فكان على كل دويلة أن تدافع عن نفسها بنفسها، وأنّى لمدينة تحارب وحدها أن تقف في وجه تحالف صليبي احتشدت فيه جميع قوى الأعداء؟

وها هم اليوم يحصدون ما زرعوا من الفرقة والخيانة فيسقطون مدينة تلو الأخرى، وأنساهم طمعهم أن قوتهم إنما كانت يوم كانوا جميعاً كالجسد الواحد، وأن الذئب إنما يأكل من الغنم القاصية

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى ... خطب ولا تتفرقوا أفرادا

تأبى الرياح إذا اجتمعن تكسراً ... وإذا افترقن تكسرت آحادا

وهذه قاعدة مضطردة في التاريخ لا استثناء فيها ولا يمكن أن تتخلف.

لذلك كلما مر بنا عهد قوة وعز كان هم أعدائنا أن يفرقونا ويشتتوا شملنا حتى نكون فريسة سهلة ولقمة سائغة.

وما خرج الاستعمار من أراضينا - في أواسط القرن العشرين - إلا بعد أن مزقنا إلى دول عدة تفصل بينها الحدود وتتقاطع بينها المصالح ليضمن فرقتنا وبالتالي ضعفنا، وها نحن نعيش آثار انقسامنا اليوم فأعداؤنا - وهم اليوم نفسهم بالأمس وإن تبادلوا الأدوار - يكيدون لكل دولة على حدة يستبيحون حرماتنا وأموالنا وأعراضنا لكن بغطاء الشرعية الدولية وباسم الحضارة الزائفة

ويح الحضارة كيف يمتهن اسمها ... متكالبون على الضعاف ضواري

والمحتل غاصب مجرم وإن أشاع انه جاء لينشر الحضارة والحرية والديموقراطية والسلام وقد رأينا بشائر الديموقراطية والحرية في البلاد التي احتلوها: دماء ودمار وسلب للثروات وهتك للأعراض

وللمستعمرين وإن ألانوا ... قلوب كالحجارة لا ترق

سلي من راع أمنك بعد وهن ... أبين فؤاده والصخر فرق؟

- وإن كنا نستخلص من هذه الأحداث عبرة فإنما هي دعوة للتوحد والتكاتف إن لم تكن بإزالة الحدود فلتكن باجتماع القلوب ووحدة المصالح والأهداف والكلمة، ولا نريدها وحدة عربية لأنها أثبتت فشلها وعجزها إنما وحدة إسلامية تجمعنا فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله.
- خيانة ابن الأحمر (الفقيه) للمنصور من بني مرين في تلك الفترة الحرجة مع ضعف المسلمين وذهاب دولتهم من أسوأ ما مر في تاريخ الأندلس.

أمع كل ما مر من الخيانات وعواقبها لا يزال هناك من يفكر بالخيانة ؟

أما كفانا ضعفنا وتمزقنا وتشرذمنا حتى نختمه بخيانة تذهب بما تبقى لنا ؟

أقولها وأنا أعتصر أسى لأن الخيانات كلفتنا الكثير ولأن ما حدث في الأندلس يعاد اليوم في فلسطين، ويمتد إلى دول أخرى، وعجباً لأولئك الخونة ممن تسلموا أمور المسلمين ثم باعوا قضيتنا بأبخس الأثمان، ومن عملاء الداخل الذين يدلون الصهاينة والمحتلين على عورات المسلمين ومكامن المجاهدين، أليس فيهم رجل رشيد؟

• الانتصار الذي حققه المنصور من بني مرين في الغزوة الدنونية مع ضعف المسلمين آنذاك وقلة عددهم يثبت في نفوسنا الأمل بأن هذه الأمة قادرة على النهوض مع كل ما يمر بها من ضعف وتمزق لكن بشرط أن تلتزم دين الله وتنبذ الفرقة والخيانة، فإن انتماءنا للإسلام يعني أن نكون قادة لا تابعين، أقوياء لا مستضعفين، وما ينبغي أن نيأس أو نستكين ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران ١٣٩).

فإن ظن أعداؤنا أنهم ملكونا لضعف ألم بنا فإنهم مخطئون.

وإن توهموا أن الحفنة التي ترحب بهم في احتلال ديار المسلمين يمثلون ضمائر المسلمين الأحرار فإنهم واهمون فإن هؤلاء لا يمثلون إلا مصالحهم الجشعة وتطلعاتهم الدنيئة.

وإن اطمأنوا أننا لن تقوم لنا قائمة بعد كل ما حصل فإنما هي أمانيهم سنبطلها بإذن الله تعالى.

وإنما نقول لهم:

ما جئت تلقي سلاماً في مواطننا ... لكن أتيت بتضليل وتمويه

لتسلب الشعب حقاً لست تنكره ... فكيف تسلب مالاً أنت حاميه ؟

إن السيوف التي كانت تجرعكم ... كأس المنية ما زالت بأيديه

فاحمل متاعك وارحل عن منازلنا ... (فصاحب البيت أولى بالذي فيه)



فرنســـا
أردونة
قرقشونة
جبال البرانس
طرف جليقية
شنتياجو
نهر مينه
خيخون
صخرة بلاي
ليون
جبال قنتبريه
أشترقة
رنسسغال
نافار
أرغون
قطالونية
جليقية
ليون
قشتالة
كوره
بلد الوليد
نهر دويره
سرقسطة
سرقسطة
جيرونه
برشلونة
نهر ابيره
وادي رامه
وادي الحجارة
جبال الشارات
طركرنه
مدريد
نهر تاجة
بلنسية
طلبيرة
طليطلة
قطلونة
طليطلة
نهر شقورة
جزائر البليار
الغرب
لشبونة
بطليوس
ماردة
بلنسية
نهر الوادي الكبير
ميورقة
باجة
لفنت
شاطبة
دانية
جبال قرطبة
دانية
يابسة
نهر سرقسطة
اريوله
قرطبة
لبله
مرسية
أشبيلية
قرمونه
نهر الوادي
غرناطة
جبال الثلج
مرسية
البحر الأبيض المتوسط
ولبه
أشبيلية
غرناطة
قرطجنة
شدونه
المرية
مالقة
طريف
جبل طارق
سبتة
0
100 km
المغرب

الباب الرابع

نهاية الأندلس



الفصل الرابع

سقوط غرناطة ونهاية الأندلس

- أولاً - الأمير موسى بن غسان والثبات
- ثانياً - حصار غرناطة
- ثالثاً - الصلح المشؤوم
- رابعاً - نقض الميثاق
- خامساً - نهاية المسلمين في الأندلس

أولاً الأمير موسى بن غسان والثبات

الملك الصغير محتاراً

استمر الملك الصغير -ربما فرحاً- يحكم ما بقي من المملكة، إذ ذهب عمه، ورأى أن النصارى يعلو شأنهم، ويتسع ملكهم، وتمتد قوتهم، بينما يزداد المسلمون سوءاً! ولم؟ فهل عمل على حفظ مملكته؟ أو بذل جهده لتطويرها وقوتها؟ بل أرسل إلى الملكين فرديناند وإيزابيلا يسألهما المهادنة والصلح والأمان.

وكانت نفوس أهل غرناطة وبخاصة نفوس أولئك الذين أذيقوا أنواع الظلم والطغيان هائجة، لا تريد إلا القتال وتأبى الاستكانة والمهادنة، فماذا يفعل؟ وما الذي يقدم عليه؟

ملك قشتالة يطلب إليه أن يسلم غرناطة! وهو يعلم قوته وبطشه!

والناس (الشعب) في غرناطة يريدون منه التحدي والمقاومة، لما لاقوه كثيراً من العنت بترك الديار والأهل والمال.

لم يكتف فرديناند بطلب غرناطة ومراسلة الملك الصغير فقط، بل راسل قواد غرناطة وأمراءها والمتنفذين يعرض عليهم الأموال الوافرة والهبات الكبيرة والعطايا.

لم يتخذ الملك أي قرار! ولا استعد للدفاع أو القتال، والناس يتخبطون في همّ وغمّ، فالنهاية وخيمة إذا بقيت الحالة هكذا، وما أخبار المدن التي سقطت عنهم ببعيدة!

وقد بدت علائم الخيانة والغدر من الملك الصغير، إذ همست في الآذان بمؤامرة تحاك ضد المدينة على خصوصيات تعطى للملك وحاشيته، مع أن الملك قد راسل فرديناند بأنه لم يعد هو صاحب القول والفصل في هذا الأمر وفي شأن غرناطة.



أحد القصور الغرناطية التي تنافس عليها الأمراء

البطل العظيم موسى بن أبي الغسان

وقد ظهر من خلال هذه الحالة المظلمة فارس يعطي صورة مشرقة للدفاع عن الأرض وحب الوطن وبذل كل شيء في سبيل الدين، هو موسى بن أبي الغسان، هل سمعتم به؟ وكيف تنسى هذه الشخصية؟ وكيف تمحى من ذاكرة التاريخ أمثال هذه النفوس الشجاعة الفريدة في عصر الهوان والذل؟ يعرف الشباب المسلم كثيراً عن ستالين، جوكوف، تشرشل، مونتوغمري، هتلر، غوبلز، رومل، ولكنهم لا يعرفون عن هذا القائد الفذ في التاريخ الأندلسي وفي نهاية الأندلس.



غرناطة الحمراء، القصبة، تعتبر هذه القلعة من أقدم الأماكن في الحمراء ويوجد في الداخل أنقاض حي سكني عسكري، يحتوي على سبعة عشر شقة وقاعة حمام ومستودعات وثكنات وإسطبلات وآبار

الأمير موسى يعلن الجهاد

يبدو أنه كان من سلالة الملوك، إذ كان يلقب بالأمير موسى، وأنه كان من أهل غرناطة، وكان صاحب همة وعزيمة لا تلين، عمل ما في وسعه لإذكاء روح الحماسة والمقاومة، فأعلن الجهاد، وأنه يرى الموت خيراً من أن يرى الوطن تدوسه أقدام النصارى الأعداء، واحتشد الناس حوله يدربهم ويعلمهم، فخاف الملك الصغير من قوة الشعب، ولزم قصره وحوله بطانته، وحمل موسى عبء الدفاع عن غرناطة، وبايعه المسلمون بيعة الموت في سبيل الله، عند ذلك أرسل إلى الطاغية يخبره رفض أهل غرناطة على تسليمها، لذلك بدأ القشتاليون يهجمون على قرى غرناطة والمناطق التابعة لها.





الأمير موسى يهجم

انتقل موسى إلى مرحلة الهجوم بينما كان مدافعاً أصبح مهاجماً، وهكذا تفعل العزيمة الصادقة، ويقدم ذو الهمة للأمر الجلل، المسلمون على قلة، ومع ذلك قرروا الهجوم على جيش قشتالة الجرار، وتمكن موسى أن يلحق الهزيمة بفرسان النصارى مرات، ويقود فرسان المسلمين إلى السيطرة على المواقف، ويعود بالغنائم من الغارات التي قام بها على تجمعات العدو، لذلك أحيا الآمال، وألهب الشعور الحماسي، وأذكى النفوس، وكأن الحياة بدأت تدب في مدينة غرناطة بعد الوهن والخور الذي ساد على النفوس من قبل.



منظر عام لمدينة الحمراء

الجهاد في سبيل الله

تحرك الطاغية بجموعه على مرج غرناطة، وأرسل خمسة وعشرين ألفاً من الفرسان يحرقون كل شيء، ويتلفون كل محصول، ويهدمون كل بناء، كانت غرناطة من أجمل المدن في تلك الفترة، وكانت بساتينها من أجمل بساتين الدنيا، فأصبح هم الملكين إتلاف ما يمكن إتلافه، ونشر الدمار في ربوعها، فقرر الأمير موسى أن يقسم فرسانه إلى مجموعات صغيرة، وكلف كل مجموعة بقطاع معين للعدو، وأمرها بالهجوم، فأكثرت القتل في القشتاليين، وما من لقاء بين المسلمين والقشتاليين إلا كانت الهزيمة من نصيب النصارى، فيولي فرسانهم الأدبار طلباً للنجاة، كان أصحاب موسى شباباً يقاتلون في سبيل الله، شباباً ارتضوا سبيل الجهاد لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، شباباً ما ارتضوا أن تطأ أقدام العدو أرضهم وهم أحياء.

وعندما يُطلب الموت توهب الحياة، فانهزم فرسان القشتاليين، وحاصرهم المسلمون في أماكن ضيقة، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، لذلك أعلن فرديناند لجنوده ألا يواجهوا المسلمين، وألا يقاتلوهم، بل أن يحرقوا ويشعلوا البساتين، ثم يفروا طلباً للنجاة، ويستعجلوا قبل أن يهاجمهم فرسان المسلمين.

خيانة الزغل

ثم تطور الأمر وذلك من سوء النفوس التي تدعي الإسلام، ولم تصف له، بل كان إسلامهم ربما للمصالح الشخصية ذات الطابع الأناني، وذلك حين رأى الزغل دوام ملك ابن أخيه، انضم إلى فرديناند ليجعل كيده وبأسه على المسلمين ليحظى بمكانة عند الطاغية! فَلْيَزُلْ ملك ابن أخيه كما ذهب ملكه هو!.

ولم يكن قد علم المسلمون بتحالفه مع النصارى، فقد حدث مرة أن مائة وخمسين فارساً (من المسلمين) تطاردهم قوات قشتالية نصرانية، فالتجأ الفرسان إلى حصن يدعى "هُدمة" وسألوا المسلمين مستغيثين أن يفتحوا الأبواب قبل وصول العدو، فصدقهم المسلمون، ولكنهم ما إن دخلوا الحصن حتى تغلبوا على الباب وفتحوه على مصراعيه ليدخل النصارى وليسقطوا الحصن ويحتلوه.

ازداد كره الناس للزغل وأتباعه لخياناته، ومن العجيب أن بعض القادة كانوا نماذج للذين يدافعون عن دينهم وأموالهم وأعراضهم، ثم ينحطون إلى الدركات من أمثال الزغل وغيره، وكان المستفيد الوحيد من هذه الخيانات هو العدو الذي يتربص دائماً بالمسلمين، واستغل وضع الزغل الملكُ أبو عبد الله الصغير إذ أعلن أنه هو المجاهد في سبيل الله، وأنه لا يخون ولا يتصل بالنصارى! وصدقه من لا عقل له، إذ كانت المؤامرات السرية تحاك لتسليم غرناطة لمآرب شخصية ومنافع ذاتية للملك وبعض وزرائه، فماذا فعل الملك؟.



الزغل في حركة خيانة مع فرديناند اعتقد أنها قد تديم حكمه



الملك الصغير يظهر الجهاد

توجه بأتباعه إلى حصن همدان ففتحه، وقتل الحامية النصرانية التي كانت تدافع عنه، وكان عددها مائتين وخمسين فارساً، ثم تحرك باتجاه حصن مرشنة وفتحه، ثم قصد حصن سكوبنيا فبسط سيطرته عليه.

وشاهد الناس بطولاته! وظنوا أن الأمر جِدٌ، فصدقوا الملك واتبعوه، ولا ندري لعلها نخوة صادقة منه ولكنها جاءت متأخرة ولذلك ذاع صيته بين المسلمين المحكومين "المدجنين" في المدن الأندلسية التي سقطت بالجنوب، وتمنوا لو يتطوعون تحت إمرته، مما حمل فرديناند الخامس أن يبعث العيون والجواسيس إلى تلك المدن (مالقة، بسطة، المرية، وغيرها) ليستيقن حقيقة الأمر، فلما تبين له ذلك، وأن غالبية الشعب مستعدة للخوض في المعارك، ولإمداد أهل غرناطة، خشي من انفجار هذه الثورة، فأصدر أمراً بإخراج كل المسلمين من تلك المدن مع أنه كان قد أعطاهم الأمان، ونقول إنه شيء رائع إذ لم يأمر بقتلهم جميعاً! لكنه فتك بالكثير منهم.

غرناطة الحمراء، القاعة الذهبية الواجهة الجنوبية



نهاية الزغل

طمع الزغل أن يعود ملكاً لهذه البلدان التي خلت من معظم سكانها المسلمين إذ أجبروا على الرحيل منها، لكنه علم أنه شخص غير مرغوب فيه بالأندلس كلها، وأن الناس يهتفون لأبي عبد الله الصغير! فاستأذن عام ٨٩٦هـ ملك قشتالة أن يخرج من الأندلس، ويذهب إلى المغرب حيث استقر بمدينة فاس ومعه الأموال والخيرات ومعه الخدم والحشم! فوصل خبره إلى ملك فاس، فأمر بالقبض عليه، فقبض عليه، وسُملتْ عيناه، ثم ألقي به في السجن، وصودرت أمواله التي زادت على خمسة ملايين من الذهب (ثمن المناطق التي باعها للقشتاليين).

عجل الله عليه جزاء الدنيا، وبعد فترة كلم بعض الوجهاء من أهل فاس ملكها في شأنه، فأطلق سراحه، دون أن يرد له شيئاً من أمواله، فعاش في رعاية أحد أصحابه فترة ثم تخلى عنه، وكان يستعطي الناس،ويسأل الصدقات فيعطيه من لا يعرفه، وقد فقد كل شيء، وعليه ثياب مرقعة بالية، وكان كتب بنقوش على إحدى رقعه:

هذا سلطان الأندلس العاثر الحظ، وإن في التاريخ لعبراً.

وقد يكون استسلام الزغل نزولاً على حكم ظروف قاهرة، ولكن كان الاستسلام مهيناً جداً.

قبة في إحدى القاعات تظهر فيها فخامة الصنعة

ثانياً حصار غرناطة

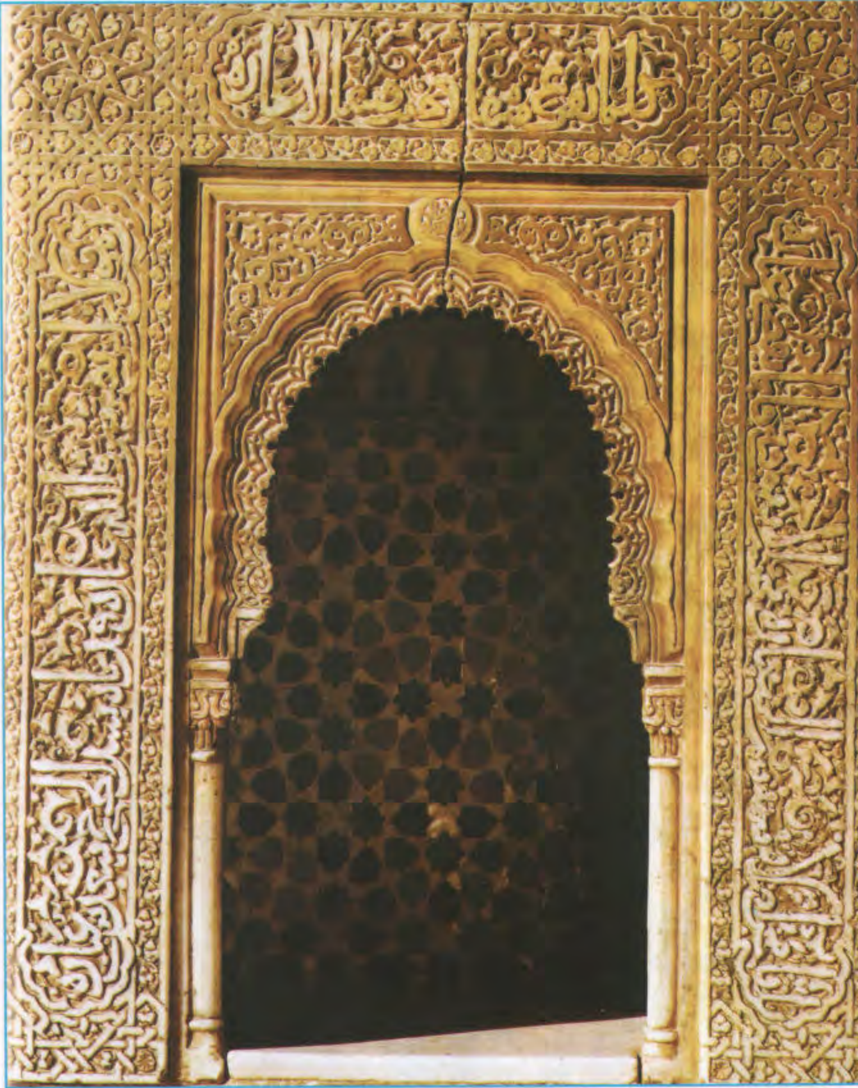
بعض مناظر الحصون في غرناطة آخر عهد للمسلمين في الأندلس



واشتد الحصار على مدينة غرناطة سنة ٨٩٦هـ، وبلغ عدد المحاصرين أربعين ألف راجلٍ وعشرة آلاف فارس، وتأتيهم الإمدادات تباعاً، مما جعل الملك الصغير ينصرف تفكيره إلى الاستسلام، فاجتمع بقادة الجيش، وحاورهم فأقروا بالصلح والمهادنة، ولم يعارضه إلا الأمير موسى بن أبي الغسان، ونهاه وحذره من عاقبة الأمر وذكّره بمصير المدن التي استسلمت، وقال له: ستكون أجسادنا سدوداً دون غرناطة، وما كان القشتاليون قد استطاعوا الاقتراب من المدينة بعد، بالرغم من قوتهم وعددهم الذي بلغ في إحدى الروايات ثمانين ألفاً.

يقول واشنطن إيرفنج في روايته "غزوة غرناطة": لو كان عند الغرناطيين عدة رجال مثل موسى بن أبي الغسان، أو كان ظهوره في بداية هذه الحرب، لتأجل سقوط غرناطة، ولبقي المسلمون مدة مديدة متبوئين أبراجها.

لذلك رأى الملك القشتالي أن اقتحام غرناطة مهلكة لجنوده، فاقتحام مدينة يلتهب أفرادها بروح الثأر والانتقام إبادة للجيش المهاجم، فأصدر أوامره بإحكام الحصار على كل المنافذ للمدينة، وشدّد في ذلك، ولهذا فقط ما كان يريد الاقتحام ولا المواجهة مع المسلمين، وكان موسى يأمر بالهجوم أحياناً على جند قشتالة، فيوقع القتل ويثخن فيهم، ومع ذلك كانوا لا يواجهونه، بل كانوا ينسحبون.



إحدى بوابات القصور التي تصدعت ومازالت صامدة

المبارزات والبطولات

عمد الطاغية بحفر خندق حول المدينة ليمنع خروج المسلمين للهجوم، فكان أن طلب المسلمين للمبارزة، ووقعت عدة مبارزات قتل العشرات من النصارى فيها، حتى منع الملك القشتالي خروج أحد من جنده للمبارزة أيضاً، فكان فرسان غرناطة يخرجون للمبارزة فلا يجيبهم أحد، فيثيرون القشتاليين، ويشتمون، وما من أحد منهم يتحرك أو يُثار.

حتى أن أحد أبطال المسلمين ويسمى "قربة" شيخ طاعن في السن، عبر الخندق وقاتل النصارى واقتحم صفوفهم، فوصل إلى خيمة الملكة، وغرز الرمح الذي يحمل عبارات تسيء إلى الملكة ويُسمعها ولم يتعرض له أحد.

وكأن هذا المشهد وأمثاله يذكر بغزوة الخندق أيام المسلمين في المدينة المنورة.

الملكة إيزابيلا تطلع على غرناطة

واشتدت الأحوال، وانقطعت السبل، وكادت المؤن تنفد، وكانت ملكة قشتالة إيزابيلا، قد سمعت بعظمة غرناطة وجمالها، وأنها من أجمل المدن في تلك الفترة، فأحبت أن ترى المدينة عن قرب، فنصحها قادة القشتاليين بالابتعاد حرصاً على سلامتها، فأصرّت أن ترى، فقدّم الملك أمامها جيشاً لحمايتها، فصعدت ربوة تطل على المدينة.



مناوشة الملكة

ظن موسى ومن معه أن النصارى قد جهزوا للهجوم والاقتحام، فأمر الفرسان بفتح الأبواب والهجوم على المتقدمين من الجيش القشتالي، فحدثت معركة تسمى: مناوشة الملكة، فما هي هذه المعركة؟ وما آثارها؟

كانت الملكة تحب أن ترى المدينة من أعلى مكان تطل فيه، فقالت لمن معها: بلغني أن هذه المدينة أجمل مدينة! -وكانت كذلك- فأريد أن أراها.

قالوا لها: اصبري حتى نفتحها! قالت: لا، إني أريد رؤيتها الآن، وعند إصرارها قدموا جيشاً



جانب من مناوشات المسلمين والنصارى

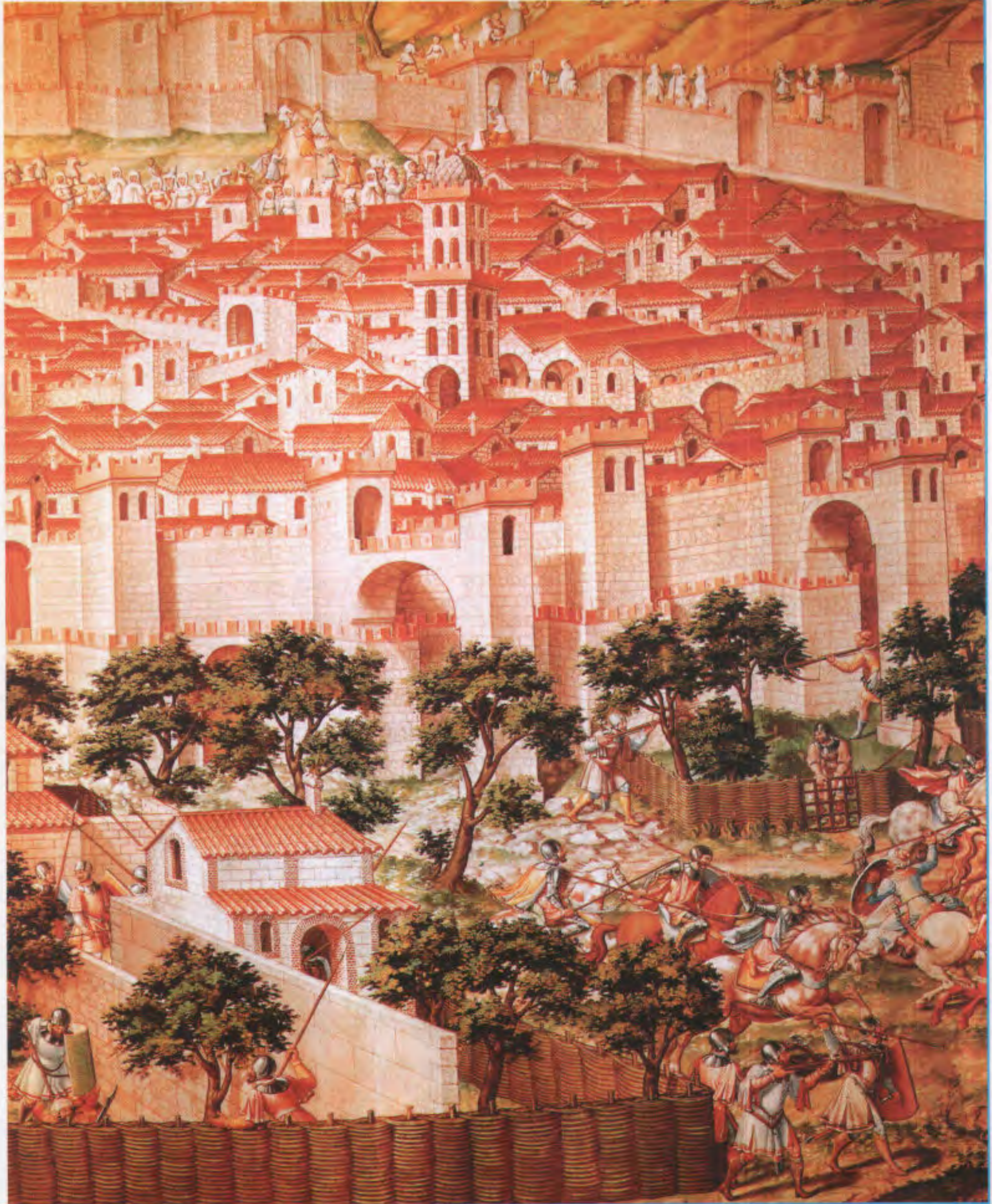
يتقدم موكب الملكة كما ذكر من قبل عدة أسطر. خشي أهل غرناطة وبخاصة الأمير موسى الذي كان يقوم بحماية المدينة ومن معه من القادة الفرسان أن هذا التقدم قد يكون بدءاً بالهجوم واستعداداً له، فأمر جنده وفرسانه بالهجوم، واحتدم القتال العنيف، وكان القتال شديداً، وخضبت الدماء أرض غرناطة من الفريقين، وبدأ الضغط على جند الملكة وموكبها، وبدأت بوادر الهزيمة على جيشها، حتى إن الملكين (فرديناند وإيزابيلا) جثيا على ركبتيهما، وابتهلا إلى مريم العذراء أن تنقذهما مما هما فيه! فأمر فرديناند كل جيشه بالهجوم والدخول في المعركة، وغلبت الكثرة على الشجاعة، والعُدد على القوة، فقد استشهد في هذه الغزوة ألفان من المسلمين على قلتهم، حين أشعلوا الحرائق في معسكر القشتاليين، وتمزقت مشاة المسلمين لقلة عددهم، وعبثاً حاول موسى ومن معه من الفرسان أن يجمعوا شمل الجند، وألفى نفسه وحيداً في الميدان هو وفرسانه، فأمر بالانسحاب إلى المدينة.



منظر القصبة، الجزء الأول للحمرا وابراجه القوية

الهجوم الشامل على غرناطة

أيقن الطاغية أنه إذا أوقف الهجوم فإن ذلك سيفت في عضد الجيش، لذلك أمر بالهجوم الشامل من كل صوب، وانتشرت القوات من كل جهة، واستطاعت بعض جنوده من احتلال بعض الأبراج من أسوار غرناطة، لكثرة عَددهم وعُددهم، فسمح موسى بالانسحاب إلى وسط المدينة، بعد أن أثخنت الجراح في فرسانه وقد صبروا وثبتوا كثيراً، وتم احتلال النصارى بهذا العمل أطراف غرناطة، أمر موسى باستخدام الأنفاط والقاء الحمم على القشتاليين، فمنعهم بذلك من الاقتراب، وعمدوا لذلك بإشعال الحرائق وإتلاف كل شيء حول غرناطة، وقد حان فصل الشتاء فأمر الملك ببناء معسكر لجنده سموه مدينة "سانتا فيه" أي مدينة الإيمان المقدس، كما أمر ببناء سور من الحجارة حول المدينة في الجهة التي تحت يده، ليمنع وصول أي مدد إلى المدينة المحاصَرة، وجاء فصل الشتاء ولم تعد لغرناطة أية صلة أو مورد من الخارج.



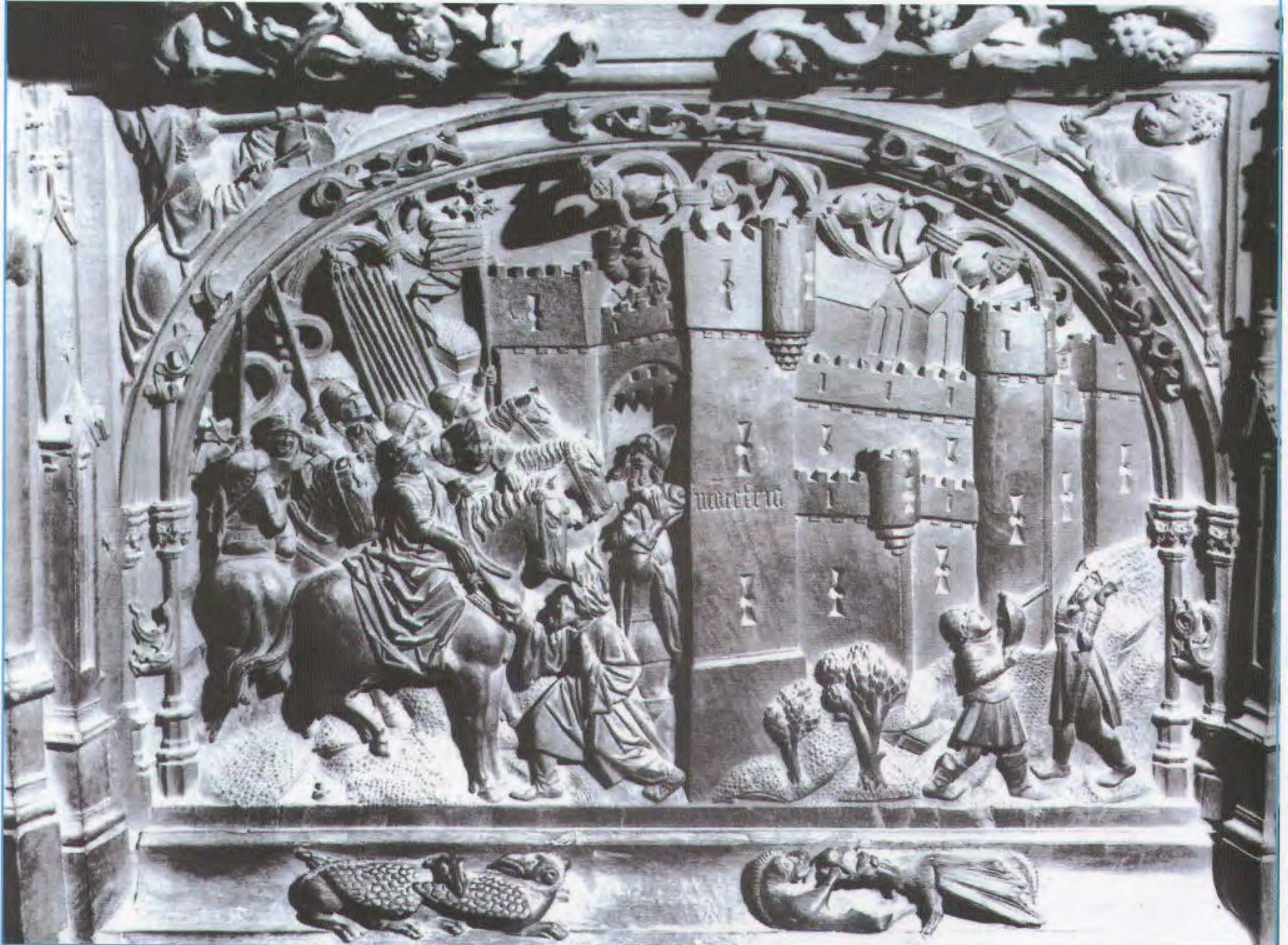
معركة استيلاء النصارى على غرناطة ١٤١٧م

موسى يعارض الاستسلام

واجتمع أبو عبد الله بقادته ومن بينهم موسى وسألهم: ماذا يمكن أن نفعل؟ عند ذلك وافق الجميع على التسليم مذعنين كلهم إلا ذلك البطل الشهم كما هو شأنه، نعم! إنه إنسان فريد كما يقال، بل إنه الإنسان الذي بناه الإسلام، بناه الدين الحق فكان المؤمن الحق يبذل الروح من أجل دينه ووطنه كما قال الشاعر عن الإسلام:

يبني الرجالَ وغيره يبني القُرى ... شتان بين بنا قرىً ورجالِ

فعارض أية مبادرة للاستسلام بقوة، ولكن الجميع كانوا متفقين على وجوب الاستسلام، إذ لم يبق سواه أو الموت، وكان مما قاله في هذا المجلس: فلنعمل على إثارة الشعب، ولنضع السلاح في يده، ولنقاتل العدو حتى آخر رمق وآخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة، من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها.



نحت يمثل حصار وسقوط غرناطة بيد النصارى



المفاوضات

وفي مثل هذه الحالة! حالة اليأس والقنوط تضيع صيحات البطولة، وتذهب الكلمات الشجاعة سدى، فيعلو شأن الشورى إذ أجمع أهل الرأي بأن يقوم أحد الوزراء في بلاط الملك الصغير واسمه أبو القاسم عبد الملك بمفاوضة النصارى وملكي قشتالة، وذلك في ٢١ محرم عام ٨٩٧هـ الموافق ٢٣ تشرين الأول نوفمبر سنة ١٤٩١م حيث تم التوقيع.

موسى يعلن المعارضة

كانت المفاوضات قبل هذا التاريخ قد جرت بينهما بصورة سرية، واتفق الطرفان على إقرار الصلح، فلما وصل الخبر إلى غرناطة وانتشر بين الناس وذاع إقراره، خرج الأمير موسى بينهم يحرضهم، ويقول للملك وحاشيته ولعلماء السوء بلسانه وبلسان حاله: كيف خارت عزائمكم؟ موتوا في سبيل الله، انظروا واعتبروا من أحوال المسلمين (المدجنين)، أما ترون إذلالهم؟ هل تودون أن تلقوا مصيرهم؟ ومتى كان النصارى يتمسكون بالعهود والمواثيق؟ هل علمتم نتائج العهود منهم؟ إنه الغدر يتلو الغدر.

منظر خارجي لبناء ضخم للكاتدرائية



منظر عام لمجمع الحمرا

الملك الصغير يصر على الاستسلام

فقام الملك الصغير ليقول قولة باطلة باستدلال باطل، يرد بها على دعوى الجهاد:

«الله أكبر، لا إله إلا الله، محمد رسول الله، ولا راد لقضاء الله، باطل اجتهادنا هكذا في معاكسة الإرادة الإلهية، ويردفها بمقالة أسوأ: تالله لقد كتب علي أن أكون شقياً، وأن هذا المُلك يذهب على يدي».

ما أدراك أيها الملك باللوح المحفوظ؟ وهو محفوظ من اطلاع الخلق عليه كائناً من كان، وما أدراك ما كتب فيه؟ أتترك الأخذ بالأسباب المطلوبة منك ثم تحتج بالقدر المكتوب!

ونحن في عصرنا هذا نجد أمثاله من المفكرين (المسلمين)! ينحون هذا المنحى، فيزيلون معنى الجهاد، ويلوون ألسنتهم ليحسب الناس ما يقولونه من الكتاب، إذ يشيعون اليأس والقنوط في نفوس المسلمين، بدلاً من إثارة الهمم وشحذ العزائم، والعمل الدؤوب الجاد لنهضة المسلمين، وإعادة مجدهم الضائع وقوتهم وعزتهم، ولا عزة إلا بالإسلام، وقدوتنا نحن المسلمين هو الرسول ﷺ (وصحابته الغرّ الميامين، حيث قالوا في حالة شديدة البأس، كثيرة الأعداء: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما﴾ (الأحزاب:٢٢)، وكذلك قدوتنا من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، كالأمير موسى بن أبي الغسان وأمثاله.

علماء مستسلمون

أتدرون ماذا قال الوزراء مستندين إلى أقوال علماء السوء في مجلس الملك أبي عبد الله الصغير؟ قالوا: الله أكبر، لا حيلة في قضاء الله!!

إذاً كان الجميع قد أقروا بذلك، وأنّى يستمعون لتحذير الأمير موسى ومقالته؟ وقديماً قال عبد الله بن المبارك:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها.

فأصروا على الصلح وتم ذلك لهم...

(برج دي لا فيلا) واحد من أفضل المناظر الطبيعية الخلابة في الحمراء



الأمير موسى الشهيد

خرج الأمير موسى من بينهم، فطاف بالحمراء ثم بغرناطة، ثم لبس سلاحه، وركب جواده، وخرج خارج المدينة، حتى إذا لقي جماعة من فرسان قشتالة أوقفوه ليعرفوه، فاحتدم القتال بينه وبينهم، فقتل معظمهم وحده، فأصيب بجرح وأصيب حصانه، فوقف على رجليه يقاتل ثم على ركبتيه، ولم يرد أن يقع أسيراً في يد الأعداء حتى قتل شهيداً، ورموه في نهر قريب وهم لا يعرفونه، وربما سقط هو في النهر وهو يتراجع ليحمي نفسه من أن يقع في الأسر.

ثالثاً الصلح المشؤوم



تولى الوزير أبو القاسم عبد الملك التفاوض لإتمام الإجراءات على توقيع الصلح، وتم فعلاً في الثاني من ربيع الأول عام ٨٩٧هـ الموافق للثاني من كانون الثاني (يناير) لعام ١٤٩٢م، وفي هذا التاريخ دخل فرديناند الخامس وإيزابيلا قصر الحمراء الذي أعدّ لهما.

وكان اتفاق الصلح مفصّلاً وواضحاً ومكتوباً وما يزال محفوظاً في المتحف الحربي بمدريد عاصمة إسبانية، يتضمن سبعة وستين شرطاً:

غرفة السفراء المزخرفة بالرخام والبلاط المصقول (بمثل هذا الإسراف ضاعت الأندلس!)

شروط الصلح



بعض مناظر الحصون في غرناطة آخر عهد للمسلمين في الأندلس

(وكان الإسبان قد أخذوا أربعمائة رهينة -وقيل خمسمائة- من أعيان المسلمين يبقون في أيديهم حتى يتم تسليم غرناطة دون حادث، وحتى يدخلها القشتاليون بأمان، فلما تم دخولهم أطلق سراح الرهائن)

ومن هذه الشروط:

١-أن يكون المسلمون صغيرهم وكبيرهم، أميرهم أو مأمورهم، آمنين في النفس والأهل والولد، ويبقى كلهم في دورهم وبيوتهم وعقاراتهم.

٢-إقامة شريعة الإسلام بينهم، ولا تقام أي شريعة سواه للحكم بين المسلمين.

٣- تبقى المساجد كما هي، وتحفظ الأوقاف الإسلامية.

٤-لا يدخل النصارى بيوت المسلمين، ولا تغصب أراضيهم.

٥-لا يولى على المسلمين إلا منهم.

٦-يفك أسرى المسلمين من غرناطة حيث كانوا، وأي مسلم التجأ إلى غرناطة فلا سبيل عليه، ويدفع سلطان غرناطة ثمنه لمالكه.

٧-من أراد العبور إلى المغرب له ذلك، ولا يمنع وذلك خلال مدة معينة، ولا يدفع سوى أجرة المركب، وإذا انتهت المدة فإنه يدفع أجر المركب وعشر أمواله.

٨-لا يؤخذ أحد بجريرة غيره.

٩- لا يقهر أحد ليعتنق النصرانية، ومن تنصر يوقف أياماً ثم يأتيه حاكم مسلم وآخر نصراني يسألانه، فإن أصر على النصرانية بقي عليها.

١٠- من قتل نصرانياً أيام الحرب لا يقتل به، ومن أخذ أموالاً أثناءها لا تسترد منه.

١١-لا يكلف مسلم بضيافة جنود النصارى، وترفع جميع المظالم.

١٢-يعفى المسلمون من الضرائب ثلاث سنوات، وبعدها يدفعون ما كانوا يدفعونه للملك المسلم.

١٣-لا يطلع نصراني على دور المسلمين ولا يجاوز أسوارهم.

١٤-يتجول المسلم في بلاد النصارى آمناً على نفسه وماله، ولا يشترط أن يحمل علامة تميزه عمن سواه.

١٥- سكان غرناطة رعايا لملوك الأندلس، يبقى معهم سلاحهم وخيولهم، ولا يسلمون شيئاً إلا المدافع للدولة الإسبانية.

وكثير من الشروط هذه أهمها فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين.

وقد ذيلت المعاهدة بأن ملكي قشتالة يؤكدان ويتعهدان بشرفهما الملكي القيام بكل العهود والوفاء بها، ويحترمان نصوص المعاهدة، وقد وقعا ذلك وختما بختميهما الملكيين.



النصارى يحتلون غرناطة

وتسلم الملكان مدينة الحمراء بصفة رسمية، وأقيم القداس النصراني في الجامع الأعظم الذي حول منذ ذلك اليوم إلى كنيسة.

تشير الرسمة إلى انحناء الملك الصغير أمام فردنياند الخامس ليقبل يديه على أن يطلقوا سراحه (فما أقرب اليوم بالأمس)

ابكِ كالنساء

وانسحب الملك الصغير، وغادر قصره ومجد آبائه في مناظر تثير الشجون، ومرَّ في طريقه على تل يدعى "تل البندول" فوقف عليها يجيل بصره على مدينة غرناطة، فانهمر دمعه وأجهش بالبكاء، فصاحت به أمه عائشة: ابكِ.. ابكِ.. ابكِ.. أجل فلتبكِ كالنساء، ملكاً لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

زفرة العربي الأخيرة

ويطلق الإسبانيون على هذا التل اسم "زفرة العربي الأخيرة"، ثم سار الملك ومن معه إلى منطقة "أندرش" في جبال البشرات التي حددها الملك لإقامته، قبل ذلك التاريخ، وكان يمكنه غير ذلك، ولكنه كان صغير النفس قصير النظر.



صورة احترافية لساحة الأسود داخل قصر الزهراء لا تحتاج إلى تعليق

سقطت غرناطة الرائعة

وسقطت غرناطة..

أجمل مدينة في العالم حينذاك بشوارعها وميادينها ومرافقها.

كان يسكنها مليون إنسان في تلك الفترة، لكنها لم تجد حاكماً قوياً يحميها!

مدينة العلم والتأليف، مدينة ابن البيطار وابن الرومية، وابن الخطيب، وغيرهم..

مدينة الاختراعات حيث المدافع التي ترمي النيران "الأنفاط" والبارود.

مدينة الصناعات والفن، الأنسجة، الفخار المذهب، الصباغات، الجلود والحلي، والورق.

مدينة العمران، مدينة قصر الحمراء والنقوش والزخارف والبناء العربي الأصيل.

آخر مدينة للمسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وثيـــقـــة نادرة للصلح المشـؤوم؛ معاهدة الصلح في غـرناطة والتي وقعها فيـرناندو وايـزابيـــــلا (محـفـوظة في مـدريد) والملك الصـــغـــيـــر (عبدالله) حيث تولى الوزير أبو القاسم عبد الملك إتمام الإجراءات والتـوقـيع، الذي تم فعلاً في الثاني مـن ربـيـع الأول عـام ٨٩٧هـ الموافق للثاني من كـانون الثـــاني لعـــام ١٤٩٢م، وفي هـذا التـــاريخ دخل فـــرديـنـانـد الخامس وايزابيلا قـصـر الحـمـراء الذي أعد لهما. (فما أشبه وثائق الإســتـــســلام (السـلام) اليـوم بهذه الوثيقة).



بالأمس كانوا هنا واليوم قد رحلوا



لماذا سقطت؟

سقطت غرناطة عندما:

- انشغل ولاة الأمر بالنزاعات الداخلية، وصارت شهوة الملك هي المسيطرة على نفوسهم وتسيّر قوتهم، ففتتت عضد المسلمين وأتعبت بأسهم.
- توحد الأعداء، وتمزق المسلمين إلى دويلات، وانشغل الملوك والشعب بالشهوات والدنيا والصراع على المناصب.
- سلمت الحصون للأعداء الواحدة تلو الأخرى، فكانت سبباً لضعف المسلمين وقوّت قوة النصارى.
- ظهر أمثال الزغل والملك أبي عبد الله على مقاليد الأمور، حكام خونة باعوا البلاد والعباد، وفضلوا محالفة الأعداء على نصرة المسلمين، وليس هذا تجنياً عليهم بل كانوا في الاختلاف الدائم والطمع في الحكم والتحاسد واللهو عن حماية أمتهم.

منظر لبقايا مدينة الحمراء



آثار ونتائج الاستسلام

ما هي آثار التسليم ومصير الشروط؟

وهكذا سقطت غرناطة واستسلمت، وظن أبو عبد الله أنه بتلك الاتفاقية قد حفظ للمسلمين حقوقهم، وأنه وصل إلى أحسن الشروط وأجودها للتسليم، ولم تكن في الواقع سوى ستار الغدر والخيانة، ولم يعطها الملك فرديناند إلا ليضمن ألا يخسر جنوده، ويقلل التضحية في قواته لما لاقى من قوة الدفاع والذود عن حمى الوطن من أمثال الأمير موسى وفرسانه.

تجديد العهد

ولهذا الأمر أعطى! وطلب الملك المخلوع بعد سنة أي في عام ٨٩٨هـ من ملكي قشتالة تجديد العهد، فأعطياه له، وأكدا على ولي العهد وسائر عظماء المملكة بالمحافظة على بنوده، وأقسما بدينهما وشرفهما الملكي على ذلك.



نهاية الملك الخائب

ثم أرسل الملك أبو عبد الله بعد عام إلى فرديناند يسأله الإذن بمغادرة الأندلس -أو أن الملك الإسباني أمره بذلك وهو الأرجح- فأذن له، وأعد له المراكب ولأهله ولكثير من المسلمين ممن أرادوا العبور معه، فعبرت به إلى "مليلة" في المغرب، ثم استقر به المقام في مدينة فاس، وتوفي عام ٩٢٤هـ، وزالت أمواله وضعفت أحواله، ولم يورث بعده شيئاً، فعاشوا على صدقة الأوقاف كما يعيش الفقراء والمساكين.



لازالت صور الفن الأندلسي في أسبانيا شاهدة حية تؤثر في الفن الإسباني



العلماء المهاجرون

كما غادر أرض الأندلس كثيرٌ من العلماء مهاجرين، فلم تعد أرضاً للإسلام، ولم يعد هناك أي أمان على النفس والدين والأهل والمال، ومن هؤلاء العلماء نذكر منهم على سبيل المثال:

١-ابن الخطيب: محمد بن عبد الله، ولد في لوشة ٧١٣هـ، درس الطب والفلسفة والشريعة والأدب، وبرز في النثر والنظم، استوزر لعدة سلاطين من بني الأحمر، ثم عبر إلى المغرب وعمل في الوزارة أيضاً وساءت أحواله، ومات في سجنه ٧٧٦هـ.

٢-ابن الأزرق: محمد بن علي، أصله من وادي آش، تولى قضاء الجماعة بغرناطة، ولما ساءت الأحوال نزل إلى الجزائر، ثم ارتحل إلى المشرق، توفي ٨٩٥هـ.

موت الملكة

ماتت إيزابيلا عام ٩١٠هـ.

طبيعة القصور الأندلسية تحتل المركز الأول في العصر الحاضر لحضارة الفن الإسلامي

الحدائق: هندسة معمارية
رائعة وساحرة كانت ملهمة
للشعراء وشاهداً على طول
مدة حكم المسلمين في
الأندلس واستقرارهم فيها



رابعاً نقض الميثاق

ما كان سقوط غرناطة محنة حقيقية، وإنما بدأت المحنة الحقيقية بعد السقوط، إذ بدأت مأساة الفناء! فناء العقيدة، لا فناء النفوس، فـ ﴿كل من عليها فان﴾ (الرحمن:٢٦).

بقي الملايين من المسلمين في أرض الأندلس وفي منطقة غرناطة وهاجر الكثيرون منهم، وكان ملك إسبانية قد حافظ على العهود فترة من الزمن -لغاية في نفسه- لكنه لما رأى أن الناس متمسكون بدورهم، متشبثون بعقيدتهم، وكان يود أن يخرجوا من الأندلس، أو أن يتنصروا، خان المواثيق والعهود، وأين العهد الذي قطعه؟ وأين الشرف الملكي؟ والعقيدة التي يحلف بها؟ فنقض الميثاق بنداً بنداً.



منع المساجد والصلاة

بدأ الضغط لإجبار من لم يهاجر على المغادرة أو أن يتنصر على الأقل، فقد أصدر فرديناند عام ٩٠٥هـ الموافق ١٤٩٩م خضوعاً لأوامر الكنيسة بياناً أمر فيه بإغلاق المساجد، وحظر إقامة شعائر المسلمين، بعد أن بذلت الكنيسة الكاثوليكية وسائل التأثير المادية أو أساليب الوعظ والإرشاد لتنصير المسلمين.

أعمدة ساحة الأسود البديعة وزخرفتها لقد صممت بطريقة لتعطي السحر والخيال



موت الطاغية

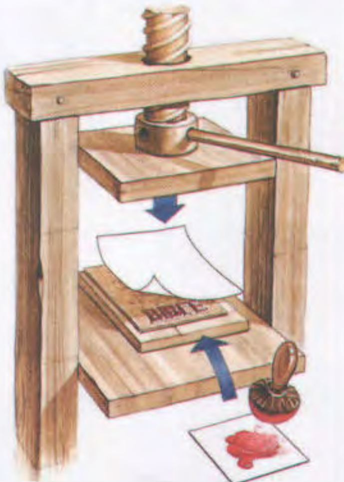
ومات الطاغية فرديناند في عام ٩٢٥هـ الموافق لسنة ١٥١٩م، وترك وصيته: يحث فيها على حماية الكثلكة والكنيسة، ويوصي المحققين لكي يعملوا في عدل وحزم لخدمة الله والدين الكاثوليكي، كما يجب أن يضطرموا حماسة لسحق طائفة محمد (ﷺ).

مجسم يمثل فرديناند وهو على سريره



تحريم العربية

وسلك خلفه مثله أو أشد، فقد صدر عام ٩٣٥هـ الموافق ١٥٢٩م قانون يحرِّم على المسلمين التكلم باللغة العربية في عهد شارلكان الامبراطور، ومن ينطق بها يقتل، فحرم المسلمون من قراءة القرآن الكريم، وحرموا من الصلة بالمسلمين في العالم.



طريقة الطباعة الأولى





حظر الاغتسال

وصدر بعد ذلك في عام ٩٧٤ هـ قانون عجيب، بل ربما كان أعجب قانون في التاريخ زمن فيليب الثاني مفاده: يحظر على المسلمين الاغتسال، فالنصارى لا يغتسلون ولا يهمهم ذلك، فلا يحبون إذاً للمسلمين أن يغتسلوا فليمنعوا ذلك، فهدمت الحمامات العامة في المدن، وهدمت حمامات غرناطة، ومن وجد أي أثر للاغتسال أمام باب بيته، أو في أي مكان آخر وشهد عليه قتل.

تعميد المسلمين بإدخالهم جبراً إلى النصرانية بعد سقوط غرناطة (إنها تعطي القارىء صورة مختلفة عما فعله المسلمين بالنصارى عندما دخلوا فاتحين)



منع الزي العربي

ثم أعقب ذلك القانون مرسوم بمنع اللباس العربي، ومن تزيا بزي إسلامي أو عربي قتل لمخالفته قانون البلاد الملكي.





رسم يظهر فيه محاربة النصارى للإسلام في النفوس والمظاهر بعد دخولهم الأندلس

النصارى في الأندلس يستقبلون شاكرين كريستوف كولومبوس وتظهر في الصورة مئذنة أشبيلية



مطبعة بدائية أحدثت ثورة علمية

محاكم التفتيش

ثم أنشئت هيئات كنسية وحكومية للكشف عن المسلمين الذين يبطنون الإسلام ويظهرون خلاف ذلك، وقد ملئت كتب التاريخ الإسلامي حتى الغربي منه بصور من التحقيق أو ما يسمى التحقيق القضائي للكشف عن الإنسان المسلم، وقتل منهم خلق كثير، تحت التعذيب أو في السجون باسم محاكم التفتيش، وكان يكفي لإدانة أي إنسان إذا شهد عليه واشٍ واحد فقط، وقد بلغت حصيلة القتلى في تلك المحاكم ما يقارب الثلاثة ملايين نسمة.



محاكم التفتيش في الأندلس حيث يكفي إثبات حيازة المصحف لإصدار حكم الإعدام



إحراق أحد المسلمين من الذين
بقوا في الأندلس وسموا ظلماً
بالمدجنين في محاكم
التفتيش لمجرد امتلاكه
نسخة من القرآن الكريم

خامساً نهاية المسلمين في الأندلس

عام ٩٧٥هـ
١٥٦٨م

ثورة جبال البشرات

ولما زاد القـتل والملاحـقـات ثار مـسلم يدعى فرج بن فـرج سنة ٩٧٥هـ ونادى بالدعـوة لرجل اسـمـه "فـرديناندو دي كـودوبا" -كـان من سـلالة بني أمـيـة واسـمه الحـقـيـقي مـحـمـد بن أمـيـة- لكنه أظهـر النصرانية، ولما سنحت له الفرصة قام بالثورة داعياً لبني أمية.

واحتشد المسلمون وتجمعوا حوله في الأماكن المستعصية من جبال البشرات -جبال الثلج- لذلك قام النصارى الإسبان بقتل كل قريب للثائرين، أو أي مسلم سكنه قريب من تلك الجبال محتجين بأنه يساند الثوار، وكان أخو الملك يقود حملة القضاء على المسلمين: يحرق القرى، ويحرق المزارع، ويذبح النساء والأولاد ليجبر المسلمين الثائرين على الاستسلام، ومع ذلك العنف وذاك الحقد اللامتناهي، والعملية الوحشية، دامت تلك الثورة عشرين عاماً، وما مرّ في التاريخ مثل ثورتهم.



تفـوق النصـارى على المسلمين في أواخر القرن الخامس عشر

إخماد الثورة

وبلغ عدد المسلمين الذين قتلوا في تلك الثورة عشرين ألفاً أو يزيد، وخمدت الثورة بمنتهى العنف والوحشية، والفتك بالنساء والأطفال، وبنفي كثير منهم إلى أماكن متفرقة من الأندلس، حيث شردوا وسيقوا إلى الكنائس أكداساً لينصروهم، وازدادت محاكم التفتيش تبحث في خفايا النفوس عن مسلم أو شبه مسلم أو أية صلة واهية بدين الإسلام لتفنيه.

محاكم التفتيش سبة على جبين التاريخ، سُبة في حقوق الإنسان على مدى الزمان، هذا التعصب الكاثوليكي الذي ترتب عليه حرق المصاحف والكتب الإسلامية الأخرى لمسلمي غرناطة، لكي يتوصل بذلك إلى تنصيرهم، وقد شهد بذلك مؤرخو الغرب.

كان الحرق والقتل والسجن والطرد، وسيلة تلك المحاكم وقانونها لتخرج الناس من عقيدتهم، ومع ذلك ظل الوجود المختفي، ظل الإيمان المكتوم في صدور المسلمين لا يبيحونه لأحد لأن أي دلالة عليه مصيره الموت، وما أسهله! حين يلقى في العذاب الذي لا تحتمله الجبال الرواسي.

مالقة، القصبة، تتمدد القلعة على جانب هضبة تعلو نحو الشرق





شعار بني الأحمر في إحدى القاعات



العفو عن المختفين

لذلك أصدر القائمون على مملكة إسبانية أمراً في عام ١٠١٩هـ يشمل المسلمين المختفين بالعفو العام بشرط أن يخرجوا من الأندلس ومن غرناطة، ولما رأى المسلمون صدق ذلك وأن القانون جادٌ في ذلك، ظهروا وكانت فرصة لهم، فقد سهل لهم أولو الأمر في غرناطة العبور إلى المغرب، وفعلاً عبر مضيق جبل طارق نصف مليون إنسان مسلم، وكان مجموع الذين هاجروا -أخرجوا- من ديارهم ثلاثة ملايين ونصف منذ سقوط غرناطة، هجرة نادرة في التاريخ، وأمر عجيب أن يُخرج شعب من أجل دينه ومعتقده من أرضه وداره.

وما حدث مع سكان غرناطة يحدث اليوم مع سكان فلسطين فأين ضمير العالم؟ أم أنه يموت حين يتعلق الأمر بالمسلمين؟



منظمات إسلامية سرية

ومع ذلك دامت محاكم التفتيش تبحث بشتى الوسائل لكشف من بقي محتفظاً بدينه أو عاداته، وقد عثرت على مجموعات إسلاميين -منظمة سرية- ما بين عامي ١٦٣٥م -١٦٣٨م، كما اكتشفت منظمة إسلامية عدد أعضائها ثمانية وعشرون شخصاً حوكموا في العاشر من تشرين الأول عام ١٧٢٧م وصودرت أملاكهم.



آخر وجود إسلامي

وتجدر الإشارة هنا إلى أن آخر إشارة إلى منظمة إسلامية ووجود مسلمين متخفين كان في تقرير قدم إلى كارلوس الثالث عام ١١٨٣هـ.

أعلى بناء في الحمراء في أحد القصور



ملخص أحداث سقوط مملكة غرناطة

-	الأمير موسى يعلن الجهاد.
-	الزغل (عم الملك الصغير) يخون ويقف مع فرديناند.
٨٩٦هـ	رحيل الزغل عن الأندلس إلى فاس لكن ملكها يأمر بسجنه.
٨٩٦هـ	القشتاليون يحاصرون غرناطة.
٨٩٧هـ	مفاوضات بين الملك الصغير وفرديناند تفضي إلى تسليم غرناطة!!
٩٠٥هـ	فرديناند ينقض العهود ويغلق المساجد.
٩١٠هـ	موت إيزابيلا.
٩٢٤هـ	وفاة الملك الصغير (أبي عبد الله) في فاس.
٩٢٥هـ	موت الطاغية فرديناند.
٩٣٥هـ	صدور قانون يجرم التكلم باللغة العربية.
-	منع الزي العربي وظهور محاكم التفتيش.
١٥٦٨هـ	ثورة جبال البشرات والتي تم إخمادها من قبل النصارى بوحشية.
١٦١٠هـ	ظهور عفو عن المسلمين المتخفين شرط أن يرحلوا عن الأندلس.



انتشرت صور الإستسلام والتخاذل في الأندلس

سقوط غرناطة ... حقائق وعبر



بالأمس كان فيها المسلمون

نهاية مأساوية لأجمل قصص التاريخ وأروعها،،،،
قصة الفتح والنور والعدل والحضارة ،،،
قصة لم تكن من نسج الخيال ولا من أوهام المؤرخين بل كانت أحداثها تشع بنور الإسلام ،،،
قصة كان أبطالها ملائكة كالرجال أو رجال كالملائكة ،،،
بدأت بالنور والهداية وانتهت بالتفرق والخيانة

ثم انقضت تلك السنون وأهلها

فكأنها وكأنهم أحلام

ولو جاز لأحد أن يحاسب المسلمين على ما ضيعوا في تاريخهم لجاز له ذلك في موطنين:

تضييعهم لفلسطين - وما زال فيها من يناضل عنها - وتضييعهم للأندلس - وقد ولى عزها من غير أن يجد من يبكي عليه - .

لم يبق للمسلمين في الأندلس غير غرناطة بعد أن وصلت فتوحاتهم قريباً من باريس.

ثم سقطت غرناطة، وكان لا بد أن تسقط فهذا الجزاء المنطقي لما قدمه أمراؤها.

سقطت غرناطة بعد أن تغيرت النفوس وتفرقت القلوب وذهبت هيبة الدين.   نهدئ أنفسنا فنقول :

هي الحياة كما شاهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان

لكنها ماسقطت إلا بتقصير المسلمين وتخاذلهم وابتعادهم عن دينهم، ونحن أمة إنما يبنى عزنا بالإسلام فإن ابتعدنا عنه تلاشي عزنا ومجدنا وخبت ذكرنا.

ولابد لنا من وقفات قصيرة مع بعض الأحداث:

- مهما عمت الظلمة والفساد فإننا لا نعدم نجوماً تضئ لنا الدرب وتبعث الأمل بأن في هذه الأمة من لايزال يرفع الراية، فهذا الأمير موسى صاحب الأنفة والعزة لم يرض بما أقره قومه من الاستسلام، وظل ينادي بالجهاد إلى آخر لحظة ويحث المسلمين عل مقاومة عدوهم، ولما رضخ الجميع لأسلم الحلول لم يرض بالذل والهوان وخرج يقاتل وحده، ولم يكن يطمع أن يعيد الأندلس وهو فارس وحيد بل كان يريد أن يحفظ ما تبقى من كرامة الأمة وكرامة نفسه، فإن كان طريق الكرامة الموت فمرحباً به وسحقاً للحياة إن كان معها الذل والهوان

وإذا الهوان دهى الحياة فموت من   أنف المقام على الهوان حياته



• أي كره يضمره أعداء الإسلام للإسلام ؟ وأي وحشية يتعاملون بها مع أهله ؟ إن المسلمين حينما فتحوا الأندلس أمنوا أهلها على أنفسهم وأموالهم وحفظوا لهم جميع عهودهم ومواثيقهم حتى عندما كانوا قادرين على البطش والانتقام، لكن هل نفعهم ذلك حينما تملك أعداؤهم زمام الأمور ؟

عندما تقطع أوصال الرجال وتسبى النساء بالآلاف وتهتك أعراضهم أمام محارمهم وذويهم على يد أولئك البهائم والوحوش تختنق العبرة ويتقطع القلب وتهرب الكلمات، هذا ونحن نقرأ فكيف بمن شهد المأساة وعاصرها ؟

كأني بهم يطلبون الموت فلا يجدونه

يا هول ذلك من مرأى شهدت وقد ودِدت لوكنت أعمى لا أشاهده

وما حل بالأندلس بالأمس يحل اليوم بفلسطين، ويتكرر في بلاد إسلامية أخرى، والمسلمون غافلون لاهون فتدمر المنازل وتنتهك الحرمات والأعراض، وتجرد المسلمات من حجابهن قهراً ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبعد كل هذا نتهم نحن بالإرهاب

تلك الفصائل من أدمى أناملها؟

من راع آمنها في الحندس الداجي؟

من فض برقعها؟ من حل مئزرها؟

من ساقها حاسرات بين أفواج؟



ومن ثم غدت يحرسها النصارى

• من يثق بأعدائه ويوكل أموره إليهم فلابد أن تكون نهايته كنهاية المسلمين في الأندلس، وهذه عبرة لنا اليوم أن لا نتبع الغرب في كل شئ ونعطيهم زمام الأمور ونمشي وراءهم على عمى ومن غير هدى، وكأننا أمة عاجزة لا تقدر على شئ، وفينا المفكرون والعلماء وعندنا الثروات والطبيعة، فهل من المنطق أن يستفيدوا منها هم ونعيش نحن على فتاتها ؟ هل من المنطق أن يستوردوا نفطنا خاماً فيصنعوا منه كل شيء ليعودوا ويبيعوه لنا بأضعاف مضاعفة ؟ هل من المنطق أن يشتروا منا الحبوب والزروع بأسعار زهيدة فيصنعوا منها المعلبات والوجبات ثم تباع لنا بأضعاف ما اشتروه ؟

إن عز هذه الأمة لن يقوم إلا حينما نعتمد على أنفسنا ونستفيد من ثرواتنا، ونترك تبعيتنا للآخرين، ونأخذ العبر من تاريخنا، ونجعل شريعتنا تقودنا في جميع أمورنا.

اللهم اكتب لنا عزاً عاجلاً ونصراً قريباً تعود معه كلمتك هي العليا وترفع به جندك، وأحي في قلوبنا ما مات من الاعتزاز بدينك، واغفر لنا ما فات من التضييع والتقصير اللهم آمين آمين.

أهم المعارك والأحداث

فرنسا
أردونة
قرقشونة
جبال البرانس
شنتياجو
طرف جليقية
خيخون
صخرة بلاي
ليون
جبال قنتبريه
رنسسفال
نافار
أرغون
قطالونية
جيرونه
برشلونة
طركرنه
نهر مينة
أشترقة
ليون
جليقية
قشتالة
بلد الوليد
كوره
نهر دويره
سرقسطة
سرقسطة
نهر ابره
وادي رامه
وادي الحجارة
جبال الشارات
مدريد
نهر تاجة
طلبيرة
طليطلة
طليطلة
نهر شقورة
بلنسية
قطلونة
بلنسية
جزائر البليار
ميورقة
يابسة
دانية
لشبونة
الغرب
بطليوس
ماردة
نهر الوادي الكبير
باجة
لفنت
جبال قرطبة
قرطبة
شاطبة
دانية
نهر سرقسطة
اريوله
٦٧٤هـ
جيان
مرسية
مرسية
جبال الثلج
غرناطة
نهر الوادي
لبله
أشبيلية
قرمونه
٦٧٤هـ
إستجه
الغزوة الدنونية
غرناطة
قرطجنة
البحر الأبيض المتوسط
وليه
أشبيلية
المرية
شدونه
مالقة
٨٩٣هـ
طريف
جبل طارق
سبتة
المغرب

حدود المعارك والأحداث
لون مسمى
منطقة النفوذ
نهر
مدينة
جبال

0 100 km

تلك كانت محاكم التفتيش التي سودت بقضائها المروّع صحف التاريخ الإسباني زهاء ثلاثة قرون بالطغيان الأعمى والتعصب الأصم ضد من أحسنوا إلى العالمين ومنهم النصارى في الأندلس، فلم يحول المسلمون نصرانياً واحداً بالإجبار والإكراه عن دينه، ولا منعوا واحداً من ممارسة شعائر دينه، ولم يحرقوا كنيسة واحدة، ولم يمزقوا إنجيلاً واحداً، كان الجميع يتمتعون بمحاكمهم في زواجهم ومعاملاتهم، بل كانوا يظهرون صلبانهم وخنازيرهم.

كيف عاملونا؟ وكيف عاملناهم.

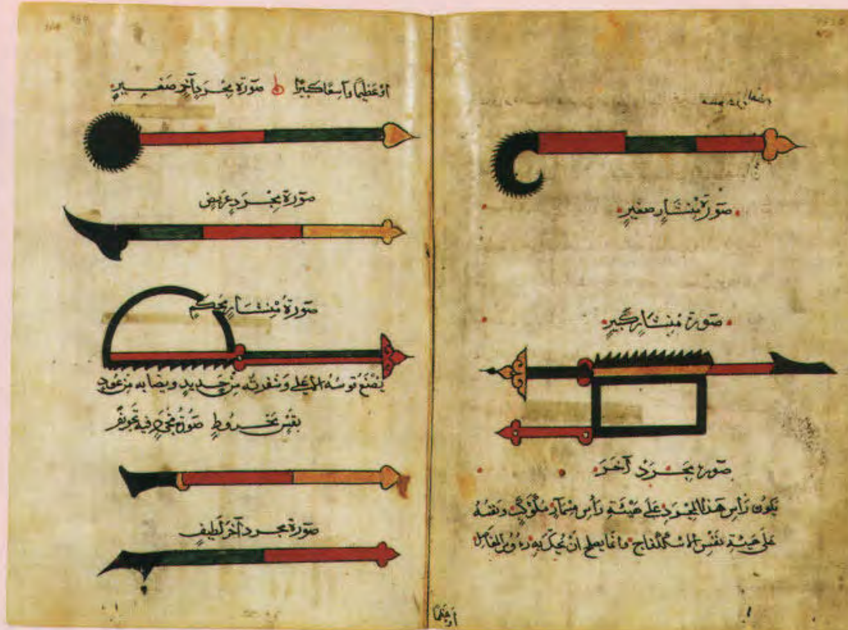
والتاريخ يعيد نفسه، يقول الشاعر:

أهدت الشامُ إلى الغرب نبياً ... هو عفٌّ ومُواسٍ وصبور

ومن الغرب إلى الشام هدايا ... من نساء وقمار وخمور

وما قاله الجنرال ألنبي حين دخل القدس! وما عمله الجنرال غورو الفرنساوي لما دخل دمشق، أيُنسى؟

ما كان سقوط الأندلس، أو غروبها، أو ضياعها حدثاً سياسياً أو فتحاً عسكرياً، وإنما كان حدثاً حضارياً، فمن الأندلس أخذت أوربة العلم، ومنها عرفت الحضارة، فقد كان أهل أوروبة يتفاخرون بإرسال أحدهم ابنه إلى مدارس قرطبة، غرناطة، إشبيلية، لقد بدأت صحوتهم من تلك المدن ومما نهلوا من جامعاتها.



مخطوطة المعالجة الجراحية للزهراوي

لما تمسك المسلمون بدينهم قدموا الحضارة إلى العالم، حتى إن الحضارة المادية الآن في أوربا وغيرها إنما كان أصلها من الأندلس، وقد ذكرنا لمحة عن إنتاج المسلمين المادي والثقافي والحضاري في الأندلس عبر الصفحات التي مضت، فشتان بين حضارة قامت على نشر النور وحضارة قامت على القمع والإحراق والإبادة.

كيف انتصروا علينا؟
وكيف غُلبنا نحن؟

انطلقت شرارة الحرب الصليبية من أرض الأندلس، وبدأ بذلك الصراع المرير، وزادت مسارح الأعمال القتالية في البر والبحر، إلى أن كان سقوط غرناطة إيذاناً بانتقال الصراع من الأندلس إلى المغرب الإسلامي، وفي حملات صليبية إلى الشرق.

فهي حروب صليبية لم يتورعوا عن التصريح بها وقد بين القرآن الكريم حقيقة عداوتهم التي تنفث سمومها إلى المسلمين وبلاد المسلمين.

فهذا كريستوفر كولمبس مكتشف أمريكة -على ما يدّعون- قد حث الملكين الإسبانيين فرديناند وإيزابيلا على الاستيلاء على القدس الشريف والثأر لهزيمة الصليبين بعد استيلائهما على غرناطة.

وقد ظلت فكرة الاستيلاء على القدس منذ أن دحر الفرنجة عن هذه المدينة المشرفة متيقظة لدى الكنيسة الكاثوليكية التي تحملها نيابة عن بقية الكنائس ظاهراً، حتى إنه -أي كولمبس- على الرغم من ظنه أنه وصل إلى جزر الهند الغربية، لم ينس أن يكتب خطاباً إلى الملكين السابقين يطالبهما فيه بشنّ حملة صليبية من أجل الاستيلاء على القدس سنة ١٥٠١، وقد نشرت مجلة العربي الكويتية عدد ٥٣٢ ذي الحجة ١٤٢٣هـ/ آذار ٢٠٠٣ نص الرسالة مترجمة بالعربية لأول مرة.

يقول بالحرف الواحد: فيجب علينا أن نؤمن بأن أمر القيام بحملة صليبية لاستعادة مدينة القدس لهو أمر سوف يتحقق بالفعل، وبعد غرناطة... جاء دور القدس.

وفي سنة ١٥١٩ وصل ماجلان إلى الفليبين، ثم اقتحم ومن معه الجزر وأرهبوا سكانها المسلمين، ونشروا الخراب والقتل أينما بلغوا، وهل هم إلا أحفاد أولئك الذين فعلوا بالمسلمين ما فعلوا من حملات إبادة وحملات تنصير؟!

ويطوى شيء من التاريخ، وكانت الحرب العالمية الأولى، ويدخل الجنرال ألّنبي -الصليبي- القدس، ثم يرمي



رسم تفصيلي لطريقة تصميم للحمامات داخل أحد القصور الأندلسية

بنظرة صلف إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ونظرة زهو وودَ إلى كنيسة القيامة، ليقول: اليوم انتهت حقاً الحروب الصليبية.

ويتنفس الصعداء أو يتنفس الخيلاء.

ويأتي غورو بسلوكه عن غدر فاضح وشماتة دنيئة في مقام يعف فيه أي إنسان حرٌ عن التشفي، إذ لا شماتة في الموت، ولكنه الحقد الكامن في النفوس الجاهلية، إذ تبقى حزازات النفوس كما هي، ليقول: ها قد عدنا يا صلاح الدين.

ففاح من كلامه ومن كلام سابقه ألّنبي رائحة الدم الذي كان بلونه القاني على صدورهم وصدور فرسانهم وأسلحتهم وشاراتهم ورموزهم، ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ كما قال ربنا، فما التشفي ببالغ حداً في نفوسهم.

وجاءت الحرب العالمية الثانية، وتمكن اليهود بمعاونة بريطانية على الاشتراك فيها في الشرق فقط بفيلق يهودي لتمكين السيطرة على فلسطين، وأنشؤوا مملكة إسرائيل.

ثم ابتهجت كل الملل والنحل ما عدا المسلمين بأيام النكسة، أو النكبة، أو المحنة، وأسماء شتى لحقت بالمسلمين يوم تكاتفت الصهيونية والصليبية عام ١٩٦٧ .

ويرجى الاطلاع إلى أي تفسير موسع في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة:١٢٠). يقول الرسول : في مسند الإمام أحمد: «مثل أمتي كالمطر لا يُعلم أولُه خيرٌ أم آخره».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



مازالت معالم الحضارة الإسلامية في الأندلس شامخة تناديكم أمة الإسلام

وجدير أن أنهي هذا الكتاب بذكر قصيدة تعد من أروع المراثي، حيث يبكي الشاعر أبو الطيب صالح بن شريف الرندي قواعد الأندلس التي سقطت تباعاً، ويحث الحمية في نفوس المسلمين لإنجاد الأندلس، ويستنهض الهمم لعلّها يوماً تعيد لنا ما قد ضاع! وإن كان بعض أبياتها قد ذكرت من قبلُ.

لكل شيءٍ إذا ما تمّ نقصانُ ... فلا يُغر بطيب العيش إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتُها دولٌ ... من سرّه زمن ساءته أزمانُ

وهذه الدارُ لا تُبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شانُ

يمزق الدهر حتماً كلَّ سابغة ... إذا نبتْ مشرفيات وخُرصانُ[1]

أين الملوك ذوو التيجان من يَمن ... وأين منهم أكاليل وتيجانُ؟

وأين ما شاده شدادُ من إرم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ؟

وأين ما حازه قارونُ من ذهب ... وأين عاد وشدادٌ وقحطانُ؟

أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَّ له ... حتى قضَوا فكأن القوم ما كانوا!

وصار ما كان من مُلك ولا مَلك ... كما حكى عن خيال الطّيف وسنانُ[2]

دار الزمان على "دارا" وقاتله ... أمّا لكسرى فما آواه إيوانُ[3]

كأنما الصعب لم يسهلْ له سبب ... يوماً ولا ملك الدنيا سليمانُ

فجائعُ الدهر أنواع منوّعة ... وللزمان مسرات وأحزانُ

وللحوادث سُلوان يُسهلها ... وما لما حلَّ بالإسلام سلوانُ!

دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له ... هوى له "أُحُدٌ" وانهدّ "ثهلانُ"![4]

أصابها العينُ في الإسلام فارتزأتْ ... حتى خلت منه أقطار وبلدانُ

فاسأل بلَنسية ما شأن مُرسية ... وأين شاطبة أم أين جيّانُ؟

وأين قرطبةٌ دار العلوم؟ فكم ... من عالم قد سما فيها له شانُ!

وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَه ... ونهرها العذبُ فيّاض وملآنُ[5]

قواعدُ كنّ أركان البلاد، فما ... عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ!

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هَيْمانُ

على ديارٍ من الإسلام خالية ... قد أقفرتْ، ولها بالكفر عُمرانُ

(١) المشرفية: السيف المنسوب إلى قرى الشام، الخرص: الرمح.

(٢) الطيف: ما يلم على الإنسان من خيال، وسنان: كثير النعاس.

(٣) دارا (داريوس): ملك الفرس حوالي ٢٥٠ق.م، وقاتله: الاسكندر المقدوني.

(٤) أحد وثهلان جبلان في جزيرة العرب.

(٥) حمص: تطلق على إشبيلية لأن جند حمص الشام نزلوا بها.

حيث المساجدُ قد صارت كنائسَ ما — فيهنّ إلا نواقيسٌ وصلبانُ
حتى المحاريبُ تبكي وهْيَ جامدة — حتى المنابرُ ترثي، وهْي عيدانُ!
يا غافلاً! وله في الدهر موعظة — إن كنت في سِنةٍ فالدهرُ يقظانُ
وماشياً مرحاً يُلهيه موطنُه! — أبعدَ حمصٍ تغرُّ المرءَ أوطانُ؟
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدّمها! — وما لها مع طول الدهر نسيانُ!
يا راكبينَ عتاقَ الخيل ضامرةً — كأنّها في مجال السَّبق عقبانُ!
وحاملينَ سيوفَ الهند مرهفةً — كأنها في ظلام النّقع نيرانُ! [1]
وراتعينَ وراء البحر في دعةٍ — لهم بأوطانهم عزٌّ وسلطانُ! [2]
أعندكم نبأٌ من أهل أندلس؟ — فقد سرى بحديث القوم ركبانُ!
كم يستغيث بنا المستضعفون! وهُمُ — أسرى وقتلى! فما يهتزّ إنسانُ!
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكمُ؟ — وأنتمُ -يا عبادَ الله- إخوانُ!
ألا نفوسٌ أبيّاتٌ لها هممٌ؟ — وأين للخير أنصارٌ وأعوانُ؟ [3]
يا منْ لذلّة قومٍ بعدَ عزّهمُ! — أحالَ حالَهمُ جَوْرٌ وطغيانُ!
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهمْ — واليومَ هم في بلادِ الكفر عبدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهمْ — عليهمُ من ثياب الذلّ ألوانُ!
ولو رأيتَ بكاهمْ عند بيعهمُ — لهالَكَ الأمرُ واستهوتْكَ أحزانُ!
يا رُبَّ أمٍّ وطفلٍ حيلَ بينهما — كما تفرّقَ أرواحٌ وأبدانُ!
وطفلةٍ مثلَ حُسنِ الشمس إذْ طلعتْ — كأنّما هي ياقوتٌ ومرجانُ!
يقودُها العلْجُ للمكروه مكرَهةً — والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ! [4]
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ — إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ!

لعلّ تلك الحضارة التي شُيدت هنا وهناك، وتلك اللحظات الأليمة في تاريخنا تكون لنا عبراً وعظاتٍ توقظ العزائم فتسعى جاهدة ليعود لنا عزّ الإسلام، ونقود الدنيا، فقد:

ملكنا هذه الدنيا قرونا — وأخضعها جدود مسلمونا

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ (فاطر:١٧).

فهل لنا من أمثال موسى وطارق والغافقي والداخل والناصر والمنصور والأمير موسى والأبطال العظماء من الأندلس المفقود.

(١) النقع: غبار الحرب.
(٢) الدعة: الخفضُ والسعةُ في العيش.
(٣) استفهام بمعنى الحضّ مع الإنكار.
(٤) الرجل من كفار العجم (يطلق على الكافر مطلقاً)



المراجع

اسم الكتاب	المؤلف
القرآن الكريم	
جامع الأصول	ابن الأثير الجزري، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط
موسى بن نصير	بسام العسلي
عبد الرحمن الناصر	بسام العسلي
الحاجب المنصور	بسام العسلي
الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية	بسام العسلي
التاريخ الأندلسي	الدكتور عبد الرحمن علي الحجي
تاريخ آداب العرب	مصطفى صادق الرافعي
التفسير الإسلامي للتاريخ	الدكتور عماد الدين خليل
سير أعلام النبلاء	الحافظ الذهبي
الطريق إلى المدائن	أحمد عادل كمال
عصر المرابطين والموحدين	محمد عبد الله عنان
في ظلال القرآن	سيد قطب
القاموس المحيط	مجد الدين الفيروزأبادي
ماذا خسر العالم انحطاط المسلمين	أبو الحسن الندوي
نهاية الأندلس	محمد عبد الله عنان
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي	د. حسن إبراهيم حسن
تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا والجزائر	الأمير شكيب أرسلان
البداية والنهاية	الإمام ابن كثير
التاريخ الإسلامي	د. محمود شاكر
عقبة بن نافع الفهري	محمود شيث خطاب
سير أعلام النبلاء	الإمام شمس الدين الذهبي
تاريخ مسلمي الأندلس.. الموريسيكيون.. حياة ومأساة أقلية	الإسباني أنطونيو هورتز والفرنسي برنارد بنثنت
دولة بني العباس	شاكر مصطفى
عصر الدولتين الأموية والعباسية	د. علي الصلابي
الدولة العثمانية	د. علي الصلابي
دولة الموحدين	د. علي الصلابي
فقه التمكين عند دولة المرابطين	د. علي الصلابي
المسلمون المنصرون.. المورسكيون الأندلسيون	د. عبدالله محمد جمال الدين
الإسلام والعرب	روم لاندو

اسم الكتاب	المؤلف
أوربا العصور الوسطى	د. سعيد عبدالفتاح عاشور
منصور الأندلس	علي أدهم
خروج الأندلس من يد المسلمين	محمد المقري التلمساني
دروس في أسباب سقوط الأندلس	مجلة المعرفة (العدد ٦٨)
عباقرة العلم عند العرب	جوزيف عبود كبه
من روائع حضارتنا	د. مصطفى السباعي
Granada and the Alhambra	Bonechi
Seeing and Understanding Andalusia	Edilux
Architecture Maure en Audalousie	Taschen
Les Andalousies de Damas a Cordoue	Exposition presentee a I'Institut du monde arabe
Malaga and province yesterday and today	Ediciones Ilustres
Southern spain	Insight Guides
The Alhambra and Generalife in focus	Edilux
The story of Spain	Mark Williams
Andalusia	Bonechi
Spain	Eywitness Travel Guide DK
History Encyclopedia	Kingfisher
Focus on the Alhambra	Edilux
The Real Alcazar of Seville Visitors Guide	Ana Fidalgo
Alhambra	Michael Jacobs
Islam	Eywitness Book DK
The Oxford Illustrated History of the Crusades	Jonathan Riley - Smith
Victory - 100 Great Military Commanders	Nigel Cawthorne
The Moors - The Islamic west 7th - 15th Century AD	David Nicolle
Elcid and the Reconquista 1050 - 1492	Dr. John Esposito
The Oxford History Of Islam	Zafar Ausari and John Esposito
Muslims and the West, Encounter and Dialogue	Houghton Mifflin
History of the World	Richard Fletcher
Moorish Spain	





الخاتمة

كلما قادتني الذاكرة إلى تاريخ الأندلس، تردد في ذهني قول الشاعر الأندلسي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغرَّ بطيب العيش إنسان

ضاعت الأندلس.. (ولم تكن أرض الأندلس قبل ذاك أرض المسلمين)، ولكن ما يحزن القلب أن ترى المسلمين اليوم ضائعين في ديارهم، تائهين في تاريخهم، وحاضرهم، وربما مستقبلهم!

وما تزال ذكرياتك (أيتها الأندلس الحبيبة) تنعش القلب، وتروي الظمأ، ورياحين حدائقك الغنّاء تسلب العقول، وتذهب بالألباب، وبالرغم من أننا لم نعش تلك الأيام الرائعة للمسلمين، إلا أننا نشعر بالزمان قد تقارب، وكأننا كنا هناك قريباً، وكانت لنا القصور الشامخات، والأنهار الجاريات، والجبال والوديان، والهواء والماء..

وإن الماضي صفحة للحاضر، ومدرسة للمستقبل، فإني أهيب بأمة الإسلام اليوم أن تتعلم الدرس جيداً، وتذكي مستقبلها بعبق ماضيها، وتتجاوز أخطاءها وهفواتها، وتزيح عن صدرها صخور جمودها..

وإنا لنسأل الله سبحانه أن يعيد لنا بلادنا المغصوبة من فلسطين إلى سائر أراضي المسلمين التي سلبت منهم.

وإن الأمل كبير جداً، والرجاء بالله تعالى أعظم.. ولا نزال ندعو ونبتهل حتى يمنَّ الله تعالى علينا بالإجابة.. والله سميع، والله قدير.. وهو من وراء القصد.

د. طارق محمد السويدان

الكويت في: ٦ ربيع أول ١٤٢٦ هـ

الموافق: ١٥ إبريل / نيسان ٢٠٠٥م

التاريخ المصور والكامل للعهد الإسلامي في الأندلس






10 أسباب تدعوك لقراءة هذا الكتاب..




- مرجع هام وملخص تاريخي لأهم الأحداث في العهد الإسلامي الأندلسي بلا إخلال أو تطويل.
- تاريخ المسلمين في الأندلس بالصور والخرائط التوضيحية بأسلوب ممتع ومشوق.
- تسلسل تاريخي واضح منذ دخول الإسلام وحتى خروج المسلمين بتقسيم منطقي للمراحل.
- أكثر من ٨٠٠ صورة نادرة تجسد الكثير من الوقائع والأحداث والحضارة والعمارة الإسلامية.
- تخليد للحضارة العظيمة التي أسسها المسلمون في الأندلس بالصور الوثائقية.
- تلخيص العبر والدروس المستفادة من كل حقبة مما يميز الكتاب عن معظم الكتب الأخرى.
- الآراء الخاصة للمؤلف من خلال الحكم على الأحداث لكل فترة.
- أسباب التهاون والضعف الذي أصاب المسلمين وأخرجهم من الأندلس.
- تعريف بالشخصيات والدول والدويلات التي مرت على تاريخ الأندلس.
- ثلاث سنوات من الجهد ابتداءً بالتأليف وانتهاءً بالعمل الإخراجي الضخم.








متوفر بألبوم أشرطة صوتية



اقرأ للمؤلف أيضاً...
فلسطين ..
التاريخ المصور

سعر الكتاب

الكويت: 3.900 د.ك - السعودية: 49 ريال
(أو ما يعادلها بالعملات الخليجية)
بقية دول العالم 14 دولار أمريكي


ردمك 6-2-9584-9960